لويس الحاج

الجيش الفرنسي

دار المكشوف ، بيروت

لويس الحاج

الجيش الفرنسي

منشورات دار المكشوف

طبع من هذا الكتاب خمسة الاف نسخة على ورق اعتيادي ، وخمسون
نسخة على ورق جيد غير معروضة للبيع .

الطبعة الاولى ، ١٩٤٥

المقدمة

لم يحتل جيش في تاريخ امة المكانة التي احتلها ويحتلها الجيش الفرنسي في تاريخ الامة الفرنسية . فقد كانت المؤسسات العسكرية وما تزال دعامة الوطن الفرنسي وسياجه ، ساهمت في انشائه وحالت دائماً دون تصدعه تحت ضربات تنهال عليه من داخل او تسدد اليه من خارج .

بالجيش استطاعت الملكية الفرنسية ان تفرض نفسها وان تحقق الوحدة الوطنية في بلد ضم خليطاً من العناصر ، متعددة الميول والاهواء . ذلك بان اخوة السلاح اوجدت الذكريات المشتركة بين اقوام كانت الارض الواحدة قد شدتهم بعضهم الى بعض .

وبالجيش فرضت فرنسا الموحدة نفسها على اوروبا دولة عظمى . وبه حال فرنسوا الاول وهنري الرابع ولويس الثالث عشر و « الملك الشمس » دون سيطرة الامبراطورية الجرمانية على القارة وحفظوا لفرنسا حدودها الطبيعية .

ولولا الجيش لما آتت الثورة ثمارها . في « فالمي » انقذ جيش الشعب فرنسا الجديدة واستخلص حقوق الانسان . وما انفك مذ ذاك سياج الوطن وحارس السلم وحامي الحضارة . ذلك بان موقع فرنسا الجغرافي يحتم عليها التدخل في كل نزاع ينشب في القارة الاوروبية . وهي اذ تتدخل انما تنهد لاداء رسالة سامية : احقاق الحق ورفع المظالم . ومن هنا كانت تسميتها « جندي الحق والعدالة » ، ما يجعل لها هذا الاشعاع المعنوي في العالم .

من الخطأ الاعتقاد ان تنظيم الجيش الفرنسي وتطوره واتجاهه وليدة الصدف ، او انها عمل رجال لم يكونوا اكثر من آلات في يد القدر . فقد خضع تنظيمه وتطوره لقواعد وقوانين ما يزال اكثرها نافذاً . واجتاز منذ نشأته الى اليوم مراحل ذاق خلالها حلاوة الظفر في مئات المواقع وذاق مرارة الهزيمة في عشرات منها . فكان في كلا الحالين جديراً بتقاليده اميناً لرسالته . وهي تقاليد ورسالة قلما نجد مثلها في جيوش البلدان الاخرى .

ان لويس الحاج ، الذي سبق له ان نقل الى العربية « نحو الجيش المحترف » لمؤلفه الجنرال شارل ده غول ، والذي اتاحت له مطالعاته واشغاله القلمية مراقبة تطور المؤسسات العسكرية في

العالم عامة وفي فرنسا على الاخص ، يقدم الى قراء العربية تاريخ الجيش الفرنسي ، مدفوعاً بالرغبة المخلصة في تعريف هذه المؤسسة اليهم ، في الوقت الذي يجنح الشرق العربي الى انشاء القوى المسلحة ليجعل منها سياج الاستقلال ودعامة البنيان القومي .

ولا ريب عندي في ان المهمة التي اضطلع بها لويس الحاج تمد المكتبة العربية بكتاب نفيس وتضع في متناول محبي الاطلاع ، ولاسيما الذين يعنون بالشؤون العسكرية من الناطقين بالضاد ، سفراً يوفر عليهم تقليب بطون التواريخ لاستخلاص ما يتوقون الى معرفته من نشأة الجيش الفرنسي وتطوره خلال العصور .

الفريق **همبلو**

القائد الاعلى للقوات الفرنسية في الشرق

توطئة

يحلو للفرنسيين ان يصفوا انفسهم بانهم شعب عسكري وان يعترف لهم الناس بهذه الصفة . وهم بعملهم هذا لا يدّعون ميزة ليست لهم . « ففرنسا مدينة للسيف بوجودها واستمرارها . » امتشقت الحسام منذ نشأتها وما انفكت منذ ذاك تناضل في سبيل البقاء . لهذا كان تاريخ الجيش الفرنسي هو نفسه تاريخ الامة الفرنسية . « استطاعت فرنسا ان تتوحد وان تستقل بجهاد ابنائها ، ولم يذكر التاريخ ان فرنسياً واحداً وقف حسامه على خدمة دولة اجنبية لان الوطن كان دائماً في حاجة الى سواعد ابنائه جميعاً . »

تولت الطبيعة نفسها رسم الاطار الارضي للدولة الفرنسية . ونظمت بلاد الغول الرومانية نفسها ضمن هذا الاطار . وقيض لكلوفيس في وقت ما ان يجمع فيه العناصر التي تألفت منها الامة الفرنسية فيما بعد . وقد ناضلت هذه الامة دون هوادة لتحيا حياة حرة داخل حدود طبيعية ليست كلها واضحة وقوية : فقد كانت الحدود الشمالية الشرقية وما تزال تشكل نقطة الضعف في كيان فرنسا بل تشكل مأساة رائعة في تاريخها .

استطاع الفرنسيون ، بعد جهاد طويل وشاق ، تطهير المناطق التي استولى عليها الفاتحون والغزاة في الجنوب والشمال والشرق . ومذ ذاك قام بحر المانش وجبال الالب والجورا والبيرينه حدوداً طبيعية بين فرنسا واعداء الامس . وبقيت قيد التصفية الحدود الشمالية الشرقية وسيما اذا شئت مسألة الرين .

طرحت هذه المسألة في عهد الامبراطور «شارلمان . وعولجت في عهود فيليب الجميل وشارل السابع ولويس الرابع عشر . ولم تغفل شأنها الثورة والامبراطورية . وفي نزاع ١٩١٤ – ١٩١٨ اثيرت بشكل جدي ولكنها لم تحل ، مع الاسف ، في مصلحة السلامة الفرنسية . وهكذا ظلت فرنسا مكشوفة من الشمال الشرقي لان الرين ، غطاءها الطبيعي الوحيد من هذه الناحية ، ظل يجري في المانيا .

فما دامت فرنسا قائمة ومن حولها جيران اقوياء يطمعون بما تملك او يسعون الى ازالتها من الوجود ، ينبغي للامة الفرنسية ان تظل هي اياها : امة قوية متحلية بالفضائل العسكرية .

الفصل الاول

اقدم الجيوش الفرنسية

١ – الغوليون

في القرن التاسع قبل الميلاد عبر السلتيون نهر الرين ولكنهم لم يتوغلوا جنوباً الا في القرن السادس . وما ان تمت لهم الغلبة على قبائل الليغوريين حتى اجتاز الايبيريون (سكان اسبانيا والبورتغال) ممرات البيرينه واحتلوا سفوحها الشمالية . وهكذا اضحت بلاد الغول تضم خليطاً من الغزاة : السلتيون والايبيريون والليغوريون . ومن هذا الخليط تكونت امة ذات بأس ما عتمت ان اندفعت في مضمار الفتح .

كان الليغوريون سمر البشرة ، نحاف البنية ، لا يزيد طول الواحد منهم على باعين . واشتهروا بشدة البأس وبالصبر على المكاره . وبرعوا في الصيد والقنص . ولكنهم كانوا قليلي الميل الى الحرب ، لا يبرحون ارضهم في طلب الرزق ولا يسعون الى التوسع على حساب الجيران . وصفهم المؤرخون بانهم قبائل مسالمة تؤثر الارض والقنص على الغزو . وكان المقلاع سلاحهم الوحيد . لهذا لم يقووا على صد السلتيين .

كان هؤلاء عمالقة شعورهم شقراء وعيونهم زرقاء . اشتهروا بالنزوع الى السيطرة وتحلوا بشجاعة ليس بينها وبين التهور كبير فرق . وقد عبروا الرين

مسلحين بالمقاليع وبآلات قاطعة من البرونز . وما لبثوا ان سخروا الحديد لخدمة مارس (اله الحرب) فصنعوا منه السيوف الطويلة .

اما الايبريون فقد هبطوا بلاد الغول مجهزين بسيوف قصيرة ذات حدين وكانوا يغيرون افواجاً يتقدم كل فوج فارس اتصف بالشجاعة والاقدام .

كانت هذه الاقوام تتبع في الحقلين السياسي والعسكري نظام القبائل المعروف ، فتجتمع اسر معينة تحت سلطة رئيس ، يعاونه في مهمته مجلس القبيلة المؤلف من رؤساء الاسر ، وكان يتعين على كل رجل خال من العاهات ان يخرج الى الحرب اذا كانت القبيلة غازية ، اما اذا كانت هدفاً للغزو فالرجال والنساء يهبون لدفع الخطر دون ما استثناء .

وكان مجلس القبيلة يصرف شؤون الرعية وينظر في الظلامات ويفصل في المنازعات في اجتماعات خاصة تعقد برئاسة الزعيم او من يقوم مقامه .

فتوحات الغوليين . — في القرن الرابع قبل الميلاد تبرمت قبائل السلتيين بضيق المدى الحيوي في بلاد الغول ، وكان تكتلها قد جعل منها شبه امة ، فزادها هذا طموحاً الى السيطرة ورغبة في التوسع . فبدأت الغزوات الخارجية بسلوك وادي الرون والنفاذ الى ايطاليا . وقدر المؤرخون الجماعات التي نهدت لفتح الامصار بثلاثمئة الف رجل تتبعهم عيالهم . وقد صادفت الحملة مقاومة ضعيفة عند جبال « الابنان » لان روما استهانت بقوة هؤلاء البرابرة الذين « وضعوا حقهم على رؤوس الحراب » ولم تحاول وقفهم الا عندما شرعوا في زحفهم اليها تملأ جموعهم وجيادهم السهل والجبل . فنشبت بين الفريقين معركة حامية الوطيس عند ملتقى نهري تيبر وآليا (على بضعة اميال من روما) فهزم الغزاة اعداءهم بفضل مناورة بارعة لجأ اليها قائدهم برونوس ، واندفعوا شطر روما ودخلوها وهم مدهوشون لما احرزوا من نصر وما بلغوا

من سؤدد .

وافاقت روما على وقع حوافر الجياد وصليل السيوف ، افاقت من سباتها لتلقى الغزاة بعزيمة ماضية . وكان ان صمد الرومانيون في الكابيتول ذلك الصمود العجيب ، فآثر برونوس الانسحاب بعد ان اعياه النفاذ الى الكابيتول وهلك من جيشه خلق كثير بالطاعون والكوليرا وشتى الامراض والاوبئة ، وقد فرض على روما قبل انسحابه غرامة كبيرة فدفعتها صاغرة .

في هذه الاثناء كانت جحافل اخرى من السلتيين قد ظهرت في اوروبا الوسطى وسلكت طريق المشرق . بيد ان شهرة اسكندر المقدوني كبحت جماحهم فلم يتجاوزوا كورنثيا . وبعد مدة اجتاحوا البلقان واليونان وهموا بطروادة نفسها ولكنهم صرفوا النظر عنها في اللحظة الاخيرة ليعودوا ادراجهم يسوقون امامهم قوافل السبي وذهب البلقان .

وقد اشترك في هذه الغزوات ستة قادة غوليين . ويرد المؤرخون انتصاراتهم الى عوامل عدة منها تفوقهم العددي الساحق . فقد كان عدد سكان الغول في القرن الرابع قبل الميلاد يراوح بين ٢٠ و ٢٥ مليوناً . ومنها نظامهم العسكري الممتاز نسبياً . فقد كان المتخلفون عن القرعة العسكرية دون سبب مشروع يحرقون احياء بعد محاكمة علنية . وكان للجحافل قيادة عامة ولكل جحفل قائد خاص به . وقد امتاز الغوليون من اعدائهم بالشجاعة والاقدام ونكران الذات .

الجيش الغولي الاول . — اجتاح برونوس ايطاليا بجيش يضم ٢٢٠ الف مقاتل ، منهم عشرون الف فارس يؤلفون النخبة في الجيش الغولي . وقد ابرزت معركة نهر التيبر اهمية الخيالة في حرب الحركات ، فتعاظم شأنها منذ

ذاك وصار الانخراط فيها خاضعاً لشروط معينة ، كأن يكون الفارس من الخاصة او ممن برهنوا في القتال عن شجاعة نادرة .

وكان السيف الحديدي سلاح الغوليين المفضل . طوله متر وعرضه اربعة سنتيمترات . اما الرمح فقد كان استعماله شائعاً قبل الفتوحات الكبيرة ومثله القوس والنشاب . ذلك بان الغوليين ، في اندفاعهم وحماستهم ، تجاهلوا قواعد الهجوم المدرسية التي كانت وما زالت تقضي بنهك العدو والعمل على بعثرة صفوفه قبل السعي الى الالتحام واياه . وكانت الرماح والنبال تقوم بالمهمة الموكولة في ايامنا الى المدفعية والطيران .

كذلك كان الغوليون في اندفاعهم وحماستهم وفي اعتمادهم على قوتهم الجسدية ، يستهينون بالاسلحة الدفاعية استهانتهم بالخطر نفسه . كانت تروسهم رقيقة تغطي حامليها من قمة الرأس حتى اخمص القدمين . ولكنها كانت تعوق حركات المقاتل الراجل . اما الفارس فقد كان يجد غضاضة في حمل المجن ويبرز الى الميدان مكشوف الصدر والظهر .

ولم تكن دروع الغوليين وخوذهم احسن حالاً من التروس ، كانوا يصنعونها من البرونز ويحفرون عليها شارات ورموزاً وتعاويذ تومي الى القاء الرعب في قلب العدو .

التكتيك . — يذكر المؤرخ « تيت ليف » ان الغوليين كانوا يخرجون للقاء العدو جحافل متراصة ، سواء في ذلك الفرسان والمشاة . وكان هؤلاء يسيرون الكتف على الكتف فتؤلف تروسهم المتلاصقة قناعاً لا نهاية له . ولم يتخذ الغوليون وجهة عسكرية معينة اساساً لتنظيم الجيش ، بل كانت جحافلهم تؤلف في القتال وحدة كبرى تصعب قيادتها وتوجيهها .

ويقول المؤرخ « تيت ليف » ان الفرسان كانوا ينقضون على العدو

اولاً ، فاذا انفرط عقده قبل الصدام ، طاردته الخيالة واعملت فيه سيوفها . اما اذا صمد حيث هو فيدعى المشاة الى الالتحام واياه ، ويتفرغ الفرسان لضرب جناحيه . وقد استعانت الجحافل الغولية بالكلاب الضخمة على سحق مقاومة العدو . وهي كلاب روضت ودربت على القتال تدريباً خاصاً .

من تقاليد الحرب التي حملها السلتيون الى بلاد الغول الفتك بالعدو ولو القى السلاح . وكانت حجتهم ان اسرى الحرب يعوقون عمليات الفتح والغزو لان فرزهم وسوقهم الى المؤخرة وحراستهم تقتضي تجنيد عدد كبير من المقاتلين يعهد اليهم الرؤساء بهذه المهام . ومن تقاليد السلتيين ان يعود الفارس من الساحة وقد وضع في عنق فرسه عقداً من رؤوس الاعداء .

هذه التقاليد البربرية مضافة الى شجاعة الغوليين وتفوقهم العددي هي التي امنت لهم السيطرة على اوروبا رغم آلتهم الحربية الهزيلة . وبديهي ان تعجز هذه الآلة عن اثبات وجودها وان يمسي التفوق العددي عديم النفع والقيمة امام روما الواعية ، ذات الجيش المنظم والوسائل الهجومية المتفوقة والموارد التي لا تنضب .

شرعت روما تشحذ سلاحها وتتهيأ للاخذ بالثأر منذ ان بدأت جحافل السلتيين تجلو عن ايطاليا . الا ان جحافلها لم تطأ ارض الغول الا بعد مرور مئة وخمسين عاماً على انتهاء الفتوحات الغولية . وقد تعاظم شأن روما خلال هذه المدة بقدر ما تضاءل شأن الغوليين الذين ابطرهم الثراء فتعاموا عن مرأى الخطر ولم يعنوا بمؤسساتهم العسكرية فظلت هي اياها : جحافل اشبه ما تكون بقطعان الماشية ، وسلاح اضعف من ان تواجه به وسائل هجومية مستحدثة كالاسلحة الرومانية ..

لهذا لم يلق الرومانيون صعوبة في اخراج الغوليين من شمال ايطاليا وفي اخضاع القبائل الضاربة في سفوح جبال الالب . وقد سهل مهمة الغزاة الخلاف الذي ذر قرنه بين زعماء القبائل الغولية وحال دون قيام سكان الغول الجنوبية والوسطى لنجدة اخوانهم المهددين بالزحف الروماني .

وقبل ان تتوغل الكتائب الرومانية ما وراء الالب جاز هنيبعل بمرات هذه الجبال (سنة ٢١٨ قبل الميلاد) بجيش عرمرم يضم كتائب غولية وضعت نفسها في خدمة الفاتح القرطجني بعد ان اجلاها الرومانيون عن شمال ايطاليا وسفوح الالب .

هزم هنيبعل كتائب روما في معارك ثلاث اشهرها معركة « كان » ولكنه دفع ثمن انتصاراته غالياً ، وكان ثلثا القتلى في صفوف المنتصرين من المحاربين الغوليين لان الفاتح القرطجني كان يحتقرهم ويزج بهم حيث يكمن الخطر . اما الكتائب الاسبانية والقرطجنية فكان يعهد اليها بالمناورات ولا يدفع بها الى وسط الساحة الا عند الضرورة القصوى .

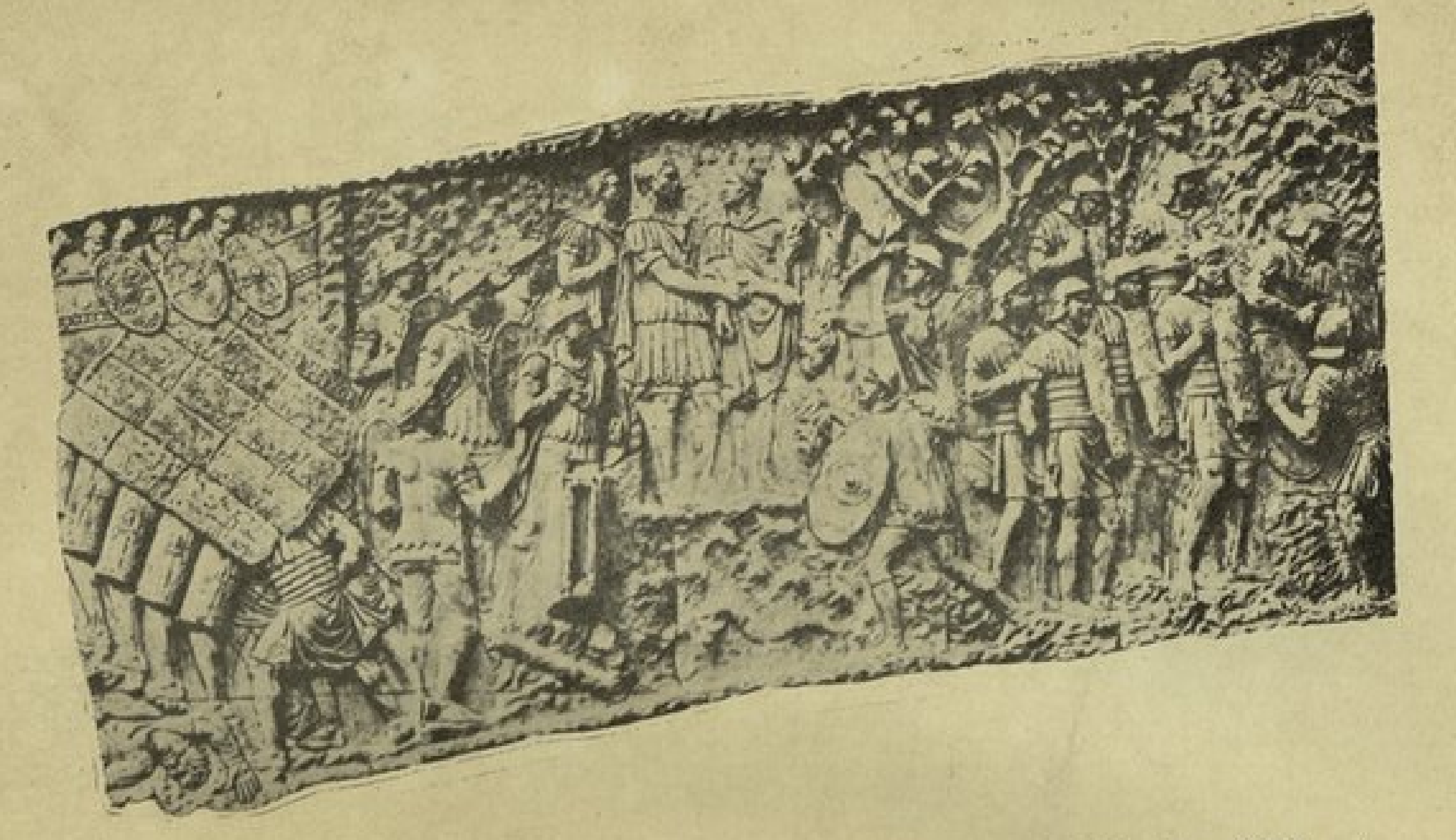
وقد حاول هنيبعل ، وحاول بعده اسدروبال واميلكار ، حمل الغوليين كافة على محاربة روما ، فلم تثمر هذه المحاولات . الا ان هذا الموقف لم يشفع ببلاد الغول لدى الرومانيين الذين احتلوا اسبانيا بعد ان تم لهم سحق قرطجنة ، ثم هرعوا الى نجدة مرسيليا التي اجتاحتها جحافل التوتون والقبائل السويسرية وتوغلت في وادي الرون وحوض الغارون . وقد تم للرومانيين سحق الغزاة بسرعة بفضل نظامهم العسكري الدقيق وقيام جيشهم على الفوج كوحدة اساسية .

كان المشاة العنصر الرئيسي في الجيوش الرومانية ، وكانت الكتيبة وحدة القتال ، وتحت لوائها انخرط الغوليون بعد ان قبض لروما اخضاعهم وضم بلادهم الى الامبراطورية .

ضمت الكتيبة الرومانية في اول عهدها ٤٥٠٠ مقاتل . وفي عهد يوليوس قيصر ارتفع هذا الرقم الى ستة آلاف موزعة على عشرة كراديس . وكان الشباب يقوم بحرب الطليعة ، سلاحه المزراق والرمح . ويتلوه الامراء ، سلاحهم السيف . اما الخط الثالث فكان يحتله المتقدمون في السن وهم محاربون قدماء مجربون ، ومن هؤلاء يتألف الاحتياط الذي لا يزج في المعمعة الا عند الضرورة القصوى .

وقد استعان الرومانيون بعناصر غريبة تتقن استعمال القوس والمنجنيق ، وبالفرسان من جرمانيين وغوليين ، لان الخيالة الرومانية لم تكن بذات قيمة . اما ابرز مزايا الكتيبة فكانت مرونتها وسرعة انتشارها واسلحتها المتنوعة التي منها السيف القصير والفأس والرمح والسهام والحجارة . وقد واجه الغوليون كتائب روما المنظمة بجحافل تسود صفوفها الفوضى ، اسلحتها قديمة ومثلها اساليبها في القتال . وكان سكان الجبال والاحراج اقوى المحاربين الغوليين شكيمة واصلبهم عوداً . اما ابناء المدن فقد قضت حياة الترف على فضائلهم الحربية وفي رأسها الشجاعة البالغة حد التهور ونكران الذات .

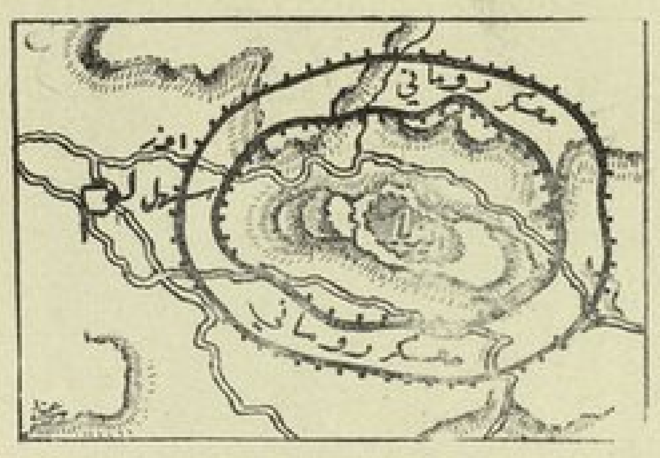
ولكن اذا كانت مؤسسات الغوليين العسكرية لم تتطور مع الزمن ، فقد طرأ على منشآتهم الدفاعية حول المحال الآهلة تغييرات جوهرية ، فاقاموا على انقاض المدن التي بناها اجدادهم فوق البحيرات وعلى ضفاف الانهر ، مدناً محصنة ذات ابواب ، تحوطها الاسوار والقلاع : اورليان وبورج واليزيا الخ . . . وكانت قيمتها الدفاعية في موقعها وفي السور الذي اقيم حولها . اما الموقع فكان في الغالب منحدراً او هضبة او ضفة مجرى ماء . ولم يكن ارتفاع السور ليزيد على خمسة امتار . اما سماكته فحدها الادنى اثنا عشر متراً .



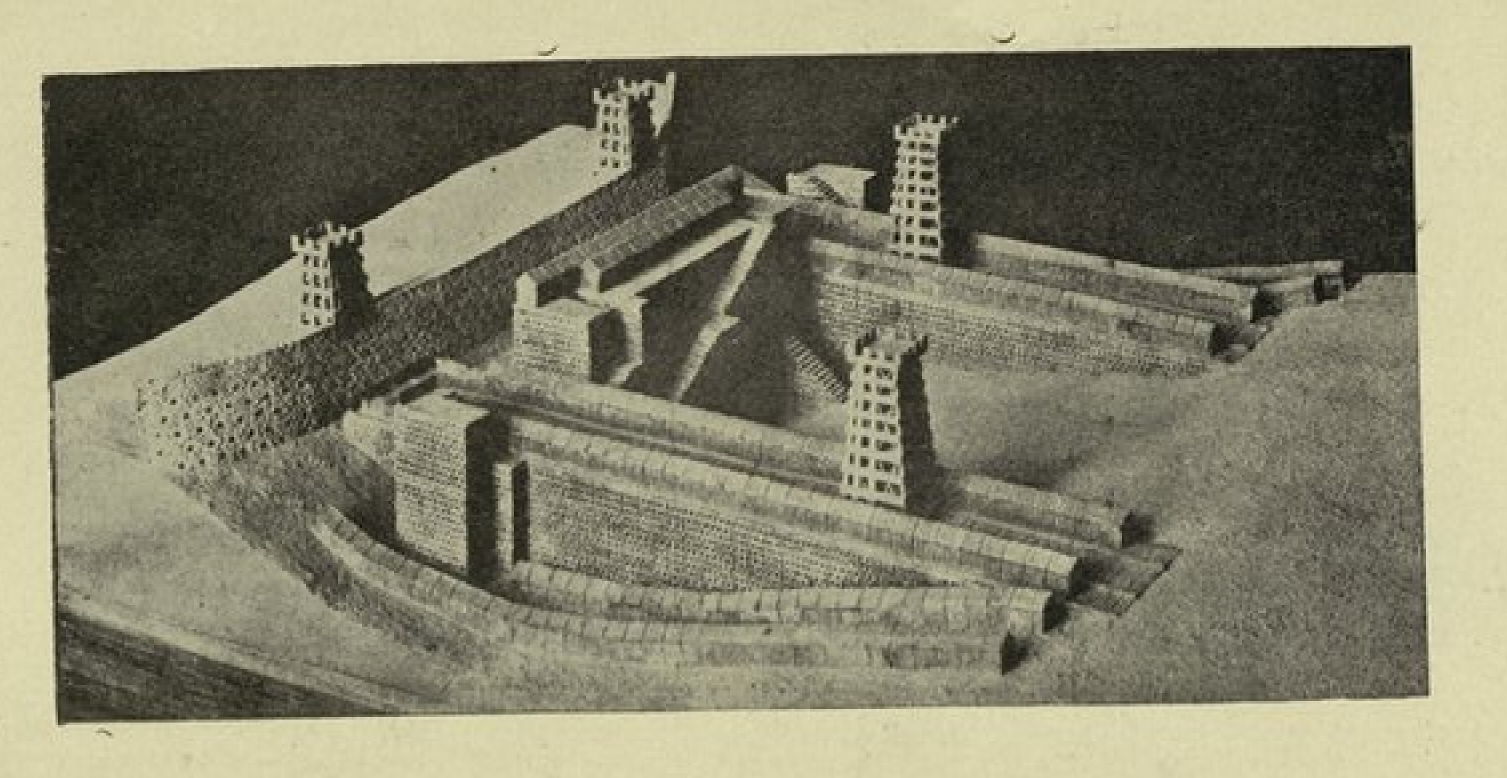
جنود الكتائب الرومانية ، بعضهم يسير والبعض الآخر يحمل الى قائدهم رؤوس جنود من الاعداء ، كما يمثلها حفر على عمود الامبراطور تراجان .



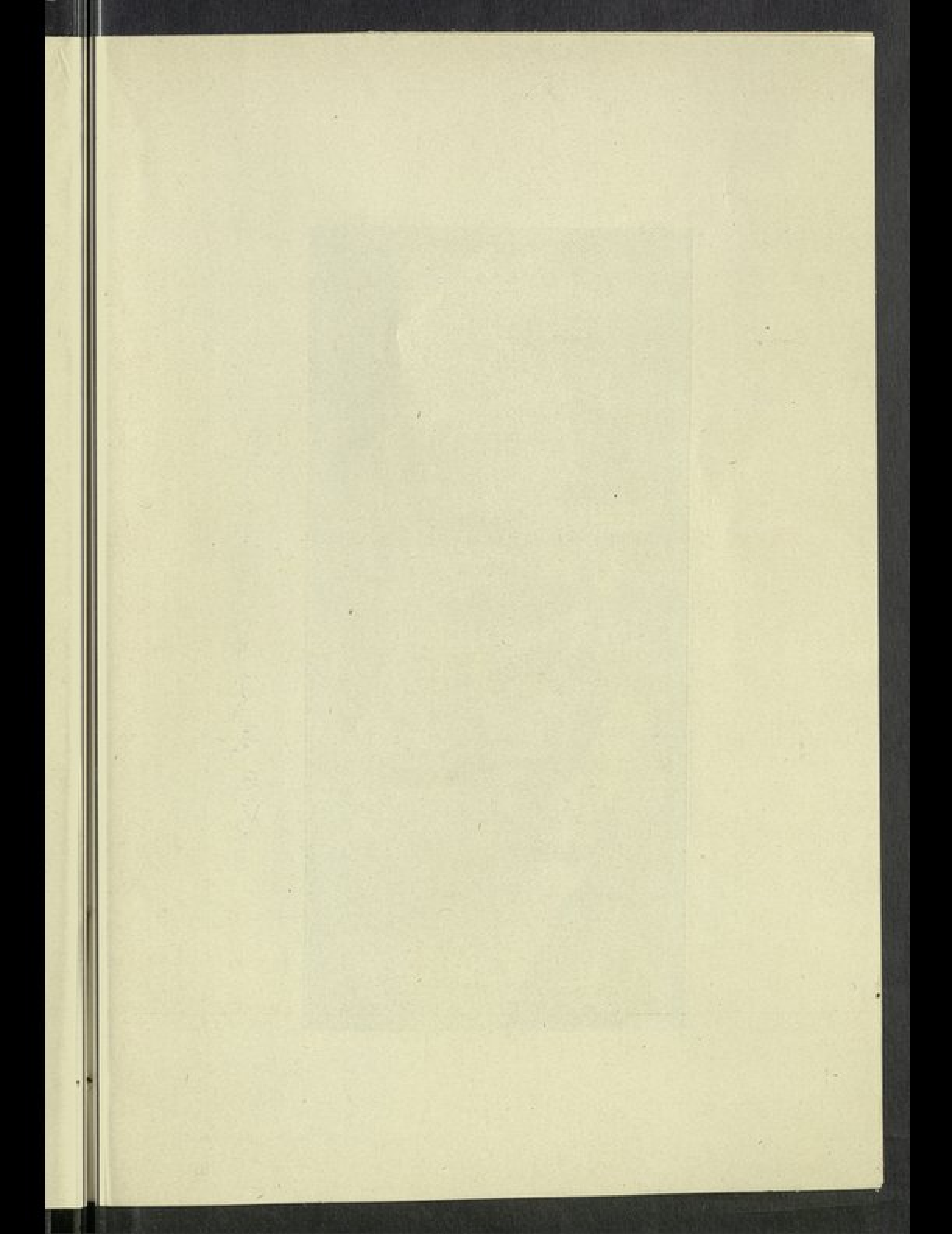
يوليوس قيصر

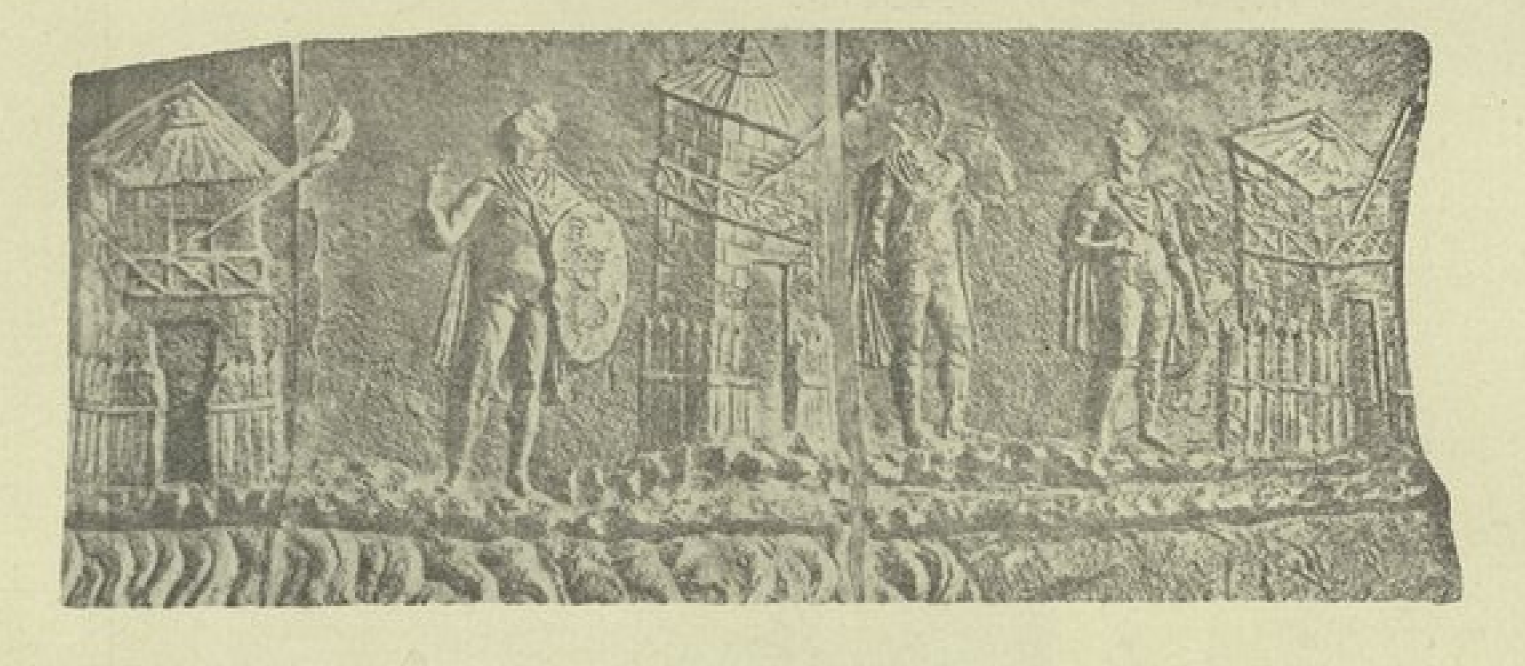


خريطة مصغرة لحصار اليزيا .

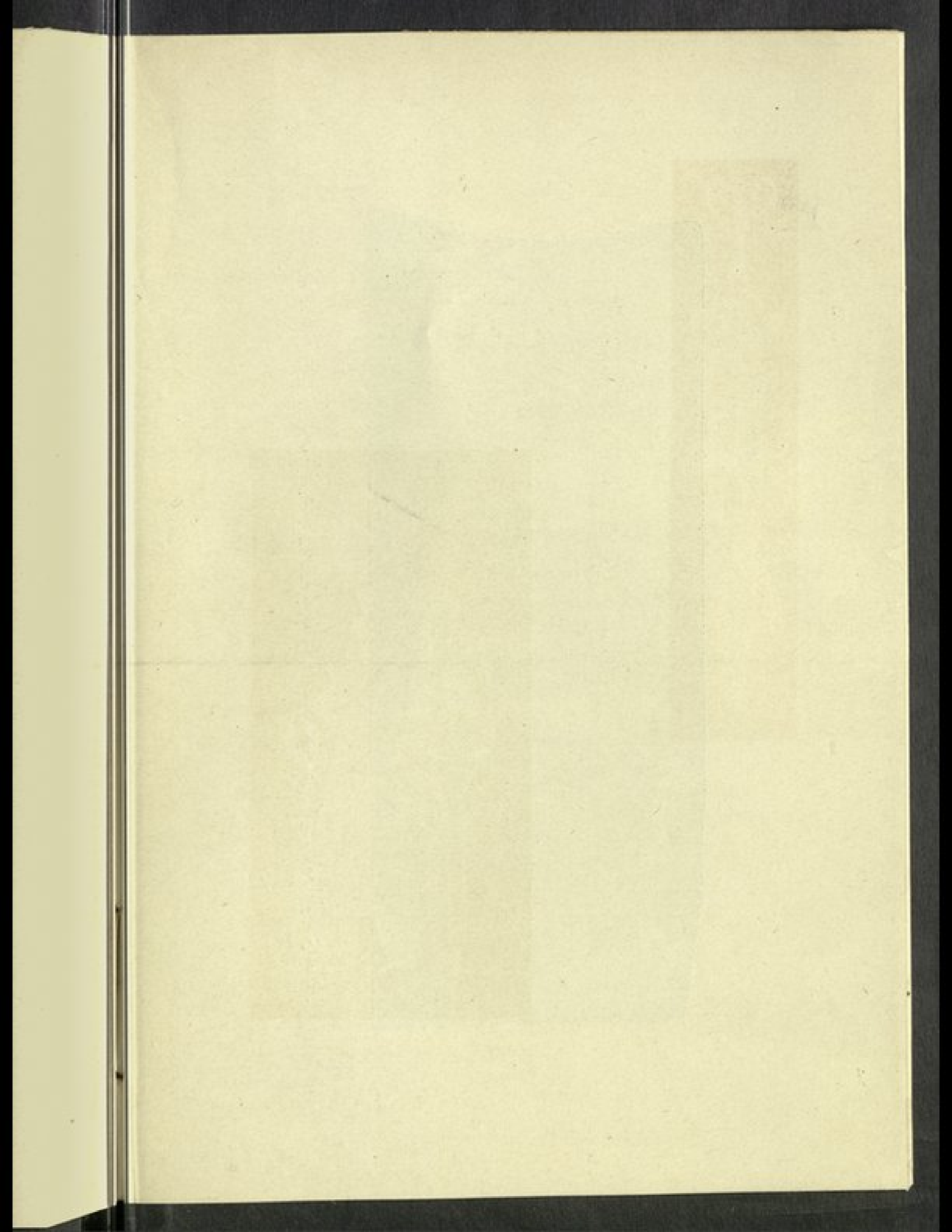


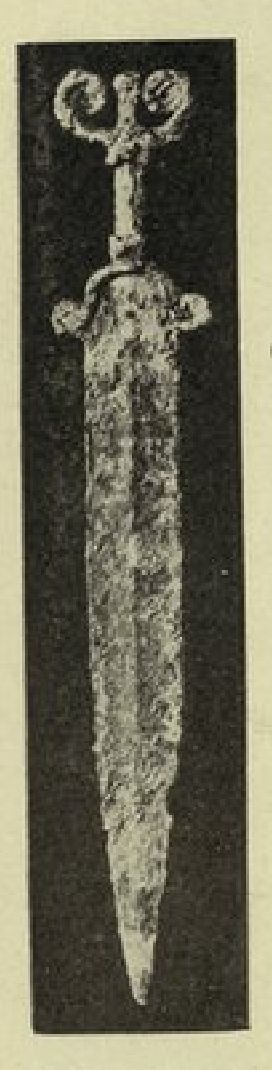
انشاءات دفاعية اقامها يوليوس قيصر امام اقاريكوم .





حصون رومانية على نهر الرين يخفرها جنود رومانيون يمثلها حفر ناتيء على عمود الامبراطور تراجان .

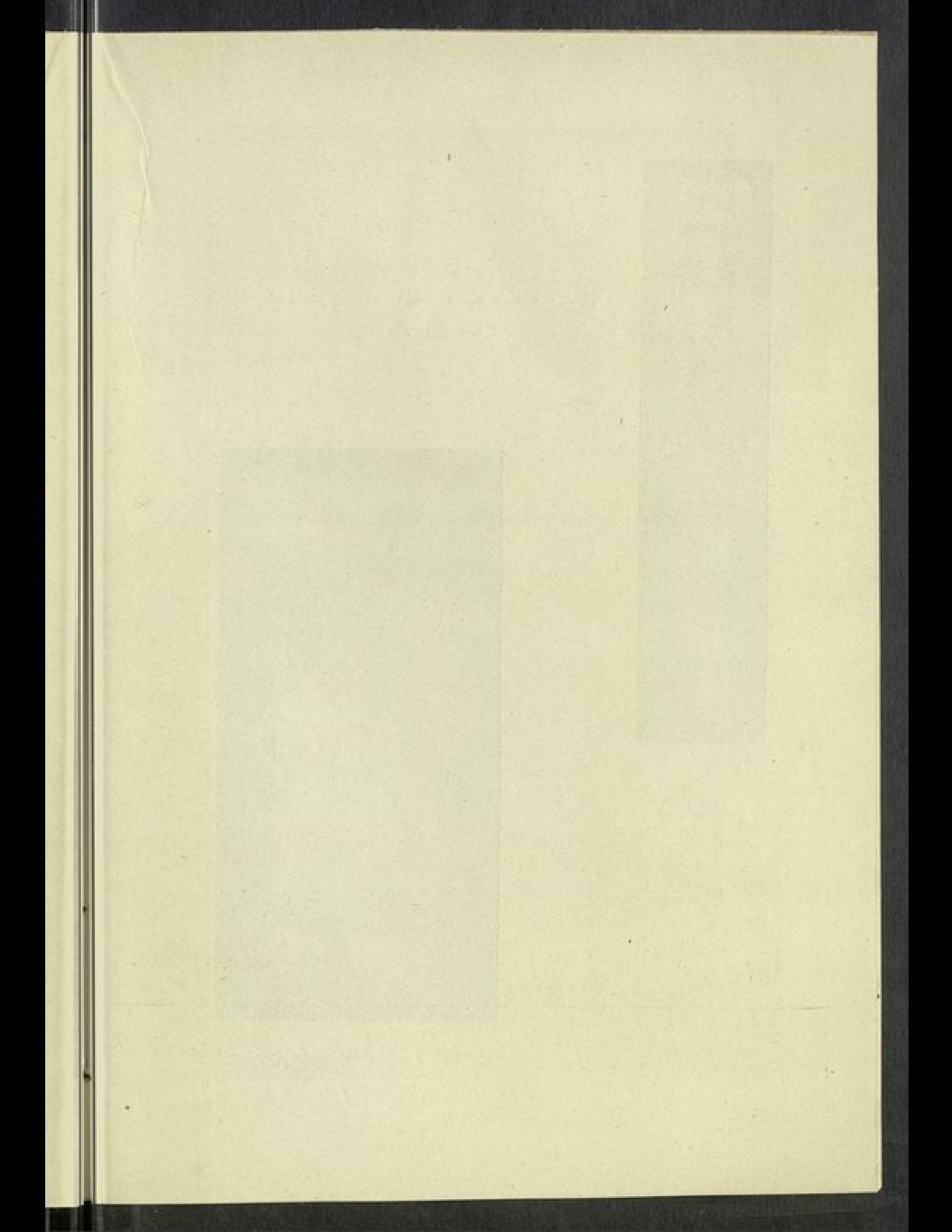




سيف غولي حاد النصلة ، قصيرها ، وجد في
ميدان موقعة أليزيا .

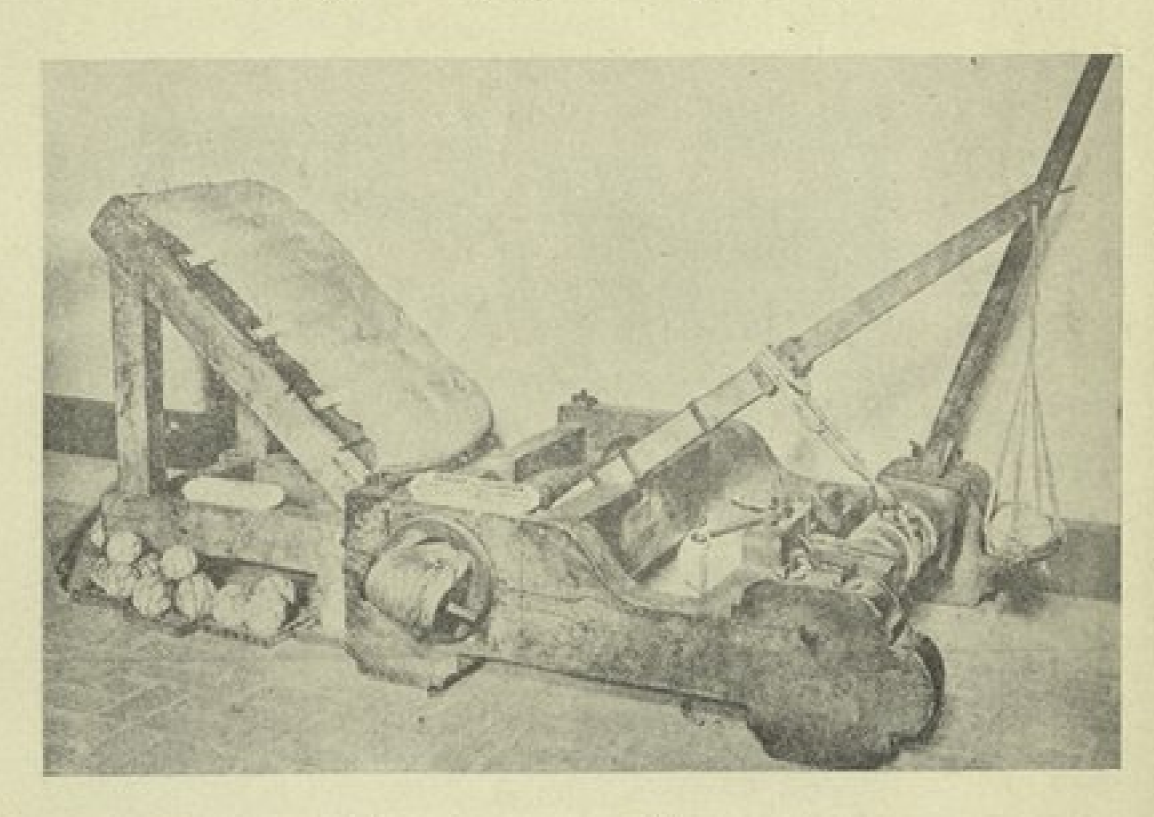


محارب غولي مجهز بعدة الجنود الرومان .

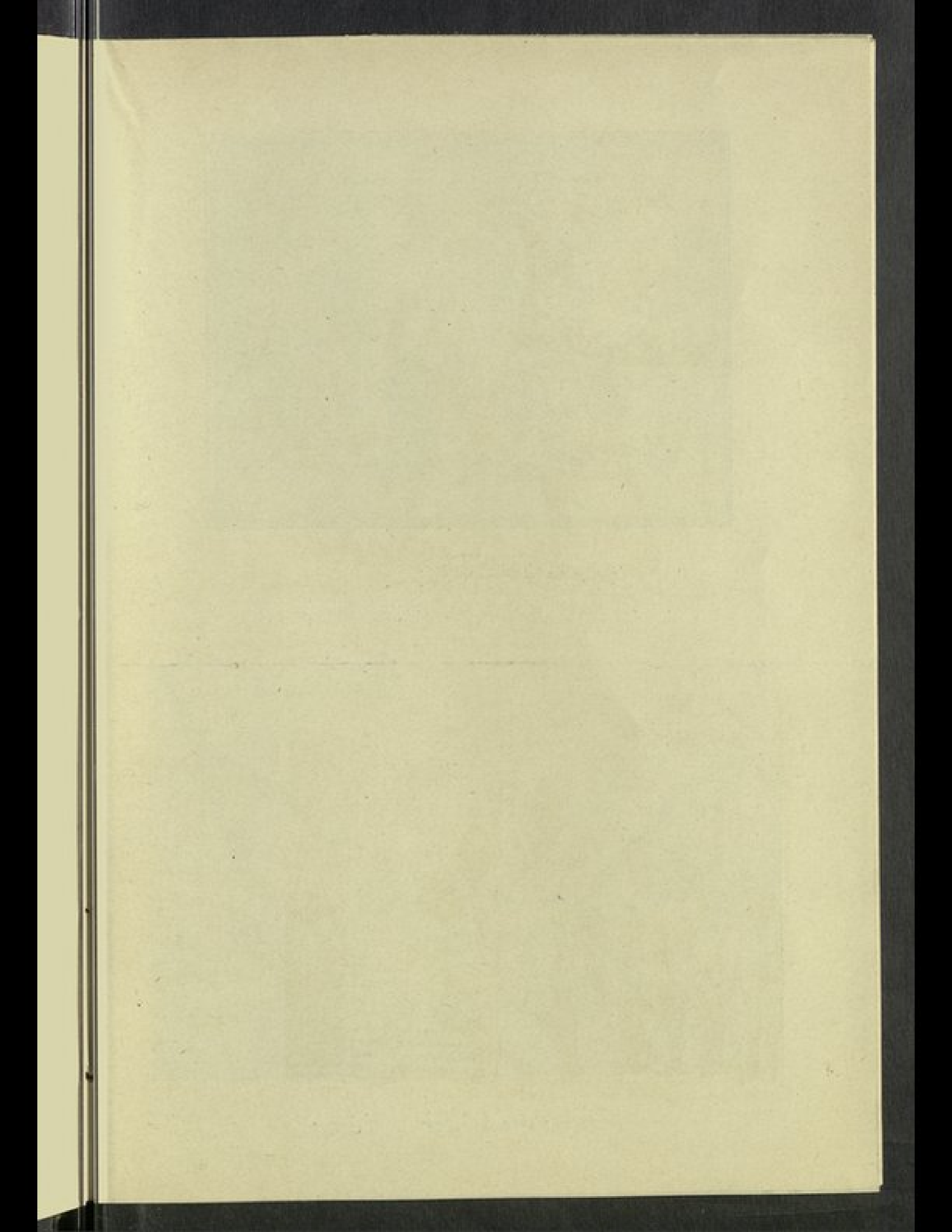




بيت المقدس يستقبل السلطان صلاح الدين
(رسم مأخوذ عن مخطوطة في القرن الخامس عشر).

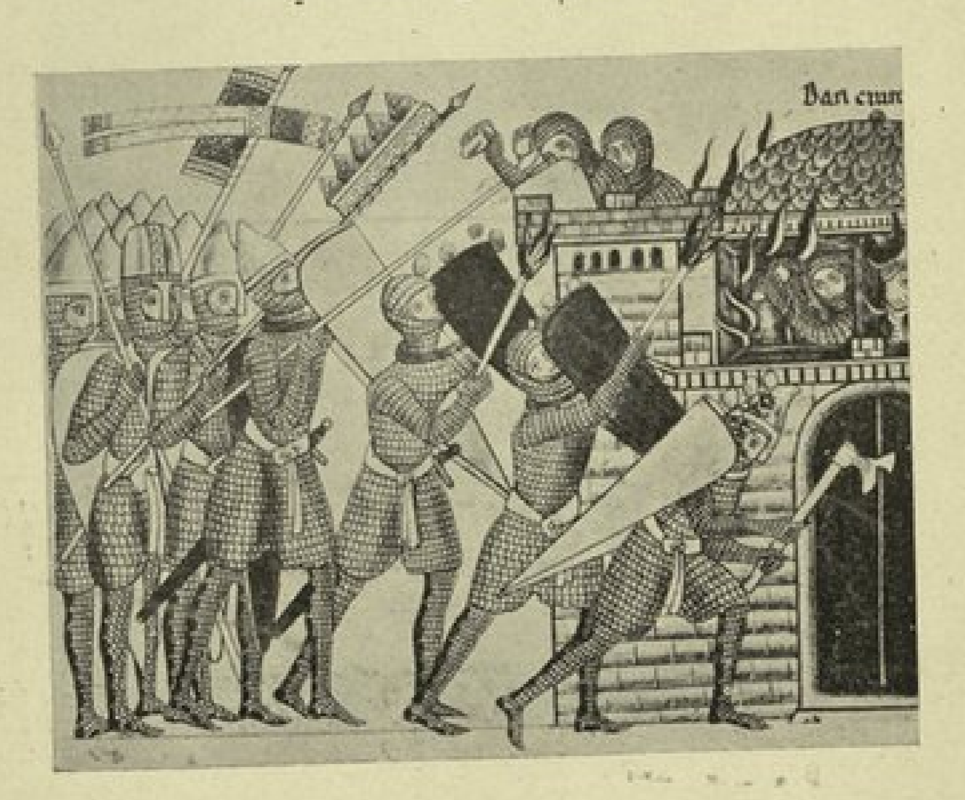


منجنيق يرمي الحجارة الى مدى ١٦٠ متراً.

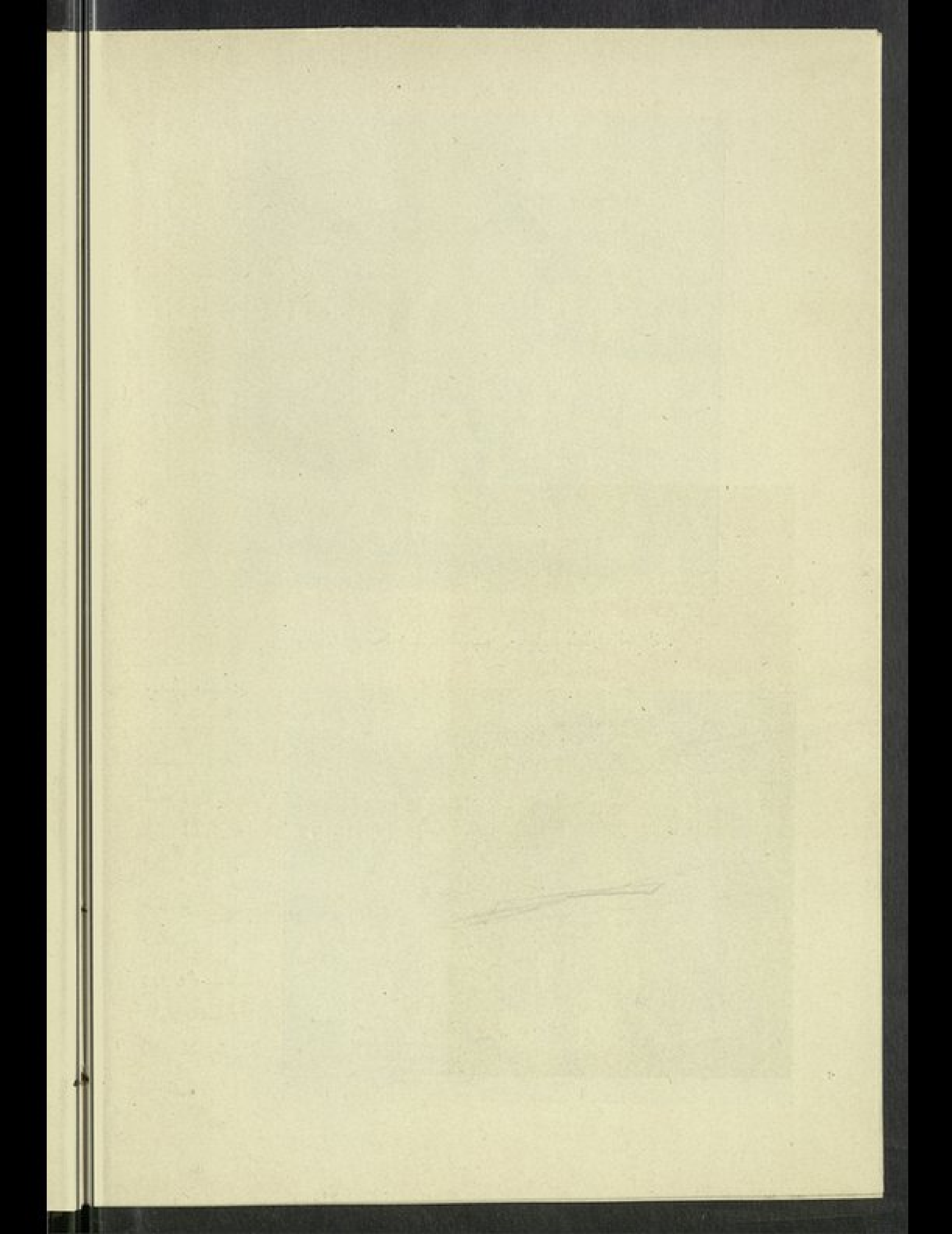




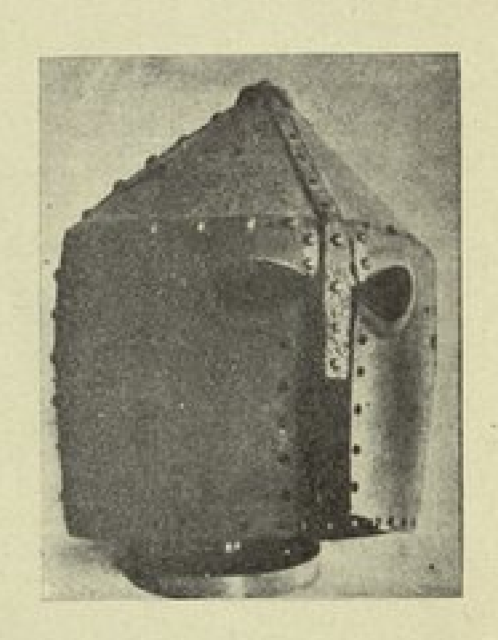
فرسان فرنكيون يتقدمهم حامل شعار الخيالة .

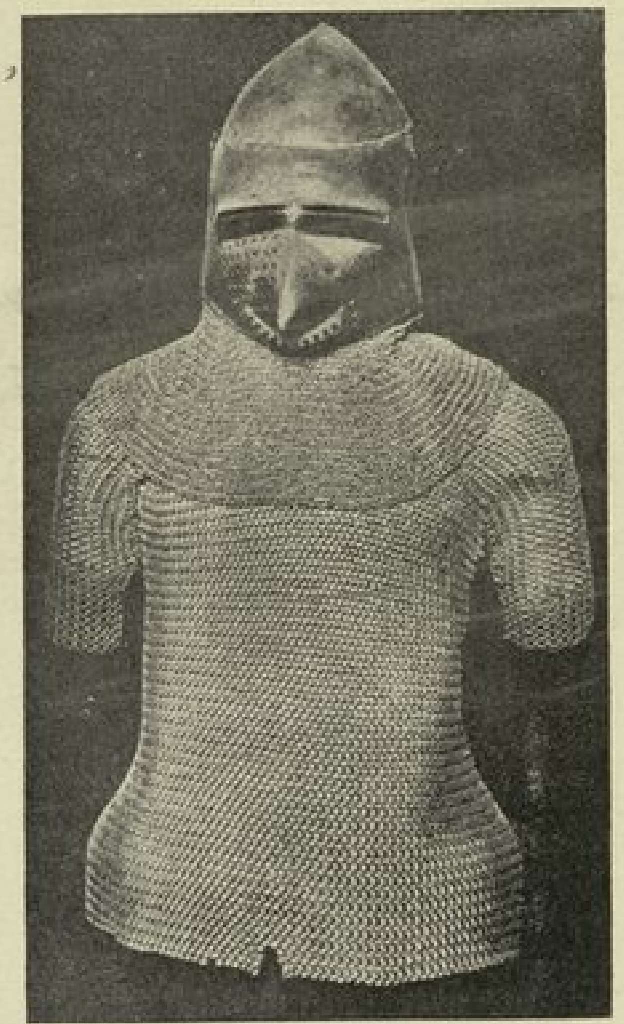


حصار مدينة: يحاول مقاتلان اشعال النار في احد الحصون بالقاء مشاعل الى الداخل ، ووراءهما جنود يتأهبون للاستيلاء على المدينة .

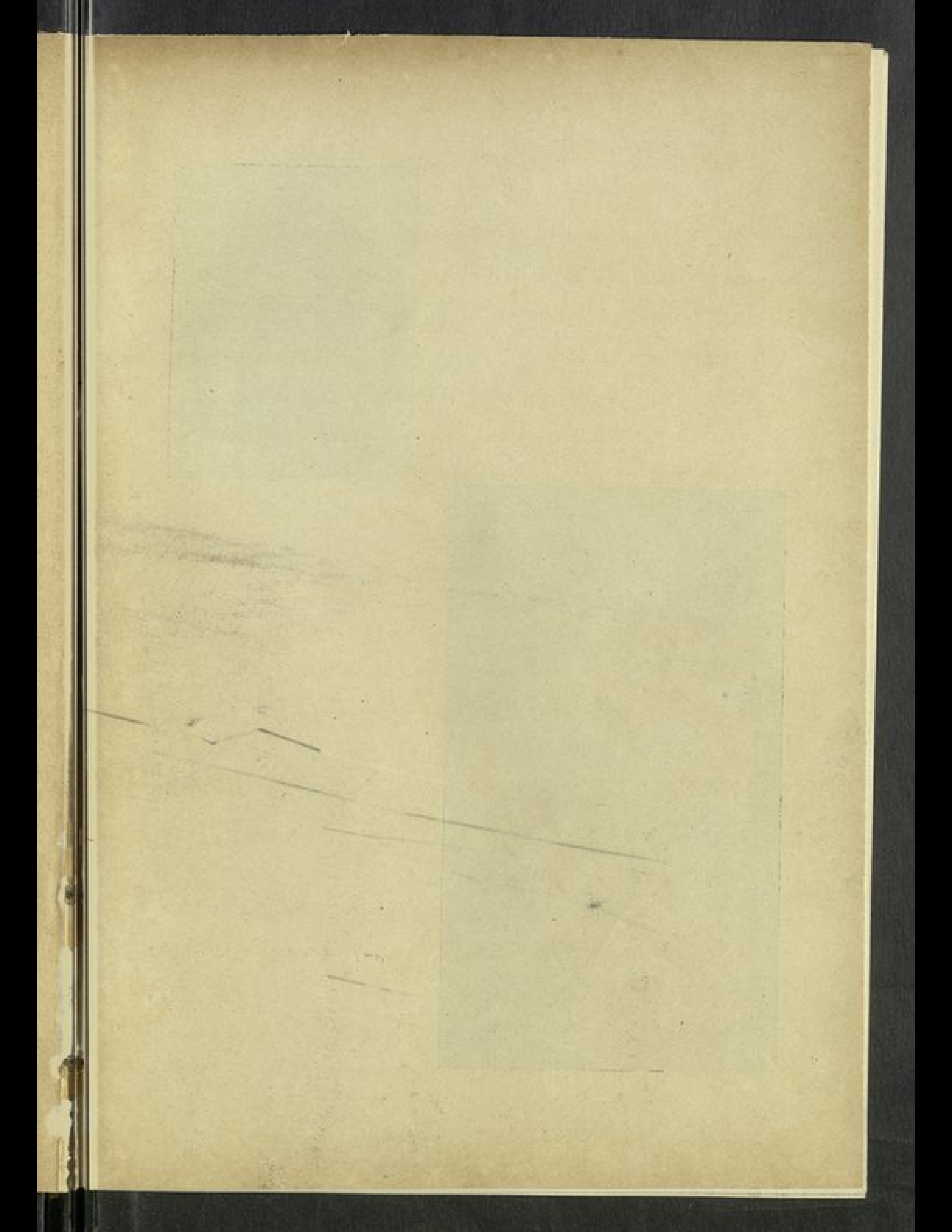


غطاء وجه يرقى
الى اوائل القرن الثالث عشر .





قميص من الزرد وخوذة ،
وهو لباس حربي معروف باسم
« فيليب الجميل » .



وجدير بالذكر ان المدن المحصنة لم تكن بالنسبة الى الغوليين نقاطاً استراتيجية ، بل كانت ملاجىء يأوون اليها اذا هاجمهم عدو قوي . وكان بعض هذه المدن ذا مساحة كبيرة جداً ، فمدينة « اليزيا » كانت تشغل ارضاً مساحتها مئة هكتار .

يوليوس قيصر وفرسنجيتوركس . – خرجت روما من نضالها في سبيل تحرير ايطاليا الشمالية ومنقلب جبال الالب مقتنعة بضرورة اخضاع الغول كلها من قبيل التحوط للمستقبل . وقد اتاحت لها السيطرة على اسبانيا ومنطقة البروفنس تطويق القسم الجنوبي من بلاد الغول ، ولم يبق الا اكتساحه مقدمة للاستيلاء على البلاد كلها .

عهدت روما بهذه المهمة الى يوليوس قيصر العضو في حكومة الثلاثة والقنصل سابقاً . ووقع الاختيار عليه دون سواه لانه كان وكيل قنصل في الالب الغربية ومقاطعة ناربون وحكم اسبانيا مدة غير قصيرة ، فهو والحالة هذه خبير بالارض ، محيط بحالة السكان ، يعرف مواطن القوة والضعف عند الاقوام المنوي اخضاعها .

اصطدم جيش يوليوس قيصر ، في زحفه داخل الاراضي الغولية ، والقبائل السويسرية التي كانت تسيطر على المناطق الشرقية ، فهزمها في معركة « بيبراكت » (سنة ٥٨ قبل الميلاد) . وفي العام التالي طرد الجرمانيين الى ما وراء نهر الرين واخضع سكان البلجيك وشمال الغول . وخشي الفاتح الروماني ان يغدر به الاعداء الاقوياء ، فسير حملة لاخضاع الجرمانيين ما وراء الرين ، وقام بمحاولة جدية لغزو بريطانيا العظمى ، فبرهنت الكتائب الرومانية في الحملتين على انها خير اداة لابراز عبقرية قيصر العسكرية ، ولم تذق مرارة الهزيمة الا مرة واحدة ، عندما استدرج الجرمانيون بضع كتائب الى كمين

وابادوا منها خلقاً كثيراً . وقد انتقم قيصر من الجرمانيين شر انتقام سنة ٥٣ قبل الميلاد . ثم انتقل الى « رافين » لقضاء فصل الشتاء ، بعد ان عهد بقيادة جيشه الى معاونه لابينوس . وكان هذا الجيش يضم عشر كتائب (قوام الكتيبة ستة الاف رجل) ، فحشد لابينوس اثنتين منها على انهر « الرين » و « الموز » و « الموزيل » لتحول دون تسلل الجرمانيين الى بلاد الغول ، وحشد ستاً في منطقة « سانس » والاثنتين الباقيتين بين « لانغر » و « ديجون » .

بعث الاحتلال العسكري روح التضامن السلبي ، وشجعت هزيمة لابينوس ما وراء الرين العناصر المتبرمة بالسيطرة الاجنبية على التكتل والعمل يداً واحدة ضد الغاصب ؛ وسرعان ما شاع روح التذمر في الغول ، وعمت الشكوى من تصرفات الولاة الرومانيين وعمالهم من رؤساء الاقوام الذين والوا الفاتح فولاهم على بعض المقاطعات الصغيرة مكافأة لهم .

وبحث الغوليون المتبرمون بحكم روما عن رئيس قوي يتزعم حركة النضال فوجدوا ضالتهم في فرسنجيتوركس ، وهو فتى توافرت فيه شروط الزعامة ، جمع الى الشجاعة نبل المحتد والذكاء الحاد . كان ابوه « سلتيل » ملكاً من ملوك الغول الشمالية ، ودانت لاجداده قبائل بلجيكا وقبائل الغول السلتية .

ألهب فرسنجيتوركس حماسة قومه باعمال بطولية خارقة ، قام بها قبل ان تناصب الغول روما العداء جهاراً . لهذا كانت المناداة به زعيماً تدبيراً موفقاً ، قضى على تردد المترددين ، فانضموا الى الحركة التحريرية مطمئنين الى كفاءة الربان ، على حداثة سنه وقلة تجاربه .

وقد كان البطل الغولي حكيماً ، فلم يحاول ارتجال قوة ثمينة بمجابهة الجيش الروماني المنظم ، بل آثر ان يتفادى القتال ويعمل على نهك قوى

الخصم وتجويعه باستدراجه الى نقاط بعيدة عن مراكز تموينه . وقبل ان ينهد الى الكفاح جمع اشتات الجحافل الغولية وسمى القادة ، وجهز المشاة بأسلحة الرماية القديمة كالقوس والمنجنيق والرمح ، واختار الفرسان بين سكان المناطق الجبلية المشهود لهم بالرشاقة وبطول الباع في استعمال الاسلحة القاطعة .

ثار الغوليون في الربيع واستهلوا نشاطهم بمهاجمة « ناربون » . فهرع يوليوس قيصر الى المدينة المهددة وكسر النطاق المضروب حولها . ثم طارد العدو متوغلاً في حوض نهر « الصون » غير حافل بالقر الشديد وبالثلوج المتراكمة ، واستطاع ان يؤمن الاتصال بينه وبين القائد لابينوس . وبهذا احتشدت كتائبه العشر حول « سانس » .

وفي هذه الاثناء لم يكن فرسنجيتوركس اقل نشاطاً من خصمه ، فاجتاح منطقة بورغونيه .

ضرب قيصر الحصار حول « افاريكوم » (بورج اليوم) ، ولكن تكتيك خصمه نهك قواه فأمر كتائبه برفع الحصار ، فلم تفعل ، بل بنت جداراً اكثر ارتفاعاً من اسوار المدينة وتمكنت من الاستيلاء على « افاريكوم » عنوة (نيسان سنة ٥٢ قبل الميلاد) . وقد شجع هذا النجاح القائد الروماني على مهاجمة « جرغوفيا » معقل السلتيين الحصين ، فمشى اليها على رأس ست من كتائبه ، وترك للابينوس الاربع الباقية ليكبح بها جماح شمال الغول . وقد قاومت « جرغوفيا » بنجاح العدو المهاجم ، ولم يؤثر فيها الحصار لانها كانت مستعدة له . وفي هذه الاثناء كان لابينوس يلحق بالغوليين هزائم شنعاء على ضفاف السين .

تأثرت القبائل الموالية لروما بتكتيك فرسنجيتوركس الناجح وبطولة « جرغوفيا » وصمودها العجيب ، فانضم الى الحركة التحريرية اقوام « الادوين » .

الا ان فرسنجيتوركس لم يفتح ذراعيه للثائرين الجدد الا بعد ان اخذ منهم رهائن لانهم عرفوا بالتقلب .

اشتد ساعد الغوليين بانضمام « الادوين » الى صفوفهم ، ومع هذا لم يبدل قائدهم الشاب تكتيكه ، فثابر على نهك الرومانيين متفادياً القتال على ارض مكشوفة ، تاركاً لمشاته اجتياح « البروفنس » كلما افلح هو في استدراج قيصر الى خارج المقاطعة . فتضايق القائد الروماني من هذه الحالة ، فهو مضطر لتأمين الاتصال بينه وبين لابينوس دون ان يبتعد عن « بروفنس » ولم يتح له الامران معاً الا بفضل المرتزقة من الجرمانيين الذين كان يتألف منهم معظم خيالته .

اختلف المؤرخون في تعليل تخلي فرسنجيتوركس بغتة عن تكتيكه الناجح ليسعى الى لقاء خصمه على ارض مكشوفة ، فرد فريق عمل القائد البطولي الى رغبته في تحطيم قوى خصم بَعُدَ عن قواعد تموينه ، ورد مؤرخون آخرون تدبيره الى رغبته في خوض غمار المعركة الحاسمة قبل ان ينقلب عليه « الادوين » .

ومهما يكن من امر فقد اعترض الغوليون كتائب قيصر على نهر « سيرين » وعهد فرسنجيتوركس الى خيالته بالانقضاض على قلب العدو وجناحيه . اما المشاة فقد حشدهم على الضفة المقابلة للنهر . وحشد القائد الروماني كتائبه بشكل مربع تتوسطه المركبات ، ولم يقم بأي مجهود هجومي ، مكتفياً بصد هجمات الفرسان الغوليين ، حتى اذا لاح له التفكك في صفوف العدو سلط عليه خيالته الجرمانية تدفع به الى النهر ، فبادر فرسنجيتوركس الى الانكفاء ، ولم يقف الا في « اليزيا » المدينة الحصينة ، وكان قد اعدها للحصار الطويـــل الامد واجهزها بمؤن تكفي قواته شهراً كاملاً .

يقول المؤرخون ان القائد الغولي لجأ الى « اليزيا » على رأس المشاة .

اما الخيالة فقد ظلت خارج المدينة لتتولى حماية النجدات الغولية وتهدد طرق تموين العدو .

لم يكن لاليزيا مناعة « جرغوفيا » ، ومع هذا لم يحاول قيصر الاستيلاء عليها بهجوم جبهي ، بل ضرب حولها نطاقاً وراح يعالج مغالقها الواحد تلو الآخر ، دون ان يغفل طرفة عين عن موءخرات جيشه وجناحيه ، لعلمه ان خيالة خصمه تتربص بها الدوائر .

طال أمد الحصار ، فنفدت الموءن في « اليزيا » وتفشت الاوبئة ، وتعالت اصوات تناشد القائد الغولي مفاوضة العدو ، وكاد دعاة التسليم يعلنون العصيان لو لم تلع طلائع جيش النجدة على الهضاب المطلة على المدينة المحاصرة . وقبل ان يتخذ قيصر التدبير المناسب لمواجهة الحالة الجديدة ، قامت حامية « اليزيا » وجيش النجدة بعملية مشتركة ، فاقتحم هذا التحصينات التي انشأها الرومانيون لتغطية موءخراتهم وجناحيهم ، وخرج فرسنجيتوركس ومشاته من المدينة ليضعوا العدو بين نارين . ولامر ما غير القائد الغولي اتجاه دفعته ، فتحول من اليمين الى اليسار ليضرب جناح خصمه ، وكان موءلفاً من الخيالة الجرمانية الشديدة المراس ، فترك قيصر للفرسان صد المهاجمين وارتد هو بقواته الرئيسية على جيش النجدة وارغمه على الانكفاء ، ثم سلط عليه الخيالة تطارده وتقطع اوصاله .

لم تحتمل معنويات الغوليين هذه الصدمة ، فضجت صفوفهم بصيحات تنذر بشق عصا الطاعة . وادرك فرسنجيتوركس انه خسر المعركة ، وان قيصر احرز نصراً حاسماً في « اليزيا » ، فسلم نفسه وسلاحه الى العدو المنتصر . وأبى قيصر الا إذلاله على مرأى من سكان روما ، فحمله اليها وعرضه على الناس في الساحات العامة ، ولم يدفع به الى الجلاد الا بعد ان اذل به الغول طيلة

ست سنوات .

وبسقوط « اليزيا » ووقوع فرسنجيتوركس في الاسر ، انتهت حملة قيصر في الغول عملياً ، فقد انهارت المقاومة المنظمة وتداعى الاتحاد الغولي ، وتضاءل شأن الحركة التحريرية فانحصرت في انتفاضات محلية متقطعة .

٢ – الغوليون الرومانيون

وجدت الغول تحت السيطرة الرومانية التنظيم الذي كانت تفتقر اليه . فقد حملت اليها عبقرية الفاتحين ومؤسساتهم خلال عدة قرون ، الحضارة والطمأنينة ، فقطعت شوطاً بعيداً في طريق الفلاح ، لان روما طبعتها بطابعها ونفخت فيها من روحها . وقد احتفظ الغوليون بهذا الطابع بعد تقلص ظل الرومانيين ، فما بوحت ثقافتهم لاتينية رغم تعدد الأقوام التي اخضعتهم لسيطرتها مذ ذاك .

وقد عنيت روما عناية خاصة بتوفير اسباب الطمأنينة للغول ، لعلمها ان خطراً يستهدف هذه الممتلكة المطموع بها ، يستهدف روما نفسها ، سواء اطل من البحر او من الشرق أو من الشمال الشرقي . فاهتمام ممثليها بتحصين منطقة الرين وشرقي الغول انما كان اهتماماً باقامة خط دفاعي خارجي يتيح لروما الوقت الكافي للتأهب وحماية الوطن الام .

وما ان اطمأن الرومانيون الى غطاء البلاد على الحدود التي تهب عليها ريح المطامع ، حتى انصرفوا الى العمل الانشائي . وكانت الغول الرومانية منطقتين كبيرتين : البروفنس ويحكمها نائب قنصل ، والغول المستقلة وتشتمل على البلجيك والاكيتين ، والغول السلتية (منطقة ليون) ويحكمها معتمد امبراطوري .

شمل التنظيم المؤسسات الغولية جميعاً ، وكان عمل روما في الممتلكة يخضع

لتيارات مصدرها الوطن الام . ففي العهد الجمهوري كان الغوليون يتطوعون في الجيش الروماني كقوات مساعدة ، وكانت روما ترحب بهذا التطوع لتسد بالعناصر الغريبة نقصاً في الصفوف او في الاسلحة او في الاختصاص . وفي اواخر عهدها ذهبت الى ابعد من هذا ، فشجعت على قيام جيوش منظمة على غرار الجيش الروماني في البلدان الخاضعة لسيطرتها ، لتشرك هذه الجيوش في الدفاع عن اوطانها .

وفي العهد الامبراطوري سمح للغوليين بان ينخرطوا في وحدات رومانية على ان يحتفظوا بأسلحتهم وتقاليدهم وقادتهم ، وتنحصر مهمتهم بتغطية الجناحين اذا كانوا فرساناً ، وبمساندة المشاة اذا كانوا من الرماة . وقد افاد الغوليون من هذا التماس فقبسوا من الكتائب الرومانية ما اهلهم في القرن الاول لان ينخرطوا فيها على قدم المساواة مع الرومانيين .

كانت الكتائب المحتشدة على « الرين » في مستهل القرن الاول تضم ايطاليين واسبانيين وبضع مئات من الغوليين ، فما ان فتح الجيش الروماني ذراعيه لابناء الغول دون قيد ولا شرط ، حتى انعكست الاية واستبدلت روما من العناصر الايطالية عناصر محلية . وقد نمت هذه العناصر مع الزمن فتألف منها ، بعد مرور مئة وخمسين سنة على الاحتلال ، جيش قوي ، روماني النظام والسلاح ، غولي الروح ، جيش مهمته الاساسية حماية حدود بلاده ، بعد ان كان يتولى حمايتها من قبل قوات اجنبية تضم خليطاً من العناصر والاقوام بقيادة رومانيين .

اما المدن المحصنة ، ولا سيما ما كان منها في اواسط البلاد ، فقد فقدت قيمتها الدفاعية ، لان الكتائب النظامية سحبت منها الى مناطق الحدود ، وعهد بالدفاع عنها الى ميليشيا محلية مدربة على حرب الحصون ، ولكنها لا تستطيع

شيئاً خارج الاسوار والقلاع .

جيش الرين . — في العام العاشر للميلاد حصن الرومانيون منطقة الرين تحت اشراف اغسطس قيصر وقسموها منطقتين دفاعيتين : جرمانيا العليا وجرمانيا السفلى ، وحشدوا في كل منطقة اربع كتائب (٢٥ الف مقاتل) يدعمها خمسة وسبعون كردوساً مساعداً . وعني الاباطرة اللاحقون بهذا الغطاء يحمي شمال الغول الشرقي ، فكانوا يمهرون خط الرين بكتائبهم المختارة وينفقون في تعزيزه دون ما حساب .

وفي مستهل القرن الثاني للميلاد ، صارت كتائب الرين تقوم بمناورات سنوية وتتدرب على الرماية والمشي مسافات طويلة . وحرص الرؤساء على الافادة من اختصاص القطعات ، فناطوا بكل قطعة المهمة التي يمكنها اداؤها على الوجه الاكمل بما تملك من وسائل ، وما تتقن من اساليب . وجعلوا السيوف سلاح الخط الاول ، الخط الاقرب الى جرمانيا الكبرى ، لان السيف هو سلاح الالتحام الامثل . وجهزوا الخط الثاني بالسيوف والرماح وسائر اسلحة الرماية ، والحقوا بكل كردوس مئة مقاتل مدرعين بالزرد ، مهمتهم تلقي الطلائع المعادية والالتحام بها اذا استطاعت اختراق الخط الاول . واشتملت كل كتيبة على فوج من الآلات يتألف من خمس وخمسين مركبة تنقل مجانيق زنة مقذوفتها ٢٥٠ ليبرا ، الى مسافة مئة وستين متراً ، وعدداً من المجانيق الخفيفة . واشتملت الكتيبة الى هذا ، على مئة وعشرين فارساً مجهزين بما يتيح لهم مد جسور يعبرون عليها الانهر والمهاوى .

وفي عهد الامبراطور كلود حشدت القيادة الرومانية الكراديس الغولية بين الرين والدانوب ، وعززت العقبات والحواجز الطبيعية بسلسلة خنادق وانشاءات تمتد من حوض الرين الشمالي حتى مدينة راتيسبون جنوباً ، وحمل بعض هذه

الانشاءات اسماء الاباطرة الذين امروا باحداثه . فجدار « تراجان » انشىء في عهد الامبراطور صاحب الاسم ، ومثله جدار هدريان . وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان الجدار الروماني شمالي الغول الشرقي كان طوله مئة وخمسة وعشرين فرسخاً ، الا انه لم يكن متماسكاً ، بل كانت تكمله الخنادق حيث تحول طبيعة الارض دون تماسكه . وانشأ الرومانيون مراكز للمراقبة يزيد ارتفاعها على ارتفاع الجدار الدفاعي ، وجعلوا الفاصل بينها خمسمئة متر ، كما انشأوا وراء الجدار مئة ملجأ حصين لايواء الاحتياط المحلي جاعلين من المنطقة الفاصلة بين الملاجىء والخط الدفاعي ميداناً حراً للمناورة تتخلله شبكة طرق تنتهي شرقاً بجسور عبر الرين .

كانت الكتائب تقضي الشتاء في معسكراتها ، وفي الربيع والصيف يخرج بعضها لمقاتلة الجرمانيين الذين كانت اغاراتهم متواصلة . بيد ان هذا النشاط الدفاعي الهجومي كان يخف كلما ازداد الخط الدفاعي مناعة ، الى ان جاء يوم خيل فيه للامبراطور هدريان ان الجدار الروماني قمين بصد كل محاولة هجومية ، فكفت الكتائب عن مقاتلة الجرمانيين على ارضهم .

اثر هذا الانكماش في معنويات الجنود ، وفقدوا مع الزمن المزايا التي كانت تجعل منهم وحدة متماسكة في الهجوم والدفاع والمناورة . وبلغ الانحطاط حده الاقصى في القرن الثالث . فتفاقمت حوادث التمرد في جيش الرين لان المواطنين الرومانيين انصرفوا عن الجندية الى الملاذ ، فصارت الكتائب تضم خليطاً من المرتزقة لا سبيل الى استبقائهم تحت العلم الا بزيادة اجورهم ، وبتخفيف القيود التي جعلت من جندي الامبراطورية في عهد اغسطس مضرب المثل في الرصانة والتقيد بالنظام . وحدث في عهد « كاركالا » ان عجزت الخزانة عن دفع اجور المرتزقة فثار هؤلاء وقتلوا قائدهم ، فاقتص الرؤساء من المحرضين

بل زجوهم في اتون . فما كان من رفاق هؤلاء الا ان حطموا سيوفهم ورماحهم وهجروا المعسكرات .

ولم تكن هذه الحوادث الا لتزيد الجرمانيين جرأة على تحدي الجدار الغربي ، فتكررت غزواتهم مستهدفة سهول الشمال . وفي منتصف القرن الثالث عبرت جحافلهم نهر الرين واجتاحت الغول معملة السيوف في رقاب السكان ، ناهبة القرى والدساكر دون ان تقوى كتائب روما على وقف التيار . حدث هذا سنة ٢٦٦ للميلاد واستمرت الغزوة الجرمانية عشر سنين كاملة . وكاد الفاتحون الجدد يبسطون سيطرتهم على البلاد من اقصاها الى اقصاها لو لم تهب القوات الغولية الرومانية بقيادة بروبوس لانقاذ الموقف . وما ان جلا الجرمانيون عن الغول حتى عمد بروبوس الى تنظيم الدفاع بتقوية القلاع والحصون وبتعزيز القطعات الخفيفة كالفرسان والمشاة غير المدرعين . وادخل تحسينات جمة على ملاكات الكتائب وجهز الجيش باسلحة جديدة انتجتها ثمانية مصانع غولية حديثة النشأة . وعمد الى المدن الكبيرة فاحاطها باسوار عالية ذات كثافة تراوح بين ٢٠ و ٢٥ متراً ، وعني بتحصين المدن المتوسطة والصغيرة .

وجعل القائد الروماني الاعلى اكتوم غاليوروم مدينة « تريف » مقراً له يحيط به الاشراف وحكام الولايات والقادة العسكريون . وفي عهده ، اي في الثلث الاول من القرن الرابع ، تسلل الجرمانيون مجدداً الى الغول فطاردتهم جيوش الامبراطور قسطنطين الى ما وراء الرين ، ولكن النجاح نفسه لم يكن حليف الامبراطورين جوليان وفالنتينيان . ففي عهد اولهما تمركز الفرنكيون قبائل مسلحة على ضفاف نهر الايسكو باذن من روما ، وعجز الاخر عن منع جحافل « الهون » من اقتحام الخط الدفاعي عند منبع الرين .

وفي مستهل القرن الخامس بدأت الغزوات الكبرى ، فاحتل جيش « الفيزيغوت » مدينة روما (سنة ٤١٠) . وفي منتصف القرن المذكور طرق ابواب الغول قبائل « الهون » بعد ان اخضعت اوروبا الوسطى وزرعت فيها الهول والدمار . فعقد الغوليون الخاصر حول قضية الوطن المهدد وهبوا لدفع الخطر بقيادة « اتيوس » ، وقد تمكن « الهون » بقيادة اتيلا من بلوغ ضواحي باريس ، ولكن المدينة صدته عن ابوابها بينا كان جيش اتيوس يهدده بحركة لف في جوار اورليان ويرغمه على التقهقر حتى سهول « تروا » حيث تألبت اقوام رومانية وسلتية وجرمانية ضد العدو المشترك ، ومن هذه الاقوام تألفت فيما بعد الامة الفرنسية .

قاوم الغوليون الرومانيون غزوات الفرنكيين والبورنون والفيزيغوت حتى العام ٤٧٥ دون ان ينجحوا في تحرير بلادهم لانهم تنكروا لما كانت روما تحرز به انتصاراتها الباهرة : قوة الكتيبة ومرونتها والسير الى القتال على اساس الفوج كوحدة سلاح ، فقد خاضوا غمرات المعارك الحاسمة جحافل متراصة واسندوا الى الفرسان دوراً ثانوياً في الحرب ، وكانت اللحمة مفقودة بين الرماة والعناصر المدرعة .

وقد كان هذا الانحطاط العسكري في جملة العوامل التي سببت سقوط روما ، ولكنه كان عاملا ثانوياً . فقد سقطت روما لانها قصرت في ميدان التضحية واهملت تقاليدها العسكرية المجيدة .

٣ – جيوش الفرنكيين

اجتاح الغول في اواخر القرن الخامس اقوام من الفيزيغوت والفرنكيين والبورنون كانت قد حالفت الغوليين الرومانيين سنة ٤٥١ ضد اتيلا وجحافل الهون . الا ان الفاتحين الجدد ما لبثوا ان تنازعوا الغنيمة ، فانضمت الى

الفرنكيين الكتائب الرومانية المختلفة في البلاد لان القوط والبورغونديين يقومون حاجزاً بينها وبين روما . فقد آثرت محالفة كلوفيس ملك الفرنكيين على وضع سيوفها في خدمة القوط ، اعداء الامبراطورية الالداء ، وتنازلت لكلوفيس عن الاراضي الغنية التي كانت روما قد وكلت اليها الدفاع عنها.

وقد ذكر المؤرخ اليوناني « بروكوب » ان القوات الغولية الرومانية احتفظت ، بعد انضمامها الى الفرنكيين ، بشاراتها وتقاليدها واسلحتها ، كما احتفظت باللباس العسكري الروماني .

واستطاع كلوفيس ، بموآزرة الكتائب الغولية الرومانية ، ان يتغلب على مزاحمه الواحد تلو الاخر وان يعلن نفسه ملكاً تدين له البلاد بالطاعة . وزاد مركزه مناعة زواجه العام ٤٩٣ من كلوتيلد النصرانية ، فامن له هذا الزواج تأييد الاساقفة والمؤمنين وكان عددهم يتزايد يوماً فيوماً . وبعد انتصاره في موقعة « تولبياك » عمده اسقف مدينة ريمس في حفلة فخمة وعمد بعده ثلاثة آلاف مقاتل . وبهذا اصبحت الغول النصرانية كلها في قبضة ملك الفرنكيين الشاب ، فانصرف الى تطهير البلاد من البورغونديين والفيزيغوت ، فطرد هؤلاء من مناطق زراعية واسعة بعد ان قتل ملكهم « الاريك » ، وهزم اولئك شر هزيمة .

وكانت روما تتتبع نشاط الفرنكيين بعطف ، فسرها عمل كلوفيس وانعم الامبراطور اناستاس عليه بلقب قنصل وصاحب جلالة .

وظل ملوك الفرنكة والفيزيغوت يحكمون باسم روما ذات السلطة الاسمية الى ان تغلب كلوفيس على منافسيه جميعاً فتحرر من الرقابة الرومانية وقام في الغول عرش موطد الدعائم لمملكة مستقلة حملت في القرن السادس اسم فرنسا .

جيش الميروفنجيين . — سرح كلوفيس ومن خلفه على العرش من الميروفنجيين القوات النظامية والمرتزقة ليعودوا الى الطريقة البربرية في تعبئة المقاتلين تبعاً للحاجة وللظروف الزمانية والمكانية . فاذا عنّ للملك ان يغزو جاراً له يدعى الى حمل السلاح سكان المنطقة المتاخمة للمملكة المنوي اجتياحها ، ويتطوع حكام المنطقة كالدوق والكونت والاسقف لتعبية الرجال القادرين على حمل السلاح . اما اذا كانت فرنسا هدفاً لغزوة معادية فالتعبية تشمل البلاد كلها وينفذ مفوضو الملك الاوامر الصادرة بهذا الشأن ، على ان يمشي كل مفوض في رأس المقاتلين الذين استطاع حشدهم ليشهد واياهم اجتماعاً عاماً يعقد في « ميدان مارس » .

كان حمل السلاح واجباً على كل فرنسي حر اذا نادى المنادي ان الوطن في خطر . وكان الاوفاء والعتقاء يسيرون في ركاب اسيادهم . اما الفقراء والمتسولون فكانوا يؤلفون كردوساً خاصاً . وكان كل مقاتل يتسلح على نفقته .

ولم يكن ثمة تشكيلات تكتيكية وتنظيمات عسكرية مستقلة عن التنظيمات الادارية . فالدوق ، وهو حاكم المدينة ، او الكونت ، وهو حاكم البلدة باسم الدوق ، يقومان بالادارة المدنية ويتوليان قيادة الجماعات المسلحة دون ان يكون لهما المام بفن القيادة . ولم يكن ثمة وحدات او قطعات تضم عدداً معيناً من المقاتلين . وكان المشاة العنصر الرئيسي في جيش هذه حاله ، سلاحهم الدفاعي زرد خشبي يعلوه جلد . اما سلاحهم الهجومي ففأس وخنجر طويل وسيف ذو حدين ، ورمح ينتهي رأسه بعقافتين ، فاذا رمى به العدو من بعيد امكنه استرداده لانه مشدود بحبل دقيق عند مقبضه ، والحبل نفسه يشد وسط المقاتل . فاذا كان الخصم مدرعاً بالزرد اخترقت العقافتان الدرع ، فيشد صاحب

الرمح الحبل فيعود رمحه اليه حاملاً واياه زرد العدو . وهكذا لا يجد هذا مناصاً من مواجهة خصمه مكشوف الصدر .

وكان المقاتلون الفقراء يخرجون الى الحرب سلاحهم القسي والمجانيق الخفيفة . وقد زعم بعض المؤرخين ان المقاتلين منهم بالقوس والنشاب استعملوا سهاماً مسمومة في بعض حروبهم . وروى المؤرخ « غريغوار دونور » ان انعدام النظام والطاعة في جيش الميروفنجيين كان ابرز عيوبه . فاذا دب الذعر في الصفوف تفرق الجماعات ايدي سبا ويعجز الملك والرؤساء عن اعادة النظام وجمع الشمل . وقد اخفقت كل المحاولات الاصلاحية لان الجندية لم تكن في نظر الرؤساء والمرؤوسين خدمة وطنية ، بل كانت وسيلة لجر المغانم .

وفي منتصف القرن السادس صار الملوك يغرون رعاياهم بالمال ليحملوهم على الخروج الى الحرب ، وكان الدوق او الكونت يبيع خدماته من صاحب العرش ولا يقدم اليه المقاتلين الا لقاء امتياز او لقب . وفي القرن السابع افلت زمام الامر من ايدي الملوك فعهدوا الى وزرائهم بقيادة الجيوش ، وقد سخر فريق من هؤلاء مركزه لخدمة مطامعه فاستمال المقاتلين ، واغراهم بالملك ليتربع هو على العرش مكانه . وثمة وزراء رفعتهم الى الاريكة الملكية بطولتهم وانتصاراتهم كشارل مارتل الذي دحر العرب في موقعة بواتيه وكان اول الملوك الكارولنجيين .

جيش الكارولنجيين . ـ كان بيبان دوريستال وزيراً لملك اوستراريا ، واستطاع ان يقمع حركات التمرد ، وكبح جماح حكام المقاطعات الذين تجاهلوا سلطة صاحب العرش واعلنوا انفسهم ملوكاً . وبعد موت بيبان (٧١٤) تجددت الحركات الانفصالية فقمعها ابنه شارل مارتل ، وتمكن من توحيد فرنسا بجيش يضم عناصر محترفة وقطعات مختارة من البافاريين وابناء اوستراريا ونوستريا .

وبهذا الجيش القوي استطاع شارل مارتل ان يدحر العرب في بواتيه في السابع عشر من تشرين الاول سنة ٧٣٢ ، فرفعته بطولته في عيون مواطنيه ، وعلى جهوده قام عرش الكارولنجيين .

لم يطرأ في العهد الجديد تبدل جوهري على المؤسسات العسكرية . فالقوات المعبأة لحملة ما تسرح حالما تنتهي الحملة ، ويستثنى فريق من الجنود المحترفين ، ينتقيهم الملك ليؤلفوا حرسه الخاص ، ويجري عليهم رواتب كبيرة . ولم يكن لجيش الكارولنجيين قادة ذوو اختصاص ، فحملة الالقاب هم القادة في الحرب ورجال القضاء والادارة في السلم .

والملك بيبان القصير هو اول من نهد لاصلاح المؤسسات العسكرية ، واقامة جهاز اداري موحد . ولكن المؤرخين لا يقفون طويلاً عند اصلاحات بيبان ويبرزون ما حققه ابنه شارلمان في هذا الحقل . سن هذا الملك سلسلة قوانين اضحى معها الجيش خاضعاً لقيود ثقيلة ولنظم دقيقة نسبياً . وقد حتم احد هذه القوانين على كل مواطن حر تلبية نداء الوطن ، وخول حكام المقاطعات فرض غرامة كبيرة (٦٠ فلساً ذهبياً) على كل من يتهرب من حمل السلاح .

وادرك شارلمان ان سلفاءه غمطوا الخيالة حقها بعد ما رأى من مآتي الفرسان العرب ، فشجع رجاله على اقتناء الجياد بما خص به مقتنيها من ايثار . وفي عهده ظلت الخدمة العسكرية واجباً وطنياً يقوم به المواطن الحر دون مقابل . وقبل الشروع في الحملة كان الملك يوعز الى المقاتلين بان يعدوا العدة للحرب ويجهزوا انفسهم بما يكفيهم ثلاثة اشهر على الاقل . وكان على المقاتل الميسور ان يذهب الى ميدان الحشد ومعه اسلحته وجياده وزاده . فاليسر شرط لاحراز شرف الانضواء تحت لواء الملك . وقد ذكر المؤرخون ان كبار الزراع كانوا اسبق الناس الى تلبية نداء صاحب العرش لان الحصول على السلاح

والجياد والمركبات ما كان ليكلفهم كبير عناء. اما صغار الملاكين ومتوسطو الحال فقد كانوا يتعاونون فيما بينهم على تدبر عدة الحرب، وظلت هذه حالهم الى ان وضع شارلمان اساساً لتعبية الرجال، فجعل ملكية عقار ومساحة محددة من الارض، شرطاً لقبول الرجل الحر في عداد المحاربين. اما من كان عقاره غير مستوف الشروط المفروضة فيحق له ان يتقدم من مركز التعبئة باسمه واسم جار له. على ان يذهب احدهما الى الحرب ويعنى الاخر بعقاره وعقار جاره.

ومن هنا نشأت الارستوقراطية العسكرية التي انبثقت منها الاقطاعية فيما بعد. فكبار الملاكين يذهبون الى الحرب في الطليعة. اما الذين لا تتيح لهم ثرواتهم اقتناء الاسلحة والجياد فانهم يكلفون جر المركبات واصلاح الطرق.

وكان على كل اسقف او رئيس دير ان يضع في خدمة الملك عدداً معيناً من الرجال الذين يديرون ممتلكاته، ويؤمن لهؤلاء زاداً لثلاثة اشهر ويجهزهم بالعدة الكاملة، ولم يكن تدبر هذه العدة بالامر اليسير، فقد عثر في دير «سان كنتان»، خلال القرن الخامس عشر، على امر ملكي وجهه شارلمان الى رئيس الدير فولراد، وهاك نصه:

«نحيطك علماً باننا حددنا اليوم الرابع عشر من تموز موعداً للاجتماع العام في القسم الشرقي من مقاطعة ساكس، على مسيرة ست ساعات من نهر «بودا» وجنوب بلدة استراسفور. واننا لنأمرك بموافاتنا الى المكان المعين في اليوم المذكور يصحبك رجالك مجهزين بكل ما يحتاجون اليه، اي ينبغي لهم ان يحملوا واياهم اسلحتهم وملابسهم وزادهم وسائر معدات القتال. فليأت الفارس الى الاجتماع مسلحاً بالرمح والسيف الطويل والسيف القصير وبقوس وسهام لا

يقل عددها عن اثني عشر سهماً ، وحملوا مركباتهم فؤوساً ومعاول ورفوشاً ومؤناً تكفي رجالكم ثلاثة اشهر ، وذخائر تكفي ستة اشهر . تدبروا هذا كله بالسرعة اللازمة اذا كنتم تحرصون على رضى الملك . »

يضاف الى هذا السلاح الفردي اسلحة اجماعية يمكن استخدامها في حرب الحصار . الا ان الكارولنجيين لم يأتوا بجديد في هذا الباب ، بل نسجوا على منوال الرومانيين ، فاستعملوا المجانيق الثقيلة والخفيفة لقذف الحجارة والكرات الرصاصية ، كما استعملوا المقلاع العادي . وكانوا يبنون اسواراً متحركة تدور على نفسها ويجعلونها اكثر ارتفاعاً من استحكامات العدو . وكانت الثيران تجر هذه الاسوار .

واخذ الكارولنجيون عن الرومانيين اساليب الحصار وقلدوهم في تمويه اسلحة الرماية الاجماعية ، وتبنوا تكتيكهم الهجومي : يبدأ الهجوم بوابل من السهام يطلقها المشاة ثم يندفعون الى امام شاهري الحراب او الرماح ، ثم تتدخل الخيالة لتبدد شمل العدو بعد ان يكون هجوم المشاة قد اشاع الفوضى في صفوفه .

ولم يضم جيش شارلمان ، في وقت ما ، اكثر من عشرة آلاف مقاتل كان ثلثهم ينصرف الى جمع الاسلاب والمعركة محتدمة . فيكون شارلمان قد خاض غمرات حروبه بجيش لا يربي عدد رجاله على عدد المقاتلين في الكتيبة الرومانية الواحدة . ومع هذا كانت مؤسسات الكارولنجيين العسكرية شيئاً جديداً في نظر المعاصرين . اما انتصارات شارلمان فلم تكن ثمرة مجهود فني فريد . وكل ما في الامر ان الرجل كان يتقن المناورة ويعرف كيف يستثمر مصاعب خصمه .

ففي الحملة الايطالية حشد جيشه في جنيف ، ثم عبر ممري سان برنار وسان

دنيس في جبال الالب ، فارتد العدو الى « بافي » واعتصم فيها ، فحاصرها شارلمان بالفي مقاتل طوال سنة كاملة . وفي هذه الاثناء كانت قواته الرئيسية تحتل مدن لومبارديا ونيس الواحدة تلو الاخرى .

نحا شارلمان النحو نفسه في اخضاع بافاريا ، وقلد الرومانيين في تغطية مؤخراته بتعيين كبار معاونيه حكاماً للمقاطعات المحتلة . الا ان حالة جيشه ما كانت لتساعد على الاستمرار في الفتح ، او تتيح للملك ومن ارتقى العرش بعده الحفاظ على الامبراطورية .

الفصل الثاني

جيوش العهود الاقطاعية

١ - المؤسسات العسكرية

النظام الاقطاعي . - نشأت الاقطاعية من الفوضى الشاملة التي رافقت الغزوات الجرمانية ، وساعد على تأصلها ونموها انعدام السلطة العسكرية وجنوح الاقوياء الى السيطرة على الضعفاء ، واضطرار هؤلاء لطلب حماية الاقربين من ذوي النفوذ دفعاً لاذى الابعدين .

ومن هذه الحالة الشاذة نشأت جماعات وكتل خاضعة لافراد قامت زعامتهم على القوة والبطش . وقد تألف من كبار الاقطاعيين ممالك مستقلة في المقاطعات راحت تزاحم الملكية الحقيقية مزاحمة حملت آل كابيت (البيت المالك) على توطيد سلطتهم بحروب طويلة شهروها على مزاحميهم .

كانت سلطة الملك اسمية خارج نطاق مقاطعته . فالامير الاقطاعي ، اياً كان شأنه ، ينفرد في مقاطعته بفرض الضرائب وتسوية المنازعات وتعبئة المقاتلين . وكانت الحرب تنشب بين امير وآخر اذا كانت مصالحهما محور الخلاف . اما اذا كان الخلاف بين الاتباع ، فالامراء يقفون موقف المتفرج ولا يتدخلون الا اذا ترتب على تطور الحرب مساس بمصالحهم .

ولم يكن للقضاء الاقطاعي قانون مكتوب يتقيد باحكامه ، بل كان

يسترشد بما يقضي به العرف والعادة . وكثيراً ما كان المتنازعون يحتكمون الى السلاح ، فيعد الظافر محقاً ولو توافرت الادلة على العكس .

في الحرب كان الامراء يسيرون الى ميدان القتال يتبعهم البارونات ، ويواكب هؤلاء ، وهم اسياد من الدرجة الثانية ، الفرسان حملة الرايات ، فقطعة من المشاة ، فرتل من المركبات يحمل المؤن . من هذا كله كانت تتألف الوحدة التكتيكية في الجيش الاقطاعي . وكان المحارب يؤلف فيها الخلية الاساسية كما هي الحال اليوم مع حامل البندقية الرشاشة في حضيرة القتال .

على ان تأليف الوحدة العسكرية لم يكن واحداً في كل الامارات والدوقيات ، ومثله اساوب التعبية وتجهيز القوى . وكان على المتبوع الاعظم Suzerain ، وهو يأتي في الدرجة الثانية بعد الملك ، ان يطلب مساعدة تابعيه من اسياد الدرجة الوسطى كلما عنّ له ان يخوض غمرات القتال ، فيفد هؤلاء الى « ميدان ابار » على رأس تابعيهم من فرسان ومشاة ومغامرين لا يحجمون عن تحدي الخطر ، طمعاً بالاجر السخي او تقرباً من الزعيم . وكانت التقاليد الاقطاعية تجعل من المتبوع الادنى حليفاً للمتبوع الاعظم بيد ان فريقاً من صغار المتبوعين تجاهل التقاليد وشق عصا الطاعة . وهذا ما حدا الامراء ان ينظموا العلاقات بينهم وبين تابعيهم النبلاء على اسس معينة ، فالنبيل يقسم بين يدي الامير يمين الولاء والاخلاص ويتعهد بمحاربة اعداء متبوعه . ومقابل هذا يأخذ الامير على عاتقه حماية تابعه ويقطعه ارضاً يكون التابع السيد المطلق عليها دون ان تصبح ملكاً له .

وقد كانت الخدمة العسكرية اول موجبات النظام الاقطاعي ، مدتها اربعون يوماً اذا كان على التابع ورجاله ان يحاربوا تحت راية الامير على

ارض غير بعيدة . وجعلت مدة الخدمة غير محدودة في الاحوال التي تكون فيها الحرب طويلة الامد ويكون ميدانها بعيداً ، على ان يقطع المتبوع تابعه ارضاً اضافية ، او يحرره من بعض القيود او يعفيه من بعض الموجبات . وكان بعض التابعين الاقوياء يشترطون على متبوعيهم شروطاً معينة كأن تسير وحداتهم في الطليعة او ان يعفى رجالهم من الاشغال الشاقة كشق الطرق وجر المركبات وحفر الخنادق .

في الجيش الاقطاعي كان الفرسان يؤلفون العنصر الرئيسي ، لان الفارس متبوع صغير يسير في ركابه من هم دونه حسباً ونسباً . الا ان سلطته كانت اسمية خارج حدود ارضه ، فرجاله يأتمرون اوامره في السلم ولكنهم ينزعون الى التمرد في الحرب . لهذا كانت طبقة الفرسان تخرج الى القتال مدرعة بما يرد عنها الاذى ، مجهزة باسلحة تضمن لها الغلبة ولو ظلت وحدها في الميدان .

كانت درع الفارس قطعة معدنية تغطي جسده من العنق حتى الكاحل . وكان غطاء الرأس خوذة ثقيلة . اما الترس فكان استعماله شائعاً في بعض الاقطاع دون الاخر . وروى بعض المؤرخين ان عدة الفارس الدفاعية كانت تزن مئة ليبره ، وهو حمل يجعل صاحبه في مأمن من الطعنات ولكنه يسحقه سحقاً تحت ثقله .

وتنكر فرسان الجيش الاقطاعي للاسلحة الغولية والرومانية لانها اثبتت عجزها عن اختراق الدروع الكثيفة ، فاستبدلوا من السيف القصير سيفاً طويلا ذا حدين يمسك به الفارس بكلتا يديه ، وجعلوا للرمح رأساً محدداً ذا زوايا ثلاث ، وربطوه بسلسلة طويلة مشدودة الى مقدم الجواد او الى وسط الفارس . وكانت المدقة والفأس والمطرقة الاسلحة الفضلى في الالتحامات .

ويأتي بعد طبقة الخيالة القطعات المساعدة ، وهي تضم اقطاعيين صغاراً مرتبطين بالفرسان ارتباط هؤلاء بالنبلاء والامراء . وتنحصر مهمة المساعدين بنقل اسلحة متبوعيهم والعناية بالجياد ، وبمساعدة الفارس في اعتلاء صهوة جواده ، وباعادته الى الصهوة اذا رمى به خصمه ارضاً .

اما المشاة الحقيقيون ، المشاة الذين يقع على عواتقهم احراز النتيجة الحاسمة ، فقد كان الاسياد ينتزعونهم من حقولهم ويرتجلون منهم مقاتلين ، سلاحهم القوس والسيف والمنجل واحياناً المقلاع ، ودروعهم جلود يغطيها معدن رقيق . كانت اللحمة معدومة بين هذه القوات ، فالقيادة غير موحدة والنظام مفقود . وكيف يطلب من جيش هذه حاله ان يقاتل بحماسة ، ومن قادة لا رأس لهم ان يرسموا خططاً ناجحة ويسهروا على تنفيذها ؟

عالج بعض الملوك والرؤساء هذه الفوضى وهذا الخمول بتشجيع المقاتلين المبرزين ، فالقن الذي يأتي عملاً بطولياً يحرر ، والحر يفوز بارض اضافية وبلقب ، والمتبوع الصغير يقفز الى مرتبة المتبوعين العظام بما يجرى عليه من نعم وما يحاط به من اكرام .

فلما خاضت الجيوش الاقطاعية غمار معارك عنيفة ، فقد كان الخصم يجتهد في الحاق الاذى بعدوه بتخريب بلاده وبالاغارة على مؤخراته وجناحيه . اما معركة تتراص فيها الصفوف فقد كانوا يتحاشونها جهد الطاقة ، واذا الجئوا الى خوض غمارها لا يطول بهم الامر حتى يكلوا الى ابطال منخوبين من المعسكرين ان يصفوا حساب النزاع ببراز تحبس في اثنائه الانفاس وتبلغ الحماسة الذروة . اما اذا اصر الفريق المنتصر في الساحة على ملاحقة خصمه ، فلا يبقى امام هذا الا واحد من امرين : اما التسليم دون قيد او شرط ، او الاعتصام في المدن

المحصنة او داخل القصور المشيدة خصوصاً لحرب الحصار . وكثيراً ما كان الظافر يتهيب اقتحام القلاع فيرتد قانعاً بما احرز على الارض المكشوفة ، ذلك بان اخضاع حاميات المدن والمراكز الحصينة كان يتطلب وسائل هجومية قوية وثباتاً لم يكن من مميزات الجيوش الاقطاعية .

وقد تطور فن القتال شيئاً فشيئاً تبعاً لتطور النظام الاقطاعي ولنمو الوحدة الفرنسية . واستطاع الملوك الاول من آل « كابيت » ان يخضعوا الجماعات في الحرب لقيادة موحدة يعاونها الامراء والنبلاء . الا ان الجيوش ظلت جاهلة فن المناورة وظل نظامها مختلاً . وقد وصف مؤرخ معاصر معارك ذلك العهد قال :

تبدأ افواج المشاة التحرش بالعدو ، فيطلق حملة الاقواس سهامهم يغطيهم حملة السيوف والرماح والفؤوس ، لانهم مدرعون . فاذا صمد العدو اندفع المشاة الى امام كتلة متراصة ، واعملوا بالصفوف الامامية سيوفهم ومطارقهم وفؤوسهم . الا ان هذا النشاط الهجومي ليس سوى عملية محدودة ، فالعمل الحاسم تقوم به الخيالة .

ينقض الفرسان على العدو وقد تجلببوا بالدروع واعتمروا بالخوذ الفولاذية ، ولكنهم لا يتبعون في الهجوم قاعدة معينة ، كأن يضربوا الجناحين او القلب او يحاولوا اللف حول الميمنة او الميسرة ، بل ينقضون على اعدائهم شاهري السيوف ، فيتبدد شمل المشاة قبل الالتحام او ابانه ، فيتعقبهم حملة الاقواس والمقاليع . اما الفرسان فتشغلهم عن مطاردة مولي الادبار خيالة العدو التي تتلقى الضربات بادىء ذي بدء دون ان تردها على امل ان تهن عزائم المهاجمين الغارقين في الفولاذ وتكل منهم السواعد فتكر عليهم وتحرز الظفر دون كبير عناء .

على ان التحامات من هذا النوع لا يترتب عليها سقوط عدد كبير من

الضحايا ، فالدائرة انما تدور على الجياد غير المدرعة ، وعلى الفرسان الذين تتفلق دروعهم او خوذهم بضربة قوية . وكان المقاتلون يلاحقون الرؤساء والمقدمين في جيش العدو ، لان وقوعهم في الاسر او مصرعهم يشيع الفوضى في صفوف رجالهم ، ويحمل تابعيهم على القاء السلاح . لهذا كان المحاربون الاشداء من فرسان ومشاة يقاتلون ضمن دائرة يتوسطها القائد او الامير او الملك .

٣ - غزو انكلترا

استطاع خلفاء الملك « هوغ كابيت » ان يوسعوا نطاق المملكة ويدعموا سلطتهم بمحالفة الجيران الاقوياء ، وبالقضاء على نفوذ صغار المتبوعين . وكان دوق نورمنديا اقوى الامراء المستقلين ، فكان آل « كابيت » يداورونه ويتوددون اليه ويستعدونه على خصومهم .

وفي عهد فيليب الاول ، آخر ملوك الكابيتيين ، اشتد ساعد النورمنديين وازدادوا ميلًا الى المغامرة . وحفل القرن الحادي عشر بآتيهم في ميدان الفتح ، فقاتلوا على الارض الاسبانية ، وانشأوا مملكة صقلية ، وغزوا انكلترا ، فكانت معركة « هستنغس » اعظم حدث عسكري في ذلك العهد .

اعد غليوم الملقب بالنغيل (ابن الزنا) حملة قوية لغزو انكلترا ، وشجعه على ركوب هذا المركب ملك فرنسا فيليب الاول ، لا كرهاً بالانكليز بل رغبة منه في الهاء منافسه العنيد دوق نورمنديا بعمليات خطرة على الضفة الاخرى من القناة .

حشد غليوم سبعمئة سفينة : مراكب صيد واخرى تجارية ، وسفن كبيرة لنقل الجند تواكبها قطع حربية . ولم يكن جيشه اقطاعياً كله . فقد تألب تحت رايته المرتزقة وعشاق المغامرة من الفرنسيين والاسبان والبريتانيين . وفي بضعة اشهر جهز غليوم جيشاً من ثمانية عشر الف مقاتل ثلثهم من الفرسان .

ابحرت الحملة في تشرين الاول من العام ١٠٦٦ ونزلت على الارض الانكليزية دون كبير عناء . وكان هارولد ، ملك انكلترا ، ينتظر عدوه على رأس جيش من المشاة سلاحه الرئيسي الفأس الدانمركية التي لا يمكن الضرب بها بيد واحدة .

قسم غليوم الجيش النورمندي ، وقل اذا شئت الجيش الفرنسي ، ثلاثة فيالق ، وجعل كل فيلق ثلاثة صفوف : الصف الاول ويتألف من حملة الاقواس ، ويليه صف المشاة ، فصف الخيالة ، وقد جزىء وحدات صغيرة تضم كل منها عشرة فرسان بقيادة نبيل . بدأ الصف الاول الاعمال العدائية ثم اندفع الفرسان محاولين بعثرة صفوف السكسونيين . فصمد هؤلاء ثم شنوا هجوماً مضاداً مستهدفين ميمنة النورمنديين ، فانكفأت الميمنة مستدرجة العدو الى اللحاق بها . ففعل دون ان يحتاط لمناورات غليوم او ينتبه الى لعبته . فانتهز القائد النورمندي الفرصة واطبق بجيشه على جناح السكسونيين ومؤخرتهم فاضطر هؤلاء للكف عن ملاحقة الفرسان المتراجعين ، وتلقوا الجيش النورمندي بفؤوسهم ومطارقهم . فوضعهم فرسان غليوم ومشاته بين شقي الرحى واعملوا فيهم سيوفهم الماضية . فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وكان الملك هارولد في عداد القتلى . ولكن مصرعه لم يفتّ في عضد رجاله فثابروا على النضال حتى هلك ثلثاهم .

وتم لغليوم فتح انكلترا كلها في بضعة اشهر لان موقعة هستنغس كانت حاسمة . وقد اجمع المؤرخون المعاصرون على اطراء مواهب الفاتح النورمندي واظهروا مقدرته على استثمار اخطاء خصمه . وحشره مؤرخو القرن التاسع عشر في عداد الفاتحين العظام الذين تتلمذ عليهم نابوليون واستوحى خططهم .

٣ – تطور الجيش الاقطاعي

استطاع الكابيتيون الاول ان يدعموا السلطة الملكية ولكنهم عجزوا عن

كبح جماح النبلاء الذين كان الاقوياء منهم يتجاهلون وجود الملك . اما الضعفاء فقد كان خضوعهم لصاحب العرش عبئاً ثقيلا عليه لانه كان ملزماً بحمايتهم .

وما كان النبلاء الاقوياء ليتورعوا عن ارسال رجالهم الى المزارع الملكية ينهبونها . وظلت الحال على هذا المنوال الى ان تربع على العرش الملك لويس السادس الملقب بـ « الملك الضخم » ، فوضع حداً لاعمال النبلاء العدائية بحملات تأديبية موفقة كان هو دائماً على رأسها . وايد الشعب مليكه وشد ازره لانه توسم في السياسة الجديدة ، سياسة الحزم والضرب على ايدي المتطاولين ، الخير للبلاد وعهداً تخف فيه وطأة الاسياد . وقد قربت النقمة على هؤلاء الشقة بين لويس السادس وصعاليك المملكة فقام بين الفريقين تحالف ضمن وطد سلطة الملك وهيبته . وامتحن هذا التحالف سنة ١١٢٤ عندما اجتاحت فرنسا قوات امبراطور المانيا وفي نيتها ان تهدم كاتدرائية ريمس . فاتحد الفرنسيون امام الخطر وتسابقوا الى الانضواء تحت راية الملك ، وكان ابناء الشعب وصغار الملاكين ورجال الكنيسة في طليعة المتطوعين . فتألف منهم جيش عدد رجاله مئتا الف ، فتأثر النبلاء بوطنية الصعاليك وما لبثوا ان حذوا حذوهم . فعرض الملك في « ميدان ايار » جيشاً يتألف من ٣٠٠ الف رجل موزعين على خمسة فيالق ، ضم اولها متطوعي اسقفيتي ريمس وشالون ، وثانيها متطوعي لون وسواسون ، وضم ثالثها الميليشيا الباريسية ومتطوعي اورليان وسان دنيس ، وقد تولى الملك قيادة هذا الفيلق بنفسه . وقاد الفيلق الرابع دوق مقاطعة شامبانيه ، والفيلق الخامس دوق مقاطعة بورغونيه ، وعهد لويس السادس الى دوق مقاطعة الفلاندر بحماية المؤخرة وامّره على عشرة آلاف فارس .

وقبل ان يتحرك هذا الجيش العظيم انتهى الى امبراطور المانيا خبره فهيب الموقف وعاد من حيث اتى .

وهكذا تطور الجيش الاقطاعي من قوات قوامها الخاصة من الناس الى جيش يضم الخاصة والعامة على قدم المساواة من حيث الواجب الوطني.

ادى اقبال الشعب على الانخراط في الميليشيا الاقليمية المستقلة عن قوات النبلاء الى تعاظم الجيش الملكي، وساعد على نمو قيام العامية او المجالس العامة في القرى والدساكر وتفردها بحق دعوة الرجال الى حمل السلاح وسوقهم الى ساحة القتال، وقد كان هذا الحق محصوراً بالنبلاء.

كانت العامية جمعية يدير شؤونها المجلس البلدي باسم الملك، وكان الاعضاء يقسمون يمين الطاعة للرؤساء والولاء للجالس على العرش. ومنح الملك العامية حق اعلان الحرب لاغراض دفاعية وتعهد بمساعدتها عند الاقتضاء. ومقابل هذا تعهدت العاميات بوضع الميليشيا في خدمة التاج.

وما لبث رؤساء المؤسسات الجديدة ان نحوا في الحرب منحى النبلاء، فصاروا يمتطون صهوات الجياد ويسيرون الى القتال يحوطهم الخدم والمساعدون. وما مضى طويل وقت حتى قامت في فرنسا بورجوازية اقطاعية. الا انها ظلت خاضعة للملك ولم تبتعد عن اوساط الشعب لانها كانت في حاجة الى تأييده.

ولم تتبع العاميات نظاماً موحداً، انما كان لكل واحدة منها نظام خاص. بيد انها اتفقت جميعاً على ضرورة اعفاء المرضى ورب العيلة التي لا معيل لها سواه من الخدمة العسكرية، وجعلت الحد الادنى لسن الخدمة ست عشرة سنة والحد الاعلى ستين. واستثني الصناع والجازون والطحانون والبناؤون والنجارون لان بقاءهم في عملهم ضروري لتأمين الحاجات العامة.

وغني عن القول ان ميليشيا العاميات كانت تجهل فن المناورة. لهذا كان الملوك يكلون اليها الدفاع عن المدن الحصينة ولا يستخدمونها في القتال على ارض مكشوفة. وقد رأينا الملك لويس الملقب بالضخم يحجم عن مطاردة امبراطور

المانيا بجيشه اللجب لعلمه ان هذا الجيش المرتجل لا يستطيع العمل خارج فرنسا .

٦- الحروب الصليبية

ادخلت الحملات الصليبية تعديلًا جوهرياً على فن الحرب لهذا نثبت من تاريخ هذه الحملات الحوادث ذات الاثر العسكري في التنظيم والسلاح والاساليب .

الحملة الاولى (١٠٩٦ – ١٠٩٩) . – قام الفرنجة بالحملة الصليبية الاولى بتحريض من البابا اوربانوس الثاني . وقد وجد هذا التحريض ارضاً ممهدة في بلاد حديثة العهد بالنصرانية ، ضاق نبلاؤها ذرعاً بالسلطة الكلية المتزايدة فنفروا الى الخارج ينشدون مسرحاً حراً لنزعتهم العسكرية . وسار في ركابهم جموع استفزتها للحرب عوامل شتى ، فكان هناك المؤمن الذي اثرت به تحريضات البابا ومناشداته ، والمغامر الذي شاقه التعرف الى الشرق ، والمعدم الذي امل بالعود الى الوطن غانماً .

وقد تقدم الحملة العسكرية جماعات المتطوعة والمرتزقة والحجاج بقيادة بطرس الناسك (بيير ليرميت) . اما الحملة النظامية فقد تألفت من جيوش اربعة :

١ – جيش الشمال بقيادة « غودفروا دو بويون » وقد انخرطت تحت لوائه قوات اللورين والفلاندر وهينو والرين وهولندا ، وكان يضم عشرة آلاف فارس وسبعين الف راجل . سلك هذا الجيش طريق بافاريا ماراً بالنمسا فالمجر فبلغاريا ، وبلغ ضواحي القسطنطينية في ٢٧ كانون الاول سنة ١٠٩٦ .

٢ – جيش الجنوب بقيادة « ريمون دو سان جيل » كونت تولوز وقد ضم قوات غسكونيا واوفرنيه ولانغدوك وبروفنس . وقد سلك هذا الجيش طريق لومبارديا ماراً بدلماسيا فاليونان .

٣ – جيش الوسط بقيادة دوق نورمنديا وكونت « بلوا » فسلك طريق ايطاليا حيث انضم اليه جيش رابع يتألف من عشرة آلاف فارس وعشرين

الف راجل بين ايطالي ونورمندي بقيادة « بوهيمون » .

كان حصار « نيقيا » اولى العمليات الحربية التي قام بها الصليبيون ، واستمر الحصار شهرين (نيسان وايار سنة ١٠٩٧) استعان الفرنجة خلالها بمواهب المهندسين اليونانيين وبآلاتهم . وفي « اسكي شهر » حصل الاشتباك الاول بين الفرنجة والاتراك (اول تموز ١٠٩٧) فتلقى فرسان القائد التركي ألب ارسلان رجال « بوهيمون » بتكتيك اشاع الفوضى في صفوف هؤلاء . ذلك بان الاتراك عهدوا الى الفرسان بمهمة رمي اعدائهم بالنبال ، فكان كل صف من الخيالة يتقدم من الفرنجة ويفرغ جعابه ثم يعود الى مكانه فاسحاً المجال امام صف آخر . وفي هذه الاثناء كان الرماة في صفوف الفرنجة يعاون كتلة واحدة فاخذ منهم التعب جميعاً في وقت واحد ، عندئذ انقض عليهم الاتراك واعملوا فيهم السيوف والخناجر . فارتدت قوات بوهيمون متخذة من مركباتها حاجزاً يقيها ضربات العدو . وكان قائدها قد ارسل الى الجيوش المتخلفة يطلب اليها ان تستحث الخطى ، فوصلت في الوقت المناسب واستطاع المقدم « دي مونتبل » ان يقوم بحركة لف مستترة لم يشعر بها الاتراك الا وهم مطوقون ، فركزوا مجهودهم ضد اضعف النقاط في صفوف اعدائهم واستطاعوا ان يشقوا لانفسهم طريقاً مولين الادبار ، متخلين عن مركباتهم ومؤنهم .

وقد اجمع المؤرخون على القول ان معركة « اسكي شهر » جعلت الاتراك يتهيبون الفرنجة ويقدرون مزاياهم العسكرية . وذهب فريق منهم الى ابعد من هذا فزعم ان انتصار الفرنجة في « اسكي شهر » اخر استيلاء الاتراك على القسطنطينية زهاء ثلاثة قرون .

كان الزحف الى انطاكية عبر الهضاب الجرداء امتحاناً قاسياً لمعنويات

الحملة . فقد مات خلق كثير جوعاً وعطشاً وهلك معظم الجياد فتألف من فرسانها قطعات راجلة نحا القادة في تنظيمها منحى اليونانيين ، واضطرهم نشاط العدو ويقظته لتغطية الطليعة والمؤخرة والجناحين .

ولم تكن انطاكية بالمدينة السهلة المنال ، فقد جعل منها الفن البيزنطي حصناً منيعاً جداً بتشييده حولها اربعمائة سور ترتكز على العاصي وعلى منحدرات جبل سيليوس . وقد حاصرها الاتراك قبل عشر سنين ولولا خيانة فريق من ابنائها لما اتيح لهم الاستيلاء عليها .

استمر حصار المدينة زهاء سبعة اشهر تخللتها اشتباكات عنيفة ومواقع وقف عندها مؤرخو العصر لاهميتها من الناحية الفنية . ومن هذه المواقع موقعة بحيرة انطاكية التي انتصر فيها الصليبيون بفضل براعة القائد بوهيمون .

ترامى الى القائد ان مدداً عظيماً يزحف الى انطاكية من حلب فخف لملاقاة خصمه على رأس سبعمئة فارس مخلفاً المشاة حول المدينة المحاصرة ليحموا المعسكر والمؤن . وقد اختار بوهيمون لمقاتلة جيش النجدة الممر الضيق الذي يفصل بين العاصي وبحيرة انطاكية ، لعلمه ان معركة تدور رحاها على رقعة بمثل هذا الضيق لا يكون فيها اي تأثير للتفوق العددي ولا يتسع المجال لحرب الحركات والمناورة ضد الجناحين .

وقد انتصر فرسان بوهيمون بفضل شجاعتهم ورشاقة حركاتهم وولى جيش النجدة الادبار متخلياً عن عتاده الثقيل . واتصل خبر الهزيمة بحامية انطاكية فدب الخور الى عزائمها وساوم واحد من المكلفين حماية احد الاسوار الخارجية القائد بوهيمون على التسليم فتمت الصفقة وكانت من العوامل التي عجلت بسقوط المدينة ، فدخلها الفرنجة في الثالث من تموز ١٠٩٨ .

وبعد سقوط انطاكية بدأ الزحف الى بيت المقدس فبلغت الحملة اسوار

المدينة في السابع من حزيران سنة ١٠٩٩ ، فأقام روبير دوق نورمنديا معسكره في القطاع الشمالي ، وعسكر جيش غودفروا دوبويون الى الغرب امام « باب داود » ، واحتشدت قوات الكونت دوتولوز جنوباً على جبل صهيون . وصبيحة ١٣ حزيران شن الفرنجة هجوماً على المدينة فأخفق لان الاسلحة التي استخدمت في الحصار لم تكن متكافئة مع قوة الجهاز الدفاعي ومناعته . وزاد المحاولة صعوبة اشتداد القيظ وندورة الماء . على ان اخفاق الهجوم الاول لم يفت في عضد الفرنجة لانهم كانوا يرتقبون وصول اعتدة جديدة . وقد وصلت هذه الاعتدة الى يافا في ١٥ حزيران وتولى مئة فارس نقلها الى ضواحي بيت المقدس بعد ان احبطوا محاولة تركية كانت تهدف الى اغراق القافلة البحرية قبل ان تفرغ السفن شحناتها . فضحى الفرسان بالسفن ولكنهم انقذوا الاعتدة الحربية والاخشاب والحبال والمؤن والبحارة . وكان بين هؤلاء مهندسون يتقنون صنع آلات يمكنها دك الاسوار المنيعة ، فافادت الحملة من اختصاصهم . وما هي الا بضعة عشر يوماً حتى توفر لدى الفرنجة اسوار نقالة ومجانيق ضخمة . وفي ليل ٩ – ١٠ تموز اقيم سور خشبي امام اسوار المدينة الشمالية الشرقية وسور خشبي ثان على جبل صهيون واقيم الثالث امام « باب العازر » . وفي ليل ١٣ – ١٤ تموز شن الفرنجة هجوماً [illegible] ، فجاءت النتائج الاولى مخيبة للامال لان الحامية غطت الاسوار باكياس ملئت قطناً وتبناً ، فلم تؤثر في الجدران مقذوفات المجانيق وكان معظمها يقذف حجارة ضخمة . ولجأت الحامية الى اسلحة دفاعية منوعة منها الزيت المحروق والنار اليونانية والسهام المسمومة والكبريت السائل . وفي اليوم الثالث كسا القائد غودفروا سوره الخشبي النقال (يسميه بعض المؤرخين القصر الخشبي النقال) جلود حيوانات طرية ليدفع عنه خطر النار ، فأعطى هذا السلاح المضاد

النتيجة المتوخاة . وفي ١٥ تموز اصبح بيت المقدس في قبضة الفرنجة .

الحملة الثانية . — قام بالحملة الصليبية الثانية جيشان كبيران احدهما الماني بقيادة الامبراطور كونراد والآخر فرنسي بقيادة لويس السابع . وقد هزم الالمان في موقعة اذرولية Dorylée وتفرقوا ايدي سبا . اما الفرنسيون فقد قامت في طريقهم عقبات كأداء واضطرتهم دسائس الترك واليونانيين لتعديل خططهم اكثر من مرة . وكانت الحملة الفرنسية تهدف في الدرجة الاولى الى دفع الخطر عن بيت المقدس بعمليات الماء واسعة النطاق . واقر الملك على هذه الخطة قادة الجيوش الصليبية التي لحقت بالجيش الفرنسي . بيد ان الخلاف ما لبث ان دب الى صفوف الصليبيين فاستثمر السلطان صلاح الدين تخاذلهم سياسياً وعسكرياً واسترد مدينة القدس سنة ١١٨٧ .

الحملة الثالثة . — حاصر غي دولوزينيان مدينة عكا سنة ١١٨٨ واحتل جزءاً منها . ولكن الحامية المسلمة استطاعت حصر الفرنجة في نطاق ضيق فتناسى الملكان فيليب اوغست وريشار قلب الاسد منازعاتهما وخفا لنجدة غي دولوزينيان فحاصر جيشاهما المدينة الحصينة واستخدما في دك اسوارها وقلاعها اسلحة جديدة منها الحراقات . وما ان سقطت عكا حتى عاد فيليب اوغست الى اوروبا تاركاً عشرة آلاف فارس تحت امرة ريشار قلب الاسد .

اما الحملات الصليبية التي تعاقبت مذ ذاك فقد كان اشتراك الفرنسيين فيها ثانوياً ولم يتخللها من الاحداث العسكرية ما يستحق الوقوف عنده .

نتائج الحملات الصليبية . — اتيح للفرنجة في الشرق ان يجددوا فنهم العسكري وينظموا جيوشهم تنظيماً جديداً . اقتبسوا من اليونان اساليب تكتيكية اعتمدوها في مهاجمة المدن الحصينة وفي الدفاع عنها . وتعلموا من خصومهم العرب فن المناورة واللف والتمويه ، وقبسوا منهم فن التغطية

والتراجع المنظم . واثبت مشاتهم سنة ١١٤٦ ، وهم يتراجعون عن بصرى ، انهم لا يقلون عن العرب صبراً وشجاعة ومقدرة على تغطية الاهداف الحيوية .

اما الخيالة الصليبية فقد ظلت العنصر الرئيسي في معارك الارض المكشوفة . ولاحظ القادة ، بعد حصار انطاكية ، ان الفرسان عاجزون عن مجاراة العدو في المناورة ، لان اسلحتهم الثقيلة تبهظ كواهلهم ، فجهزوهم باسلحة خفيفة من صنع معامل دمشق . وافاد الصليبيون من براعة الصناع الدمشقيين فاستصنعوا سيوفاً حدها من الفولاذ ، وآلات خفيفة لقذف العدو بالنار اليونانية .

وبعد انشاء المملكة الصليبية ازداد عدد المحاربين المرتزقة ، لان المملكة الجديدة اضطرت لابقاء جيش كبير تحت السلاح عهدت اليه بالدفاع عن المراكز الاستراتيجية الهامة . ويذكر المؤرخون ان الوفاً من ابناء البلاد جندوا في مناطقهم للدفاع المحلي .

وانشأ الفرنجة في الشرق قصوراً حصينة وقلاعاً على غرار القصور التي شيدها اجدادهم في فرنسا . بني معظم هذه الانشاآت على هضاب تشرف على طرق المواصلات الرئيسية ، « كقلعة الحصن » التي تحمي الثغرة بين حمص وطرابلس ، وقلعة الشقيف وغيرهما .

ورافق قيام المملكة الصليبية انشاء المؤسسة المعروفة بـ « فرسان الهيكل » . فبدأت دينية بحتاً ثم تحولت الى منظمة عسكرية ، ووضعت سيوفها في خدمة الملك والدين . وبعد انهيار المملكة انسحب الفرسان الى رودس ، فحصنوا الجزيرة لتكون حاجزاً بين الشرق الناهض المتحفز للوثوب ، وبين الغرب المتفسخ المنقسم على نفسه .

٥ – فيليب اوغست وموقعة بوفين

ناشد البابا الملك فيليب اوغست سنة ١٢٠٨ ان يعود الى المشرق على الجيش الفرنسي

رأس حملة صليبية جديدة ، فكان جواب الملك انه لا يستطيع براح فرنسا « لان أسدين هصورين يتهددان جناحيه . فالامبراطور اوتون وملك انكلترا يبذلان ما في وسعهما لاشاعة الفوضى والاضطراب في المملكة الفرنسية » .

لم يعدُ فيليب اوغست الحقيقة في جوابه على مناشدات البابا : خلف له والده لويس السابع مملكة واسعة ، لان زواجه باليونور ابنة دوق « الاكيتين » ووارثته الوحيدة ألحق بفرنسا دوقيات « غيين » و « غاسكونيا » ومقاطعات « سانت » و « بواتيه » و « بوردو » . بيد ان طلاقها وزواج اليونور من « هنري دوبلانتاجينه » دوق نورمنديا وسيد بريتانيه بسط ممتلكات هذا الامير القوي حتى باتت تشمل خمسي الاراضي الفرنسية . وبعد زواج هنري ببضعة عشر شهراً امّن لنفسه عرش انكلترا ، فاعتلاه باسم هنري الثاني وصار تابعاً لملك فرنسا في ممتلكاته عبر المانش . غير ان هنري ما لبث ان طمح الى بسط سيطرته على فرنسا كلها ، فقام بينه وبين « آل كابيت » نضال عنيف واستمر العداء بين البيتين المالكين ، وظلت المسألة المختلف عليها معلقة الى ان ارتقى العرش الفرنسيُ فيليب اوغست ، فقرر الفصل فيها وتوحيد المملكة توحيداً نهائياً .

وكان وجود ريشار قلب الاسد ملك انكلترا على رأس قواته في فلسطين المناسبة التي طالما تحينها الملك الفرنسي لطرد خصومه من الارض الفرنسية . فترك ريشار حول اسوار عكا ، وقفل راجعاً الى فرنسا حيث شرع يهاجم الممتلكات الانكليزية . واتصل الخبر بريشار فخف للدفاع عن اراضيه ، فقتل في موقعة « شالو » . وعلى الاثر اعتلى العرش الانكليزي شقيقه « جان سان تير » بعد ان فتك بولي العهد الامير ارثر . واستثمر اوتون امبراطور المانيا الوضع الجديد فمد يده الى « جان سان تير » ودوق الفلاندر وعقد ثلاثتهم الخناصر

استعداداً لضرب جناحي فيليب اوغست .

لم يفاجأ ملك فرنسا بهذا الحلف القوي ، فهو لم يسقط من حسابه تألب الالمان والانكليز عليه عندما اخذ على عاتقه تحقيق الوحدة الفرنسية ، فاوعز الى النبلاء في مقاطعة « شامبانيا » بان يحصنوا قصورهم وينشئوا تحصينات قوية لتغطية المراكز الحيوية . وعمد هو الى اسوار مدينتي ريمس وشالون فدعمها بجدران سميكة ، وحفر امامها خنادق عميقة . ولم ينس باريس فأتم سنة ١٢١٠ بناء السور الذي كان قد شرع في بنائه قبل الحملة الصليبية .

وفي سنة ١٢١٢ حشد فيليب ١٥٠٠ مركب لغزو انكلترا . ولكنه استخدم هذه « الارمادا » في غزو سواحل الفلاندر ، لان البابا صرفه عن مهاجمة انكلترا . بيد ان حملة الفلاندر لم تنجح ، وزادت سكان البلاد تشبثاً بالحلف الثلاثي . فقرر الحلفاء القضاء على فرنسا كدولة عظيمة ورسموا خطة الهجوم التالية : يزحف الالمان والفلامان والانكليز من الشمال ، وفي الوقت نفسه ينزل الملك جان على رأس حملة في ميناء « لاروشيل » ويسعى الى اثارة تابعيه السابقين ويجتهد في استدراج ملك فرنسا بعيداً عن باريس ، ليتسنى لجيش الشمال ان يتقدم دون مشقة .

جيش فيليب اوغست . — آلى فيليب اوغست على نفسه حماية المملكة الفرنسية ضد كل طامع فرنسياً كان او اجنبياً ، واعد لهذا الغرض جيشاً قوياً نحا في تنظيمه وتجهيزه منحى جديداً ، دون ان يغفل القواعد الاساسية التي وضعها سلفاؤه من آل « كابيت » . من ذلك انه عمل على توثيق العلاقات بينه وبين متبوعيه ، وعني عناية خاصة بالميليشيا الشعبية ، وسن قوانين تجيز اعفاء ذوي العاهات والمرضى وارباب العيال من الخدمة العسكرية ، لقاء قيامهم بدفع اجور الجنود المرتزقة .

وادرك فيليب اوغست اهمية الانسجام في صفوف المحاربين ، فوزعهم على قطعات تضم كل واحدة منها رجالا تشابهت اسلحتهم وطريقتهم في القتال . فالفرسان الخفاف انتظموا في قطعة على حدة ، واسندت اليهم مهمة مطاردة العدو المتراجع ، وجعلت الخيالة المدرعة قوة الطليعة ووزعت على وحدات تضم الواحدة منها مئة فارس .

ولم يتوصل فيليب اوغست الى حل معضلة الجيش الدائم . فلم يتجمع لديه في اوائل القرن الثالث عشر اكثر من اربعة آلاف مقاتل ، معظمهم من المرتزقة الذين كانوا يضعون سواعدهم في خدمة الملك او الزعيم الاكثر بذلا . وكانوا في السلم يعيثون في البلاد فساداً ، فيسلبون الناس ويسطون على الدور الآمنة دون ان تجرؤ السلطات على مناقشتهم الحساب . بيد ان فيليب اوغست عرف كيف يكبح النزعة الشريرة في نفوس المرتزقة ، فجعل منهم اداة صالحة ، وكفاهم مؤونة السلب والنهب بان اجرى عليهم المنح والهبات .

وادخل الملك فيليب اوغست تعديلات جوهرية على القيادة . فعهد الى النبلاء الصغار بقيادة الميليشيا الشعبية ، وبالدفاع عن القلاع والحصون . وناط بوزيره الاول مهمة اعداد الخطط الحربية والاشراف على تنفيذها . وجعل من المارشالية واسطة العقد بينه وبين الدوقات، والكونتية والبارونات .

التحصينات . — اجمع المؤرخون على ان الملك فيليب اوغست كان مهندساً بارعاً . ففي عهده تقدم فن الهندسة العسكرية تقدماً عظيماً . فحلت القلاع المشيدة بالحجارة محل الصروح الخشبية . كان الصرح يبنى على منحدر وعر المسالك ليكون مسكن النبيل او السيد والركن الدفاعي المنيع .

كانت الصروح قبل فيليب اوغست ذات شكل مثلث يحيط بها سوران

يلامس احدهما جدران الصرح حتى شرفات الطابق الاعلى ، مغطياً الطابقين الارضي والاول حيث كانت تتراكم المؤن والاعتدة والذخائر . اما السور الآخر فيحيط بالصرح ، يفصل بينهما فناء عريض قامت عليه الاسطبلات وابنية اخرى لايواء الحامية .

امر فيليب اوغست بتشييد قلاع وصروح مسدسة الزوايا ، واخرى ذات زوايا متعددة ، وجعل الفاصل بين السور الخارجي والسور الداخلي فناء تتقاطعه الخنادق والحفر . وفتح في كلا السورين ثغرات لايواء الرماة متصلة بالفناء بسلالم حلزونية .

وحسن الملك « المهندس » وسائل الهجوم فامر بصنع مجانيق مجهزة برقاصات يمكنها ان تطلق قذيفة او حجراً تراوح زنته بين عشرة و ١٥٠ كيلوغراماً ، وبصنع اسوار وصروح نقالة يختبيء المهاجمون في داخلها . وانشأ وحدة من النجارين اطلق عليها اسم « حملة الهندسة » وناط بها صنع المجانيق والاسوار في ميدان المعركة .

التكتيك . — استعان فيليب اوغست بقادة من الرهابين والنبلاء ضربوا من الفن العسكري بقسط وافر . وكان المتوفرون على التعمق في هذا الفن يعنون عناية خاصة بحرب الحركات ويوجهون اهتمامهم الى القتال على الارض المكشوفة ، وينصحون بالاقلاع عن قتل الوقت في محاصرة القلاع لان الحملة الناجحة تضع في متناول المهاجم مفاتيح الحصون المنيعة والمدن المحصنة .

ووضع اساتذة الفن العسكري قواعد معينة للتكتيك الهجومي والدفاعي . ففي الهجوم يمكن احراز النصر بحملة جبهية قوية ، او بعملية لف سريعة تباغت العدو . وفي الدفاع تظل الصفوف متراصة اذا ارتكزت العمليات الدفاعية على جهاز عميق ، ويمكن تجنب حركات اللف المعادية بجعل الجبهة

الدفاعية موازية لجبهة الخصم من حيث الاتساع .

معركة بوفين . — قلنا ان ملك انكلترا « جان سان تير » اخذ على عاتقه استدراج فيليب اوغست الى « لاروشيل » ، فيخلو الجو للجيوش الحليفة الزاحفة من المانيا والفلاندر . وقد وصل جان الى « لاروشيل » في شباط سنة ١٢١٤ ، وكفاه الذهب الذي نثره بسخاء مؤونة القتال ، فسلم اليه ستة وعشرون سيداً مفاتيح ستة وعشرين صرحاً وقلعة . وانتهى خبر الغزو الى فيليب اوغست فخف لتدارك الموقف بعد ان استوثق من ارتداد جيوش الامبراطور اوتون الى منطقة الحدود ، ليعيد القادة النظر في تنظيمها . فاسرع الملك جان الى الاعتصام ما وراء نهر « الغارون » غير مكترث لمصير الاسياد الذين ألبهم ضد ملكهم . فاقتص منهم فيليب اوغست دون ما شفقة . ثم قفل عائداً الى الشمال ملقياً على عاتق ولي عهده الامير لويس احباط محاولات « جان سان تير » فاعتصم الامير في القلاع والصروح والمدن المستردة .

ما ان اتصل بملك انكلترا خبر رحيل فيليب اوغست حتى زحف على محاذاة نهر « اللوار » وحاصر قلعة « روش » القائمة حاجزاً منيعاً في طريقه . وقد استخدم الانكليز في دك الاسوار المقذوفات الثقيلة والعتل الضخمة والالغام . وكان الرماة يغطون عمليات الحفر بسهام مسمومة يرشقون بها المدافعين ليرغموهم على التواري . ولكن الحامية استبسلت في القتال وظلت تكافح خمسة عشر يوماً . وفي اليوم السادس عشر وصل الامير لويس على رأس جيشه الصغير المؤلف من الف فارس وسبعة آلاف راجل ، فولى رجال الملك جان الادبار قبل ان يلتقي الجيشان تحت اسوار القلعة العظيمة .

في هذه الاثناء كان جيش فيليب اوغست وجيوش الحلفاء قد احتلت مراكزها . فاحتشد ثلاثون الف فرنسي في « بيرون » على نهر « السوم »

وخمسة وسبعون الفاً من الالمان والفلامان حول « فالنسيين » . وكانت الخيالة في جيوش الحلفاء ضعفي ما كان منها في جيش الملك فيليب اوغست .

قرر الملك الفرنسي مفاجأة العدو باللف حوله من الشمال . وقد بلغ بلدة « تورنه » صباح السادس والعشرين من تموز . بيد ان الحلفاء تفادوا هذه الحركة بالانتشار على طول نهر « الايسكو » ، فعدل فيليب عن خطته واعتمد عكسها ، فقرر نشر جيشه على الضفة الغربية لنهر « مارك » ، وكان جسر « بوفين » الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها الأنتقال من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية .

شرع الجيش الفرنسي يتجه شطر الغرب صباح الاحد الموافق ٢٧ تموز تحمي مؤخراته فصائل من البورغونيين والشامبانيين . وكان الملك قد عقد مجلساً قبل تحرك الجيش ، فقال فريق من القادة ان اوتون لن يهاجم في يوم مقدس كيوم الاحد ، وخالفه فريق آخر على رأسه الراهب « غيران » رئيس اركان الحرب .

وبعد مسير بضعة فراسخ قام الراهب بعملية استطلاعية ، فشاهد الجيوش المتحالفة تجد في السير شمالا مجتازة ارضاً تتخللها المزالق ، فنصح بمباغتة العدو ، ولكن الملك لم يستمع للنصيحة فعبرت القوات الرئيسية نهر مارك تحمي مؤخراتها فصائل تخلفت على الضفة الشرقية للنهر . وقد فوجئت هذه الفصائل بهجوم شنه عليها الفلامان فقاومتهم واستطاعت ان تتقهقر بنظام . واتصل الخبر بفيليب فحشد جيشه قبل وصول الجيوش المتحالفة . وعند الظهر كان الخصمان وجهاً لوجه .

كانت خطة الامبراطور اوتون ترمي الى فتح ثغرة في قلب الجيش الفرنسي . وقد شغل هو قلب الجيوش المتحالفة تحوطه خيالة « الساكس »

واللورين ولمبورغ ونامور . واحتشد امامها المشاة الجرمانيون وميليشيا الفلاندر وشغل الجناح الايمن الجيش الانكليزي بقيادة ساليسبوري وقوات « هوغ دوبوف » و « رينو دودامرتان » وهو فارس فرنسي انشق على مليكه . اما الميسرة فقد ضمت خيالة البلدان المنخفضة بقيادة الكونت « فران » .

تولى الراهب « غيران » نشر الجيش الفرنسي . وعني عناية خاصة بتعزيز الجناح الايمن اقتناعاً منه بان المعركة الحاسمة ستدور على الرقعة الشرقية من ساحة القتال . فحشد مقابل خيالة الكونت فران نخبة القوات الفرنسية . واحتشد في الوسط ميليشيا العاميات الاقطاعية حول الملك فيليب الذي احاط به فرسان حرسه ، وشغل الجناح الايسر الف فارس بقيادة ابناء عمومة الملك تغطيهم ميليشيا قوية ، وعهد فيليب بحماية جسر بوفين الى فصائل من فرسان الحرس .

تقابل الجيشان على جبهة طولها ثلاثة كيلومترات . وكان الخط الفرنسي قليل العمق لان الراهب « غيران » اجتهد في جعل الجبهة الفرنسية موازية للجبهة المعادية رغم رجحان كفة الالمان من حيث العدد . وقد اعترض فيليب اوغست على الطريقة التي نشر بها الراهب قواته . فتشبث « غيران » بها لانها الطريقة المثلى لتفادي حركات اللف .

بدأت المعركة الساعة الثانية بعد الظهر بهجوم شنه مئة وخمسون فارساً فرنسياً كانوا يؤلفون اقصى الجناح الايمن . وعلى الاثر تحرك مشاة الامبراطور اوتون في الوسط بعد ان مهدت لهجومهم النبال المسمومة . فاندفع عشرون الفاً في صفوف متراصة وبخطى ثابتة واستطاعوا ان يدفعوا بالميليشيا الفرنسية الى الوراء . وما لبث القتال ان امتد الى الغرب شاملاً الجبهة كلها .

وبعد ساعة من الزمن تغلب فن المناورة الفرنسي في القطاع الشرقي على

شجاعة فرسان الفلاندر وتفوقهم العـددي ، فراح الكونت « دوسان بول » وفرسانه الخفاف ينقضون على جناحي الخيالة المعادية في حملات خاطفة ، حتى اضطر « فران » كونت دوفلاندر لتقوية الجناحين على حساب القلب . فادى هذا التدبير الى اضعاف ميسرة العدو كلها فلم تعان خيالة الكونت « دوسان بول » مشقة كبيرة في استثمار نجاحها المبدئي ، وعجل في انهيار ميسرة الجيوش المتحالفة وقوع « فران » في الاسر .

وفي هذه الاثناء كان القتال على اشده في الغرب من اجل جسر بوفين ، فقام سالبسوري ورينو دو دامرتان بسلسلة محاولات جريئة ضد الميسرة الفرنسية . ولكن قواتهما لم تنجح في بلوغ اهدافها ، لان الفرنسيين كانوا يسارعون الى سد الفجوات المفتوحـة وتمكنوا الى النهاية من العمل صفوفـاً متراصة .

تلقى قلب الجيش الفرنسي الصدمة القوية كما تقدم معنا ، فـادى تقهقر الميليشيا الى كشف موقع الملك فيليب ، فحمل عليه العدو حملة قوية قبل ان يلتمس مخرجاً من الورطـة . وكان يحيط به قبضة من الفرسـان الاوفيـاء فناضلوا واحداً ضد عشرين وجندلوا ستين المانياً قبل ان تكسر الحلقة حول الملك . ولما تبين فيليب الخطر الداهم انقض على اعدائه محـاولا ان يشق الصفوف الى حيث كان الامـبراطور اوتون يراقب سـير المعركة . ولكن فارساً غارقاً بالحديد استطـاع ان يقلب الملك الفرنسي عن جواده ، فاحاط المشاة بالفريسة يهوون عليها بفؤوسهم وخناجرهم وحرابهم فتحطمت اسلحتهم على زرد فيليب وخوذته . فقرروا بعد ان اعياهم الطعن ان يحملوه اسيراً الى امبراطورهم . الا ان الميليشيا حزمت امرها في الوقت المناسب ، وكرت بقوة اعادت طلائعها الى نقطة الابتداء فانقذت الملك ، ومشت في اثره تشق صفوف العدو الذي اذهلته المفاجأة فانهزم كاشفاً موقع الامبراطور . ولم يتمكن ملك

فرنسا من منازلة خصمه لان اوتون ولى الادبار مخلفاً ثلث جيشه تحت رحمة سيوف الفرنسيين، فقتل هؤلاء منهم خلقاً كثيراً وغنموا مغانم عظيمة.

وقد اجمع المؤرخون على ان معركة بوفين خطوة واسعة نحو تحقيق الوحدة الفرنسية وخلق نواة الجيش الفرنسي. فقد برح فرسان الاقطاعية وميليشيا العاميات والجنود المرتزقة، ساحة المعركة التاريخية يشدهم بعضهم الى بعض اخوّة السلاح تحت راية ملك انتزع الاعجاب العام بشجاعته وبعد نظره. بيد ان انتصار بوفين ومعاهدة «شينون» التي كرسته لم يضعا حداً للنزاع لان ملك انكلترا احتفظ باقطاع كبيرة في فرنسا الغربية، فكانت هذه الاقطاع جرثومة منازعات دامية.

الفصل الثالث

حرب المئة السنة

١ – فيليب الجميل والمؤسسات العسكرية

لم تكن موقعة بوفين انتصاراً للميليشيا على الخيالة . انما كانت معركة اقطاعية كسبها الفرسان ومثل فيها المشاة دوراً ثانوياً رغم كثرة عددهم ، لان اسلحتهم وتدريبهم لم تكن كافية .

انقضى بين وفاة فيليب اوغست وجلوس فيليب دوفالوا على العرش الفرنسي زهاء مئة عام لم يطرأ خلالها تبدل يستحق الذكر على المؤسسات العسكرية . فقد بدأت حرب المئة السنة باسلحة اقطاعية . على ان المؤرخين يعزون اثر الملك « فيليب الجميل » في الفن العسكري الذي تجلى في مواقع هذه الحرب الطويلة الامد . و « فيليب الجميل » هو حفيد القديس لويس واول ملك « عصري » في فرنسا الاقطاعية . بدأ عمله الاصلاحي بتقوية سلطة البرلمان على حساب سلطة النبلاء فاتاح لممثلي الامة الجو الصالح للعمل في سبيل المصلحة العامة . وكانت باكورة اعمال البرلمان في عهده الجديد مطالبته بتعديل قانون التعبئة وبتقوية الوسائل الدفاعية .

ورأى الملك ان الخدمة العسكرية العامة تسلخ الشعب عن ارضه ومصانعه فقرر ان يعفى من الخدمة من يغذي خزانة المملكة بمبلغ معين من المال . وكان

يرجو ان تعمر الخزانة بفضل هذا التدبير . الا ان المبالغ التي تجمعت فيها من هذا الطريق لم تكف لدفع اجور المرتزقة من الجنود الاجانب كالالمان والايطاليين والاسبان ، فالغى « فيليب الجميل » قانون البدل العسكري بعد مضي عام واحد على وضعه موضع التنفيذ واعتمد اصلاحات مالية شتى ليؤمن للخزانة المال اللازم . فبدأ بفرض ضرائب معينة على الاكليروس وايد البرلمان عمل الملك رغم احتجاجات البابا بونيفاس الثامن .

وقد اتاحت المنازعات الدولية للبابا ان يقتص من « فيليب الجميل » بتأييد اعدائه في ميادين السياسة والحرب . ولكن الملك ظل سادراً في عمله الاصلاحي ولم تصرفه مشاغل الحرب عن تنظيم الادارة والقضاء تنظيماً ابتعد بهما عن الاقطاعية وروحها .

ودعي الجيش الفرنسي في عهد الملك المصلح الى منازلة الانكليز اكثر من مرة . وكان محور النزاع في الغالب دوقية « غويين » . احتل فيليب الدوقية مدة خمس سنوات ثم ردها الى ادوار الاول بموجب معاهدة « مونتروي » ووعد ولي عهد انكلترا بيد ابنته ايزابيل . بيد ان سياسة التقرب هذه لم تقض على بواعث الخلاف ، فقد اوجس ادوار الاول وابنه من بعده خيفة من نمو الاسطول الفرنسي ، ومن ارتباط فيليب وايكوسيا بمعاهدة تحالف وصداقة لا يمكن ان تكون موجهة ضد دول القارة . لهذا راح البلاط الانكليزي ينشد الاصدقاء والحلفاء في الفلاندر والمانيا ، وانبرى رسله يبذرون بذور الشقاق بين الدوقيات الفرنسية سعياً منهم الى اضعاف الجبهة الداخلية .

وتخلل فترة السلم بين فرنسا وانكلترا او بين فيليب وادوار حرب الفلاندر سنة ١٣٠٢ ، فذاق الفرسان الفرنسيون مرارة الهزيمة في موقعة « كورتره » لان قائدهم « روبير دارتوا » لم يحسن ادارة العمليات الهجومية .

التقى الجيشان في منطقة « غرونانجه » المليئة بالمستنقعات . وكـان جيش الفلاندر يتألف من عشرين الف مقاتل راجل ، يقابلهم اربعون الف فرنسي نصفهم من الفرسان . وكان الفلامان والفلمنكيون قد حفروا خندقاً عميقـاً وغطوه بالحشائش فانتشروا على مقربة منه . وبدأ الرماة الفرنسيون يقذفون العدو بالنبال فتراجع . وعلى الاثر تدخل روبير دارتوا على رأس فرسانه ولكنه بدلا من ان ينقض على الجناحين تاركاً للرماة مهمة تغطيـة الخيالة ، اندفع نحو القلب قبل ان يستطلع حالة الارض ، فسقطت الطلائع في الخندق واستطاع روبير دارتوا والفا فارس ان يتحاشوه ، ولكنهم ابيـدوا جميعاً جنوب بلدة « كورتره » .

٢ – حرب المئة السنة

تعاقب على العرش الفرنسي بعد موت فيليب الجميل اولاده الثلاثة ، وتواروا الواحد بعد الآخر دون عقب ذكر . ولما كان نظام الوراثة يحظر توليـة النساء فقد ارتقى العرش سنة ١٣٢٨ فيليب دوفالوا احد حفدة القديس لويس . (فيليب دوفالوا هو ابن شقيق فيليب الجميل والقديس لويس جده لابيه) . وفي الوقت نفسه ارتقى العرش الانكليزي أدوار الثالث ، وهو ابن ايزابيل دوفرانس حفيدة القديس لويس وابنة فيليب الجميل .

وفي آب من العام ١٣٣٧ اعلن ادوار الثالث نفسه ملكـاً لانكلترا وفرنسا ، فقام بين الدولتين نزاع استمر مئة سنة ويزيد (١٣٣٧–١٤٥٣) . وقد خاض الفرنسيون غمرات هذه الحرب بجيش اقطاعي السلاح والتنظيم .

وضع النزاع في كفتي الميزان ملكين وشعبين وجيشين قامت بينها فروق عميقة . الملك فيليب في منتصف العقد الخامس ، شجاع ، عادي الذكاء ، ضعيف الارادة . والملك ادوار في الخامسة والعشرين ذو شخصية قوية وعقـل

راجح وطموح لا حدله . وقد شجع الملك الشاب على تحدي خصمه القوي عوامل منها الخارجي ومنها الداخلي . ففي الخارج ارتبط البلاط الانكليزي بمحالفات مع دوقية الفلاندر والامارات الالمانية . وفي الداخل التف حول العرش النبلاء الصعاليك ، تحدوهم جميعاً رغبة مشتركة في التوسع على حساب فرنسا ذات التربة الخصبة والحضارة اللامعة ، فرنسا المنقسمة شيعاً واحزاباً وطبقات . الشعب مع الملك ضد النبلاء ، وهؤلاء مع الملك ضد الشعب ومع الكنيسة ضد الملك .

وكانت حالة الجيشين مماثلة لحالة الشعبين . ففي انكلترا كانت التعبئة مؤمنة بالخدمة العسكرية الاجبارية . فكل انكليزي حر تراوح سنه بين السادسة عشرة والستين ملزم بتلبية النداء الا في احوال استثنائية ، كالمرض والعاهة . وكان الرؤساء يتفقدون حالة الجيش مرة كل شهر في اثناء المناورات وحفلات العرض ، فتتيح لهم هذه المناسبات امتحان الاسلحة والتثبت من كفاية التدريب . وافاد الانكليز من حملاتهم ضد ابكوسيا فادخلوا على ضوء نتائجها تحسينات فنية على القوى المسلحة . من ذلك انهم دربوا خيالتهم على القتال راجلة ، وخصوا المشاة بعناية كبيرة فحصروا الانخراط في وحدة الرماة برجال منخوبين دربوا تدريباً طويلاً وامتازوا برشاقة الحركة واحكام الضربات . .

اما في فرنسا فقد ابعد الترف ابناء الطبقة الوسطى عن حرفة السلاح الخشنة ، وكان الانسجام والمحبة مفقودين في جيش يتبادل فيه النبلاء والسوقة الحذر والبغض ويتألف ثلثه من اجانب مرتزقة . وكان الانحطاط في الخيالة الفرنسية قد بدأ في عهد فيليب اوغست ، فعني فيليب السادس برفع مستواها ولكنه اغفل العناية باسلحتها الهجومية والدفاعية فخاضت غمرات المعارك

بدروع ثقيلة ، وبحراب وسيوف طويلة وفؤوس ضخمة ، وباسلحة رماية قصيرة المدى كالتي استعملها الصليبيون في الشرق .

اما المشاة فلم يكن منهم في الجيش الفرنسي قطعات قادرة على الهجوم او على الصمود . فالقوات المساعدة ما كانت تتدخل في القتال الا اذا فسحت الميليشيا والفرسان امامها مجال التدخل . اما الميليشيا الشعبية (ميليشيا العاميات) فقد مثلت دورها ايام كان القتال فوضى والاسلحة واحدة في كل المعسكرات . فلما اصطلح في الهجوم والدفاع والكر والفر على قواعد معينة وتنوعت الاسلحة والوسائل الدفاعية ، فقدت الميليشيا الشعبية اهميتها كعنصر من فضائله العسكرية الاندفاع والشجاعة والثبات . ولم تكن ميليشيا المدن والمرتّقة احسن حالا . كانت اكثر تقيداً بالنظام تتلقى التعليمات من الرؤساء وتنفذها ، الا ان التعاون كان معدوماً بين صفوفها واللحمة مفقودة . اما القادة فكانوا يتقنون فن المناورة على ارض مكشوفة لا يتخللها نتوء او حصن او خندق ، ويفهمون المعركة انها مبارزة في ميدان واضح الحدود خال من المزالق . ولم يكن هذا حال زملائهم الانكليز ، فقد راحوا يبحثون عن الحواجز الطبيعية ليستخدموها في اغراضهم الهجومية والدفاعية ، وعمدوا الى الحصون فجعلوا منها نقاط ارتكاز .

معركتا كريسي وبواتيه . — كان تفوق فرنسا البحري كابوساً يجثم على صدر ادوار الثالث لعلمه ان الاسطول الفرنسي انما بني لاغراض هجومية اقربها الى التحقيق غزو انكلترا . وقد رفع الكابوس عن صدره في موقعة « ايكلوز » البحرية اذ دمر الاسطول الانكليزي اسطول فيليب السادس (فيليب دوفالوا) . وبعد زوال هذا الحاجز لم يلق الانكليز صعوبة في النزول على الارض الفرنسية والتوغل في نورمنديا وبريتانيا وغوين . وبعد ست سنوات

قضاها الفريقان في كر وفر في المناطق الثلاث ، فوجئت باريس ذات مساء بألسنة اللهيب تندلع من ضاحية « سان كلو » لان الطلائع الانكليزية وصلت اليها . فاستنجد الملك فيليب تابعيه وحلفاءه القريبين والبعيدين وهب على رأس جيشه لدفع الخطر عن العاصمة . فالتقى الجيشان في ٢٨ آب سنة ١٣٤٦ في بقعة مجاورة لغابة كريسي .

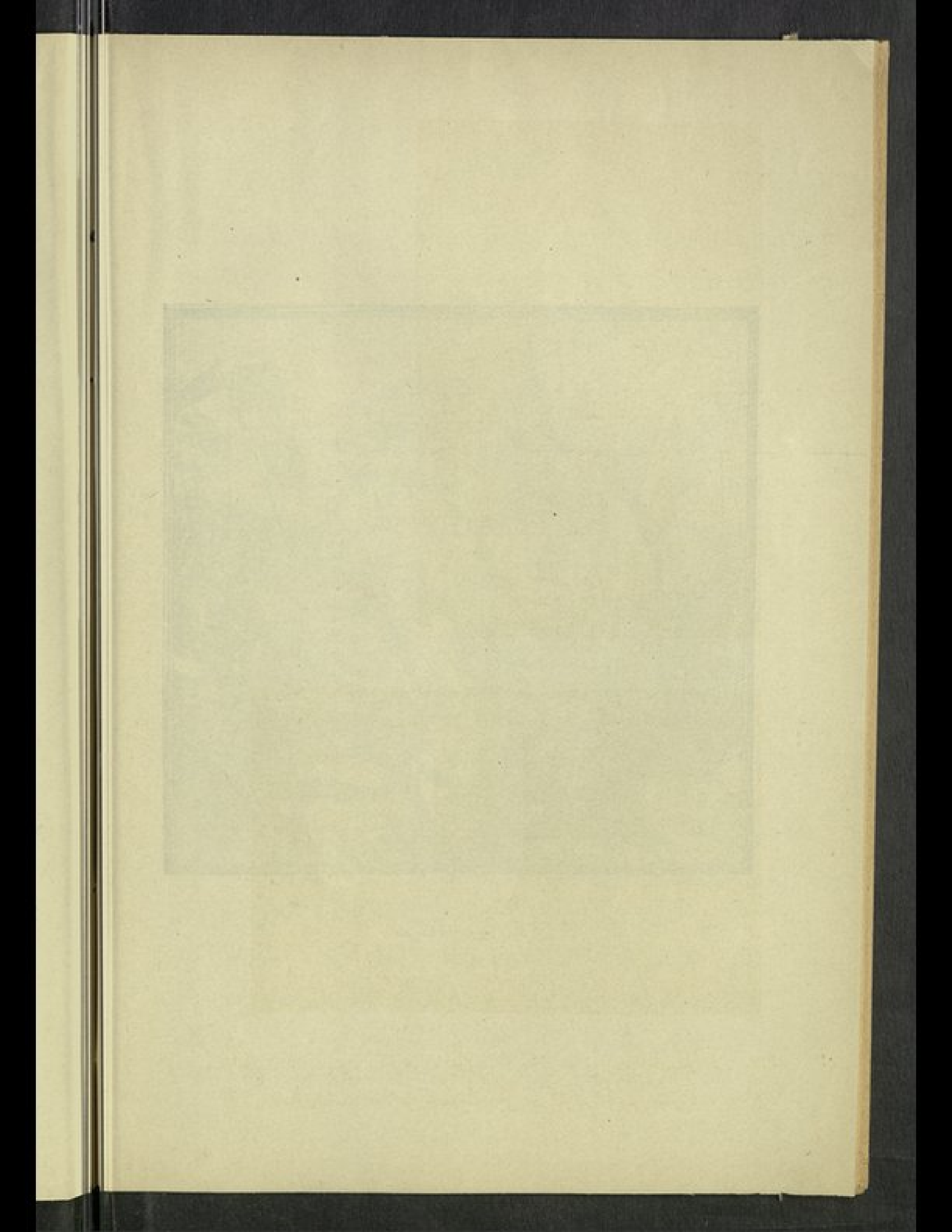
احتل الجيش الانكليزي مواقعه في اليوم السابق وتمركز الرماة من حملة الاقواس خلف هضبة ، بينا انتشر الفرسان وكانوا يؤلفون الجناحين تحميهم تروسهم وتغطيهم نبال المشاة ورماحهم الخفيفة . واقبل الجيش الفرنسي يتقدمه الفرسان وعلى رأسهم النبلاء ، فكان يسير دون نظام . اما عدد المحاربين تحت راية الملك فيليب فكان ضعفي المحاربين الانكليز .

ابى فيليب على الفرسان مباشرة القتال ، وناط المهمة بالقطعات الاجنبية ولاسيا متطوعي جنوى . تقوبل المهاجمون بوابل من النبال وفوجئوا بقصف شديد مصدره ثلاثة مدافع صغيرة لا عهد لهم بمثلها . فارتبكوا ثم دب الذعر الى صفوفهم فولوا الانكليز ظهورهم متلمسين سبل النجاة . فامر الملك فيليب فرسانه بانقاذ الموقف . ولكن جهودهم ذهبت سدى في فوضى الالتحام . وما غربت شمس ذلك اليوم حتى فقد الملك الفرنسي زهرة جيشه فانسحب تحت جنح الظلام يجر اذيال الخيبة .

التقى الجيشان مرة اخرى بعد عشر سنين في « بواتيه » وكان على رأس الجيش الفرنسي الملك جان دوفالوا ابن فيليب ، وقد حاول استدراج الجيش الانكليزي الى القتال على ارض مكشوفة ليسحقه تحت ثقل خمسة واربعين الف رجل . ولكن ولي عهد انكلترا تفادى الاشتباك ، لان عدد رجاله ما كان ليزيد على ثمانية آلاف ، فانسحب الى « غوبين » واختار للصمود ارضاً ضيقة تتقاطعها

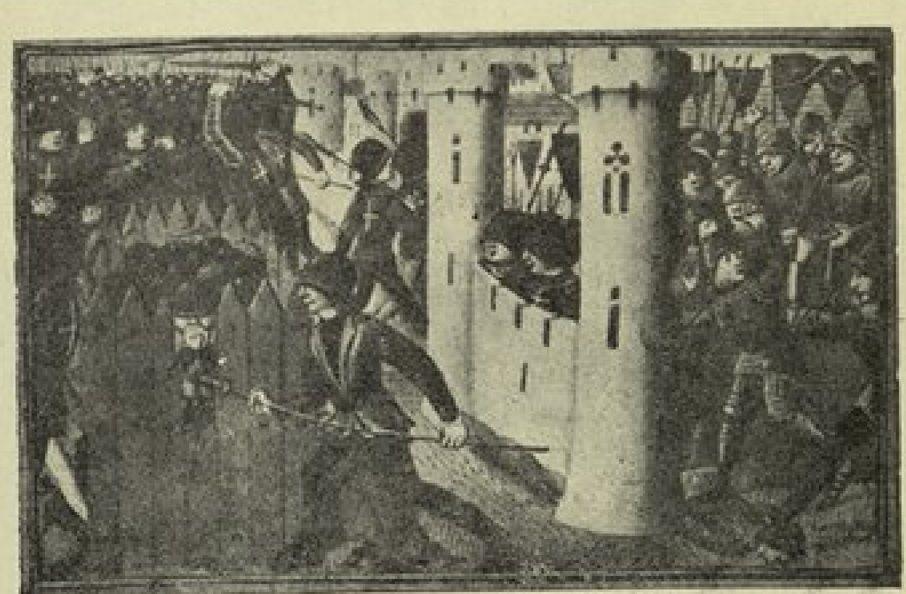


معركة روزبك

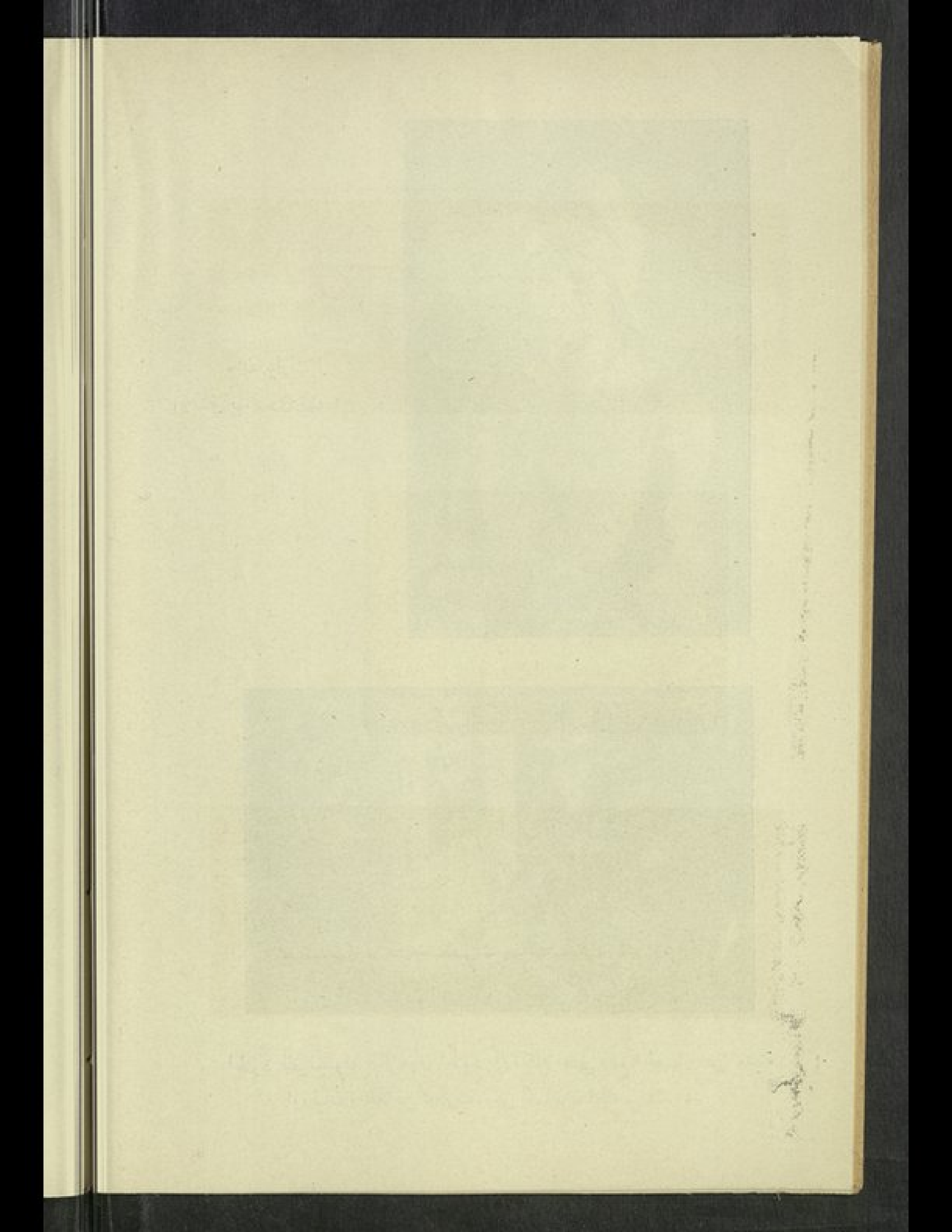




جان دارك
(بريشة ب . دي بينه) .



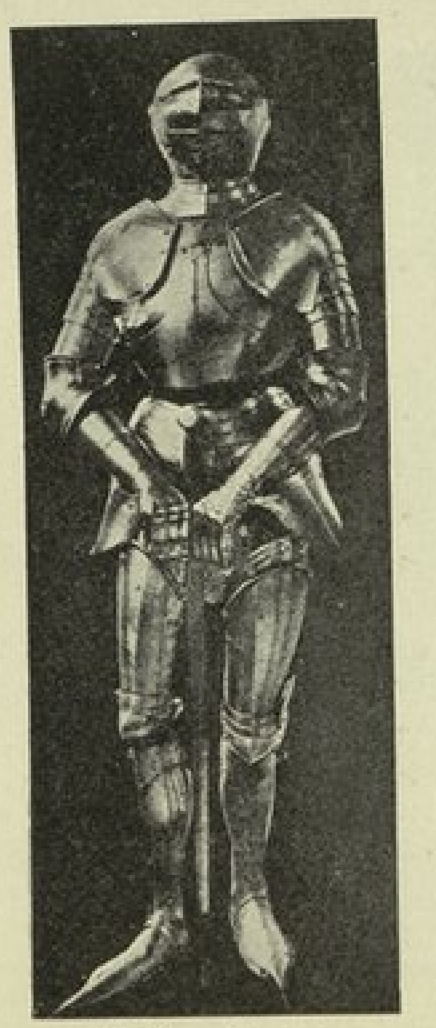
الجنود الفرنسيون يكرهون الجنود الانكليز على رفع الحصار عن مدينة اورليان (نقلاً عن مخطوطة ترقى الى القرن الخامس عشر) .





دي دوغلان كما يبدو في التمثال الذي
نصب فوق قبره في دير سان دني .

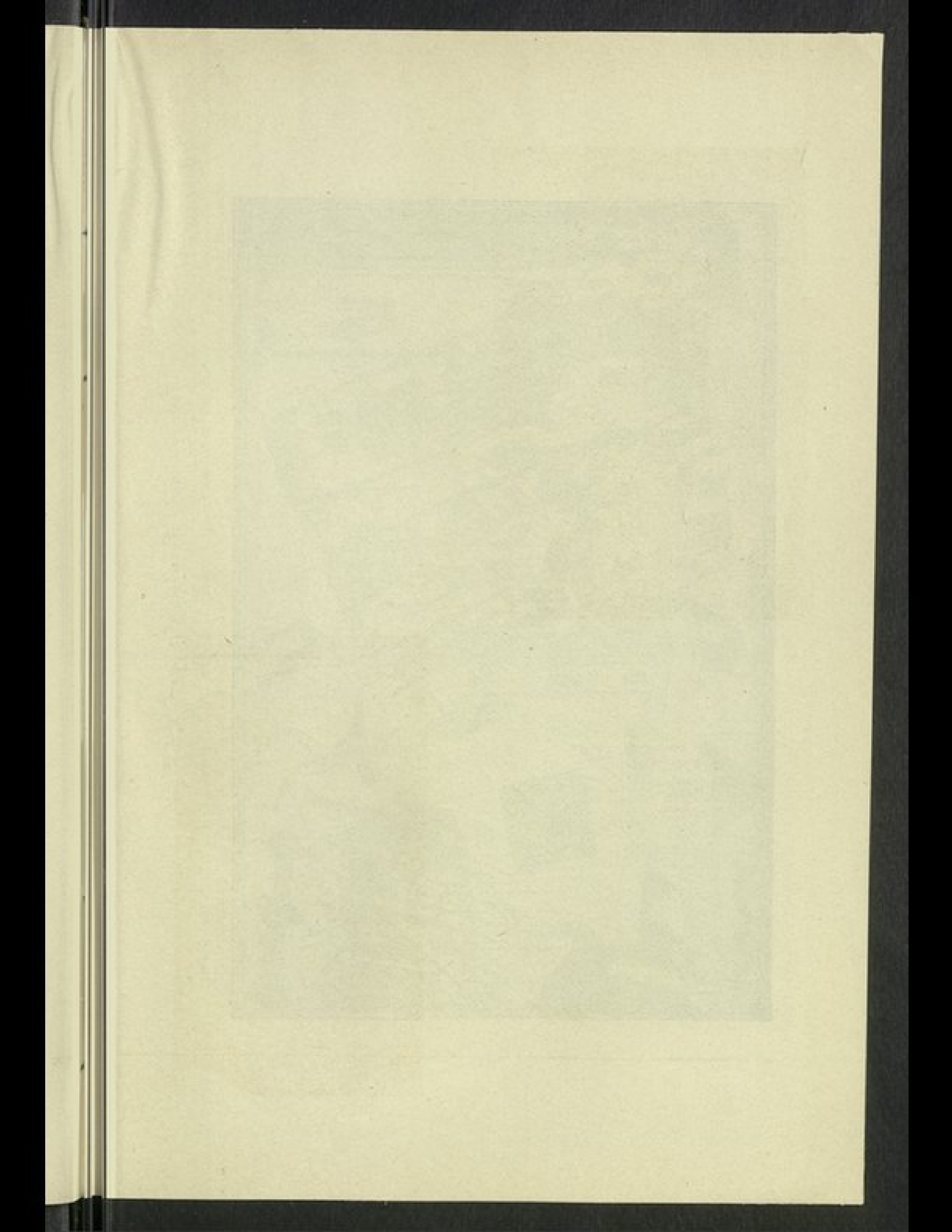
غطاء للرأس مدرع ، يرقى الى
اواخر القرن الرابع عشر .



جندي فرنسي في كامل
عدته حوالى ١٤٦٠ .



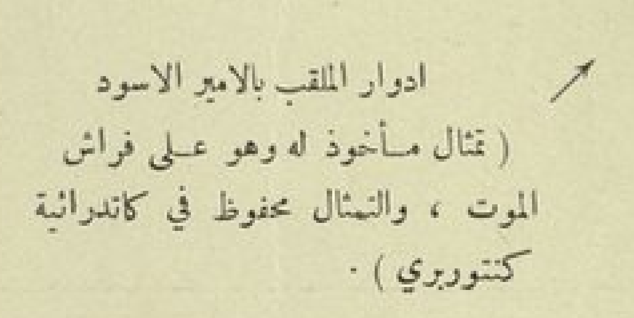
هجوم على قلعة (القرن الخامس عشر)



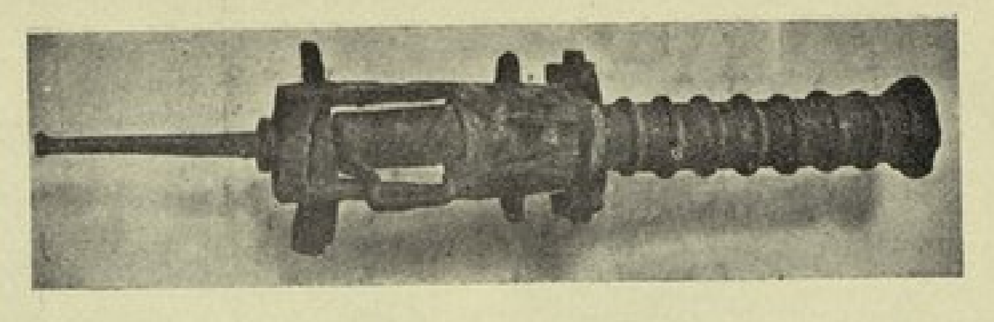


الملك لويس الحادي عشر

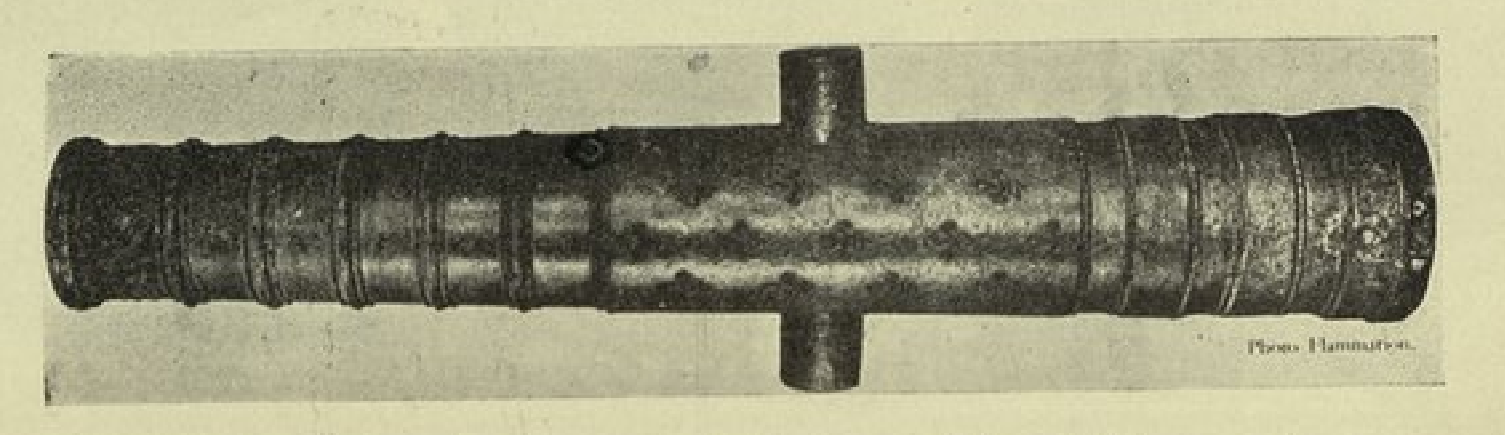




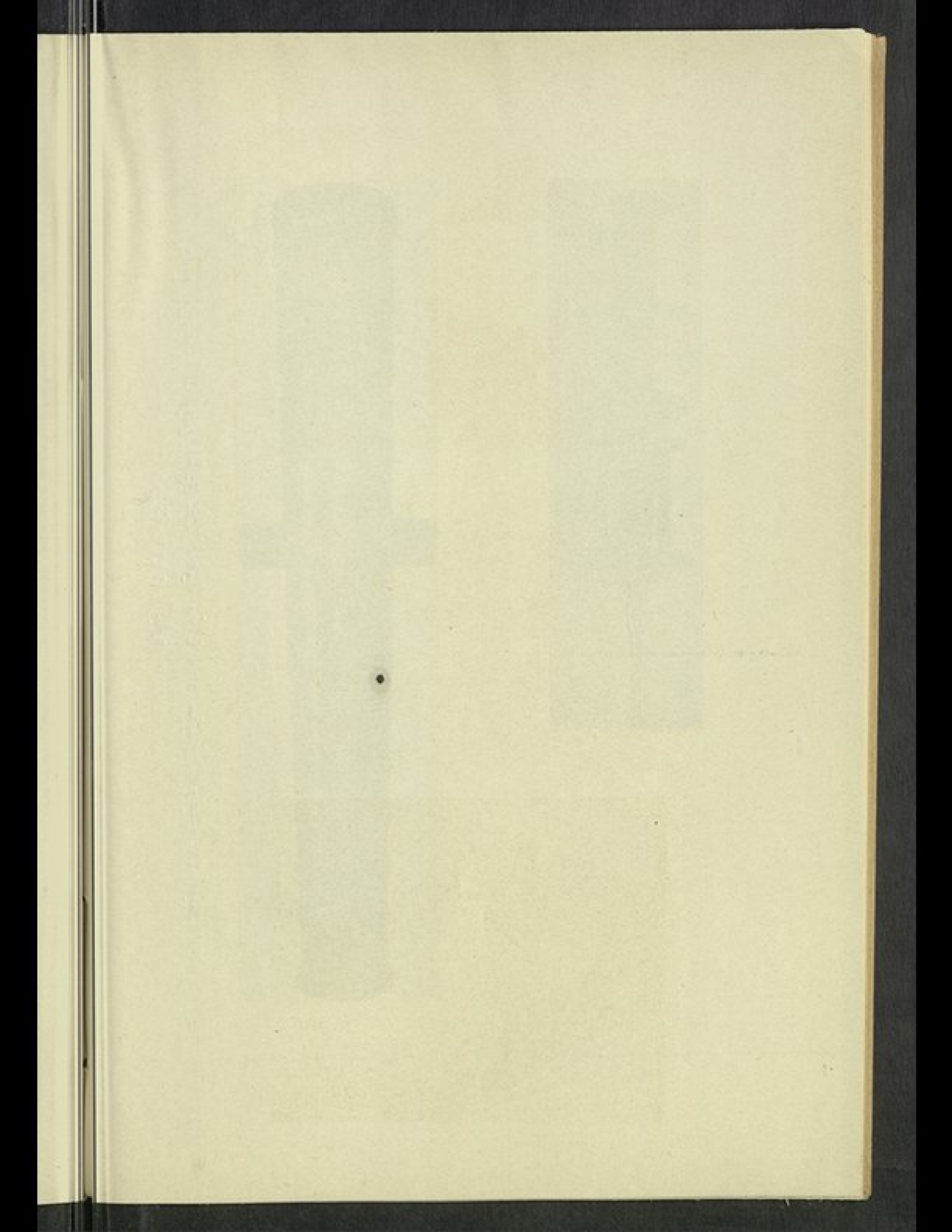
ادوار الملقب بالامير الاسود
(تمثال مـأخوذ له وهو عـلى فراش
الموت ، والتمثال محفوظ في كاتدرائية
كنتوربري) .



مدفع صغير



مدفع من عهد الملك لويس الحادي عشر ، طوله متران و٥٦ سنتيمتراً ، وعياره ١٨ مليمتراً ، وزنته ١٤٢١ كيلوغراماً .





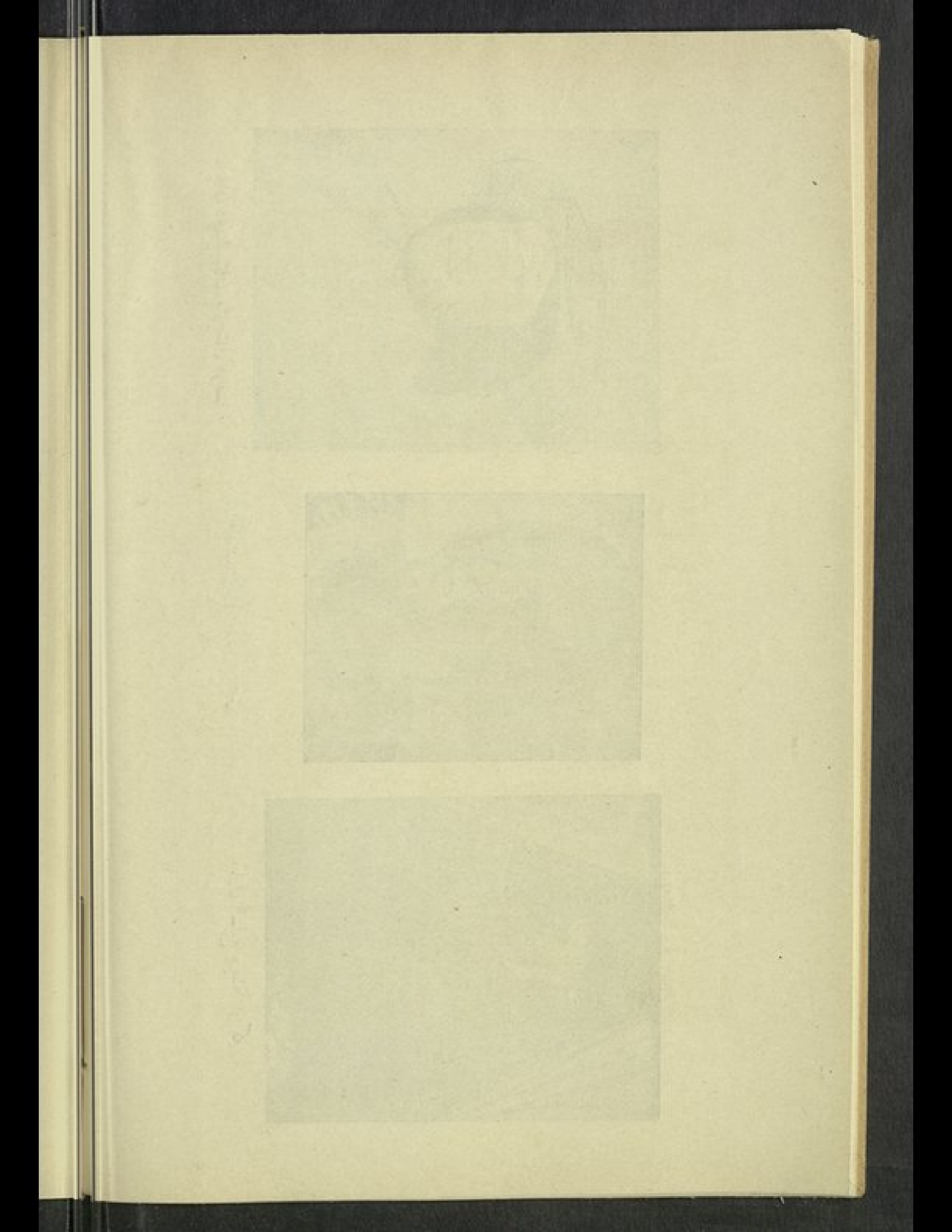
جان دي ليسكان ماريشال فرنسا .



الفارس بايار (صورة معاصرة) .

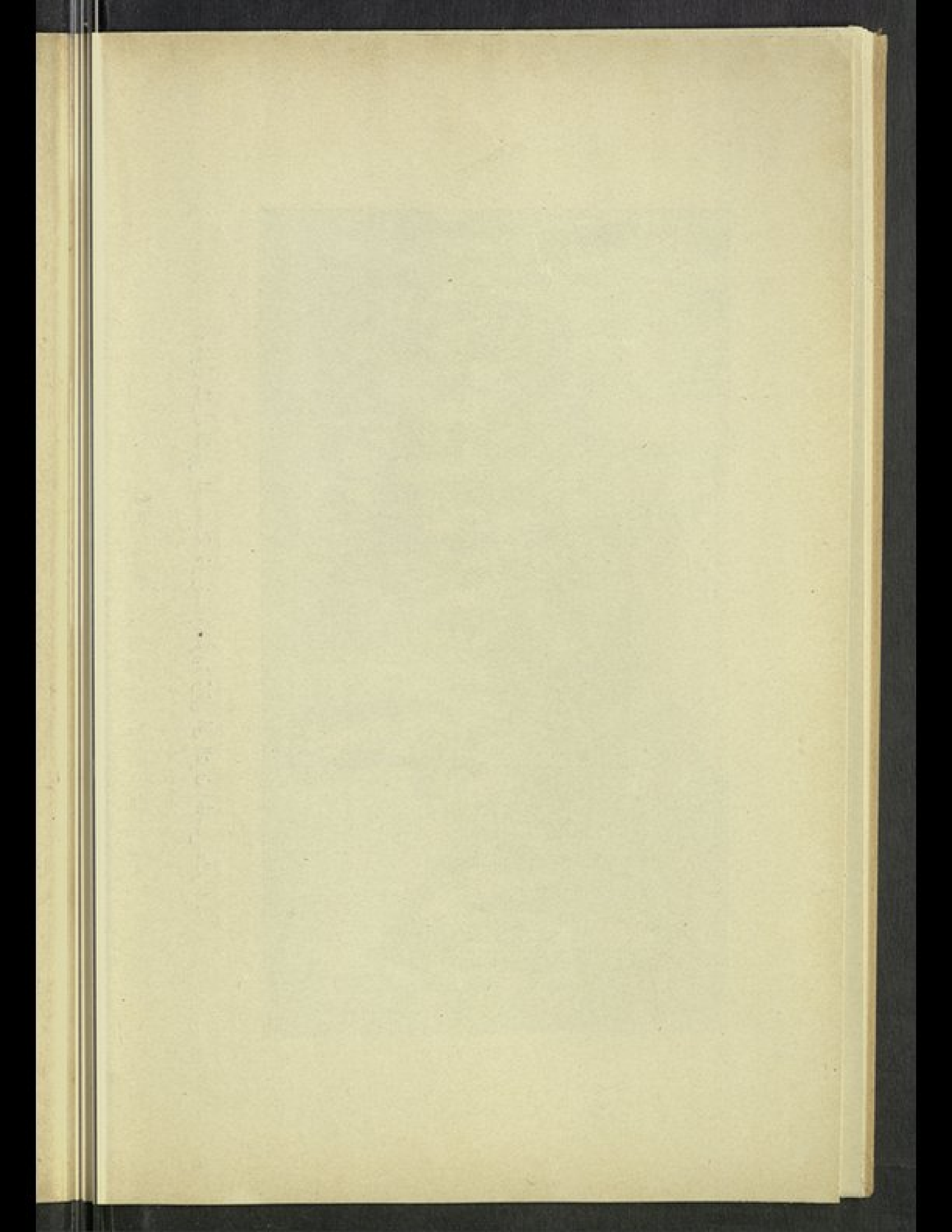


شارل السابع بريشة فوكه .





دخول شارل الثامن الى مدينة فلورنسا (صورة ترقى الى القرن الخامس عشر) .



الهضاب والجدران والمهاوي ليفوت على خصمه الافادة من ميزة التفوق العددي .

وادرك الملك جان استحالة اختراق صفوف العدو بحملة يقوم بها الجيش كله فاختار للمهمة ثلاثمئة فارس بقيادة كبير وزرائه ووقف هو في رأس سائر القوات استعداداً للانقضاض على الانكليز حالما تنفرج صفوفهم . بيد ان حملة الفرسان الثلاثمئة لم تنجح في اختراق صفوف العدو . وفيما هي تتلمس مخرجاً من المأزق هاجم ثلاثمئة فارس انكليزي الميسرة الفرنسية وبعثروا صفوفها . فخف القلب بقيادة دوق اورليان لنجدة الميسرة . فانتهز الانكليز الفرصة وانقضت جموعهم على الميمنة فبددتها ثم ارتدت على القلب والميسرة فلاذ دوق اورليان وخيالته بالفرار . اما الملك جان فقد واصل المقاومة الى الغسق فسلم ستة عشر الفاً من رجاله .

وقد اجمع النقاد العسكريون على ان الانكليز ربحوا معركتي « كريسي » و « بواتيه » لانهم عرفوا كيف يستخدمون الارض في حرب الحركات . يضاف الى هذا انهم غزوا فرنسا باسلحة متفوقة وبجيش يسوده النظام .

وفي سنة ١٣٦٠ كرست معاهدة « بريتني » الهزائم الفرنسية فاطلق الانكليز الملك جان مقابل ثلاثة ملايين ليرة ذهبية ، وتنازل البلاط الفرنسي للبلاط الانكليزي عن ربع الاراضي الفرنسية بما فيه مدينة كاليه .

٣ – شارل الخامس ودوغكلان

ما اكتفى ولي عهد انكلترا الملقب « بالامير الاسود » بما احرز من مغانم فوضع نصب عينيه افقار فرنسا بحيث تظل عاجزة عن النهوض . وعملاً بهذه الخطة استقدم من انكلترا عصابات من الشذاذ واطلقها تسلب وتنهب وتحرق القرى والدساكر ، فدبت النخوة في صدور السكان فاتحد البورجوازيون والسوقة

امام الخطر ، وقرروا الذود عن اموالهم بوسائلهم الخاصة ما دام النبلاء يضنون عليهم بالمساعدة ولا يحركون ساكناً لوقف موجة السلب والنهب .

عمد السكان الى المدن فحصنوها ، والى القلاع فاعتصموا فيها . وكان رد الفعل في باريس اقوى منه في اي مكان آخر . فتولى الحكم « اتيين مارسيل » رئيس هيئة التجار واشرف بنفسه على حفر الخنادق وبناء الاسوار .

شارل الخامس . — بعد وقوع الملك جان دوفالوا في الاسر ارتقى العرش ولي عهده الامير شارل وكان دون العشرين . فلما نجحت حركة اتيين مارسيل في باريس نصب نفسه وصياً للمملكة ، ففر شارل من باريس الى « سنليس » حيث حمل لقب « وصي العرش » وانشأ مجالس تمثيلية جديدة . وبعد مصرع اتيين مارسيل عاد الى عاصمة ملكه وشرع فور وصوله في الاعمال الاصلاحية نزولا على رغبة المجالس وتحت ضغط الظروف . وقد ساعده في مهمته قائد شجاع يدعى برتران دوغكلان .

رمى شارل الخامس من اصلاح النظام العسكري الى خلق نواة القوة الدائمة . وهو ما سعى الى تحقيقه سلفاؤه ، فاصطدمت مساعيهم والنظام الاقطاعي القائم . وقد بدأ الملك بالغاء الحروب الخاصة محظراً على النبلاء شهر السلاح لنصرة قضية لا يكون هو طرفاً فيها . وبهذا حقنت دماء الوف المحاربين وازداد عدد المجندين تحت الراية الملكية زيادة اوقعت الموازنة في عجز ، ففرض الملك ضرائب جديدة ليتسنى له دفع رواتب الجند في الاستحقاق .

ورأى شارل الخامس ان يؤمن للاصلاح الاستقرار اللازم ، فاتاح لوزيره الاول وللمارشالية فرنسا ان يشغلوا مناصبهم مدى الحياة ليستمر ببقائهم ما شرعوا فيه في الحقلين البرلماني والعسكري . الا ان هؤلاء كانوا يتبعون سير

العمل من بعيد ، وكان القيمون الحقيقيون على شؤون الجيش ضباطاً يختارهم الملك ويدفع رواتبهم من ماله الخاص ، ويناط بهم قيادة القطعات او تأمين الدفاع عن المدن المحصنة . وكثيراً ما كان هؤلاء يقومون باسم الملك بتعبئة الرجال وتدريبهم ، وتنظيم الدفاع وادارة العمليات ، وقد عرفوا باسم « الضباط المفوضين » .

وفقدت الخيالة طابعها الاقطاعي بتخلي النبلاء عن حقهم التقليدي باختيار الفرسان ، وبتوسيع نطاق هذه المؤسسة بحيث اصبحت تضم البورجوازيين . وقد اطلق الملك ايدي الضباط المفوضين في توزيع المجندين على قطعات الجيش المختلفة . وكان على ممثلي البلاط هؤلاء ان يرفعوا اليه من وقت الى آخر احصاء بعدد المشاة والفرسان مشيرين الى اختصاص كل واحد منهم . فالجندي ذو المؤهلات البدنية يلحق بالقطعات المعدة للقتال على ارض مكشوفة وقد عرفت في ذلك العهد باسم « جيش الملك » . ويلحق سائر المجندين بحاميات المدن والقلاع . ولهذا سمي مجموع هذه الحاميات « جيش المدن » .

عين الملك للجيش الذي ينتمي اليه رواتب شهرية مقابل تعهد المجندين بالعمل المستمر مهما تكن ظروف الزمان والمكان . اما حاميات المدن فقد احتفظت بطابعها الخاص . واستطاع شارل الخامس ان يحمل ابناء الطبقة الوسطى وكثيراً من النبلاء على الانخراط فيها ، فألفت بتأثير من هؤلاء واولئك الحياة النظامية واتقنت الى حد ما حرب الكمين خارج المدن والقلاع .

واتخذ شارل الخامس تدابير شتى لتأمين النظام ، فجعل الضباط المفوضين مسؤولين تجاهه عن مسلك قواتهم وعن دفع الرواتب في الاستحقاق . وانشأ ديواناً خاصاً اطلق عليه اسم « ديوان التفتيش » ، وناط به السهر على حسن تنفيذ الاوامر الملكية ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بتنشئة الجند وتدريبهم وبتوزيعهم

على المناطق . واعتبر الملك بالدروس التي تلقاها الفرنسيون في المعارك الحاسمة فخص المدن والقلاع ببعض مجهوده الاصلاحي ، فطاف وكلاؤه بالمدن الكبيرة يستحثون سكانها على تحصينها ويهيبون بالنبلاء ان يعيدوا بناء القلاع المتهدمة مقدمين لفريق منهم المساعدات المالية والمعونة الفنية . واشرف شارل الخامس بنفسه على تحصين مدينة باريس فاتم بناء قصر « فانسين » جاعلاً صرحه العالي غاية في القوة والمناعة ، وامر بتشييد « الباستيل » ذي الاسوار الثمانية . اما « اللوفر » فقد صار في عهده قصراً فخما دون ان يفقد اهميته كقلعة حصينة .

واخذ الملك المصلح بيد المدفعية وهي بعد حديثة النشأة في فرنسا . وكان الالمان والايطاليون قد استخدموها في ضرب المدن الحصينة فاعطت نتائج باهرة .

برتران دوغيكلان . — اقترن اسم برتران دوغيكلان بالنهضة العسكرية في عهد شارل الخامس كما اقترن بالوقائع البطولية التي تميز بها ذلك العهد . هو من اصل بريتوني ، بدأ نضاله في سبيل ملك فرنسا وهو فتى في السادسة عشرة . وبعد سقوط بريتانيا بايدي الانكليز الف دوغيكلان عصابة من مواطنيه وطفق يناوىء المحتلين . واستطاع سنة ١٣٥٠ ان ينتزع من اعداء بلاده قلعة « فوجري » الحصينة . وانتهى خبر هذا العمل البطولي الى الملك فارسل في طلب برتران والحقه بخدمته .

واشترك دوغيكلان في معركة « رين » حيث تجلت مواهبه التكتيكية . كان دوق « لانكستر » يحاصر المدينة فخف البطل البريتوني لنجدة الحامية ولكنه تهيب خصمه القوي فلم يحاول اختراق النطاق المضروب حول « رين » ، بل عسكر في الضواحي وارسل جواسيسه يستطلعون احوال

العدو ويحدون من نشاط دورياته . وفي احد الايام ارسل نفراً من رجاله ليهاجموا ميسرة دوق لانكستر . وارفق هذه الحركة بقرع الطبول والضجيج مدخلاً في روع الخصم انه امام هجوم كبير . وقد جازت الحيلة على الدوق فابتعد بقواته الرئيسية عن اسوار المدينة ليواجه العدو فانتهز دوغيكلان الفرصة ودخل « رن » الجائعة ووراءه مئة مركبة ملأى بالمؤن . وحاول الانكليز محاصرة المدينة مجدداً ، فاحرق دوغيكلان سورهم الخشبي وهزمهم شر هزيمة . وتجددت المحاولات الانكليزية دون نتيجة . واخيراً اضطروا لرفع الحصار . وقد كوفىء البطل البريتوني بتعيينه « ضابطاً مفوضاً » في « بونترسون » .

وفي العام ١٣٦٤ احرز دوغيكلان انتصاره الاول على ارض مكشوفة . فقد التقى جيشاً انكليزياً بقيادة « جان دوغرايي » في ضواحي بلدة « كوشريل » وكان الانكليز يحتشدون على هضبة محرجة ، فتظاهر دوغيكلان بتسلق الهضبة ، ثم امر قواته بالانكفاء ، فطاردها الجيش الانكليزي ظناً منه انه هزمها . وما ان ابتعد عن الهضبة حتى ارتد عليه الفرنسيون واعملوا فيه سيوفهم وقووسهم . واستمرت المعركة حتى الغروب فرجحت كفة الجيش الفرنسي بفضل حركة لف ناجحة قام بها الفرسان . وقد كافأ الملك شارل الخامس قائد الجيش المنتصر بان سماه دوق « لونغفيل » .

وتولى دوغيكلان قيادة الحملات التأديبية الموجهة ضد العصابات التي تألفت من الجنود المرتزقة بعد ان سرحها الملك ادوار الثالث . وقد وجد القائد الفرنسي نفسه امام قطعات عسكرية منظمة الى حد ما ، تغير على المدن فتحتلها او تفرض عليها جزية باهظة . واستطاع دوغيكلان تطهير المناطق الغربية من هذه العصابات كما استطاع اقناع ثلاثين الفاً من الشذاذ بالانضمام

الى حملة اعدها الملك شارل ضد « بطرس الصارم » ، منافس « هنري دوترانستامار » على عرش اسبانيا . وقد احرزت الحملة الفرنسية انتصاراً اولياً في معركة « نافاريت » ، ولكن خيالة دوغيكلان تخلت عنه كاشفة جناحيه فوقع البطل اسيراً بين ايدي الانكليز مؤيدي « بطرس الصارم » . الا ان اسره لم يكن طويل الامد فافتداه الملك بمبلغ كبير من المال . وقد ثار دوغيكلان لنفسه في معركة « مونتييل » حيث قتل « بطرس الصارم » فخلا بمصرعه الجو لمرشح البلاط الفرنسي . وبعد ان قضى عاماً كاملاً في اسبانيا استدعاه الملك شارل وعينه اميراً للجيش ، فدشن عهده بالقضاء على عصابة « روبرت كنولس » ثم حرر ٩٢١ مدينة وقلعة وحصناً من الاحتلال الانكليزي . واخذ على عاتقه القضاء على نقاط الارتكاز الانكليزية في جنوب فرنسا الغربي . فحالفه التوفيق ولكن مرضاً عضالا وضع حداً لنشاطه في اثناء حصار مدينة « شاتونوف — راندون » ، فقضى نحبه بينما كانت المفاوضات دائرة لتسليم المدينة .

٦ — محن جديدة

لحق الملك المصلح شارل الخامس بامير جيشه بعد مضي بضعة اشهر على وفاة دوغيكلان . وقد توارى الرجلان بعد ان حررا فرنسا ووضعا اساً صالحة لتنظيم الجيش .

وارتقى العرش الفرنسي شارل السادس وهو دون الثالثة عشرة ، فولي الوصاية على العرش عمومته . وامتد الاجل بهذا النظام لان الملك اصيب بمس عند بلوغه الرابعة والعشرين ، فقضت سياسة الاوصياء على ثمار المجهود الاصلاحي وفي رأسها الوحدة الوطنية ، وتجدد التنافس بين النبلاء ، فشطر البلاد شطرين ، التف اولهما حول آل « ارمنياك » وظاهر الآخر النبلاء من

آل « بورغينيون » . بيد ان تصدع الجبهة الداخلية لم يغر بالفرنسيين اعداءهم عبر المانش ، لان الخلافات الداخلية ذرت قرنها في انكلترا فشغلت الانكليز طوال ٣٥ عاماً عن استثمار المصاعب التي كانت فرنسا تتخبط فيها عائدة القهقرى عشرات السنين . ولم يحسن الفرنسيون انفاق هذه المدة الطويلة من الزمن ، بل قضوها في المنازعات مهملين القواعد والمبادىء التي خلفها شارل الخامس ودوغيكلان لتكون اساساً لتنظيم الجيش . فعادت الخيالة سيرتها الاولى : عنصراً رشيقاً من فضائله الشجاعة ولكنه جاهل يقاتل كيفما اتفق ويقفز قفزات خطرة قبل ان يتبين طريقه ليتحاشى المزالق والشباك .

وفي العام ١٤١٥ استنجد آل بورغينيون الملك هنري الخامس فنزل على الارض الفرنسية واحتل هارفلور . فحشد القائد الفرنسي بوسيكو اربعين الف مقاتل وسيّرهم لمنازلة الجيش الانكليزي ، وكان يضم عشرين الف رجل . بيد ان تفوق الفرنسيين العددي لم يكفل لهم الفوز ، لان القادة لم يحسنوا التصرف فاستدرجهم الانكليز الى ممر ضيق استحال معه القيام بمناورات ضد الجناحين ، وبدلا من ان تدفع القيادة بالمشاة الى الامام حشدتهم في المؤخرة واطلقت للخيالة العنان ، فاستقبلت بوابل من النبال دون ان تستطيع مقابلة العدو بالمثل . وفي اقل من نصف ساعة فقد الفرنسيون نصف فرسانهم فأثر هذا الحادث في معنويات الرماة ، فتمزقت صفوفهم بعد الاشتباك الاول . وكانت تلك المعركة حاسمة بالنسبة الى الخيالة الفرنسية والجيش الاقطاعي بكامله .

وبعد حروب داخلية اذكى نيرانها عمال هنري الخامس اضطر الملك شارل السادس للتوقيع على عهدة « تروا » التي جعلت من ملك انكلترا وصياً للعرش الفرنسي ، والوريث الوحيد للتاج ، لانه ارغم خصمه على تزويجه ابنته . وقد ابرمت المجالس التمثيلية وجامعة باريس عهدة « تروا » دون ان يرتفع

صوت واحد بالاعتراض على اقصاء ولي العهد الامير شارل الوريث الشرعي للتاج الفرنسي.

وهكذا حلت بفرنسا المتفسخة محنة قاسية، ليس لانها فقدت معركة لم تحسن خوض غمراتها، بل لانها دخلت الحرب بجيش متفكك الاوصال، ضعيف، يقوده نبلاء لا تعوزهم الشجاعة انما تعوزهم المعرفة. دخلت فرنسا الحرب بالروح الاقطاعي الذي حاربه شارل الخامس، فاجتثه دسائس عمومة شارل السادس. فكان بديهياً ان يتغلب الفن الحربي الانكليزي على فوضى الحشد والقتال في الجيش الفرنسي.

٥ – جان دارك وشارل السابع

مات ملك انكلترا سنة ١٤٢٢. وبعد اسابيع لحق به شارل السادس. فنودي بهنري السادس ملكاً لفرنسا وانكلترا، وكان طفلاً، فنصب «بدفورد» نفسه وصياً للعرش.

وكان ملك فرنسا شارل السابع قد انتقل الى جنوب نهر «اللوار» باسطاً سلطته على ثلث الاراضي الفرنسية. فلما نودي بهنري السادس استحث بعض النبلاء الملك الشرعي على الزحف الى باريس وطرد الغاصب واعوانه. الا ان شارل السابع كان ضعيفاً، متردداً، يتهيب المراكب الخشنة.

جان دارك. – اما الانكليز واعوانهم من الفرنسيين فقد نشطوا لاخضاع البلاد كلها لسلطة هنري السادس، فهزموا الفرنسيين في «كرافان» سنة ١٤٢٣، وفي «فرنول» سنة ١٤٢٤. وبعد اربع سنوات حاصروا مدينة «اورليان» وكانت محصنة تحصيناً قوياً ومجهزة بالمدفعية. فاستطاعت الحامية ان ترد هجمات العدو الاولى. ووقف الفرنسيون من حصار «اورليان» موقفاً يختلف عن مواقفهم السابقة من الفتح الانكليزي. فقد حبسوا انفاسهم يرقبون نتيجة

الصراع ، وهم على مثل اليقين بان « اورليان » هي مفتاح فرنسا كلها ، وان سقوطها يعني اخضاع البلاد من اقصاها الى اقصاها لسلطة هنري السادس .

وفي هذه الاثناء عمد الانكليز الى تطهير المناطق المجاورة لاورليان واحتلوا في جملة ما احتلوا قرية « دومريمي » ، فنفر فلاحوها الى الاحراج والجبال . وكان بين القرويين الفارين فتاة تدعى « جان دارك » فتراءى لها بعض القديسين ، واوعز اليها بان تسعى الى الاجتماع بالملك شارل . فانطلقت الفتاة تبحث عن الملك ، فاهتدت الى مقره في اوائل العام ١٤٢٩ . وقد عانت جان دارك مشقة كبيرة في اقناع شارل السابع وبطانته بانها ذات رسالة علوية ، وانها مكلفة انقاذ « اورليان » والسير في ركاب الملك الى مدينة «ريمس» ليتوج في كاتدرائيتها . فانقسم البلاط قسمين آمن احدهما برسالة الفتاة دون ما تحفظ ، واشار الآخر بامتحان تقواها ودرجة ايمانها . واخيراً فصل الملك بالمسألة فسلح جان دارك وبعث بها الى اورليان على رأس حملة صغيرة .

كانت فرنسا بحاجة الى زعيم قوي يوحد كلمتها وينسق جهودها ، فوجدت في جان دارك هذا الزعيم ، فالتفت حولها واعلنتها على الفاتحين حرباً دينية اقتناعاً من الفرنسيين او من معظمهم بان جان هي مبعوثة العناية الالهية لانقاذ الوطن . وكان هذا الاعتقاد في رأس العوامل التي اتاحت لهم انقاذ « اورليان » .

اخرجت جان دارك الانكليز من المدينة المحاصرة بما يشبه الاعجوبة . فالقوات الاقطاعية التي قاتلت تحت امرتها انقلبت بين ليلة وضحاها جيشاً منظماً لا اثر فيه للطبقات والفوارق التي كانت سبب ضعفه . فقد آمن الجميع ، نبلاء وبورجوازيين وسوقة ، ان جان فتاة ملهمة ، فما وجدوا غضاضة في العمل بمناشداتها وتنفيذ اوامرها . وهكذا رضي الفرسان في اكثر من مناسبة بان

يتنحوا فاسحين امام حملة الاقواس مجال العمل ، لان جان ارتأت هذا التدبير ، ولم يعترض النبلاء على اختيار القادة بين ابناء الشعب اقتناعاً منهم بان ما تراه جان دارك حسناً فهو حسن .

وفي هذا الجيش الوطني حل النظام محل الفوضى . فقد حظرت الفتاة الملهمة النهب والتجديف واخذ السبايا ، وكانت تسهر بنفسها على تنفيذ الاوامر . لم تكن ملمة بفنون الحرب ، الا ان مواهبها كقائد تجلت في الحقل المعنوي . فهي لا تعرف ما الخوف فكيف يجبن جنودها ؟ هي مؤمنة بحسن المآل فكيف يتشاءم مرؤوسوها ؟ كان مجرد ظهورها في قطاع ما يبعث الثقة في نفوس الفرنسيين ويشيع الفوضى والذعر في صفوف اعدائهم ، الذين كانوا يعتقدون ان منقذة اورليان من عملاء الشيطان .

بهذا النفوذ المعنوي انقذت جان درك اورليان وقادت الحملة الفرنسية حتى ريمس حيث شهد الفرنسيون حفلة تتويج الملك شارل السابع وهم يحسبون نفوسهم في حلم .

كانت رايتها تخفق دائماً في الطليعة وترفرف حيث يكمن الخطر الاعظم . لم تكن شجاعة حتى التهور ، بل كانت تزن الامور بميزان العقل . ففي اثناء حصار اورليان ارتأى بعض القادة ان يرتاح المحاربون الفرنسيون بعد استيلائهم على ثلاث قلاع من اصل اربع ، فعارضت جان في هذا واصرت على مهاجمة القلعة الرابعة والاخيرة ، لان الانتصارات السابقة زعزعت معنويات الانكليز فيخسن بقوات الملك شارل ان تواصل الضغط على اعدائها دون هوادة لتحول دون ردات الفعل والانتفاضات التي قد تقلب الموقف رأساً على عقب . وقد كان ، وجاءت الحوادث مؤيدة نظرية الفتاة الباسلة .

تقدم المدفعية . ـ لم تكن جان دارك قائداً شجاعاً ومحرضاً ممتازاً فحسب

بل كانت تخص اسلحة المحاربين بجانب من اهتمامها ، وتصدر في تعليماتها بهذا الشأن عن احاطة تامة بهذه الناحية التي اهملت مدة طويلة في فرنسا الاقطاعية .

ادركت جان اهمية المدفعية ، هذا السلاح الحديث ، فاشارت بتعزيزه . وكان الملك شارل السابع يميل شخصياً الى اعتماد المدفعية كسلاح رئيسي في الدفاع والهجوم ، فاستعان بالاخوين « بورو » و « بيربيسونو » ، وكانوا من اشهر مهندسي العصر ، في انشاء وحدات المدفعية الفرنسية . وقبل ان يشرع المهندسون في عملهم استخدم الفرنسيون المدافع التي غنموهـا من الانكليز في معارك « اورليان » و « باتاي » و « تالبوت » في دك الحصون والاسوار واغراق السفن الانكليزية في بحر المانش .

وفي العام ١٤٣٠ جهز الجيش الفرنسي بمدافع ضخمة من البرونز تلقم من فوّهاتها . وجربت هذه المدافع للمرة الاولى بحضور جان دارك قبل وقوعها اسيرة بين ايدي اعدائها . فلاحظت ان القذيفة الحجرية تحتاج الى طوق حديدي ليمكنها من تهديم الاسوار والجدران ، فجهزت القذائف بالطوق واعطى استعمالها بشكلها الجديد نتائج باهرة .

كان مدى المدفعية الضخمة الفاً وخمسمئة قدم ، وكان لدى الالمان والانكليز والايطاليين مدافع مماثلة لا يزيد مداها على تسعمئة قدم . وكان ثمة مدافع تلقم من مؤخرها ، الا ان الفرنسيين لم يهتموا بالاكثار منها لان استعمالها غير مأمون العواقب . وعند وفاة الملك شارل السابع كان لفرنسا اربعة وعشرون مدفعاً ضخماً تجرها المركبات ، ويتولى اطلاقها وتلقيمها رجال من ارباب الاختصاص .

وقد قلبت المدفعية الفن الحربي رأساً على عقب . ففي الميادين المكشوفة كانت المدافع المموهة تفتح نيرانها من مسافات لا يبقى معها مجال لنشاط حملة

الاقواس من الانكليز . لهذا عمدوا الى الاعتصام في القلاع والمدن المحصنة ولكن المدفعية تغلبت بسرعة على الاسوار والحصون . فكان حصار المدينة الحصينة لا يستغرق اكثر من يومين او ثلاثة .

اصلاحات شارل السابع . — احرق الانكليز جان دارك حية ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الروح الوطني الذي نفخته في بني قومها . تركت لفرنسا ملكاً عالي الهمة يحوطه شعب مؤمن بعدالة قضيته وبمقدرات بلاده .

اعتبر شارل السابع بالمحن التي نزلت به وببلاده فنهج سياسة اصلاحية وضعت اسسها المجالس التأسيسية العام ١٤٣٩ . وقبل هذا استطاع ان ينزع دوق « بورغونيه » من احضان الانكليز ، وقد كان الدوق عوناً للمحتلين وحليفاً يعتمدون عليه في اثارة الحروب الاهلية واضعاف الجبهة الداخلية في فرنسا المنقسمة على نفسها . تم الاتفاق بين الملك ودوق بورغونيه العام ١٤٣٥ ، وفي العام التالي حرر الفرنسيون مدينة باريس ومن ثم استردوا شمال المملكة دون ان يخوضوا غمرات معارك كبيرة . وفي العام ١٤٤٤ طلب الانكليز الصلح فرفض طلبهم . واكتفى شارل السابع بعقد هدنة استمرت خمس سنوات وهي فترة لم يضعها الملك المصلح سدى بل انفقها في اصلاح النظام العسكري .

رافق عهد الملك شارل السادس انبعاث روح الشقاوة ، فانبرت عصابات النهابين والسلابين تعبث بالامن وتفرض شريعة القوة حيث تأنس ضعفاً من ممثلي السلطات العامة . وقد عرف رجال هذه العصابات باسم « العيارين » وقاست فرنسا الامرين من تحكمهم وبطشهم . وقد عمد الملك شارل السابع الى استخدامهم في مشاريعه العسكرية وحملاته التأديبية فقتل منهم في هذه الحملات من قتل وفتك الفلاحون بالذين عادوا احياء لئلا يعودوا سيرتهم الاولى .

ولما اطمأن الملك المصلح الى خلو القوات المسلحة من العناصر الخبيثة تفرغ لاصلاح نظام الجيش ، يعاونه في مهمته الامراء والنبلاء وأمير الجيش « دو ريشمون » الذي اسره الانكليز فعاد من الاسر وقد احاط احاطة تامة بفنونهم العسكرية .

بدأ الاصلاح بتنظيم الخيالة ، فجعلت خمس عشرة سرية ، على ان تضم السرية الواحدة ستمئة رجل ، منهم مئة فارس مدرعين ، وتألف ملاك السرية من ضابط برتبة رئيس (كابتن) ومن ملازم اول (ليوتنان) يتولى القيادة الفعلية ، ويعاونه صف ضابط يقال له المرشد وحامل العلم وعريف .

واحتفظ الملك بحق اختيار قادة السرايا الخمس عشرة (اي الرؤساء) ، آخذاً بعين الاعتبار وضعهم الاجتماعي وخبرتهم العسكرية ومستواهم الخلقي . وبعد تعبئتهم استقدمهم اليه ولفتهم الى اهمية الواجبات الملقاة على عواتقهم ، ورغب اليهم ان يكونوا امناء للعرش والبلاد ، واعلن انه لن يتدخل في تأليف السرايا بل يدع لهم اختيار رجالهم على ان يراعوا المصلحة العامة في هذا الاختيار .

وقد ترتب على التنظيم الجديد تسريح عدد كبير من الفرسان الذين لم تتوفر فيهم الشروط المطلوبة . وخشي الملك ان يثور هؤلاء فاتخذ تدابير خاصة لمواجهة الطوارىء قبل ان تنشر اسماء المسرحين .

كان الرجل المدرع يعتمر بطاسة تغطي الرأس والوجه حتى العنق ، ويلف حول عنقه طوقاً فولاذياً يتصل بالدرع والطاسة بواسطة عقاقيف صغيرة . وكانت الدرع تغطي نصفه الاعلى بما فيه الذراعين . اما سلاحه فكان يتألف من رمح طوله خمسة امتار ، ومن سيف مستقيم وطويل . وكان له اربعة جياد : واحد للقتال ، وثان يمتطيه في الطريق ، وثالث يعتلي صهوته اذا سقط جواده الاول ، ورابع يمتطيه الفارس المساعد . وقضى التنظيم الجديد بان يقاتل

الفرسان المدرعون على حدة . اما زملاؤهم غير المدرعين فقد اطلق عليهم اسم الخيالة الخفيفة ، ونيط بهم حرب الكمين واعمال الاستكشاف ومطاردة العدو المنهزم . وجعل سلاحهم الرئيسي القوس والرماح المرتدة ، اي الرماح التي تربط الى وسط الفارس بسلسلة طويلة فاذا رشق بها العدو امكن استردادها بجذب السلسلة .

تنظيم المشاة . — نظمت الخيالة بموجب البراءة الملكية المؤرخة ٢٦ ايار من العام ١٤٤٥ ولم يأت دور المشاة الا في العام ١٤٤٨ ، فانشأ الملك وحدة « الرماة الاحرار » بموجب براءة حتمت على كل مدينة ومحلة وقرية ان تختار امهر رام بين سكانها . فانتخبت القرى الفرنسية اربعة آلاف رام وانتخبت المدن عدداً مماثلاً . وجعل سلاح الرماة الاحرار القوس والسيف القصير . اما عدتهم الدفاعية فقد كانت تتألف من زرد وطاسة . واجري عليهم مرتب شهري قدره اربعة فرنكات ، ورفعت عنهم الضرائب .

كان « الرماة الاحرار » يقسمون يمين الولاء للملك ولا يخدمون الا تحت لوائه . وكانت نقطة الضعف في هذه المؤسسة ان الرماة ينصرفون الى اعمالهم العادية في السلم فلا تقوم بينهم رفاقة السلاح الا في فترات متقطعة . ورغم هذا ابلى « الرماة الاحرار » بلاء حسناً في المعارك التي تخللت المرحلة الاخيرة من حرب المئة السنة .

اما المشاة العاديون فقد نظموا على اساس الفوج كوحدة مقاتلة ، ولم يمتد الاصلاح الى اسلحتهم لان المدفعية استأثرت بالشطر الاعظم من اهتمام المصلحين .

انتهاء حرب المئة السنة . — آتى التنظيم العسكري الجديد ثماره المرجوة فاحرز الفرنسيون سلسلة انتصارات باهرة بعد العام ١٤٤٩ . وفي آذار من

العام التالي انزل الانكليز جيشاً كبيراً في شربورغ فهزمه الجيش الفرنسي بقيادة « ريشمون » في موقعة فورميني حيث مثل الفرسان المدرعون والنشاب (الرماة بالقوس) دوراً رئيسياً . وقد تم للملك شارل تحرير نورمندي كلها في بضعة اسابيع وانتزع من العدو عنوة وخلال عام واحد ستين مدينة محصنة . ولما جاء دور مقاطعة « غوبين » اصطدم الجيش الفرنسي باجهزة دفاعية قوية وباعراض السكان الذين اسيئت معاملتهم في المناطق المحررة ، فاستنجدوا الانكليز وكانوا لهم عوناً على مواطنيهم ، فضاق شارل السابع ذرعاً بهذه الحالة وقرر ان يضع لها حداً بقوات متفوقة .

وفي العام ١٤٥٣ تحدى الملك الفرنسي خصمه الانكليزي « تالبوت » باربعة جيوش تضم فيلقاً مدرباً على حرب الحصار ومجهزاً بمدفعية قوية . وقد ضرب الفرنسيون الحصار حول مدينة « كاستيون » وما زالوا بها حتى هددت المجاعة سكانها ، فتظاهروا ضد القائد الانكليزي وحاولوا ارغامه على تسليم المدينة فهاجمت خياله في السابع عشر من تموز ١٤٥٣ السور الذي يحمي طلائع الجيش الفرنسي ، ففتحت المدفعية نيرانها عليها وكان « تالبوت » اولى الضحايا لانه كان على رأس فرسانه .

وبعد سقوط « كاستيون » حاول الانكليز الاعتصام في بوردو وبايون ولاروشيل . ولكن اسوار هذه المدن لم تقو على احتمال وطأة القذائف الفرنسية . وهكذا جلا الانكليز عن فرنسا وبقيت لهم مدينة كاليه في الشمال .

الفصل الرابع

نشأة الجيش الملكي

١ – تنظيم فرنسا بعد حرب المئة السنة

اجتاز انشاء الجيش الملكي في فرنسا مرحلته الاولى خلال النصف الاخير من القرن الخامس عشر وفي القرن الذي تلاه ، ومر بثلاثة عهود سياسية كان لكل واحد منها اثره في تنمية هذه المؤسسة الوطنية وتنظيمها . فقد دعم الملك لويس الحادي عشر الوحدة الفرنسية التي انقذها شارل السابع ، واقتفى اثر سلفه في الاصلاح . وكان للحملات التي قام بها آل « فالوا » في الخارج اثرها في تقدم الفن الحربي وتطور الاسلحة . الا ان الاكثار من استخدام المرتزقة من الاجانب اخر نمو وحدات المشاة الوطنية . وجاءت الحروب الدينية ففتحت عيون الفرنسيين على قيمة جيشهم الوطني ، واظهرت ضرورة العناية بالمشاة . وكان من نتائج تقدم الاسلحة النارية ان وضعت قواعد جديدة لحرب الحركات ، ورافق التوسع في الخطط والمرامي السياسية التوسع في النظريات الاستراتيجية .

لويس الحادي عشر . — تجلت شخصية لويس الحادي عشر القوية وهو بعد ولي عهد المملكة . ففي العام ١٤٤٣ وكان في الرابعة عشرة من سنيه ، انقذ مدينة « دياب » وكانت على وشك السقوط بايدي الانكليز . ومثل وهو ولي

للعهد دوراً كبيراً في المساعي التي بذلت للخلاص من عصابات العيارين فاغرى ثلاثين الفاً منهم بالاشتراك في الحملات التي جهزها على سويسرا فقتل معظمهم . وقد تزوج لويس من ماري دوبورغونيه فلم يرض ابوه الملك عن هذا الزواج ، فابتعد العروسان عن البلاط واقاما في قصر « دوق بورغونيه » بانتظار ترمل المملكة .

كان لويس الحادي عشر حاد الذكاء ، جم النشاط ، خصب الخيال ، ولكنه كان سيء الظن بالناس ، شحيحاً ، شديد الوطأة على خصومه ، غير وفيّ لاصدقائه . لم يستعن في تصريف شؤون المملكة بمستشارين افذاذ وقادة موهوبين ، بل كان يختار بطانته بين الرجال المغمورين فجعل من « جان دولوكان » ، وهو من العيارين ، مارشال فرنسا . وقرب « اوليفيه لودام » وهو من اصل وضيع وقد جابه في مستهل عهده خصوماً اقوياء ولاسيا « عصبة المصلحة العامة » وشارل الملقب بالجسور يدعمها ملك انكلترا ادوار الرابع .

استطاع الملك الفرنسي التغلب على هذه المصاعب بالحرب حيث بدت له كفته راجحة ، وبالمفاوضة حيث كان خصومه اقوى منه . وقد خدمه الحظ فتوفي خصمه شارل الجسور (دوق دوبورغونيه) ولحقت به بعد مُدة قصيرة ابنته ماري زوجة لويس الحادي عشر ، فتخلص الملك من خصم عنيد وورث دوقيته وجاءت وفاة « شارل دانجو » تضيف الى ممتلكات التاج الفرنسي مناطق واسعة وغنية .

ويقول المؤرخون ان عهد لويس الحادي عشر الذي استمر اثنين وعشرين عاماً قد خلا من الفتوحات الكبيرة والانتصارات المرحية . ولكنه عزز السلطة الملكية الى حد كبير على حساب الاقطاعيين ومدّ حدود فرنسا الى جبال الالب والبيرنه لان الملك « المسالم » ، كما كان يسميه خصومه ازدراءً ،

عرف كيف يرغم اعداء المملكة على احترامها بتعزيزه الجيش الفرنسي جاعلاً منه اداة تخويف تتهيبها جيوش الطامعين .

لم يعن لويس الحادي عشر بالخيالة عنايته بالمشاة . اكتشف تفوق الاولى وعجز الثانية في موقعة « جسر شارانتون » وامام مدينة « نيل » . وقد قام سنة ١٤٦٩ بمحاولته الاولى لرفع مستوى « الرماة الاحرار » ، فقسم البلاد اربع مناطق اقليمية يعسكر في كل منها اربعة آلاف رام بقيادة رئيس عام (كابتن جنرال) . ووزع هذه القوة على ثماني وحدات ، وعهد الى الرئيس العام بقيادة اولاها . وناط قيادة الوحدات السبع الباقية بضباط من رتبة رئيس . وانشأ في كل منطقة من المناطق الاربع مراكز للمناداة كان الرؤساء العامون يتفقدونها متحققين من تنفيذ الاوامر وسير اعمال التدريب .

الا ان هذا الاصلاح لم يؤد الى رفع مستوى الرماة الاحرار فتكشفوا للرؤساء في موقعة « غينغات » سنة ١٤٧٤ عن جيش يعوزه النظام . فما كادت الخيالة تندفع في اثر العدو حتى تفرق اربعة عشر الف رام دون ان ينتظروا اوامر قادتهم . وقد كانت هذه الامثولة كافية لاقناع لويس الحادي عشر بأن الوقت لم يحن بعد للاستغناء عن المشاة الاجانب ، ولا سيما المشاة السويسريين الذين تميزوا منذ عهد فيليب الجميل بالشجاعة والاخلاص ونكران الذات . وقد اتيح للملك ، وهو بعد ولي للعهد ، ان يتعرف من كثب الى فضائل السويسريين العسكرية ، فقرر بعد تربعه على العرش ان يمد يده الى هؤلاء الاعداء الاقوياء ، فعقد واياهم معاهدة صداقة حولها فرنسوا الاول الى تحالف حقيقي استمر العمل به نحواً من ثلاثة قرون .

اخلص المشاة السويسريون لاصدقائهم وجيرانهم ، فكانوا خداماً امناء للعرش يذودون عنه بحماسة وعزيمة صادقة . وقد اجمع المؤرخون على رد

الفضل في ابراز الدور الذي يمكن المشاة تمثيله في الهجوم الى العناصر السويسرية في الجيش الفرنسي الذي قيض له ان ينهي حرب المئة السنة نهاية حسنة . ففي المعارك التي خاض الانكليز غمراتها قبل جلائهم عن الارض الفرنسية ، تخطى السويسريون العرف العسكري وتركوا مراكزهم ليمشوا الى المدافع المعادية ويستولوا عليها ، او ليلفوا حولها بمناورات بارعة . وقد كان العرف المتبع ان يلزم المشاة مراكزهم ولا يمشوا الى لقاء العدو ، تاركين هذه المهمة للخيالة . وقد فتح عمل السويسريين العيون على اهمية المشاة كعنصر متحرك في ميدان القتال ، وعلى الدور الذي يمكن هذا العنصر ان يمثله اذا استخدم في اغراض هجومية ، وكان حسن التنظيم ، ومجهزاً بالاسلحة اللازمة .

السويسريون يدربون المشاة الفرنسيين . — بعد ان تم للويس الحادي عشر فتح مقاطعة « فرانش كونته » بموآزرة السويسريين ، استقدم الى فرنسا ستة آلاف من هؤلاء بقيادة « غليوم دوديسباخ » وعهد اليهم بتنشئة قواته وتدريبها وفاقاً للاساليب السويسرية . وقد اختار الملك نواة جيش المشاة الجديد من « الرماة الاحرار » فبلغ عدد المنخوبين ثمانية عشر الفاً .

وزعت هذه القوات على كتائب تضم الواحدة منها الف رجل ، واخضعت في ثكناتها قرب « روان » لنظام قاس ، ولكنها عوملت معاملة ممتازة من حيث تجهيزها ودفع مرتباتها . ولم يطل بها الامر حتى اخذت عن السويسريين اساليبهم في حرب الحركة وقبست منهم فنون اللف والدوران والمناورة الطويلة النفس . وقد انتهت مهمة المدربين بعد ستة اشهر فعادوا الى بلادهم ومكث الفرنسيون في المعسكر زهاء عامين انفقوهما في التمارين العسكرية . ولم يبرحوا ثكناتهم الا عندما شعر الملك بدنو اجله فامرهم باحتلال ثكنات

« بيكارديا » و « ارتوا » فسميت كتائبهم « عصابات بيكارديا » . الا ان مؤرخي العصر اجمعوا على انها نواة جيش المشاة المنظم والدائم .

٢ - الحروب الخارجية

في اواخر العام ١٤٩٤ اجتاز الملك شارل الثامن جبال « الالب » مبتعداً بالجيش الفرنسي الى ما وراء الحدود . وفي العام ١٥٥٩ وضعت معاهدة « كاتوكامبريزي » حداً للحملات الفرنسية في الخارج . وقد تعاقب على العرش خلال هذه المدة ثلاثة ملوك هم شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرنسوا الاول . وجاء بعدهم هنري الثاني الذي جرّت وفاته المبكرة المملكة الفرنسية الى كارثة كادت تقضي عليها .

الحملة الايطالية . — ارتقى شارل الثامن العرش حدثاً فتولت الوصاية الملكة حنه « دو بوجو » ونعمت فرنسا في عهدها بالهدوء والسكينة والرفاهية . وما ان بلغ الملك رشده السياسي حتى راح يتطلع الى شبه الجزيرة الايطالية فقد ترك « رينه دانجو » ممتلكات يسيل لها اللعاب ، وحق البيت الفرنسي المالك بالتركة صريح .

كانت ايطاليا منقسمة على نفسها وانكلترا مشغولة بحرب ايكوسيا ، فشجع هذان العاملان شارل الثامن على المطالبة بنابولي مع علمه ان بادرة كهذه قد تغضب النمسا ، وكانت اقوى الممالك في اوروبا الوسطى ، كما قد تغضب اسبانيا .

كان شارل الثامن رجلاً شجاعاً وحزوماً . ولكنه كان قصير النظر ، محدود الذكاء ، خيل اليه ان احتلال نابولي سيكون نزهة عسكرية ومنها يقفز جيشه الى القسطنطينية . وكانت الفتوحات التركية قد فتحت العيون على اهمية الموجة المتصاعدة من الشرق ، فلاقت فكرة الملك تشجيعاً في

اوساط الكنيسة التي شاقها تجديد الحملات الصليبية .

وقد اختلف المؤرخون في تعليل سرعة الزحف الفرنسي في ايطاليا فارجع فريق منهم الفضل في ذلك الى التدابير العسكرية الحكيمة التي اتخذها شارل الثامن ، ورده فريق آخر الى عطف الايطاليين على الحملة ظناً منهم انها جاءت لتحررهم .

ومهما يكن من امر فقد سير الملك على ايطاليا حملة كبيرة مجهزة بمدافع بعيدة المدى . واستطاع جيشه ان يجتاز شبه الجزيرة من الشمال الى الجنوب في خمسة اشهر . ولكن الشعب الايطالي ما عتم ان ضاق ذرعاً بالفاتحين ، فمنع عنهم المؤن وكانوا في اشد الحاجة اليها ، لان الملك لم يعنَ بتأمين الزاد لقواته . وقبل ان يتفاقم العداء قرر شارل الثامن الانسحاب مكتفياً من الغنيمة باسلاب ذات قيمة فنية واثرية . وقد تمت عملية الانسحاب بسرعة ولم يتعرض الايطاليون للحملة المتراجعة الا مرة واحدة امام ثغرة « فورنو » حيث فقد الجيش الفرنسي عناصره الطيبة .

ولم يتعظ لويس الثاني عشر بما جرّته خفة سلفه على فرنسا ، فما ان ارتقى العرش العام ١٤٩٨ حتى وضع نصب عينيه احتلال ميلانو ونابولي ، وبدأ بمهاجمة الاولى . وقبل ان يزحف الى الاخرى سعى الى تأمين حياد ايطاليا الوسطى . ولكن ملك اسبانيا كان له بالمرصاد ، فاتفق واياه على اقتسام مملكة نابولي . وما طال الامر بالشريكين حتى تخاصما فاضطر الفرنسيون للجلاء عن نابولي بعد معارك طاحنة تميز في احداها البطل الفرنسي « بايار » (موقعة ممر غاريلياتو ١٥٠٣) .

وفي العام ١٥٠٧ تدخل لويس الثاني عشر في ايطاليا مجدداً ابان ثورة جنوى . ثم حالف البابا يوليوس الثاني ضد البندقية ، وهزم جيشها في موقعة

«انيادبل» . وقد ذكر المؤرخون ان الملك لاحظ ابان المعركة تضعضع جنوده امام نيران المدفعية المعادية فصاح بهم : «من كان منكم خائفاً فليقف ورائي ، ان ملك فرنسا لا يموت بقذيفة مدفع .»

وقد كان هذا الموقف انبل مواقف الملك القائد في ساحة القتال . ولئن يكن الحظ قد خانه في الحرب لجهله فنونها واعتماده آراء مستشارين اعماهم الغرض ، فقد كانت له في الادارة مواقف مشرفة ، فعني باصلاح مالية البلاد ، وسهر على اقامة صروح العدل ، وكان يطوف الدساكر ليستمع الى المظالم ويرفعها ، حتى لقبه الشعب بحق بـ «الملك الطيب» وبـ «ابي الفرنسيين» .

اخفقت حملات لويس الثاني عشر في ايطاليا لان مطامعه فيها حركت مطامع النمسا واثارت غيرة اسبانيا ومخاوف البابا الذي نسي يد الملك الفرنسي عليه ، فحالف خصومه الاقوياء .

ويروي المؤرخ الايطالي «فانيني» ان البابا يوليوس الثاني نصح للويس الثاني عشر بان يتنازل عن حقه في ميلانو ونابولي ، على ان يثير هذا الحق مجدداً حالما يأنس ضعفاً من امبراطور النمسا الذي كان نجمه يتألق في سماء اوروبا واسهمه تتصاعد في بلاط ملوكها ومحافلها السياسية . الا ان رواية المؤرخ الايطالي لا تجد ما يؤيدها في ما دوّنه مؤرخو العصر الفرنسيون عن الخلاف الذي ذر قرنه بين ملك فرنسا والبابا ، ورد معظمهم وقوف يوليوس الثاني في صف اعداء الملك الطامعين مثله بايطاليا الى رغبة البابا في ابعاد الخطر الظاهر بمساعدة العدو المقنع .

تميز في الحملة الايطالية «غاستون دوفوا» ابن شقيق الملك ودوق نيمور ، فقد استطاع هذا الامير الشاب ان يفسد خطط العدو بمناورات بارعة ادت الى انقاذ بولونيه ، وكانت جيوش البابا قد اطبقت عليها من ثلاث جهات . وفي

موقعة « بريسيا » هزم جيش البندقية بفضل حركة لف جريئة . وفي العام ١٥١٢ هزم الاسبانيين في « رافين » ، ولكن هذا الانتصار كلفه حياته ففقدت فرنسا بطلاً مغواراً وقائداً نابهاً ، وبدأ الحظ يخونها ، فهزمت قواتها في « النافار » ، واضطرت الحملة الفرنسية في ايطاليا للتخلي عن مغانمها . وتوالت المحن آخذاً بعضها برقاب بعض . فنزل الانكليز في كاليه وانتصروا في موقعة غينغات على قوات هزيلة ، مفككة العرى . وكان السويسريون قد قلبوا للويس الثاني عشر ظهر المجن فانضموا الى اعدائه وحاصروا مدينة ديجون . ولم يعتم النمسيون ان انقضوا على فرنسا بدورهم ولكن الجيش الفرنسي سد المنافذ دون جحافل الاعداء فاسحاً امام الملك مجال الانقاذ بمفاوضة الطامعين .

وقد اعاد لويس الثاني عشر تنظيم جيشه وفي نيته ان يقوم بمحاولة جديدة في ايطاليا ، فادركته الوفاة قبل ان تستكمل استعدادات الحملة . وارتقى ابنه فرنسوا الاول العرش ، وكان شجاعاً ، ذكي الفؤاد ، تواعاً الى المغامرة ، فاجتاز جبال الالب على رأس الجيش الجديد ودشن عهده بانتصار رائع في « مارينيان » ، حيث تغلب اربعة آلاف فارس فرنسي على خمسة وثلاثين الف سويسري . وعقب هذا الانتصار مفاوضات بين الغالب والمغلوب فوقع السويسريون على عهدة « السلام الدائم » . وجاءت العهدة في الوقت المناسب لان خطراً عظيماً كان يتربص بفرنسا .

فرنسوا الاول وشارلكان . — كانت موقعة « مارينيان » امتحاناً لقوة فرنسا العسكرية ، فادرك خصومها ان سلماً طويل الامد تنعم به كفيل بان يجعلها اقوى دولة في اوروبا ، فقرروا اضعافها بتقطيع اوصالها .

وجاء قرار مجلس « فرنكفورت » سنة ١٥١٩ يضع في يد شارلكان حجة

يبرر بها اعتداءه على فرنسا . فقد جعله القرار وارث ابيه في النمسا والبلاد المنخفضة ودوقية « فرانش كونته » ، ووارث امه في « الكاستيل » ، ووارث جده في اسبانيا والممتلكات الاميركية . وكان شارلكان يتطلع الى مقاطعتي بورغونيه وبيكارديا لانه حفيد شارل الجسور . وهكذا كانت ممتلكاته ومطامعه تضرب حول فرنسا نطاقاً خطراً .

وشعر فرنسوا الاول بالخطر فراح يتقرب من الانكليز . ولكن شارل الثامن مد يده الى شارلكان دون ان يولي الملك الفرنسي ظهره . فوضع بهذا اسس السياسة الانكليزية ازاء العداء الفرنسي الجرماني المتأصل ، وهي سياسة تقضي بتأييد الفريق الضعيف منعاً لطغيان الفريق القوي .

بدأ النزاع بانقضاض جيش شارلكان على مدينة « ميزيير » في محاولة جريئة لاجتياح مقاطعة شامبانيه . فعهد فرنسوا الاول الى القائد « بايار » الذي اشرف على تنظيم الجيش الجديد ، بمهمة الدفاع عن المدينة المهددة ، فاعتصم في داخلها على رأس قوات منخوبة وانشأ حولها اسواراً اضافية وحفر خنادق ومهاوى بين السور والآخر .

وقد ذكر المؤرخون ان الجرمان هاجموا « ميزيير » باربعة وثلاثين الف مقاتل احتشدوا على ضفتي نهر الموز بقيادة « ناسو » و « فرنسيك » . وقبل ان يبدأ الهجوم انذر ناسو القائد بايار بوجوب تسليم المدينة فرفض القائد الفرنسي التسليم . وعلى الاثر صبت المدفعية الجرمانية خمسة آلاف قذيفة على المدينة . وادرك « بايار » ان الحامية لن تستطيع الصمود طويلاً امام نيران العدو الكثيفة فلجأ الى حرب الاعصاب ليبذر بذور الشقاق في صفوف القوات الامبراطورية وكان يعلم ان بين ناسو وفرنسيك منافسة قوية ، فارسل الى اولهما من يهمس في اذنه ان زميله يفاوض الفرنسيين سراً ليكون له شرف دخول « ميزيير »

اولا . واوفد الى « فرنسيسك » من ادخل في روعه ان « ناسو » يسخر منه وينتقد خططه . وسرعان ما ساءت العلاقات بين القائدين وامتد الخلاف الى قواتهما ، فانقض مشاة ناسو وفرسانه وعددهم عشرون الفاً على قوات فرنسيسك ، وانتهز بايار الفرصة وفتح على خصومه نيران مدافعه فقتلت منهم خلقاً كثيراً . وفي اليوم التالي انسحب الجرمان وارسل ناسو الى الامبراطور شارلكان يصف « ميزيير » بانها قلعة حصينة عزيزة المنال .

غير ان انتصار بايار في « ميزيير » لم يبعد الخطر عن فرنسا . ففي سنة ١٥٢٢ خان الملكة المقدم في امراء البيت المالك وانضم الى « شارلكان » وهزم الجرمان القائد « لوتريك » في « بيكوك » وقتل « بايار » في موقعة « ابينكروسو » واجتاح العدو مقاطعة « بروفانس » فانقذ فرنسوا الاول مرسيليا واجتاز الالب في اثر العدو المنهزم ، ولكن ميلانو اجتذبته فكف عن مطاردة العدو وتحول اليها ، فخسر موقعة « بافي » سنة ١٥٢٥ ووقع اسيراً بعد ان جرح مرتين . وحاول شارلكان ان يساوم الوصية على العرش « لويز دوسافوا » والدة الملك الاسير ، فاشترط لاطلاق الملك اقتطاع اراض معينة فرفضت الملكة الام التنازل عن شبر واحد من الارض الفرنسية ، وايدها في موقفها رأي عام اعتاد التخلي عن الملكية المستضعفة ، فدعمها هذه المرة مدللا على وعي قومي عظيم .

وكانت انتصارات شارلكان قد فتحت عيون الانكليز على الخطر ، فوقف هنري الثامن في صف المناوئين للمنتصر : وحذا حذوه ملوك اوروبا الوسطى وسلطان العثمانيين ، فتنفس فرنسوا الاول الصعداء بفضل معاهدتي مدريد وكامبره .

الكتائب . — اضطر فرنسوا الاول لاستخدام المحاربين الاجانب في حملاته على نطاق واسع . الا ان هذا لم يقعده عن العناية بالجيش الفرنسي ، فاخضع

للتدريب حاميات المدن الحصينة . ووزع فرق المشاة على اربع مناطق ، هي بيكارديا وشامبانيه في الشمال وغوين وبيمون في الجنوب . واصبح لكل واحدة من الفرق الاربع تقاليدها وشاراتها ، ولكنها ظلت تعرف باسم « العصابات » رغم نموها وحسن تنظيمها .

ولاحظ فرنسوا ان هذه العصابات لا تكفي للقيام بعمليات حربية على جبهات متعددة ، فقرر انشاء جيش مشاة قليل التكاليف نسبياً ، واكثر اخلاصاً للعرش وللوطن من الجنود المرتزقة ، على ان يتم تسريحه بسهولة حالما تضع الحرب اوزارها . وفي تموز من العام ١٥٣٤ صدر مرسوم بانشاء القوات الجديدة وفرض الملك على كل من المقاطعات الكبيرة تعبئة كتيبة قوامها ستة الاف رجل . فتجمع لديه سبع كتائب . فقسم كل كتيبة ست سرايا تضم الواحدة منها الف رجل بقيادة كابتين (رئيس) ، وقسم السرية الواحدة فصيلتين تضم الواحدة منها خمسمئة رجل بقيادة ملازم اول (ليوتنان) .

ولكن التنظيم الجديد لم يعط النتيجة المتوخاة . فاللحمة التي نشدها فرنسوا الاول من تقوية ملاك الضباط ظلت مفقودة ، وتكشفت الميليشيا الجديدة في الحربين اللتين اختتم بها الملك عهده عن قوات مفككة العرى ، عديمة النظام ، فخسرت فرنسا مقاطعة السافوى في الحملة التي سيرت لاحتلال ولاية ميلانو ، وتراجعت قواتها امام جيوش شارلكان وهنري الثامن ، فاحتل الانكليز بولونيه ليوسعوا قاعدتهم في كاليه . ووصلت جيوش الامبراطور الى شاتوتييري ، ورغم هذا استطاع دوق انجين انقاذ شرف الجيش الفرنسي العام ١٥٤٤ في موقعة « سريزول » وكان اعداء فرنسا قد ملوا القتال فرضوا بمفاوضة ملكها فاستردت فرنسا السافوى واحتفظ الانكليز ببولونيه لمدة ثماني سنوات يعيدونها بعدها الى فرنسوا الاول مقابل مليوني ليرا ذهبية . اما شارلكان فقد احتفظ بميلانو .

هنري الثاني والحدود الشرقية . — لم يكن الصلح سوى هدنة مسلحة . وقد ادرك فرنسوا الاول ان الدولة الجرمانية ذات القوة المتزايدة يوماً بعد يوم ، لن تستكين حتى تخضع اوروبا لسيطرتها . لهذا عمل على تعزيز نظام المحالفات الفرنسي . ونسج على منواله خلفه الملك هنري الثاني الذي اعتلى العرش في العام ١٥٤٧ ، فعمل على تقوية اواصر المودة بين فرنسا وتركيا . ولم يفت هنري الثاني ، وهو ينشد في القارة حلفاء اقوياء ، ان ايطاليا عدو قليل الخطر ، وان المطالب الفرنسية في شبه الجزيرة تأتي في الدرجة الثانية بعد الحدود الشرقية حيث يرابط عدو قوي الشكيمة ، شديد المراس ، واسع المطامع . ولم يشأ الملك استثارة خصومه قبل ان ينظم جيشه التنظيم اللائق ، فعهد بالقيادة الى ضباط لامعين امثال « بريساك » و « كوليني » . واصدر سلسلة مراسيم باصلاح نظام التعبئة والتدريب . ولما اطمأن الى نتيجة هذه الجهود ، تحدى شارلكان ببيان اعلن فيه عن عزمه على استرداد مملكة « اوسترازيا » وعن رغبته في توسيع حدود فرنسا حتى نهر الرين .

وقد فعل اسم الرين في نفوس الشبيبة الفرنسية فعل السحر ، فهرعت الى الثكنات تعرض سواعدها : « شاق الفرنسيين كباراً وصغاراً ان يسيروا الى لقاء العدو ورؤية نهر الرين العزيز على قلوبهم . » (من اقوال المارشال دو فييفيل عن الحملة) .

احتل هنري الثاني متز وتول وفردون دون ما صعوبة . وقد ابترد جنوده في نهر الرين العام ١٥٥٢ . ولكن الحملة اصطدمت والعدو امام ستراسبورغ واستطاعت ان تقذف به الى داخل المدينة الحصينة . وهرع شارلكان لاسترداد متز وكان يقود حاميتها الفرنسية ضابط نبيل ذو مواهب هو « فرنسوا دوغيز » فاعتصم في المدينة وارغم الامبراطور على فك الحصار بعد قتال شرس استمر

شهرين . وبعد عامين تنازل شارلكان وخلفه ابنه فيليب الثاني زوج « ماري تيودر » فحرضه الانكليز على اجتياح فرنسا عبر الاراضي المنخفضة ، ومنها زحف الى « سان كانتان » وكان يدافع عنها « كوليني » فانتصر الجرمان انتصاراً باهراً ، وكان في وسعهم التوغل حتى باريس ، ولكنهم لم يفعلوا فكانت غلطة استراتيجية اتاحت للفرنسيين ان يستجمعوا قواهم . وبعد سنة واحدة على موقعة سان كانتان (١٥٥٨) هزم فرنسوا دوغيز الانكليز امام « كاليه » وانتزع منهم المدينة الهامة . وعقب هذا الانتصار معاهـدة « كاتو ــ كامبريزي » (١٥٥٩) التي اعترفت لفرنسا بحدودها الطبيعية في الشرق وردت اليها « كاليه » نهائياً .

الجيش الملكي . ــ وصف الكونت « رابوتان » ، وكان معاصراً لهنري الثاني ، الجيش الملكي في منتصف القرن السادس عشر قال :

« احتشد امام متز سنة ١٥٥٢ جيش عظيم ، فكان هناك من المشاة ثلاثة فيالق مربعة ، اولها يضم قدماء المحاربين الذين ابلوا بلاء حسناً في « بييمون » و « شامبانيه » و « بولونيه » . وكان عدد رجال الفيلق ستة عشر الفاً مسلحين بالسيوف الطويلة والغدارات والخناجر . وكان الفيلق الثاني يتألف من الغاسكونيين وابناء « الباسك » و « البروفانس » و « اوفرنيه » ويضم اثني عشر الف مقاتل . اما الثالث فكان يضم ثمانية آلاف الماني بقيادة الكونت « رانغراف » وكان الالمان مجهزين باسلحة صنعت في بلادهم .

« اما الخيالة فقد انتشرت على اجنحة فيالق المشاة وكان كل صف منها يضم الف فارس واتباعهم من حملة الاقواس . اما الجياد فقد جيء بها من تركيا واسبانيا . وجهز الفرسان باسلحة خفيفة منها السيف والرمح والفأس ، وتدرعوا بدروع فولاذية رقيقة نسبياً . وكان عدد الخيالة الخفيفة يراوح بين

ثلاثة واربعة آلاف فارس .

« وعند وصول الملك جنه مدفعيته التي نصبت في الكروم بين الدوالي وكانت تتألف من ست عشرة قطعة ، منها ستة مدافع طويلة المواسير ، وستة مدافع متوسطتها ، واربعة مدافع من طراز جديد . وعلى الجملة احتشد في ذلك اليوم امام مدينة متز كل العناصر التي تؤلف الجيش الفرنسي الدائم . »

٣ – الحروب الدينية . – هنري الرابع

انتشرت تعاليم « كالفان » في فرنسا واعتنق المذهب الجديد كثير من المفكرين والزعماء وسواد الشعب ، فادى التنافس بين المذهب الجديد والمذهب القديم اي الكاثوليكي الى انقسام المملكة على نفسها . فقام فيها حزبان بل معسكران . فتزعم فرنسوا دوغيز ، وكان قد بلغ قمة المجد ، المعسكر الكاثوليكي ، وتزعم « انطوان دوبوربون » والقائدان « كونده » و « كوليني » المعسكر البروتستنتي .

آخر ملوك آل فالوا . – في عهد فرنسوا الثاني الذي لم يعمر ملكه سوى بضعة عشر شهراً كان الدوق دوغيز عم ماري ستيوارت صاحب الامر والنهي في فرنسا فقمع بقسوة مؤامرة « امبواز » ، وكان البروتستنت في جملة مدبريها .

وبعد وفاة الملك تولت كاترين دومدسيس الوصاية على العرش ، معتمدة على الوزير « دولوبيتال » الذي نهج سياسة معتدلة ازاء البروتستنت ، فاضعف بعمله هذا السلطة الملكية ومهد لوصول شارل التاسع الى العرش .

وفي سنة ١٥٦٢ بدأت الحروب الدينية ووجد كلا الفريقين حلفاء له في الخارج . فمد فيليب الثاني الاسباني يد المساعدة الى الكاثوليك ، ووعدت

العصابات ملكة انكلترا البروتستنت بشد ازرهم لقاء وضعهم ميناني الهافر وكاليه تحت تصرفها كضمانة .

وقد تخللت السنوات الثماني التي انقضت بين ١٥٦٢ و١٥٧٠ ثلاث حروب دينية . وقتل الدوق دوغيز في اولاها بعد انتصاره في معركة « درو » . وفي الحرب الثالثة احرز الكاثوليك انتصارين باهرين في موقعتي : « جارناك » و « مونكونتور » بفضل براعة المارشال « دوتافان » .

وضعت براءة « سان جرمان » حداً للنزاع بمنحها البروتستنت اربع مدن حصينة يأمنون في داخلها شر خصومهم الاقوياء . وقد اغضبت هذه التسوية غلاة الكاثوليك فتجاهلوا البراءة الملكية واستمروا في اضطهاد اتباع المذهب الجديد ، تشجعهم كاترين دو مدسيس سراً .

وكان عهد شارل التاسع ، ثاني انجال كاترين وشقيق هنري الثاني ، حافلاً ، على قصره ، بالحوادث الدموية . فقد خضع الملك لوالدته خضوعاً اعمى وجاراها في اضطهاد البروتستنت فكانت مذبحة « سان برتلمي » المشهورة .

وتوفي شارل التاسع ولما يمض على ارتقائه العرش ثلاث سنوات ، فخلفه شقيقه هنري الثالث ، وكان يتربع على عرش بولونيا . فوجد البلاد في غليان وقد زاد الشقة اتساعاً بين الكاثوليك واتباع « كالفان » قيام العصبة الكاثوليكية برئاسة الدوق هنري دوغيز ، وكان ذا شعبية عظيمة . فحاول الملك الجديد ان يوفق بين مصلحة البلاد وهي تقضي باصلاح ذات البين ، وبين مصلحة البيت المالك وهي تقضي بمسايرة الاغلبية . وكان ملك اسبانيا يغذي الخلاف ويشجع « العصبة » على الامعان في اضطهاد البروتستنت ، فلفت هنري دونافار (الملك هنري الرابع فيما بعد) الملك هنري الثالث الى تدخل الملوك الاجانب تحت ستار الدفاع عن الدين ، وناشده ان يضع حداً لنشاط

دوغيز وعصبه . فانحاز هنري نهائياً الى جانب ملك النافار ، فطرده الباريسيون من عاصمة ملكه ، فثار لنفسه بقتل هنري دوغيز وتحالف وهنري دونافار . ولكنه لم ينعم بالملك اذ اغتاله راهب متعصب .

هنري الرابع . — كان هنري الثالث آخر ملوك آل فالوا وبموته انتهى العرش الى هنري دونافار او هنري الرابع ، وكان بروتستنتياً ، فرفضت « العصبة » الاعتراف به ، وناجبته العداء طيلة عشر سنين ، اضطر خلالها لان يفتتح مملكته فتحاً .

تنكرت اغلبية الشعب للملك الجديد لانه بروتستنتي ، وشهرت في وجهه السلاح بدافع التعصب من جهة وبتحريض من الدول الكاثوليكية من جهة اخرى . وقد استعان كلا الفريقين بالاجانب ليظاهروه ضد خصمه . فخف هؤلاء يمعنون في فرنسا الجريح طعناً ، وقد كانت مصلحتهم في ان يقضوا على حيويتها . وساعدهم الفرنسيون في هذا لان الملكية ، صانعة الوحدة ، فقدت نفوذها وتضاءل شأنها بتضاؤل الشعور الوطني وامام موجة الدولة الدينية الطاغية .

كان هنري الرابع ذكياً ، مرناً ، واسع الحيلة . فادرك منذ اللحظة الاولى ان طريق العرش طويل وشاق فعمل على استمالة الشعب بالاصلاح والحزم . وخدمه الحظ ، فقام نزاع بين الاسبانيين اعدائه الأقوياء وبين الانكليز حلفاء البروتستنت الفرنسيين واعداء فرنسا التقليديين ، فافاد هو من هذا النزاع كما افاد من ثورة البلاد المنخفضة على السلطة الاسبانية ، لان فيليب الثاني ملك اسبانيا شغل بالحربين عن مظاهرة الكاثوليك الفرنسيين ، فانتهز هنري الفرصة وسدد الى العصبة ضربتين شديدتين في موقعتي « آرك » و « ايفري » ، ولكنه عجز عن دخول باريس رغم الجهود التي بذلها في سبيل اقتحامها طيلة ثلاث سنوات . واخيراً اعتنق المذهب الكاثوليكي ، ففتحت له العاصمة ابوابها . ولما

اطمأن الى متانة الدعائم التي يقوم عليها العرش ، اعلن الحرب على ملك اسبانيا واستطاع ان يطرد الجيوش الاجنبية خارج فرنسا .

وفي العام ١٥٩٨ اصدر الملك براءة « نانت » وعقد صلح « فرفان » فبعث بهما الوحدة الفرنسية . وكانت البراءة اول وثيقة اوروبية اعترفت للاقلية الدينية بحرية العبادة .

انشاء الكراديس . – تفككت عرى الجيش في الحروب الدينية وفقدت فرنسا زهرة خيالتها . ورغم هذا لم يكن ذلك العهد عهد انحطاط من الوجهة العسكرية . فقد حفل بالمآتي البطولية وبالابتكارات ، وفيه خطت فرنسا اوسع الخطى نحو انشاء الكردوس .

كان انشاء هذه الوحدة العسكرية نتيجة الفراغ العظيم الذي احدثته الحروب في صفوف القوات النظامية . فقد حاول دوغيز ان يلم شتات كتائب بيكارديا ، وبيمون ، ليواجه بها اتباع المذهب الجديد ، فلم يلب النداء سوى ثمانية آلاف رجل من ثمانية عشر الفاً ، فاضطر دوغيز لان يعيد تنظيم هذه القوات على اساس الكردوس ، ناسجاً بهذا على منوال الاسبانيين والسويسريين والبروتستنت الفرنسيين ، وجعل قوام الكردوس الواحد ثلاثة آلاف رجل .

بلغ عدد الكراديس في عهد شارل التاسع خمسة ، واطلق عليها اسم « الحرس الفرنسي » . وطرأ تحول اساسي على نظام القيادة . ففي العهود السابقة كانت الوحدة العسكرية الكبرى تعمل في الحرب تحت امرة قائد لم تعرفه في السلم ولا تلبث ان تنفصل عنه حالما تنتهي الحملة . فجاء التنظيم الجديد يضع الكردوس في السلم والحرب تحت امرة قائد واحد ، يعرف رجاله واحداً واحداً كما يعرف اختصاص كل منهم .

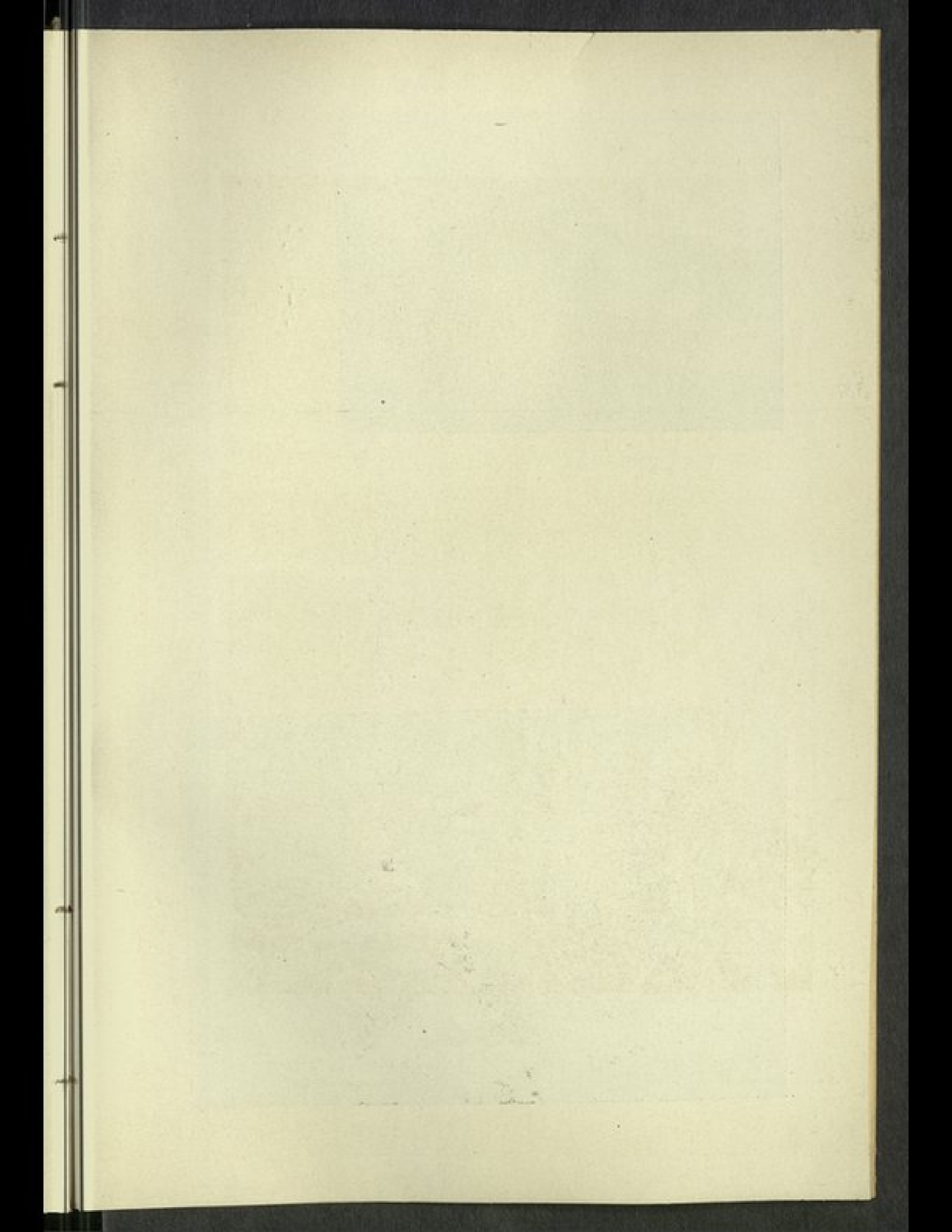
واتاح التنظيم على اساس الكردوس للقائد ان يستخدم نفوذه الشخصي في

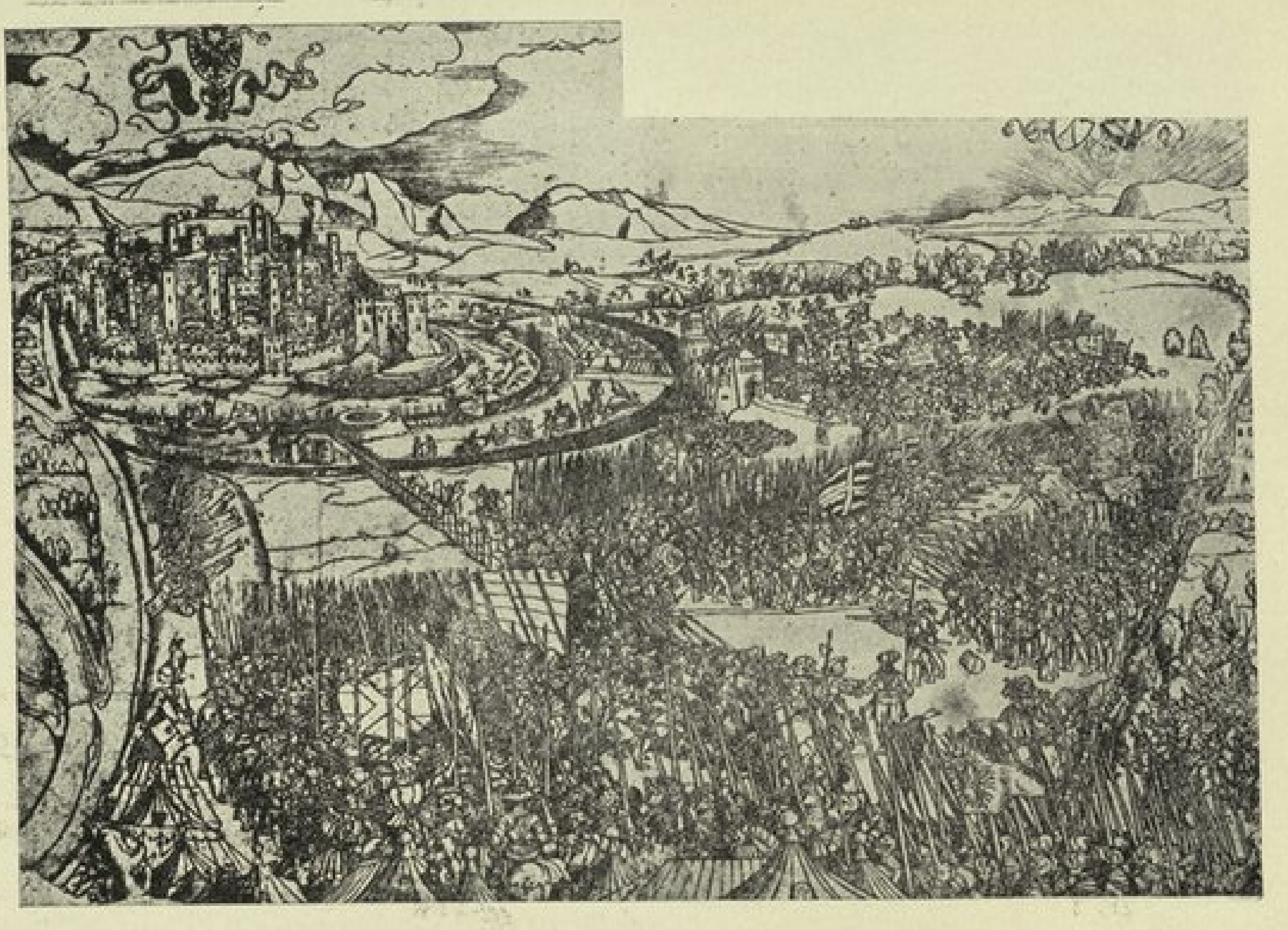


شارل الجسور

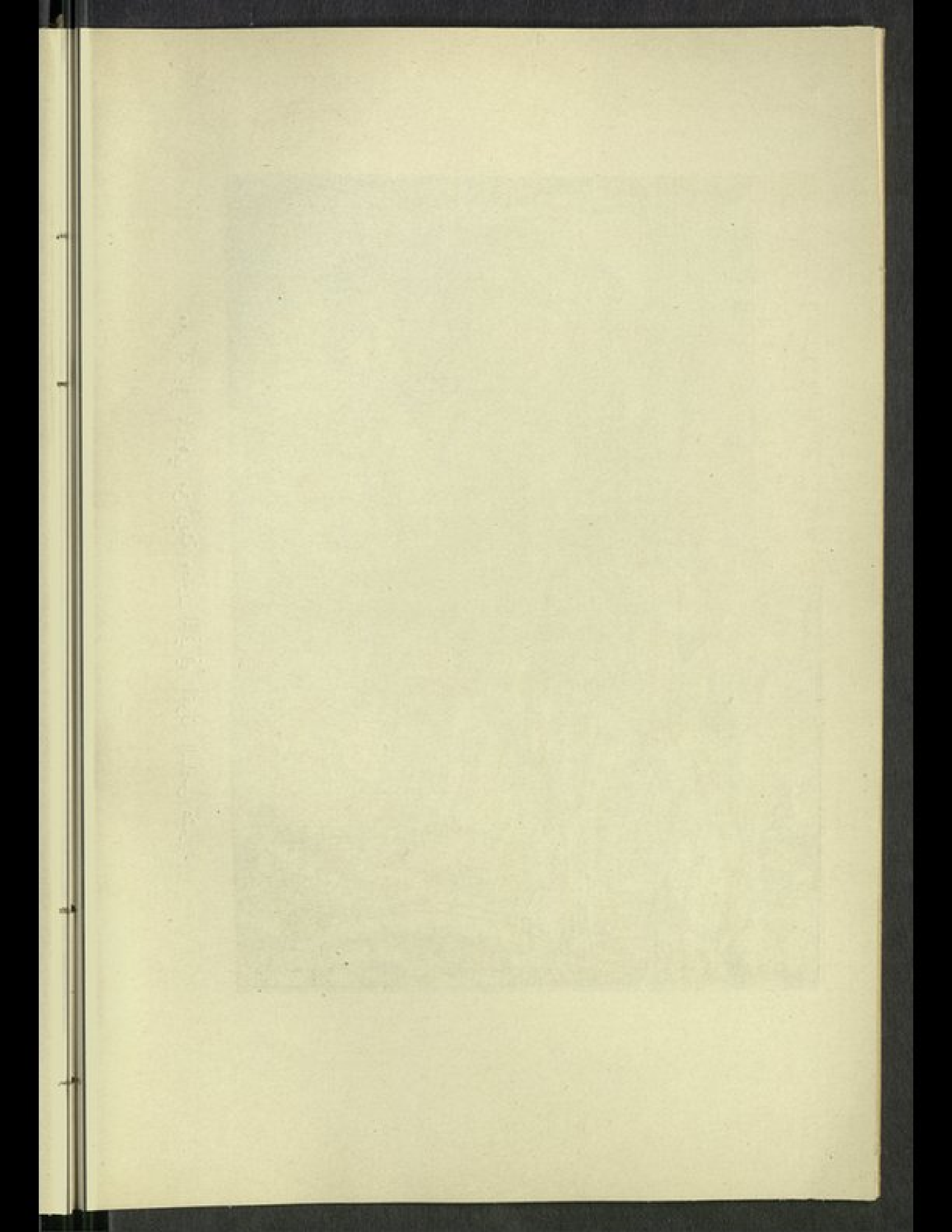


الملك لويس الثاني عشر يترك قلعة « است » في طريقه الى تسلم جنوى . (نقـلاً عن مخطوطة معاصرة) .



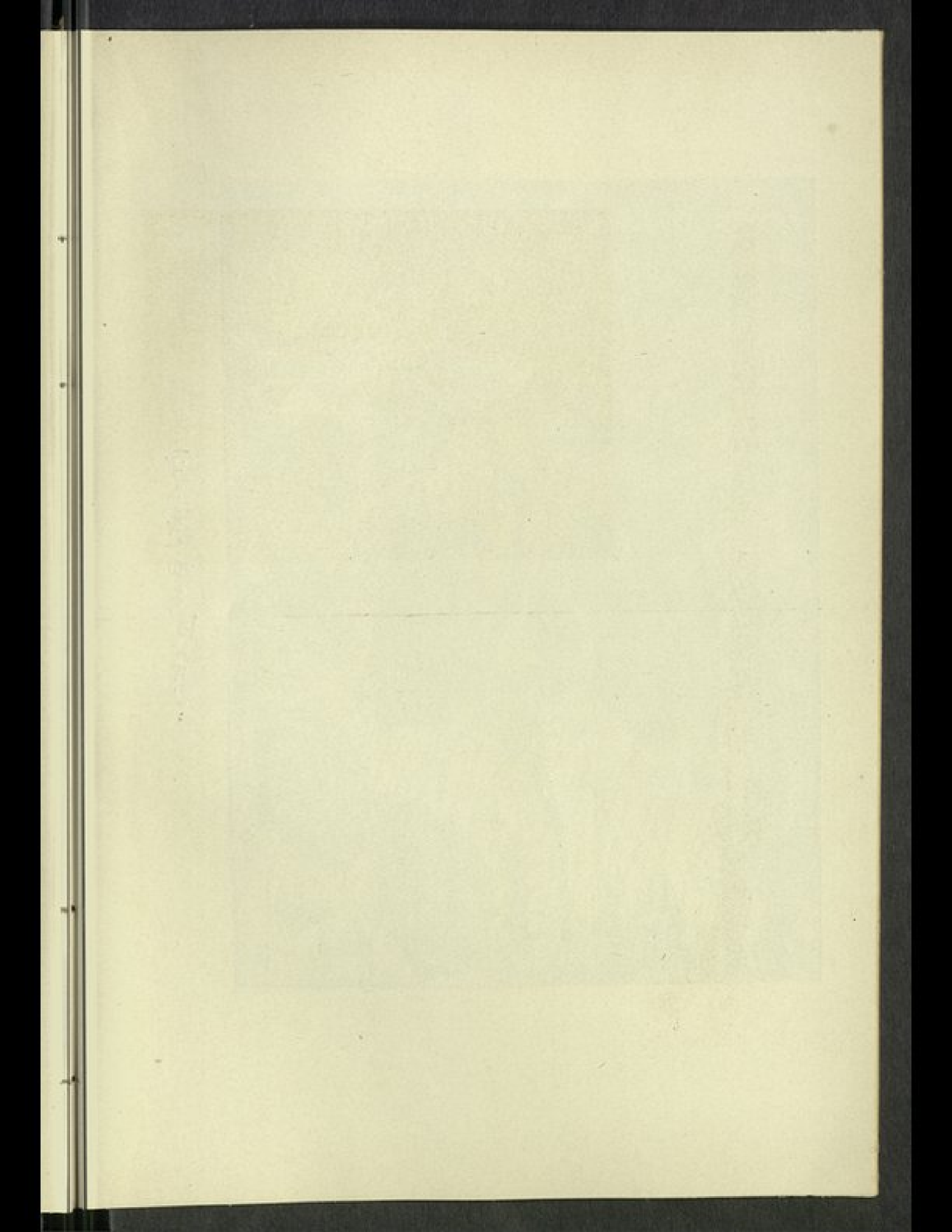


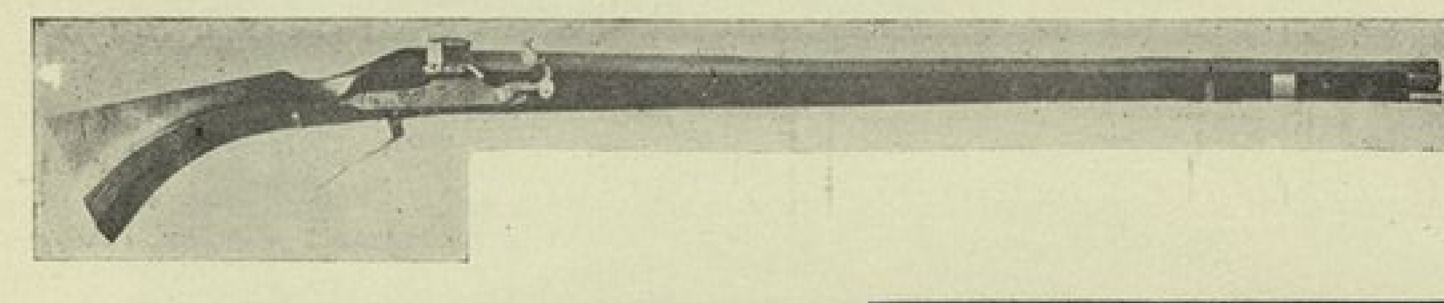
معركة بافي ، وهي من ريشة مصور الماني في القرن السادس عشر .





ابتداء الهجوم في معركة « درو ».



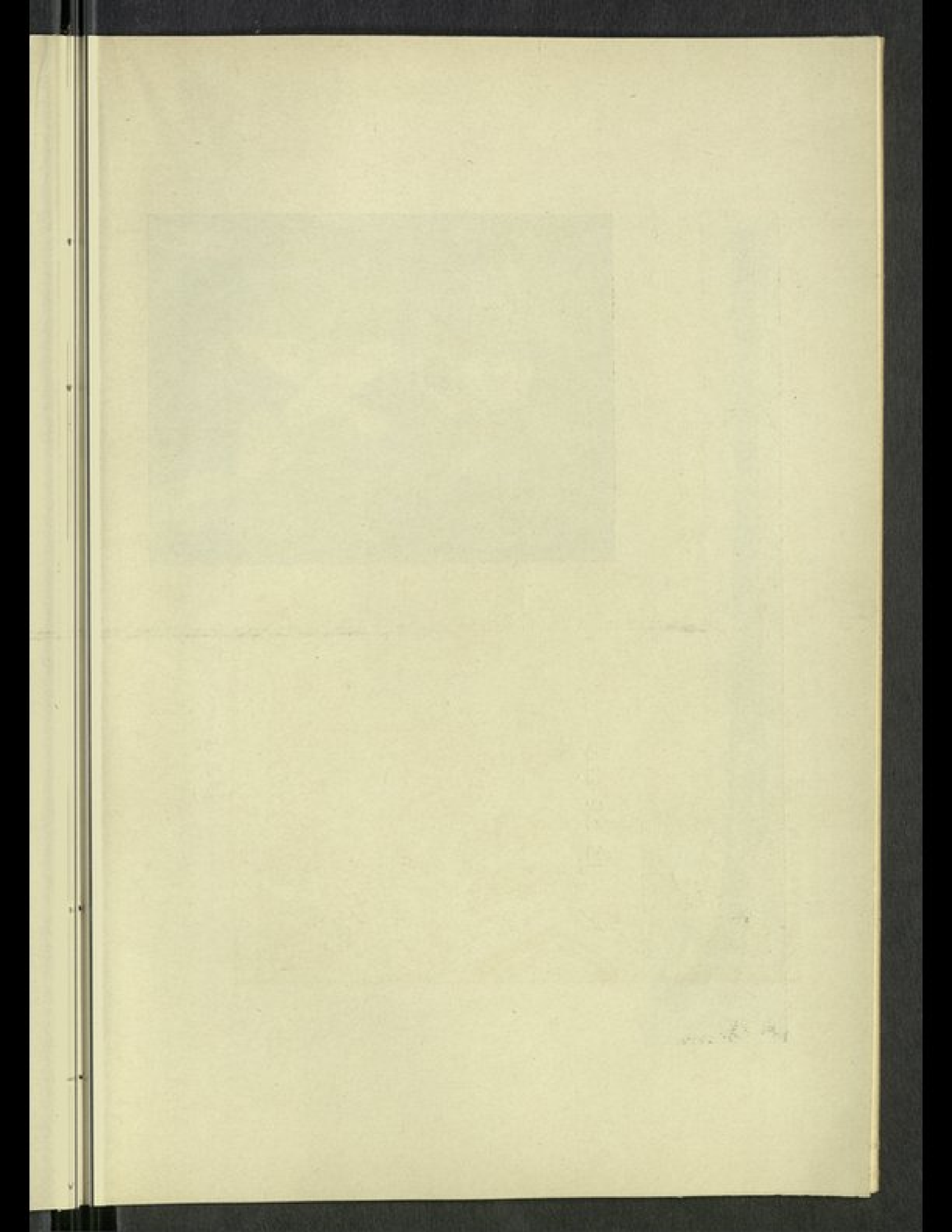




بندقية ذات فتيل

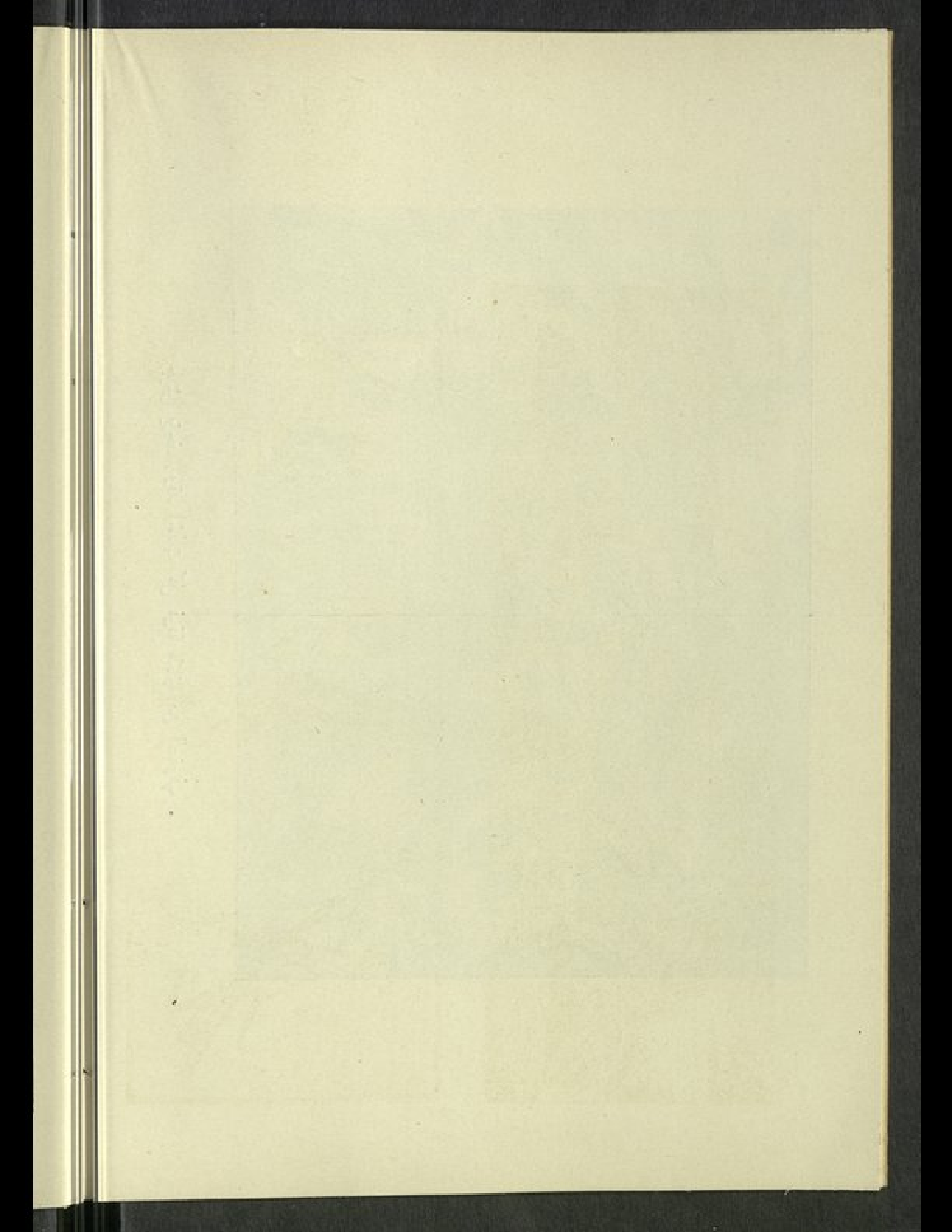


هنري الرابع





جيش يزحف وقد اخذت كل فرقة مكانها من الصفوف .

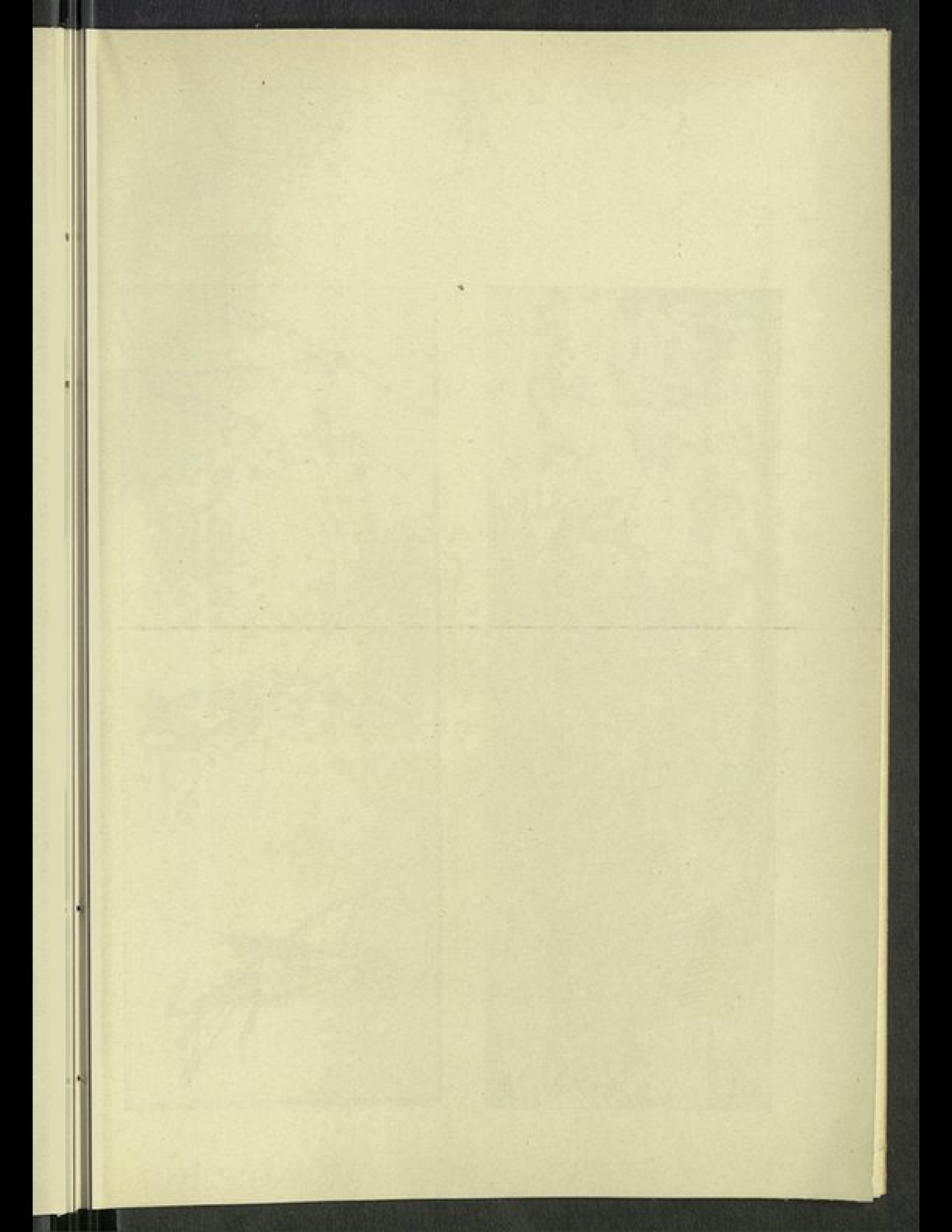




اصطدام بين الفرسان .

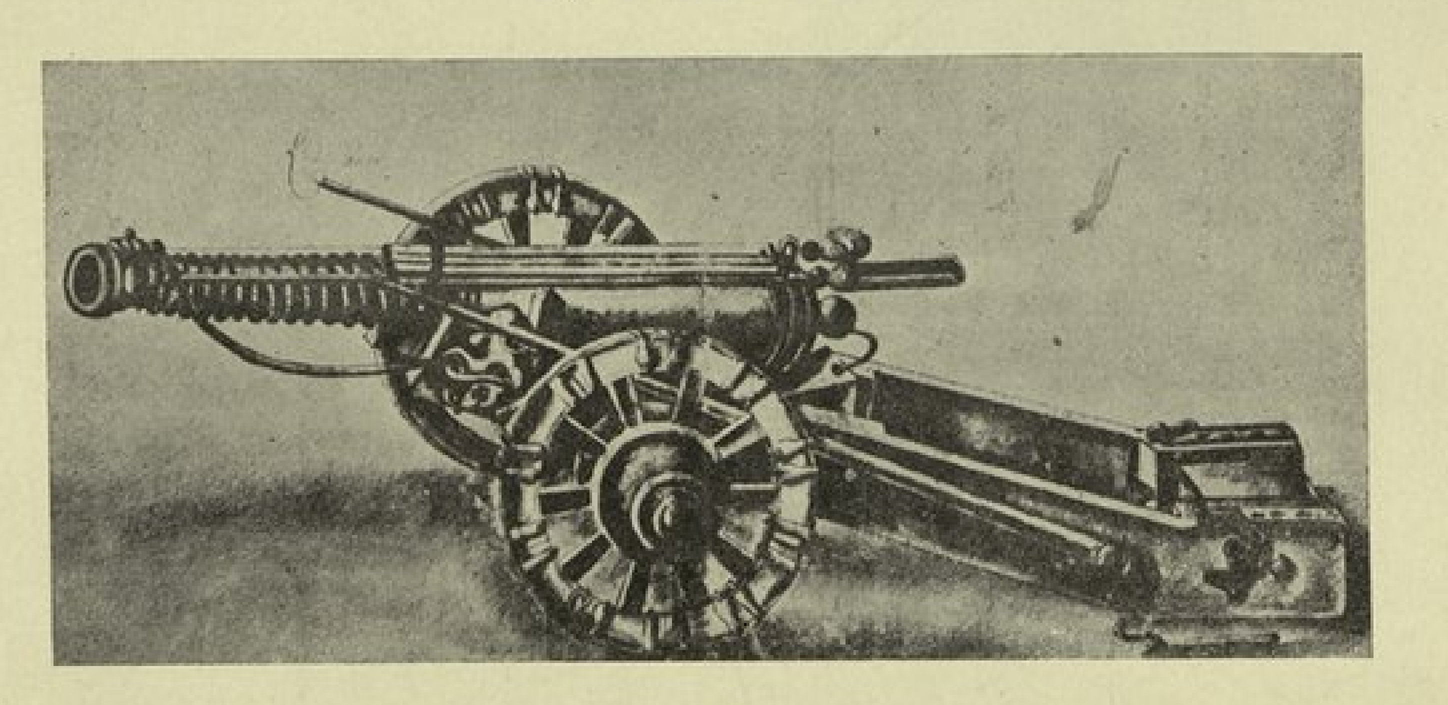


المراحل التي يمر فيها استعمال البندقية ذات الفتيل . (من الشمال الى اليمين) .

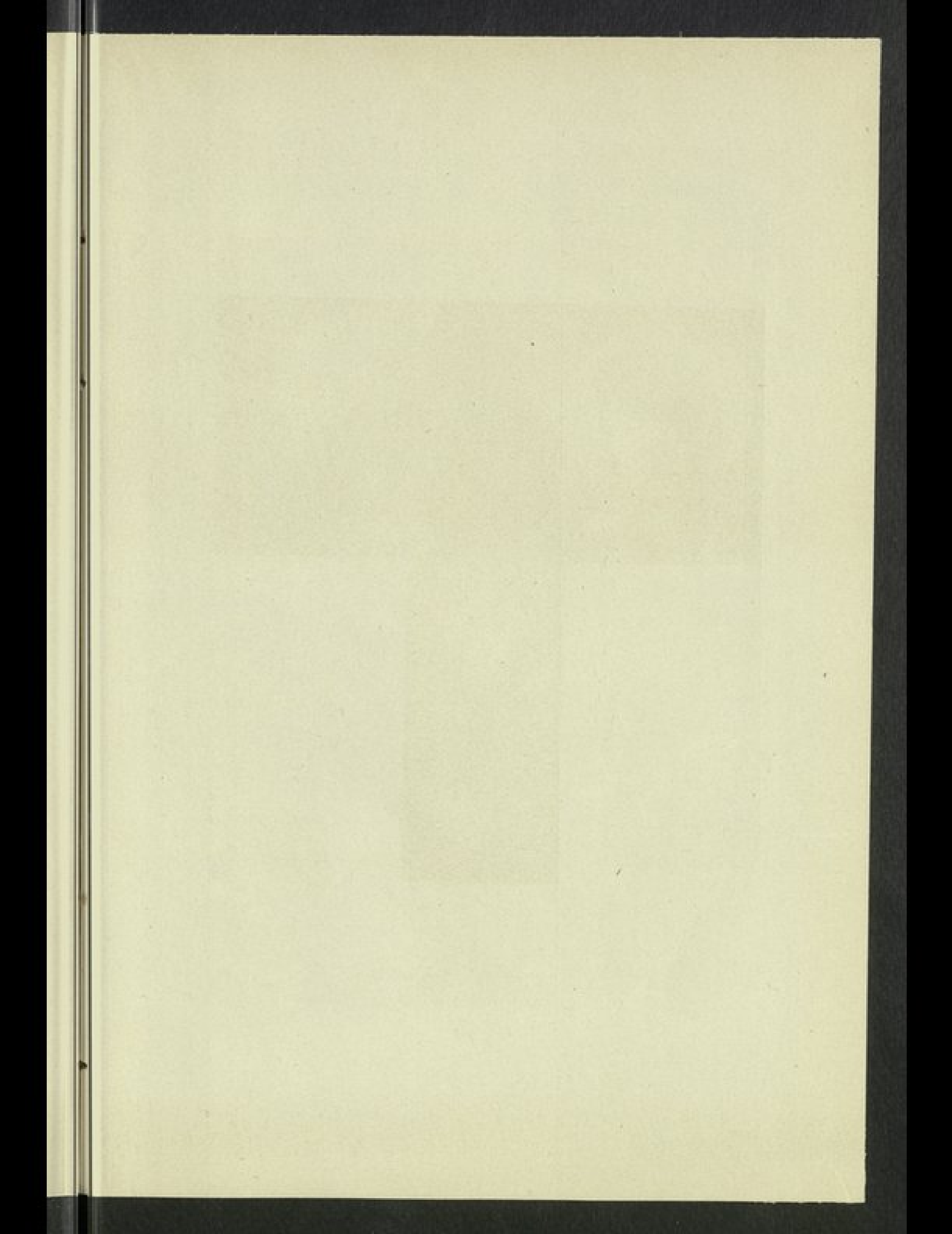




بندقية من عصر لويس الرابع عشر



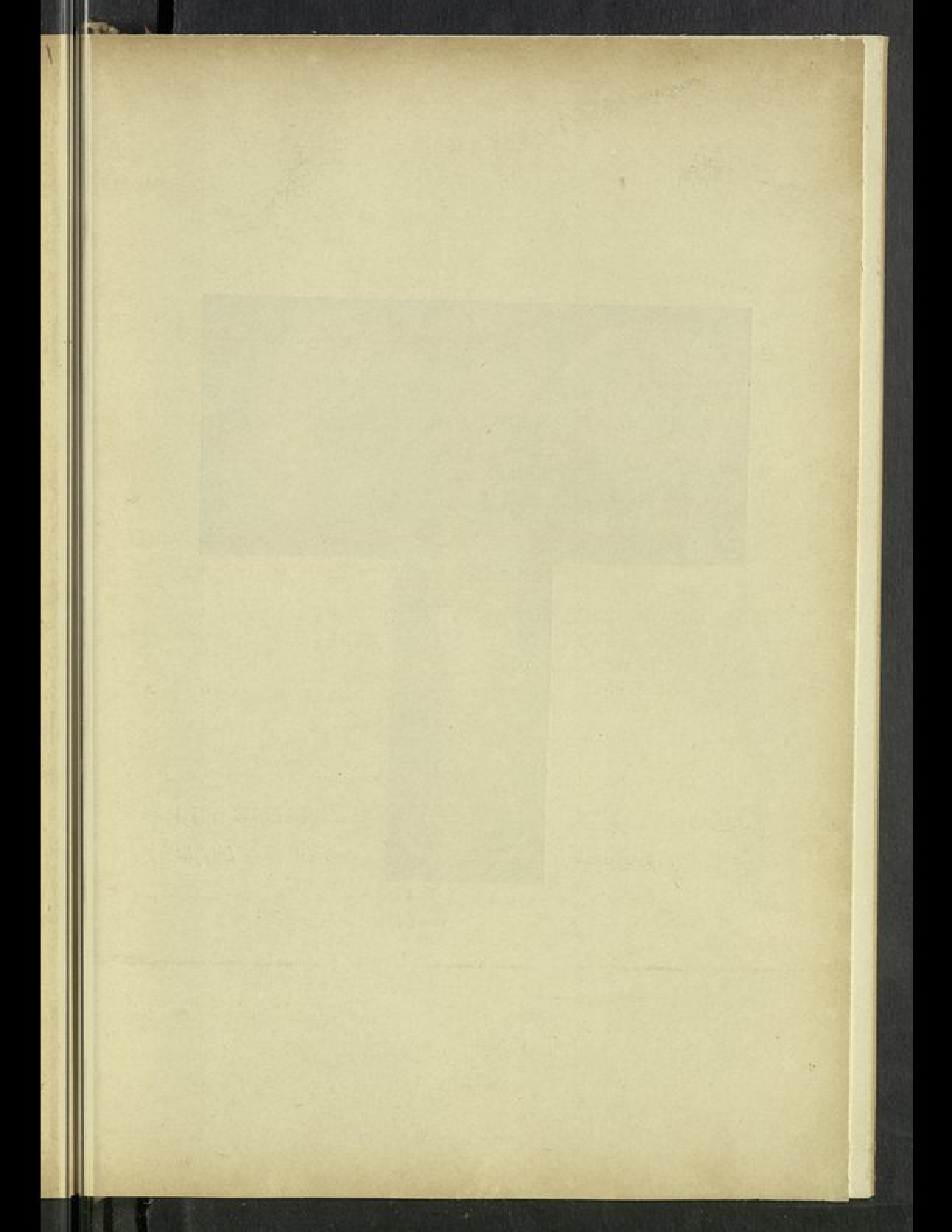
مدفع مجهز بجميع معداته وزنته ٨٤٢٠ ليرا .





فوق : خوذتان من حديد
محفورتان ومذهبتان .

الى جانب : خوذتان من
حديد عادي .



تأمين اللحمة والانسجام في وحدته . اما هذا النفوذ فكان يستمده من اعمال بطولية تصدر عنه في الحرب ومن تدابير موفقة يتخذها في السلم .

ومن هنا نشأ ما يسميه العسكريون « روح الثكنة » اي التنافس بين الكراديس على تحدي الخطر واحراز الامجاد .

اما الخيالة الفرنسية فقد ظلت بمعزل عن الاصلاح والتنظيم ومثلها المدفعية .

٦ – الجيش في اواخر القرن السادس عشر

السلاح . — قلبت الاسلحة النارية قواعد التكتيك رأساً على عقب . ولكن الفرنسيين ترددوا بعض الوقت في استعمال البندقية ذات الفتيل . وكانت حجتهم ان هذا السلاح الذي يقتل من مسافة طويلة لا يشرف الانسان وينزل الشجاع الى مستوى الجبان . وقد هدد القائد بايار بشنق كل من يحمل سلاحاً نارياً . اما الخبراء فعابوا على البندقية ثقلها واستحالة استعمالها في الايام الممطرة .

الا انه اتيح للفرنسيين ان يتبينوا اهمية السلاح الجديد في الحملات الايطالية وفي اثناء حروبهم الدفاعية ضد الجرمان والاسبانيين ، فاعتمدوا البندقية سلاحاً رئيسياً في حرب الكمين وفي مهاجمة القلاع والحصون . ولم يمض طويل وقت حتى عم استعمال البنادق القصيرة (قرابينه) وهي ذات فندق (عكاز) . وكانت ثقيلة عند ظهورها ثم خفف وزنها تدريجياً وحل الكبسول محل الفتيل وضوعف مدى القذيفة واصبحت قوة اختراقها ضعفين . وكانت زنة الرصاصة اربعين غراماً ومدى انطلاقها اربعمئة متر .

وبظهور البندقية برزت اهمية المدفع ، فعني الملك لويس الحادي عشر بزيادة مدى المدفعية الفرنسية . وفي عهده حلت القذيفة المعدنية محل القذيفة الحجرية . وظهرت المدافع البرونزية في عهد شارل الثامن . وقد جهز حملته على ايطاليا

بمئة واربعين مدفعاً برونزياً منهـا اربعون قطعـة من النوع المعروف باسم « الافعى » وهو من عيار متوسط ، ولكنه بعيد المدى نسبياً . اما لويس الثاني عشر وفرنسوا الاول فقد جهزا الجيش بمدافع خفيفة تدار بسهولة . غير ان تفوق مدفعية الالمان الثقيلة حمل هنري الثاني على مد قواتـه بمدافع من كل وزن وعيار .

وفي مطلع القرن السادس عشر قام في فرنسا اربعة عشر مصنعاً لانتاج البارود والمدافع والقذائف . وفي الثلث الثاني من القرن المذكور عهـد بادارة سلاح المدفعيـة الى ارباب الاختصـاص . وتطور فن الرماية تطوراً نوه بـه « مونلوك » في وصفه حصار « سين » قال : « بدأت مدفعية الجرمان تصب حممها على قاعدة السور مستهدفة ما كان العدو يحسبه نقطة الضعف ، على امل ان ينهار الجدار . ولما انقضى نصف النهـار على غير طائل شرعت المدفعيـة تصوب قنابلها الى وسط السور . وما عتمت حتى فتحت فيه عدة ثغرات . »

التكتيك . – ظل الفوج ، حتى موقعة « بافي » ، يؤلف وحدة القتال ، وكان قوامه ستة آلاف رجل يسيرون الى لقاء العدو في مجموعة واحدة متقيدين بقواعد معينة . وعند نشوب المعركة تقف القوات الرئيسية في مكانها وينتشر الرماة بالبنادق مؤلفين الطليعة والجناحين . فاذا تطور القتـال نحو الالتحام انسحب الرماة فاسحين المجال امام الرماحين وحملة الحراب .

في « بافي » اعتمد المشاة الاسبانيون بقيادة المركيز « دوبيكير » تكتيكا اشاع الارتباك في صفوف الخيالة الفرنسية . فقـد انتشر دفعة واحدة الف وخمسمئة رجل من حملة البنادق وراحوا يناورون ضد قلب الخيـالة الفرنسية وجناحيها بخفة ورشاقة ، غير متقيدين بالقواعـد المدرسية التي تحد من النشاط الشخصي ، وتجعل من الجنود آلات طيعة بيد القائد .

وهكذا كانت « بافي » الخطوة الاولى نحو الغاء تكتيك قديم يقضي بان يقاتل المشاة مجموعة متراصة ، الكتف على الكتف . وادرك الخبراء الفرنسيون على ضوء تلك الموقعة ان اللحمة الحقيقية لا تقوم على التكتل المادي في ميدان المعركة ، انما تقوم على فهم الجنود المهمة المشتركة المنوطة بهم ، وعلى ثقتهم بسلاحهم . وقد جرب الفرنسيون هذا التكتيك في موقعة « سيريزول» فصمد القائد « مونلوك » على رأس ثمانمئة رجل زهاء اربع ساعات في وجه سبعة آلاف ايطالي . ويقول المؤرخون المعاصرون ان « مونلوك » استطاع الثبات لأن قواته عملت متفوقة ، تكر هنا وتفر هناك ، وتشن حملات موفقة على نقاط الضعف في صفوف العدو .

وفي الحروب الدينية عمل القادة : « كوليني » و « كونده » و « ناسو » على تصغير وحدات القتال ، ليتسنى لها الانتشار بسرعة واتقاء نيران العدو . وقد استبدلوا من المربعات العادية مربعات مستطيلة يضم الواحد منها عشرة صفوف .

وفي اوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر بدأت الخيالة تجنح الى تكتيك الاندفاع في صفوف عميقة على اساس الكوكبة كوحدة قتال . وقد سبق الالمان الى تسليح خيالتهم بالبنادق فكان الصف الاول يتقدم فيطلق النار ثم يتقهقر بسرعة فاسحاً المجال امام الصفوف التالية ليؤلف هو المؤخرة . وقد سميت هذه الحركة « الدورة » ، لان الفارس كان يدور بفرسه ليلزم مكانه من المؤخرة . واعتمدت الخيالة الفرنسية هذا التكتيك واستبدلت من الرماح والنصال الاسلحة النارية ابان الحروب الدينية .

وتطورت العدة الدفاعية تبعاً لتطور السلاح الناري . فعم استعمال الدروع وحدات المشاة والخيالة ، وضوعفت سماكة الدرع فرزحت المطايا تحت ثقلها

وفقدت الخيالة الخفيفة المرونة التي كانت تتميز بها .

اما وضع الجيوش في ميدان المعركة فقد ظل هو اياه : وحدات القتال في الوسط يتمها جناحان وقوات احتياطية متوارية خلف مرتفع او في غابة . اما المدفعية فترتكز على الهضاب او وراء الجناحين مباشرة . ففي موقعة « كوتراس » نصب ملك النافار مدافعه على هضبة عالية وحشد خلف الهضبة بضعة الوية من المشاة وثلاث كتائب من الفرسان . وكان يغطي ميسرته نهر « بالار » . اما الميمنة فكان يحاذيها خندق كمن فيه خط من الرماة بالبنادق . ذكر المؤرخون ان الجيش البروتستنتي في هذه الموقعة كان معادلا للجيش الكاثوليكي بقيادة الدوق « دوجوايوز » . فتحت مدافع البروتستنت النار اولا فردت مدفعية الكاثوليك من مراكز مكشوفة ، فارشدت الومضات العدو الى مواقعها ولم يطل به الامر حتى اخرستها مدافعه . ولما تضايق جيش « دو جوايوز » من نيران البروتستنت حمل على هؤلاء حملة قوية فبدأ الهجوم بداية حسنة شجعت الدوق على انزال احتياطه الى الساحة ، ففوجىء بتدخل القوات التي كانت تتوارى وراء الهضبة ضد ميمنة جيشه وبخروج الرماة بالبنادق من مكامنهم للانقضاض على ميسرته . وقبل ان يتدارك « دو جوايوز » الموقف انقض عليه الجيش البروتستنتي وسحق قواته سحقاً في موقعة لم تستمر اكثر من ساعة ، قتل خلالها ثلاثة آلاف جندي كاثوليكي .

وقد اجمع المؤرخون على ان ملك النافار كسب الموقعة بمدفعية نصبت في الموقع المناسب وبمعرفته التامة للارض واستخدامه اياها استخداماً بارعاً .

سياسة واستراتيجية . — سارت الاستراتيجية والقضايا السياسية جنباً الى جنب . ففي القرن الخامس عشر كان يهدد الوحدة الفرنسية خصوم ذوو مطامع مرتكزة على حقوق اقطاعية . وكان لهم في فرنسا نفسها ممتلكات

وقواعد . اما حروب القرن السادس عشر فقد وضعت فرنسا امام اخطار خارجية ، فهبت تدافع عن حدودها باذلة المجهود الاكبر ضد العدو الاقوى وتآزرت الاستراتيجية والسياسة لحل هذه المعضلة الكبرى ، وهي النضال ضد الجرمانية .

تميز في الحروب التي خاضت فرنسا غمراتها في القرن السادس عشر قادة عظام امثال « غاستون دوفوا » ، « لاباليس » ، « كوليني » ، « تافان » ، « دوغيز » ، « بريساك » ، « دولانو » ، « بايار » .

قال المؤرخ « برانتوم » يصف بايار : « كان كبار القادة يتنازعون بايار لان الحملة التي يشترك فيها هذا البطل هي حملة ناجحة . كان بايار محارباً شجاعاً واسع الحيلة ، وقد تجسمت فيه سجايا الفارس الفرنسي : الاخلاص والصدق والشجاعة والكرم . كان له في موقعة « ماريتيان » شرف تكريس ملكه فارساً . »

ووصف « برانتوم » القائد « مونلوك » قال : « كان فظاً ، طماعاً ، ممسكاً ، ولكنه كان بطلاً صنديداً . التحق وهو دون الثامنة عشرة بسرية الرماة التي كان يقودها الملازم « بايار » . وبعد خمس سنوات اشترك في الحملة الايطالية و جرح فيها ثلاث مرات فرقي الى رتبة رئيس . وبعد موقعة « سيريزول » عين قائد اقليم واشترك في معظم المعارك التي تخللت النصف الاول من القرن السادس عشر . وقد جرح « مونلوك » وهو في الواحدة والسبعين من سنيه وبعد سنتين سمي مارشال فرنسا . »

يقول مؤرخو العصر ان الملك هنري الرابع كان قائداً متفوقاً واستراتيجياً من الطراز الاول . عاب عليه « فارنيز » حماسته واندفاعه الجنونيين في موقعة « ايفري » وردهما الى قصر نظره ، ولكن تكتيكه في موقعة « كوتراس »

اظهر بجلاء مواهبه الفنية ، كما اظهرت مواهبه السياسية مرونته في معالجة الازمة الداخلية وقوله للذين عابوا عليه اعتناقه المذهب الكاثوليكي : « ان باريس لتساوي قداساً ! »

الفصل الخامس

جيوش العهد الذهبي

١ - لويس الثالث عشر وريشليو

ظل آل هابسبورغ (البيت النمسوي المالك) حتى مطلع القرن السابع عشر يطمحون الى التوسع على حساب جيرانهم ، متأثرين في هذا خطى الامبراطور شارلكان . وقد وضع هنري الرابع نصب عينيه الوقوف في وجه هذا التوسع ومنع آل هابسبورغ من التمركز على الضفة اليسرى لنهر الرين . وبعد وفاته شغلت المشاكل الداخلية خلفه عن متابعة هذه السياسة . ولكن ما ان تم لريشيليو القضاء على « اعداء الطمأنينة العامة » حتى قام يسعى الى جعل الرين سداً منيعاً في طريق الجرمانية ، وبسط حدود فرنسا بحيث تعود اليها الاراضي التي كانت تؤلف قديماً بلاد الغول .

ولم يفت ريشيليو ، وهو رجل الدولة العظيم ، ان مشروعاً كهذا يقتضي تحقيقه ان يكون لدى فرنسا جيش قوي ، وان هذا الجيش لا تقوم له قائمة الا اذا احسن تنظيمه وتدريبه وقيادته . وقد سجل التاريخ الفرنسي للكردينال الوزير جهود عشرين عاماً في هذا السبيل ، كما سجل جهود الكردينال مازاران وائر لويس الرابع عشر والوزيرين « له تيليه » و « لوفوا » .

وانصف التاريخ الملك لويس الثالث عشر فذكر انه شجع جهود ريشيليو

وساندها . وبفضل هذا التأييد تمكن الكردينال من القضاء على الفتنة الدينية ، ومن اخضاع النبلاء الذين حاولوا بعث النظام الاقطاعي واضعاف سلطة الملك . وفي الخارج كانت حرب الثلاثين السنة تشغل اوروبا الشاغل . فقد ازاحت فتوحات آل هابسبورغ الستار عن نياتهم ومطامعهم . بيد ان التدخل الفرنسي ضد الامبراطور فردينان ظل مقصوراً على العمل الدبلوماسي حتى العام ١٦٣٣ . ففي العام المذكور نفض ريشيلبو يده من المشاكل الداخلية واحتل « نانسي » و « اللورين » ، وعقد محالفات مع « دوق سافوا » وامارات الشمال ، وحمل اسوج على التنازل لفرنسا عن المواقع التي كانت لها في الالزاس .

وبعد ان اطمأن ريشيلبو الى مركز فرنسا السياسي والاستراتيجي ، اعلن الحرب سنة ١٦٣٥ على النمسا المنهوكة واسبانيا المتفسخة . على ان اضطرار الجيش الفرنسي للقتال في الاراضي المنخفضة والمانيا واسبانيا وايطاليا ، مضافاً الى المجهود البحري الذي قامت به فرنسا لتأييد هولندا ضد الاساطيل الانكليزية والاسبانية ، لم يتح لريشيلبو ان يختار جبهة رئيسية يجعلها ميداناً للعمل الحاسم . وقد بدأت الحرب بداية سيئة فهدد الاعداء باريس ، ولكن الفرنسيين استجمعوا قواهم وردوا الاسبانيين عن ابواب العاصمة ، واستردوا بثباتهم وصمودهم المناطق المفقودة .

موقعة « روكروا » . — في اوائل سنة ١٦٤٣ احتشد جيشان فرنسيان على الحدود الشمالية ليواجها مجموعة الجيوش المعادية بقيادة « دون فرنسيسكو دو ميلو » التي كانت تهدد « روكروا » و « لاندريسي » و « اراس » . احتشد الجيش الفرنسي الاول على ضفة نهر « السوم » وكان بقيادة « لويس دو بوربون » ، دوق انجيان (الامير كونده فيما بعد) ، وقد اتخذ الدوق

من المارشال « دو لوبيتال » مستشاراً عسكرياً . وعسكر الجيش الآخر في وادي نهر « الواز » بقيادة « دو بروتان » . وفي منتصف ايلول حشد دوق انجيان قواته حول « اميان » وكانت تلتهب حماسة واندفاعاً ، ولكنها كانت عديمة التنظيم . فبذل قائدها يعاونه « سيرو » و « غاسيون » مجهوداً جباراً في سبيل القضاء على الفوضى قبل نشوب القتال .

كانت خطة « دوميلو » ترمي الى احتلال « روكروا » قبل وصول الفرنسيين . وفي ١٦ ايار انتهى الى دوق انجيان نعي الملك فعرض جيشه في اليوم التالي امام مدينة « فرفان » ، وكان هذا الجيش يضم خمسة عشر الف راجل وستة آلاف فارس ، فهتفوا له معربين عن حنينهم الى القتال . ولكن المارشال « دو لوبيتال » نصح بالتريث فضرب الدوق بالنصح عرض الحائط وشاقه ان يفاجيء الملك الجديد بعمل عسكري باهر .

اجتاز الجنرال « غاسيون » بسرعة المرتفع الذي كان يقوم بين الحصنين مغطياً بهذه الحركة القوات الرئيسية التي عبرت بدورها المر لتنتشر قبيل الغروب امام العدو على جبهة طولها كيلومتران ونصف الكيلومتر . وقد عهد الدوق الى « دو بروتان » بقيادة القلب ، وكان يضم خمسة عشر فوجاً ، والى « سيرو » بقيادة الاحتياط الذي تجمع وراء القلب وكان يضم ثلاثة افواج من المشاة وخمس كتائب من الفرسان . اما الجناحان فكانا يتألفان من الخيالة فوضعت الميمنة تحت قياد « غاسيون » والميسرة تحت قيادة المرشال « دو لوبيتال » والجنرال « لافيرته » .

وانتشر الاسبانيون في الجهة المقابلة على النحو الآتي : احتشدت الخيالة مؤلفة الجناحين بقيادة « ألبوكرك » و « ايزنبورغ » وشغل القلب ثلاثة كراديس من المشاة ، يضم كل منها ثلاثة صفوف لا فاصل بينها ، واصطف الاحتياط

وراء القلب .

ارخى الليل سدوله قبل الشروع في القتال ، فاستولى « غاسيون » عند فجر اليوم التالي على غاب يفصل بين الخيالتين ، ثم حمل على ميسرة خصمه حملة قوية اشاعت الفوضى والارتباك في صفوفه . ولكن حدث في الوقت نفسه ان كرت ميمنة العدو كرة قوية على الميسرة الفرنسية التي هاجمتها فارغمتها على الانكفاء كاشفة المشاة ، فانقض عليها فرسان « ايزنبورغ » وغنموا بضعة مدافع . الا ان لواء « البيمون » استطاع كبح جماح الخيالة المعادية ، وبالرغم من هذا خيل الى القائد فالير مساعد « دو بورونان » ان الموقف حرج فأمر قواته بالتقهقر ، ووافق دو بورونان على هذا التدبير .

كان دوق انجيان يرقب سير المعركة والى جانبه ضباط اركان حربه ، فنصحوا له بوقف دفعة الميمنة لينجد بها ميسرته المهددة . فلم يفعل ، بل التحق بـ « غاسيون » ، وقاد الخيالة حتى آخر خط من خطوط العدو ، ثم ارتد على الاحتياط وكان يتألف من الالمان ، فبعثر صفوفه وراح يتهدد مؤخرات خيالة ايزنبورغ ، فاضطر هذا لوقف هجومه ومواجهة الخطر الجديد . وبعد قتال عنيف شقت خيالة غاسيون طريقها وسط صفوف الخيالة الاسبانية بعد ان استردت المدافع المضيعة ، وانضمت الى المشاة الذين كان « سيرو » قد اعاد النظام الى صفوفهم . فحمل المشاة الاسبانيون والالمان حملة قوية فردتهم المدفعية الفرنسية على اعقابهم ثم انقضت الخيالة على العدو قبل ان يستجمع قواه المبعثرة ، فقتلت منه خلقاً كثيراً واسرت سبعة آلاف رجل وغنمت مئتي راية . وكان الكونت « دوفونتين » قائد المشاة في الجيش الاسباني في عداد القتلى .

ومع ان انتصار روكروا أحرز بعد موت ريشيليو ببضعة اشهر ، فالمجمع عليه

ان الفضل في احرازه يعود الى الاصلاح العسكري العظيم الذي تحقق في عهده.

الجيش في عهد لويس الثالث عشر وريشيليو. — تأثر الملك لويس الثالث عشر خطى ابيه هنري الرابع في السياسة والحرب. فواصل سياسة التطهير في الداخل والتوسع في الخارج، وعني بالجيش جملة وتفصيلا، لانه لصق بالجندية منذ نعومة اظفاره والف جو الثكنات، فشب على حب ما كان يسميه بحق «سياج المملكة».

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان لويس الثالث عشر كان يعنى بالكبيرة والصغيرة من شؤون الجيش ويقضي ساعات الفراغ بين رجال كردوس الحرس الخاص فيدربهم ويوآكلهم ويسمر وإياهم. واليه يعود الفضل في انشاء وحدات التكتيك واقتباس قواعد المناورة الهولندية، وفي استبدال البندقية القصيرة ذات القندق من البندقية الطويلة ذات الفتيل. وفي عهده بذلت محاولات جدية لتوحيد البزة العسكرية، وانشئت الكراديس النموذجية لتنسج على منوالها سائر القطعات، وارتفع عدد الكراديس الاقليمية من ستة الى اثني عشر.

ولا ينكر اثر الوزير ريشيليو في كل هذا. تسلم الكاردينال زمام الحكم وهو دون التاسعة والثلاثين فوضع نشاطه وذكاءه في خدمة مولاه والوطن. ولكن وفرة المشاريع التي اخذ تحقيقها على عاتقه لم تتح له الوقت الكافي لاعادة تنظيم الجيش تنظيماً اساسياً. ومع هذا كان نصيب هذه المؤسسة الوطنية من نشاطه الاصلاحي كبيراً الى حد.

قبل ريشيليو كان الوزير الاول في البلاط وامين سر الحربية او وزيرها يتنازعان الصلاحيات فوضع الكردينال حداً لتجاوز الوزير الاول على ما يخرج من دائرة اختصاصه وصلاحيته. وعني في الوقت نفسه باختيار وزراء الحربية بين رجال الحرب، واتاح لهم وسائل العمل المنظم، وانشأ «مكاتب

الحرب » ، وعين لدى الجيش موظفين اداريين مهمتهم تأمين اعاشة الجنود ودفع مرتباتهم .

وعمل ريشيليو على تعزيز السلطة المركزية ، فاصبح قادة الكراديس مسؤولين ازاء امير الجيش عن النظام في وحداتهم ، وصار القائد العام (اي امير الجيش) يتلقى التعليمات من وزير الحربية . وبفضل هذا التنظيم قام نوع من التنافس بين القادة على رفع مستوى كراديسهم اجتلاباً لرضا القائد العام وخوفاً من العقاب .

وفي عهد لويس الثالث عشر كان الجيش الفرنسي يضم ربع مليون رجل . وقد ادرك الكردينال ريشيليو على ضوء الحملات الاولى ان لا غنى لفرنسا عن المرتزقة من المحاربين الاجانب ، فاستقدم الوف الرماة والفرسان من سويسرا وهولندا واسكوتلندا وارلندا وبولونيا .

وبعد عهدة « البيرينه » (١٦٣٥) صار الجيش الملكي يضم ثمانين كردوساً من الخيالة الاجنبية ، فضلاً عن جيش « ويمار » الذي اشتراه ريشيليو من الدوق « برنار دوساكس ويمار » بموجب عقد يضع في خدمة ملك فرنسا ستة آلاف فارس واثني عشر الف راجل بكامل عدتهم ، بقيادة الدوق نفسه لقاء مبلغ اربعة ملايين ليرا ذهبية يتقاضاها الدوق سنوياً .

وبعد وفاة الدوق (١٦٣٩) تولى قيادة جيش « ويمار » المرشال « دوغيبريان » ثم تولاها « تورين » . وفي سنة ١٦٤٧ تمردت الكراديس الويمارية فقمع القائد الفرنسي الكبير هذه الحركة واشار بدمج كراديس الفرسان في الخيالة الفرنسية .

٢ – حداثة لويس الرابع عشر . – مازاران وله تربه

كان على الكردينال مازاران الذي خلف ريشيليو في الحكم ان يتم ما

بدأه سلفه العظيم . وفي عهده وضعت حرب الثلاثين السنة اوزارها ، واندلعت نيران الحرب الاهلية ، ونشب نزاع مسلح بين فرنسا واسبانيا .

حرب الثلاثين السنة . — استهلت فرنسا المحاربة العام ١٦٤٣ استهلالا حسناً . ولكن الحظ لم يحالفها الى النهاية . فقد قتل القائد غيبريان في موقعة « روتفيل » بعد ان احرز انتصاراً باهراً وخان الحظ خلفه رانتزو ، فولي القيادة المرشال تورين . واحرز القائد الجديد انتصاراً كبيراً على الدانوب ولكنه لم يوفق الى الحؤول دون سقوط « فريبورغ » عندما هاجمها السنة التالية جيش القائد « مرسي » . وقد خف « كونده » لنجدة « تورين » واستطاع ان ينتزع نصراً كثير التكاليف بعد صراع جبار استمر اياماً .

وفي سنة ١٦٤٥ فوجىء جيش تورين بحملة معادية بقيادة « مرسي » على مدينة « مارينتال » وكان للعدو التفوق العددي الساحق ، فخف « كونده » لنجدة زميله واتى القائدان العظيمان من ضروب الشجاعة والمهارة ما آمن لهما الفوز . فسحق جيش « مرسي » في « نورلنجن » وقتل قائده .

وتميزت الحملات التالية بمناورات بارعة قام بها « تورين » وامنت له السيطرة على المانيا من « مايانس » حتى جنوب بافاريا . وكان العام ١٦٤٨ خصباً بالانتصارات على مجمل الجهات : ففي قطلونيه احتل شومبرغ « تورتوزا » وكسب تورين معركة « لانس » في الفلاندر فعجلت هذه الانتصارات بدفع آل هابسبورغ الى عقد الصلح ، وقد كرست عهدة وسفاليا انتصار السياسة الفرنسية وقضت على الوحدة الالمانية . اما اسبانيا فقد رفضت المصالحة طمعاً منها بالحصول على شروط ملائمة ضد فرنسا المتمخضة بحوادث داخلية جسام .

الحرب الاهلية . — لم يخطىء حدس الساسة الاسبانيين فقد اندلعت في فرنسا نيران الحرب الاهلية وامتشق القائدان تورين وكونده الحسام ضد

الملك . ولكن اولهما ما عتم ان ادرك خطأه ووضع سيفه في خدمة مولاه .
وما ان عاد البلاط الى باريس حتى دعي تورين الى طرد الاسبانيين من فرنسا ،
وكانوا قد احتلوا جزءاً منها بقيادة كونده . وفي الوقت نفسه نشطت
الدبلوماسية الفرنسية فاستطاع الكردينال مازاران ان يحالف البورتغال وامراء
المانيا ، وان ينال مساعدة كرمويل مقابل تعهد بالتنازل لانكلترا عن دنكرك
حالما يتم أجلاء الاسبانيين عنها . وهو تنازل لم يكن منه بد لانه لم يكن
لفرنسا اسطول بحري يستطيع منازلة الاسطول الاسباني القوي ، فاستنجد
مازاران الاسطول الانكليزي .

وخان الحظ « كونده » فهزمه « تورين » في آراس حيث خسر الاسبانيون
اربعة آلاف رجل واربعة وستين مدفعاً . ثم هزمه في « دون » وفي مواقع
اخرى . واضطرت اسبانيا في النهاية لطلب الصلح . فاحتفظت فرنسا باقليم
« بينيرول » وخولتها معاهدة « بيداسوا » حق احتلال اللورين واعطتها حدود
« البيرينه » . واحتفظ الاسبانيون بـ « ليل » و « سان اومير » و « لاباسه »
وتنازلت فرنسا لانكلترا عن دنكرك . وهكذا ظلت حدود فرنسا الشمالية
مشرعة الابواب .

تورين وكونده . — سمي « تورين » مارشال فرنسا بعد ان ساهم في ثلاث
عشرة حملة وابلى فيها بلاء حسناً . وقد وصفه معاصروه بانه « القائد المتحفظ
ذو الضمير الحي والاعصاب الفولاذية . » وقال فيه نابليون انه « القائد الوحيد
الذي نما فيه الاقدام مع كر الاعوام ، وتراكم التجارب والاختبارات . »
ولعل ابرز صفاته معالجته المواقف الطارئة بحكمة واتزان وحزمه في
الحالات التي لا تنفع فيها التدابير العادية وانصاف الحلول .

اما كونده ، دوق انجيان ، فقد تألق نجمه في موقعة « روكروا » وبرهن

مذ ذاك عن مواهب تكتيكية رفعته الى مستوى كبار القادة الذين اخذ عنهم نابليون السرعة في التصميم والحزم في التنفيذ . كان سريع الخاطر ، يلم بالموقف الطارىء بسرعة عجيبة ، وهي موهبة لم يكن لتورين مثلها . ومن اشهر المواقع التي ربحها بعد « روكروا » : « فريبورغ » ، « نورلانجن » و « لانس » .

ميشيل له تيليه . — تولى ميشيل له تيليه في عهد « مازاران » وزارة الحربية بعد ان شغل مدة طويلة وظيفة مفوض الاعاشة في الجيش . وقد لاحظ الوزير ان عدد القادة في الجيش كبير جداً وان النظام الرتبوي معدوم . فقد كان مازاران يكثر من تعيين القادة اجتلاباً لرضا النبلاء ، فاضحى للجيش الواحد عدة آمرين من رتبة واحدة وصار هؤلاء يتولون القيادة كل بدوره ، فنجم عن هذا محاذير جمة منها تشابك الصلاحيات وانعدام الانسجام والاستقرار في رسم الخطط وتنفيذها . ففي الفلاندر كان المارشالان « تورين » و « لافرته » يتوليان قيادة الجيش الفرنسي ، كل بدوره ، فامر اولهما بانشاء استحكامات لتغطية نقاط معينة . وبعد اسبوعين ولي القيادة « لافرته » فامر بازالة الانشاءات التي امر زميله باقامتها . فكان هذا الامر المضاد سبباً في تمرد قطعات الجيش التي ساءها ان تؤمر بهدم ما انفقت في بنائه مجهود بضعة عشر يوماً .

لم يحقق ميشيل له تيليه اي اصلاح اساسي في الحرب . وقد بدأ باقامة النظام الرتبوي على اسس قوية وبوضع قواعد معينة لتسلسل الرتب . فالغى وظيفة امير الجيش . وبعد عهدة « البيرينه » عين لويس الرابع عشر القائد تورين مارشالا عاما لجيوش الملك وثكناته وسمي في البراءة الملكية « المتقدم في مارشالية فرنسا » ، فاغضب هذا الايثار زملاء تورين وقام فريق منهم سنة ١٦٧٢ بحركة نمت عن استيائهم وسميت « النزاع بين المارشالية » فتدخل الملك لحسم الخلاف . وبعد هذا الحادث صار البلاط يختار لكل حملة قائداً

عاماً آخذاً بعين الاعتبار مواهب القائد وقوة نفوذه واقدميته في السلك .

وانشأ « له تيليه » ، بناء على اقتراح « تورين » ، رتبة امير لواء (بريغاديه) في الخيالة . وشجعه نجاح التجربة على احداث الرتبة نفسها في جيش المشاة . وكان لواء الخيالة يضم اربعة كراديس ، اما لواء المشاة فكان قوامه خمسة افواج واحياناً ستة .

والغى الوزير المصلح وظائف « مارشال الميدان » و « منكب المعركة » Sergent de Bataille ، والزعماء العامين Colonels Généraux . واحتفظ تورين بلقب « زعيم عام للخيالة » ، ولكن مشاغله الكثيرة صرفته عن الاضطلاع بهذه الوظيفة اضطلاعاً فعلياً فعين « له تيليه » مفوضاً عاماً للخيالة والحقه بالوزارة ليكون صلة الوصل بينها وبين الالوية . وما عتم المفوض العام حتى اصبح المهيمن الفعلي على الخيالة الفرنسية .

وعني « له تيليه » عناية خاصة بالتسلسل الرتبوي في الكراديس ، فعهد بقيادة الكردوس الى ضابط كبير برتبة زعيم (كولونيل) يعاونه عقيد (ليوتنان كولونيل) فكبير المقدمين (ماجور) فرؤساء (كابتن) فملازمون اولون ، فملازمون ثانون .

وفي اواخر العام ١٦٥٤ حدد مرسوم مهمة الكراديس في القتال ومركزها في حفلات العرض . وجعلت هذه القطعات فئتين : الكراديس الدائمة والكراديس الموقوتة . وكانت هذه تسرح فور انتهاء الحملة . وجعل المرسوم نفسه من الفوج قطعة اساسية تضم الف رجل ، وقد كان في عهد لويس الثالث عشر قطعة تكتيكية . وجعل عدد الافواج في الكردوس الواحد يراوح بين اثنين واربعة .

وانشأ « له تيليه » فيلقاً مستقلاً للمدفعية اختار ملاك ضباطه بين ارباب

الاختصاص . واستغنى عن خدمات المهندسين الاجانب بانشائه فرقة الهندسة العسكرية . وابطل عادة كانت متفشية في العهود السابقة ، وهي شراء الرتب العسكرية بالمال او بخدمة خاصة يسديها الطامح للرتبة الى الرئيس ذي السلطة . ولكن اصلاح « له تيليه » لم ينجح في القضاء على اساليب الخداع والتزوير التي كان يعتمدها الضباط المكلفون التعبئة ، طمعاً منهم بالربح . فقد كان هؤلاء يأتون بجنود مستعارين من كردوس مجاور ، كلما احسوا قدوم المفتش . وكان الكردوس المعبأ حديثاً غير كامل . فاذا دعت الحاجة الى خروج الكردوس للقتال اتقى الضباط الفضيحة بتزوير شهادات تثبت وفاة المتغيبين او مرضهم .

و « له تيليه » هو اول من فرض نظام الخدمة في الثكنة ، وحتم على الضباط الاقامة الجبرية فيها ، واخضع الاجازات للمناوبة ، بحيث لا يتغيب دفعة واحدة اكثر من نصف الضباط . وحدد اياماً معينة في الشهر للتدريب ، ووضع نظاماً خاصاً لحفلات العرض وللمناورات ، وحدد صلاحيات المحاكم العسكرية بعد ان وضعها تحت سلطة مفوضي الاعاشة الاقليميين المباشرة .

وعني الوزير المصلح عناية خاصة باعاشة الجيش فاخضعها لنظام المناقصة والتلزيم ، وضاعف عدد المخازن الدائمة ، وانشأ دائرة خاصة للوازم الجند ، ووحد مرتباتهم ، وعهد بدفعها شهرياً الى موظفين اطلق عليهم اسم « عمال الملك » . وفي عهده انشئت مستشفيات نقالة تحت اشراف مفوضي الاعاشة ، ومستشفيات ثابتة في المدن الحصينة . وقد كمل الوزير « لوفوا » ، وهو نجل « له تيليه » ، ما بدأه ابوه ، وكان لويس الرابع عشر قد بلغ سن الرشد السياسي ، فاشرف بنفسه على الاصلاح .

٣ - لويس الرابع عشر ولوفوا

لم يعين لويس الرابع عشر خلفاً للكردينال مازاران لانه قرر تصريف شؤون الدولة بنفسه . اما وزارة الحربية فقد عهد بها الى « لوفوا » وكان دون الثانية والعشرين من سنه .

حرص الملك منذ توليه السلطة الفعلية على اجتلاب محبة الجيش باحداث ما فات « مازاران » و « له تيليه » احداثه مما يرد اليه المؤرخون عملين عظيمين هما انشاء « الانفاليد » لايواء الضباط والجنود الذين تشوههم الحرب ، او الذين تدهمهم الشيخوخة وهم فقراء ، او يقعدهم مرض عن خدمة العرش والبلاد . اما العمل الاخر فهو انشاء وسام القديس لويس لمكافأة الضباط الذين يلمعون بقطع النظر عن مركزهم الاجتماعي .

ولم يقلّ لويس الرابع عشر عن سلفه اهتماماً بتدريب القطعات وعرضها . ولا سيما قطعات « الحرس الفرنسي » والحرس الملكي الخاص . وكان يقضي اياماً متنقلا بين الثكنات ليقف بنفسه على سير الامور ويقدم ملاحظاته الشفوية او الخطية الى وزير الحربية .

اما « لوفوا » فقد كان شعلة ذكاء وكتلة اعصاب . عاب عليه خصومه كبرياءه وشدة وطأته على مرؤوسيه . ولكن المؤرخين ردوا كراهية البعض للوزير العظيم الى حقده عليه ، لانه كان ابعد الناس عن التحيز ، ينزل بالمسيء العقاب الصارم اياً كان مركزه وشفعاؤه .

اهتم « لوفوا » باكمال الاصلاح الذي بدأه ابوه « ميشيل له تيليه » . وسرعان ما وضعت قسوته حداً للفوضى وروح التمرد ، فكانت العقوبات التأديبية التي تنزل بالمتخلفين عن اداء الواجب والمتقدمين ببيانات كاذبة والمتلاعبين باعاشة الجند تراوح بين الجلد بالسياط والتعذيب بالحديد المحمى . ولم يتردد الوزير في

طرد الضباط الذين اقدموا على اساءة الائتمان ، او انفقوا مرتبات الجند في غير الوجوه المعينة لها .

وحسن « لوفوا » نظام دفع الرواتب ، فصار الجندي يتقاضى مرتبه الشهري ثلاث دفعات . وشدد الرقابة على المتسلمين شؤون الاعاشة . وفي عهده خطا مشروع توحيد اللباس خطوة واسعة نحو التنفيذ ، فجعل لباس الحرس الفرنسي ازرق اللون . اما سائر قطعات الجيش فقد اختار لها « لوفوا » اللون الاحمر .

ووضع « لوفوا » حداً نهائياً للبقية الباقية من امتيازات الاقطاعيين ، فلم يبق كرم المحتد شرطاً لبلوغ المراتب العالية في الجيش . وجعلت الاقدمية والاعمال الباهرة اساساً للترقية .

ساعد الوزير في مهمته قادة لامعون امثال « مارتينه » و « فوربل » و « دومتز » . وقد سقط ثلاثتهم في ميادين الشرف بعد ان ادوا لوطنهم اجل الخدمات .

عهد « لوفوا » الى « مارتينه » في العام ١٦٦٨ بتفتيش جيش المشاة فدربه على الخطوة الموزونة وادخل تحسيناً على اساليب التدريب ، واقترح تجهيز البنادق بالحراب . واليه يعود مهر كل كردوس من الكراديس بسرية من حملة الرمانات . اما « فوربل » فقد كان امير لواء في الخيالة فعينه « لوفوا » مفتشاً عاماً لهذا السلاح ، فنظم قواعد المناورة وانشأ الكراديس الدائمة وعددها ستة وستون ، كما انشأ اربعة عشر كردوساً من الفرسان « الدراغون » .

وتولى « دومتز » قيادة قطعات المدفعية ثم عين مفتشاً عاماً لهذا السلاح ومستشاراً فنياً للوفوا . وقد ابطل «دومتز» عادة تلزيم انشاء البطاريات واستعمالها من قبل اشخاص لا خبرة لهم . ومهر فيلق المدفعية الذي انشأه « له تيليه » برجال

من ارباب الاختصاص . فاعطى هذا التدبير نتائج مشجعة في مواقع الفلاندر ، ولم يمض طويل وقت حتى اضحى فيلق المدفعية جديراً باسمه .

حروب الثلث الاخير من القرن السابع عشر . — نعمت فرنسا بالسلم زهاء ثماني سنوات . وعندما نشبت حرب الموارث كان الفرنسيون مستعدين لها ، ولكنها لم تكن سوى حلقة في سلسلة حروب طاحنة .

لم يتخلل حرب الموارث اي ظاهرة عسكرية جديرة بالذكر . ولكنها قربت ، سياسياً ، بين هولندا وانكلترا . فكانت من هذه الناحية علة المشاكل التي تخبطت فيها فرنسا بعد عهدة « اكس لاشابيل » (١٦٦٨) ، وهي العهدة التي عقدت دون ترو . وسرعان ما ادرك ملك فرنسا ان حدود بلاده ما تزال مكشوفة وان هولندا تشكل خطراً لا يجوز اغفال شأنه . وقبل ان يعلن الحرب على الجارة الشمالية الشرقية ، حالف شارل الثاني ملك انكلترا وملك اسوج وامراء المانيا . وفي سنة ١٦٧٢ عبر جيش فرنسي من مئة وعشرين الف رجل نهر الرين قرب مدينة « تولوس » منفذاً خطة ناجحة لـ « تورين » ، وكان الهولنديون يعتمدون على النهر في حماية بلادهم ، فاسقط في ايديهم وطلبوا الصلح . ونصح « تورين » للملك وللوفوا بمصالحة العدو ، ولكن « كونده » وعدهما بانتصارات سريعة وقليلة التكاليف . وطال الاخذ والرد فافاد الهولنديون من هذه الفترة فحطموا سدودهم ليغرقوا ارض الوطن بالفيضان وفي الوقت نفسه عمد رئيسهم « غليوم دورانج » الى حث ملوك اوروبا على كبح جماح الجيش الفرنسي قبل فوات الاوان . فحالفه ملك اسبانيا وامير براندبورغ وامبراطور المانيا . ورغم هذا احتل الجيش الملكي « فرانش كونته » بينما كان « تورين » يناور لمنع الالمان من التدخل .

وبعد موقعة « سنيف » التي انتصر فيها « كونده » انتصاراً غير حاسم ،

اتجهت الانظار مجدداً الى نهر الرين . فانقذت حملة تورين الشتوية بلاد الالزاس وكان لمناورات المارشال اثرها في بلوغ هذه النتيجة . ففي الخامس من كانون الاول ١٦٧٤ قام جيش « تورين » من « هاغنو » و « سافيرن » فعبر جبال الفوج المكسوة بالثلج وهبط منحدراتها الغربية متجهاً جنوباً ، بينما كانت جيوش الحلفاء منطوية على نفسها في السافوى العليا بانتظار الربيع .

وفي ٢٧ كانون الاول دخل الجيش الفرنسي الالزاس من ثغرة بيفور وزحف الى « مولهوز » . فاسقط بايدي الاعداء وارتبكت صفوفهم فهزمهم تورين قبل ان يتخذوا التدابير اللازمة لمواجهة الحالة . وقد قتل القائد العظيم في موقعة « سالزباخ » بينما كان يراقب مواقع العدو استعداداً لتسديد الضربة القاضية اليه . واصيب معه الضابط « سان هيلير » بجرح ثخين ، فاكب نجل الضابط فوق ابيه يبلل وجهه بدموعه فقال له « سان هيلير » مشيراً الى جثة « تورين » : « بنوتي لا تخسر فرنسا سوى واحد من ابنائها ولكنها خسرت بموت « تورين » قائداً فذاً وجندياً عظيماً . »

وقد تولى القيادة بعد « تورين » تلميذه « كريكي » فاعتمد تكتيك استاذه وواصل مطاردة الالمان داخل بلادهم . وفي هذه الاثناء كان جيش آخر بقيادة الملك يضرب الحصار حول المدن المحصنة فاحتل « بوشان » و « كوندي » و « آير » سنة ١٦٧٦ . وفي العام التالي احتل « فالانسيين » و « كامبره » و « سان اومير » و « غان » . وفي البحر هزم الاميرال الفرنسي « دوكين » عمارة « رويتر » في « باليرمو » وتغلب « دسفري » على « ترومب » في مياه « الانتيل » . وفي العام ١٦٧٨ وقع الحلفاء على عهدة « نيميغ » فاحتفظ لويس الرابع عشر من فتوحاته ، بولاية « فرانش كونته » وبـ « كوندي » و « فالانسيين » و « بوشان » و « موبوج » و « كامبره »

و « سان اومير » و « كاسل » .

وفي العام ١٦٨١ احتل الفرنسيون « استراسبورغ » ، والغى الملك لويس الرابع عشر براءة « نانت » التي منح هنري الرابع البروتستنت بموجبها حرية العبادة ، فاثار التدبيران نقمة الدول البروتستنتية وقلق جيران فرنسا ، فتألفت « عصبة اوكسبورغ » العام ١٦٨٨ من المانيا واسبانيا والنمسا وانكلترا ودوقية سافوى . فخاض الجيش الفرنسي غمرات حرب دفاعية استمرت ثماني سنوات واستطاع ان يقف في وجه اوروبا وان يهزم الجيوش المتحالفة في البر : في « فلوروس » و « ستافارد » و « ستانكرك » و « مرساي » و « تروندن » . ولكن القائد تورفيل الذي كسب موقعة « بوفوزيه » البحرية افلت زمام النصر من يده في موقعة « هوغ » . فكان هذا بدء انحطاط الاسطول الفرنسي . وقد تميز في هذه الحرب الدفاعية قائدان كبيران هما المارشال « دولوكسمبورغ » والمارشال « دوكاتينا » . كان « دولوكسمبورغ » صديقاً حميماً للوزير لوفوا ، قضى بضع سنوات في البلاط لم يأت خلالها عملا مثمراً . وقد تجلى نشاطه ومواهبه في ميادين القتال . ولقبه معاصروه بـ « كونده الثاني » لانه كان سريع الخاطر والبديهة ، مقداماً كسلفه القائد العظيم . ومن اشهر المواقع التي ربحها « فلوروس » و « ستانكرك » و « تروندن » . وفي هذه الموقعة الاخيرة تجلت مواهب « دولوكسمبورغ » التكتيكية . فقد حشد مقابل ميمنة العدو اثنين وثلاثين فوجاً يدعمها خمسون مدفعاً . فمهدت المدفعية لهجوم المشاة ، ولكن العدو صدهم ثلاث مرات متوالية ، وكانت المدفعية في كل مرة تفتح نيرانها تمهيداً للهجوم ، وفي المرة الرابعة اخترق المشاة صفوف الاعداء وكسب « دولوكسمبورغ » المعركة .

اما المارشال « دو كاتينا » فقد هزم الحلفاء في موقعتي « ستافارد »

و « مرساي » . وكان متواضعاً يؤثر العمل الصامت ولا يقدم الا بعد درس طويل . وكان يقول للذين لم يعجبهم تباطؤه : « افضل ان ابلغ الهدف في شهر باقل كلفة ممكنة على بلوغه في يوم بثمن باهظ . »

وقد وضعت عهدة « ريزويك » (١٦٩٧) حداً للحرب فخرجت فرنسا منها سليمة واحتفظت بـ « استراسبورغ » وبالحدود الشمالية .

الجيوش . — كانت قوة الجيوش تقاس بعدد المحاربين . اما العتاد فكان يأتي في الدرجة الثانية . ففي العام ١٦٦٨ لاحظ الوزير « لوفوا » بسرور ان فرنسا عبأت سبعين الف راجل وخمسة وثلاثين الف فارس . وقد ارتفع هذا الرقم تدريجاً منذ ذاك حتى بلغ قبل صلح « نيميغ » ٤٠٠ الف رجل . وكان « لوفوا » يسرح خمسين بالمئة من المجندين بعد كل صلح ليخفف عن كاهل الخزينة .

وبلغ عدد المحاربين الفرنسيين في العام ١٦٩١ نصف مليون رجل ، منهم ثلاثمئة وتسعون الف راجل . وبعد صلح « ريزويك » سرح ثلثاهم .

كانت القاعدة المتبعة في زيادة عدد المجندين ان يزاد عدد الكراديس او ان يزاد عدد الرجال الذين تتألف منهم . وقد تمشى « لوفوا » على القاعدة الثانية ، وهكذا ظل عدد الكراديس على حاله ، ولكن زيد عدد السرايا في كل منها . وبعد موت « لوفوا » اعتمد لويس الرابع عشر القاعدة الاولى فانشأ بين ١٦٨٦ و ١٦٩٦ مئة وستين كردوساً جديداً منها اربعون اجنبياً .

كان عدد المتطوعين يتناقص بعد كل حملة ، فاضطر « لوفوا » لتجنيد السجناء بعد الغاء براءة « نانت » ، ليسد النقص الذي احدثته هجرة البروتستنت من البلاد . وفي العام ١٦٨٨ انشأ الميليشيا الاقليمية . كان رجال هذه الميليشيا يختارون بالقرعة لمدة سنتين ، ويشرف على تدريبهم محاربون قدماء .

وفي اربعة اشهر تجمع لدى « لوفوا » تسعة وعشرون كردوساً تعهدت الاقاليم اعاشتها وتجهيزها ، ولم تكلف الدولة فلساً واحداً .

السلاح والتكتيك . — تأثر تكتيك وحدات المشاة في الجيش الفرنسي بما حمله اليها « برنار دوساكس وبمار » من تعاليم غوستاف ادولف . فقد اعتمد الملك الاسوجي اساليب جريئة في المناورة ، واولى قوة النيران واستمرارها عناية خاصة . فنشر مشاته صفوفاً ستة ، ثلاثة منها في الخط الامامي وتليها الثلاثة الباقية . فيطلق الخط الاول النار على العدو ثم يشغل الخط الآخر الفترة التي يستغرقها تلقيم البنادق بطلقات متقطعة ، وهكذا تظل النار متواصلة الى حد ما . وقبل هذا كانت الصفوف تفرغ بنادقها دفعة واحدة ثم تنصرف الى تلقيمها ، فينتهز العدو فترة الهدوء لاتخاذ الاوضاع الملائمة او لشن حملات خاطفة على الاجنحة .

تحمس « تورين » للتكتيك الجديد ولكنه لم يطبقه على نطاق واسع ، لان افواج المشاة ظلت حتى اواخر القرن السابع عشر تخرج للحرب وسلاحها الاساسي الرمح . وكان للسرية الواحدة عدد محدد من البنادق يراوح بين اربع وست . ولم يستبدل المشاة الفرنسيون البندقية من الرمح الا العام ١٦٩٩ ، فجهزوا ببنادق تلقم بفشك محشوة باروداً وحلت الحربة المثبتة فيها محل الرمح .

وتخلى المشاة نهائياً عن العدة الدفاعية كالزرد والدرع والطاسة . ولكنهم لم يألفوا التكتيك الجديد الذي فرضه السلاح الناري الا بصعوبة . فقد اعتادوا الانقضاض على العدو والالتحام واياه ليعملوا فيه اسلحتهم القاطعة ، فطبيعي الا يقلعوا بسهولة عن عادة متأصلة ليلزموا مراكزهم ويطلقوا النار من مسافات معينة ، ولا يستعملوا حرابهم الا اذا ولى العدو الادبار ، او بات عاجزاً عن اطلاق النار باحكام .

ولم تتبع الخيالة الفرنسية تكتيكاً معيناً بعد موقعة « روكروا » ، فكانت تارة تعتمد الاسلوب الاسوجي الذي اعتمده المشاة ، وطوراً تنقض على العدو بالسلاح الابيض ، وهو الاسلوب الذي اعتمده « كونده » في معظم المواقع التي كسبها .

المدفعية . — عني « فوبان » ، اعظم مهندس عسكري انجبته فرنسا ، عناية خاصة بتنظيم المدفعية ، فانشأ بطاريات ثقيلة لحرب الحصار ، وضاعف عدد مدافع الهاون ومدافع الميدان ، وجهز كل كردوس من كراديس المشاة ببطارية تضم عدداً من القطع يراوح بين اربع وتسع . وكان مدى مدافع الميدان يراوح بين ٤٥٠ و ٦٠٠ متر . وكان المدفع عيار ٢٤ يطلق ١٥٠ طلقة في اليوم .

قبل المارشال « تورين » كانت البطاريات تنصب امام الجناحين فصارت في عهده تتخلل الصفوف . ونحا المارشال « دولوكسمبورغ » هذا النحو دون ان يتخلى عن قيادة المدفعية . وهو اول قائد فرنسي ادرك اهمية هذا السلاح اذا استخدم على نطاق واسع .

وعني « فوبان » ، في جملة ما عني به ، بوضع قواعد معينة للدفاع عن المدن الحصينة ومهاجمتها . على ان شهرته لم تقم على النظريات فحسب ، بل قامت على نجاحه خلال النصف الاخير للقرن السابع عشر ، في تنظيم الدفاع عن المدن التي اشرف هو على تحصينها او حصنها سواه ، وفي الاستيلاء على قلاع العدو واختراق اجهزته الدفاعية المتماسكة .

وفوبان هو اول من قال بتغطية المدن المحصنة باجهزة خارجية عميقة ليكون الدفاع طويل النفس ، واول من اعتمد في حماية المدن على الحصون المستقلة ، والخنادق المحفورة خارج الاسوار . وكان يولي النواتيء في المنشآت الدفاعية عناية خاصة ، لانها نقاط الضعف في الجهاز ، وعليها يصب المهاجم معظم

مجهوده . وكان يعتمد في مهاجمة المدن الحصينة تكتيكاً ما يزال له انصاره الى يومنا هذا : يحشد امام الهدف قطعات مختارة تدعمها مدفعية قوية . وقبل الشروع في العمليات تقوم دوريات الاستكشاف بسبر غور المكان الحصين لتبين نقطة الضعف . وفي هذه الاثناء ينصرف الجيش المحاصر الى حفر الخنادق وانشاء جهاز يمكنه الاعتصام فيه اذا الجأته تطورات القتال الى التزام موقف دفاعي . اما الهجوم فيشرع فيه نهاراً تفادياً للاخطاء ، ولعواقب الفوضى . وبفضل هذا التكتيك قاد « فوبان » بنجاح حصار خمسين مدينة منها عشرون حوصرت تحت اشراف الملك وولي العهد .

الاستراتيجيا . — اجتاز فن « الاستراتيجيا » خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر مرحلة انتقال بطيء من حرب تدور رحاها بين جيوش صغيرة الى حرب تتلاقى في ميادينها جيوش جرارة . ذلك انه بالرغم من تزايد الجيوش ظلت مصاولة الخصم ونهك قواه بحرب الحركات والمداورات الطويلة النفس ، شغل الاستراتيجيين الشاغل ولم يعتمدوا المعارك الفاصلة لاحراز النصر الا في حالات نادرة .

وقد تعارضت نظريتان في ادارة العمليات : نظرية تقول بافضلية حرب الحصار والخنادق (الجبهة الثابتة) ، واخرى تقول بحرب الميدان . والفرنسيون هم اول من بشر بها في عهد هنري الرابع ، واعتنقها « تورين » و « كريكي » و « فيلار » . « عندما تؤمن لنفسك السيطرة في الميدان يمكنك ان تحول القرى الى حصون ترتكز عليها في مهاجمة المدن المحصنة . » (من رسالة بعث بها « تورين » الى « كونده ») .

اما لويس الرابع عشر الذي كان شديد الحرص على قيادة جيوشه بنفسه ، فقد تبنى النظرية الاولى ، وجاراه وزيره « لوفوا » . وكانت حجتها ان حرب

الحصار مأمونة النتائج مهما يطل امد المقاومة . اما حرب الحركات فالفوز فيها رهن مشيئة الحظ . وقد قاد الملك جيوشه بنفسه في معارك هولندا . وبعد سنة ١٦٩٣ صار يرسم الخطط ويبعث بها الى القادة . فكان المعززون منهم امثال « تورين » و « كونده » و « كاتينا » يطبقون خططهم الخاصة ، ثم يعزون نجاحها الى صاحب الجلالة . اما القادة غير اللامعين فقد كانوا يتقيدون بالاوامر الملكية حتى اذا فوجئوا ابان المعركة بعنصر جديد ، اسقط في ايديهم ، وكتبوا الى الملك يلتمسون تعليمات اضافية . وقد ترتب على تدخل لويس الرابع عشر بادارة العمليات على النحو المتقدم ، ضياع فرص ثمينة لاحراز نصر حاسم ، وتمديد اجل النزاع لمصلحة العدو .

على ان تشبث لويس الرابع عشر بقيادة العمليات بحيث تكون مهمة القادة مقصورة على التنفيذ ، لم يمنع « فوبان » من فرض نظرياته وتطبيق خططه في حرب الحصار . وقد اخذ الملك دون تردد بآراء المهندس العظيم ، واطلق يده في تغطية شمال البلاد وشرقها بتحصينات قوية اتاحت للجيوش الفرنسية ان تنتشر جنوباً وغرباً ، وهي مطمئنة الى قوة الجدارين اللذين اقامها « فوبان » حاجزين بين فرنسا وجارتيها هولندا والمانيا .

المعسكرات المحصنة . — رد المؤرخون نجاح المراكز المحصنة في صد المهاجمين خلال القرن السابع عشر الى الظروف الصعبة التي كانت تلابس العمليات الهجومية في ذلك العهد . فقد كانت الطرق نادرة الوجود ، ووسائل النقل محدودة . وكانت القلاع والحصون تسد المنافذ دون القوافل والجحافل ، فتقف هذه امامها مترددة بين الاقدام والاحجام . فان هي اقدمت تأخر الحملة عن بلوغ الهدف الرئيسي ، لان القضاء على مقاومة الحامية عملية شاقة تستغرق وقتاً طويلا وجهوداً جبارة ، وان هي واصلت تقدمها بحركة

لف ناجحة تكون قد تركت وراءها عدواً يتهدد مؤخرتها ويعرقل تموينها .

ولم تكن جيوش القرن السابع عشر كبيرة لدرجة يمكن معها تخصيص قوات معينة لتجميد حامية القلعة القائمة في الطريق ، ولمنعها من ايذاء المؤخرة وقوافل النقل ، لهذا لم يكن بد من محاصرتها . فاذا امتد الحصار الى فصل الشتاء اضطر المهاجمون لوقف كل نشاط بانتظار الصحو ، وانتهز المدافعون الفرصة ليسدوا الثغرات المفتوحة ، فيعود الحصار الى النقطة التي بدأ منها .

كان « فوبان » يقول ان الحصون والقلاع هي الوسيلة الكفيلة بمد اجل الحرب ، وقد عاب النقاد العسكريون على هذا المهندس تسببه في زوال اهمية المراكز المحصنة بادخاله على الهجوم تحسيناً لم يدخل مثله على الدفاع . بيد ان المؤرخين الذين انصفوا « فوبان » ذكروا ان الرجل اقترح سد هذا النقص بتدابير معينة ، فاهمل اقتراحه جزئياً في حينه ، ثم اتخذ اساساً للتحسين الذي ادخل على الاجهزة الدفاعية الثابتة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ويقول الذين دافعوا عن « فوبان » ان التحصينات التي لم يعنَ بتحسينها تبعاً لتحسين التكتيك الهجومي استطاعت خلال حرب « المواريث » ان تصد سلسلة هجمات عنيفة ، وان تكبح جماح العدو وتحول بينه وبين الوصول الى باريس . واذا كانت المراكز المحصنة قد اثبتت عجزها ابان الحروب التي نشبت في اواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر ، فالمسؤول عن هذا العجز هم قادة الحاميات لانهم لم يحسنوا ادارة العمليات الدفاعية .

ويقول مؤرخو القرن السابع عشر ان معسكرات المهندس الفرنسي كانت جزءاً متمماً للحصن الكبير ، تحميها مدفعية ويغطيها خط متماسك من الخنادق ، يحتله جيش من عشرة آلاف رجل ليحول دون تسلل العدو بين « المعسكرات المحصنة » .

حمى الفرنسيون مدينة دنكرك وراء جهاز من الطراز المتقدم عندما هوجمت في العام ١٧٠٦ ، فاخفق العدو في اختراق الخطوط الدفاعية ولم يستطع التسلل بينهـا نظراً لكثافتها وعمقها . و « فوبان » هو اول من ارتأى انشاء المعسكرات المحصنة . ففي مـذكراته عن حمـاية باريس يقترح انشاء سور خارجي علاوة على السور الداخلي ، يناور خلفه جيش متحرك قوامه ثلاثون الف رجل من جنود الخط الاول ، وعشرة آلاف يعاونون في باريس نفسها . فاذا قيض للعدو اختراق السور الخارجي ارتد الجيش الفرنسي الى مـا وراء السور الداخلي وانضمت اليه الحامية المؤلفة من البورجوازيين .

وكان « فوبان » يعتقد ان العدو سيستنفد مجهوده الاكبر في محاولته دك الجهاز الخارجي ، حتى اذا تم له ما اراد وجد نفسه امام جهاز آخر لا يقل عن سابقه مناعة ، فاما ان يتهيب الموقف ويرتد او ان يهاجم ويمنى بالاخفاق .

وقد عزا نابليون الى المهندس « فوبان » فكرة انشاء الغطاء المحصن على الحدود فجاء في مذكراته ما يلي :

« حول « فوبان » مناطق معينة الى معسكرات محصنة تغطيهـا الانهر والفيضانات والحصون والغابات . ولكنه لم يقل ان الحصون وحدها تستطيع حماية الحدود ، بل رمى من هذا الجهاز الى تأمين الحماية اللازمة لجيش ضعيف ضد جيش قوي ، فوضع تحت تصرف الاول ميداناً للعمل يتيح له الصمود وعرقلة تقدم العدو وشن كرات ناجحة ، كما يتيح له كسب الوقت بانتظار وصول المدد . »

٤ – قضية العرش الاسباني

بعد « ريزويك » امر لويس الرابع عشر بالغاء كراديس المليشيا وبخفض عدد الافواج والسرايا . ولكن موت الملك شارل الثاني الاسباني سنة ١٧٠٠

طرح مسألة الوراثة على بساط البحث ، فلم يسع الملك الفرنسي الا العمل على تقوية الجيش ليتسنى له ان يدعم حق حفيده بالعرش الاسباني بقوى مسلحة قادرة على مواجهة جيش آل « هابسبورغ » الذين لم يرقهم تربع امير فرنسي على عرش اسبانيا ، فقرروا احباط المشروع باي وسيلة .

كان الجيش في العام ١٧٠٠ يضم تسعين كردوساً فارتفع الرقم في عام واحد الى مئة وعشرين . وفي منتصف العام ١٧٠٢ صرح الملك امام سفيري انكلترا وهولندا بان فرنسا على استعداد لمواجهة الطوارىء ، فقد عبأت ٢٢٢ الف جندي منهم خمسة وثلاثون الف فارس .

وعند نشوب الحرب واجهت فرنسا اعداءها بمئة واربعة واربعين كردوساً . وانتهى النزاع ولها جيش قوامه ٣٥٠ كردوساً . الا ان نمو هذا الجيش خلال سني الحرب صادف عقبات كأداء اهمها عجز الخزانة عن تأمين مرتبات الجند واثمان الاعتدة ، مما حمل كثيرين على التهرب من حمل السلاح وتقديم البدل نقداً او عيناً ، اي ان يقدم الخاضع للخدمة مبلغاً من المال او شخصاً يحل محله . فانخرط في الجيش رجال لا يصلحون للخدمة وفتيان سلخوا عن مقاعد الدرس ليسد بهم النقص في الصفوف ، ولكنهم ما عتموا ان فروا من الجيش ، فقد زجوا في المعمعة قبل ان يعدوا لمهادة النار الاعداد اللازم .

اما اعداء فرنسا فقد البوا ضدها جيوشاً جرارة . فحشدت انكلترا اساطيلها وذهبا وخمسين الف محارب . وعبأ امبراطور النمسا مئة الف رجل ، وهولندا قوى معادلة ، وحشد امراء المانيا ستين الف محارب . وتولى قيادة الجيوش المتحالفة رجلان موهوبان هما دوق « مارلبرو » والامير « اوجين » .

قرر لويس الرابع عشر الصمود امام العدو في « الفلاندر » مرتكزاً على

الحصون التي انشأها « فوبان » . وكان يرجو ان تتيح له محالفته عاهل بافاريا ان يضرب في وسط المانيا ضربة تقوض الحلف الموجه ضده ، ولكن خطته هذه كانت تتطلب تمركز المجهود الفرنسي في قطاع واحد ، وكيف يتم هذا التمركز والحرب في كل مكان : في « الفلاندر » ، على « الرين » و « الدانوب » ، وفي « التيرول » وايطاليا ؟

وبعد نضال شاق استمر اربع سنوات احرز خلالها « فاندوم » في ايطاليا و « برويك » في اسبانيا و « فيلار » في المانيا انتصارات باهرة ، ختم القائد الانكليزي « مارلبرو » المرحلة الاولى باحراز انتصار كبير في « هوشتيد » (١٧٠٤) ، فخسر الفرنسيون في الموقعة ثلاثين الف رجل كما خسروا حليفهم عاهل بافاريا . وتوالت النكبات مذ ذاك . ففي سنة ١٧٠٦ تراجع الجيش الفرنسي في « الفلاندر » واخرجت قوات « توران » جيش « فاندوم » من ايطاليا ، وفي السنة التالية هزم دوق « مارلبرو » جيش دوق « بورغونيا » في « اودرناد » واحتل مدينة « ليل » ، وهكذا حطم العدو الجهاز الدفاعي واندفع في داخل فرنسا فسقطت مدينتا « غان » و « بروج » وساد الذعر والفوضى البلاد . ولكن نجاح « برويك » في اسبانيا و « فيلار » في « السافوى » ووصول جيش شارل الثاني عشر الاسوجي الى « الساكس » انعش الآمال بعض الشيء . غير ان الانتفاضات الفرنسية كانت قصيرة النفس ، وكان التناسق معدوماً فيما بينها ، فحاول لويس الرابع عشر انقاذ الموقف بصلح شريف . الا ان الحلفاء تقدموا بشروط قاسية ، فتوجه الملك الى شعبه برسالة يستنهض فيها الهمم ويضرب على وتر الوطنية الحساس ، فهب الفرنسيون هبة الرجل الواحد يلبون نداء ملكهم رغم الضيق الذي كانت تعانيه البلاد .

وادرك الملك ان توحيد القيادة شرط اساسي لنجاح المجهود الوطني بشكله

الجديد ، فأمّر على جيوشه رجلاً من تلامذة « تورين » هو المارشال « فيلار » . كان هذا القائد محبوباً في الجيش واستطاع بنفوذه الشخصي وبالمعاملة الحسنة التي كان يخص بها جنوده ان يواجه العدو في « السافوى » وعلى نهر الرين بجيش متراص الصفوف سليم المعنويات ، بينما كان الفراريون في جيش « فاندوم » (جيش الحملة الايطالية) يملأون السهل والجبل لان قائدهم لم يعرف كيف يحبب اليهم العمل تحت امرته .

عهد الملك الى « فيلار » في العام ١٧٠٩ بقيادة جيش « الفلاندر » الذي يغطي باريس . وكان هذا الجيش في حالة تفسخ تبعث على القنوط . فنفخ فيه « فيلار » من روحه ، وسرعان ما انتعشت المعنويات والامال . وقبل ان يشرع القائد الجديد في سبر غور العدو ، امن لقواته المؤن وكانت في مسيس الحاجة اليها ، ودربها تدريباً كافياً على الهجوم .

عرف « فيلار » ان « مارلبرو » والامير « اوجين » يحشدان جيشهما قرب مدينة « مالبلاكه » فمشى اليها . وقبل ان يشرع في الهجوم انتهى اليه كتاب من الملك ينهاه فيه عن خوض غمار معركة كبيرة ، وينصح له بالتزام موقف دفاعي « امام عدو واسع الحيلة » . وقد تقيد المارشال باوامر مولاه وترك مبادرة العمليات للعدو . وظل يصاوله بضع ساعات مستدرجاً اياه الى المواقع التي اختارها لتكون ساحة النضال الحاسم والمعركة الفاصلة ، ولكنه اصيب بجرح ثخين قبل ان يتحقق هذا الغرض ، فحل محله في القيادة المارشال « دوبوفلر » ، وكان قائداً مجرباً ولكنه لا يحسن انتهاز الفرص واستغلال مصاعب العدو .

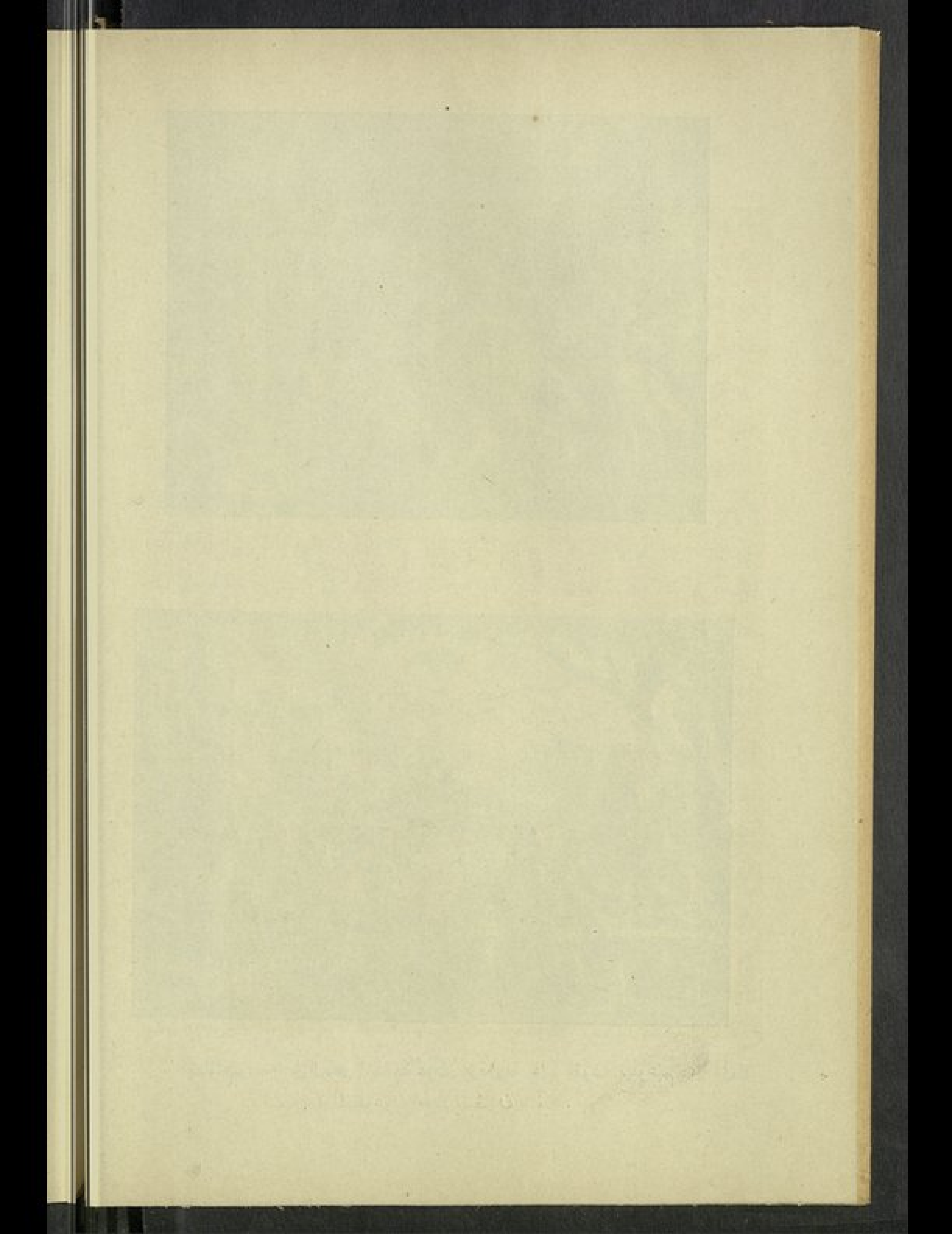
وفي المساء انسحب الفرنسيون من الساحة بنظام تام تاركين وراءهم احد عشر الف قتيل وخمسة اسير ، وخسر الحلفاء تسعة عشر الفاً بينهم اثنا عشر



هنري الرابع في معركة « ايفري » .

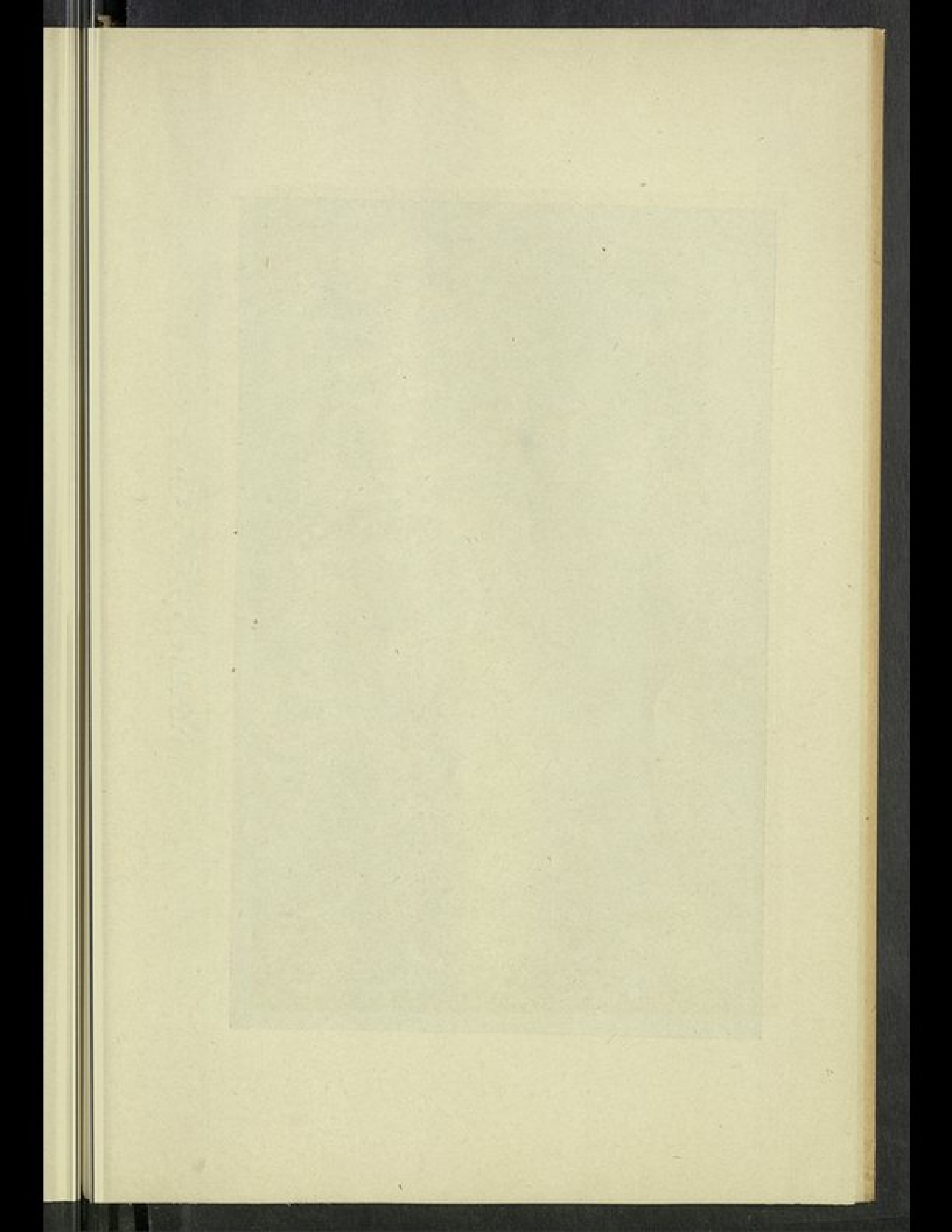


التطوع : (الى اليمين) المتطوعون يوقعون على عقود تطوعهم ، (الى الشمال) المتطوعون الجدد يقبضون سلفية .



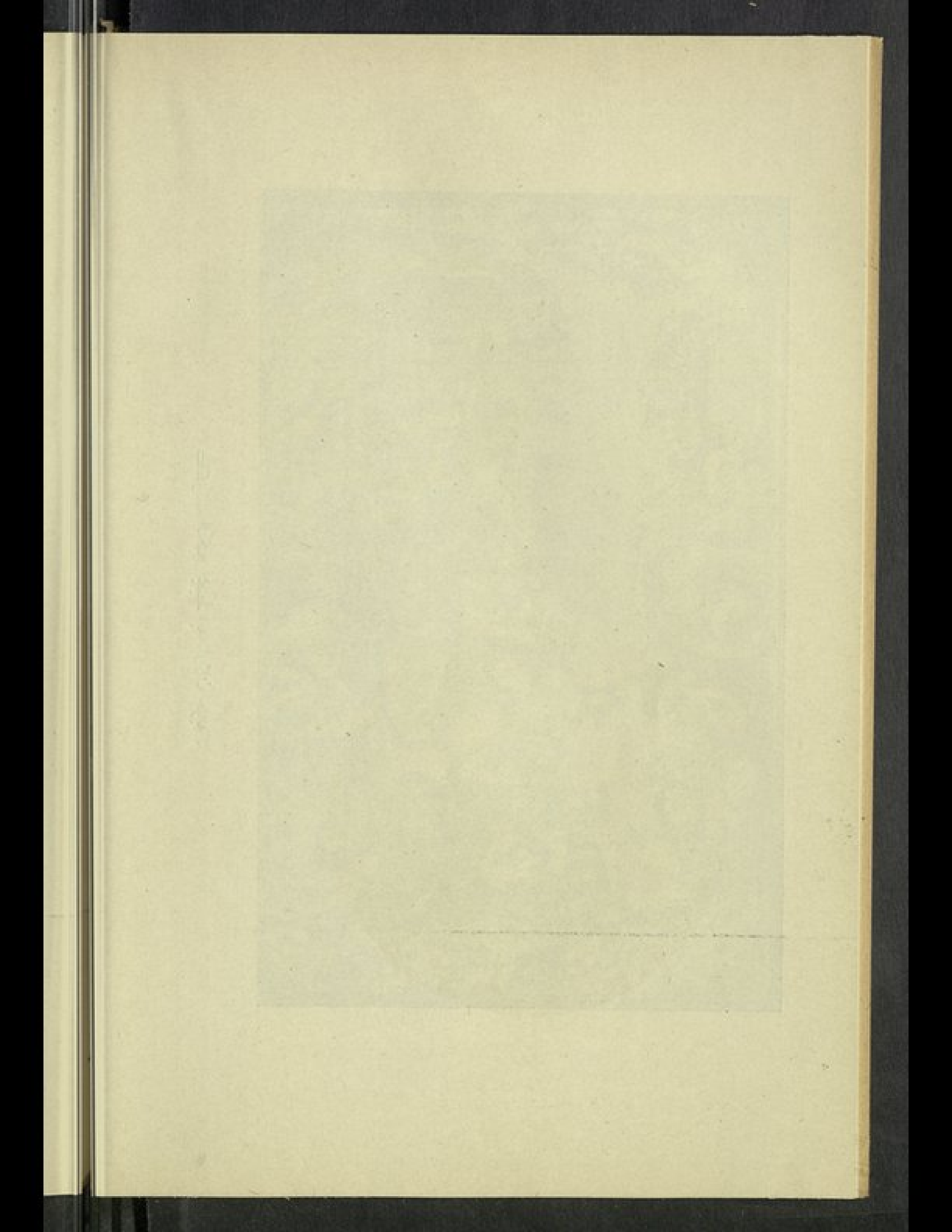


معركهٔ « روكروا » (١٩ ايار ١٦٤٣)





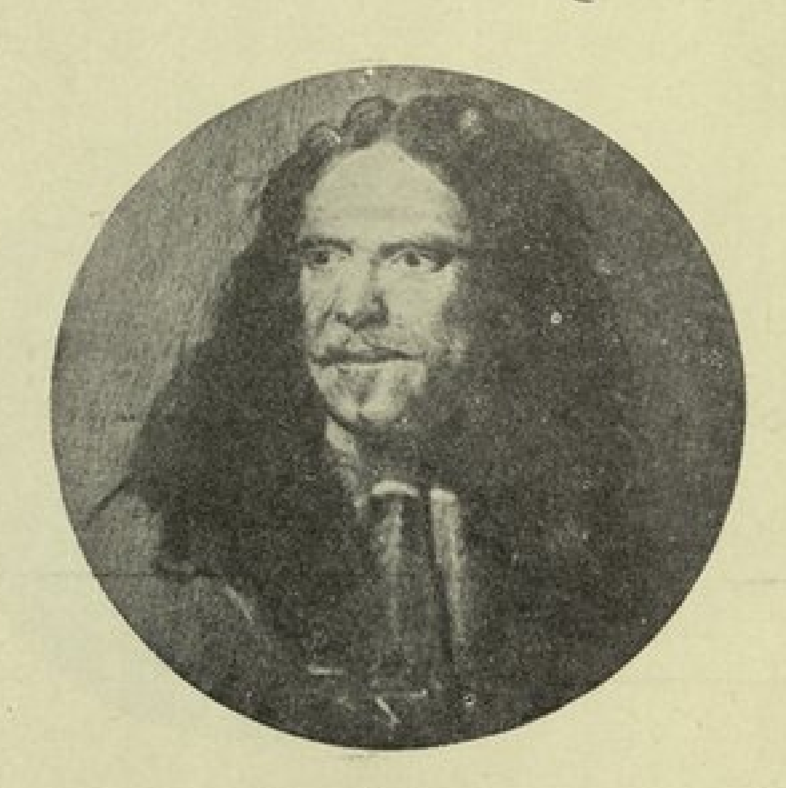
کونده الکبیر محیط به ارکان حربیه .





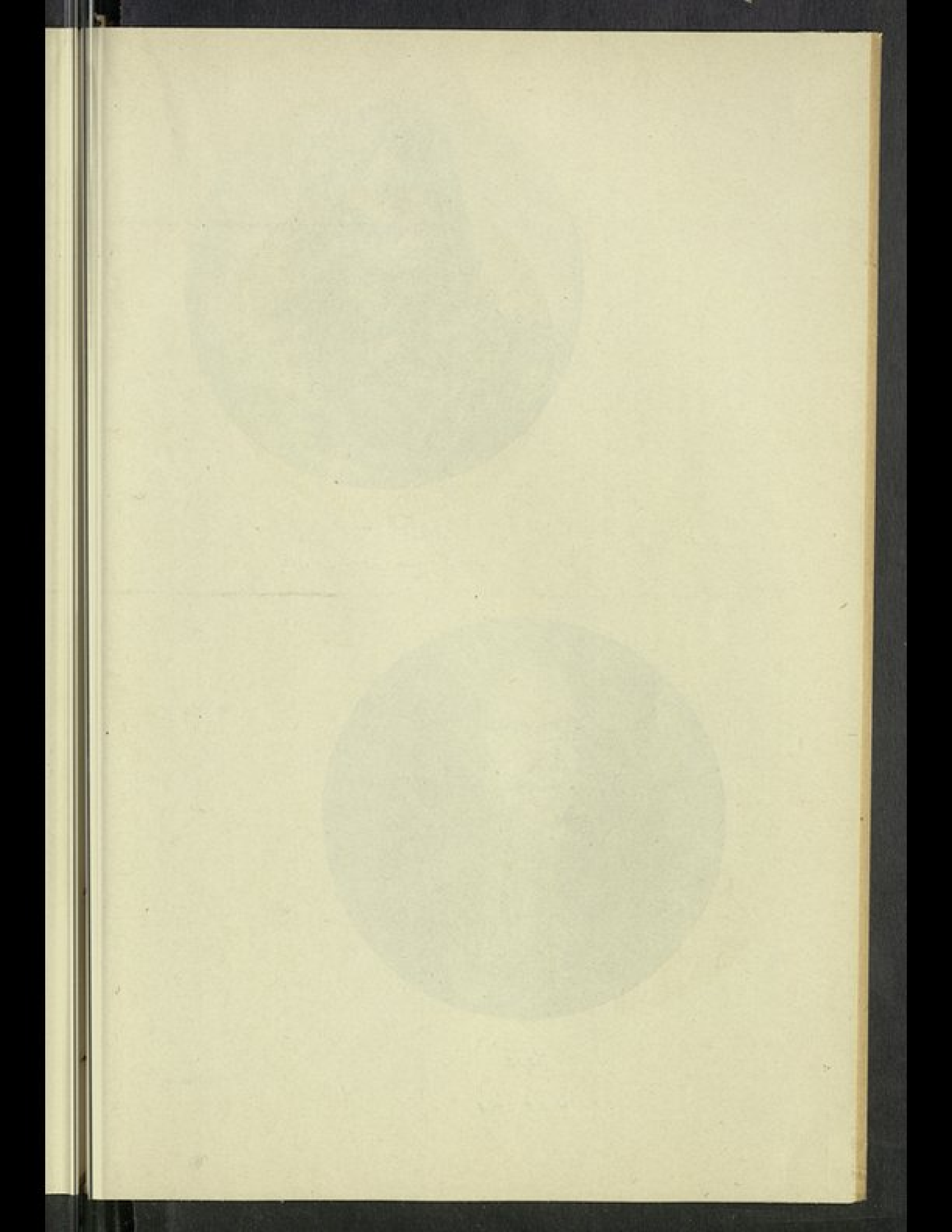
كونده الكبير

تمثال من البرونز صنع كوازفو



تورين

بريشة لوبران

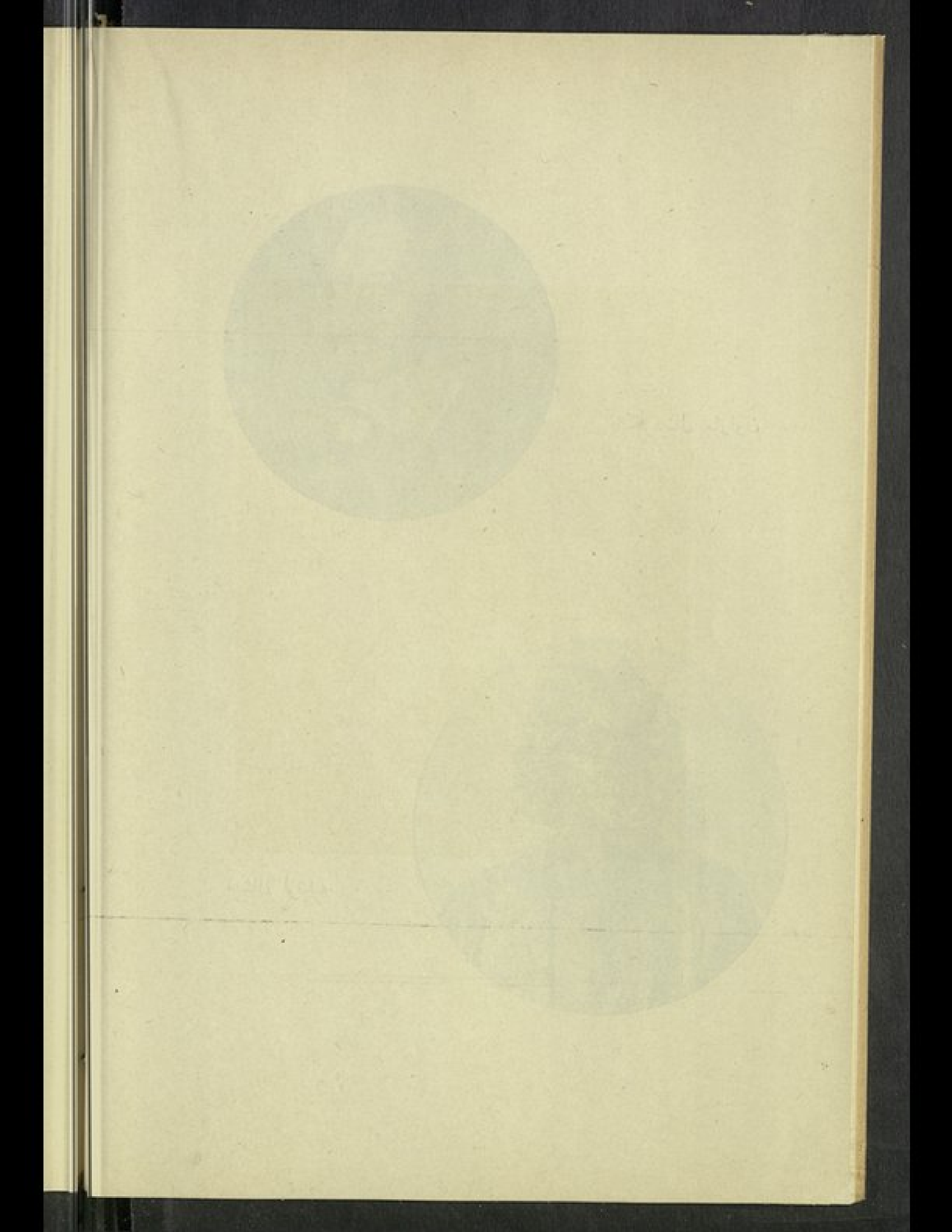




الكردينال مازارن

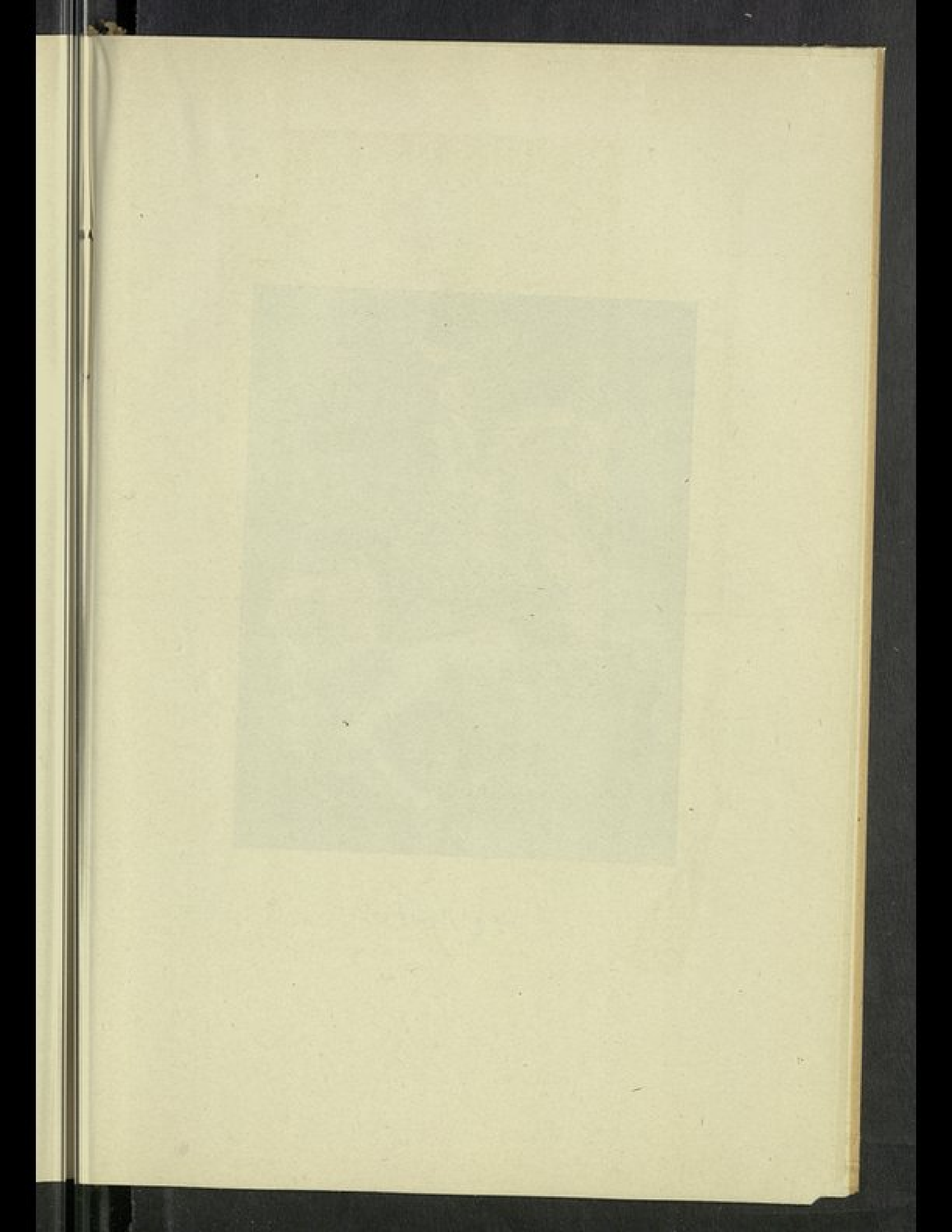


ميشال لوتيليه





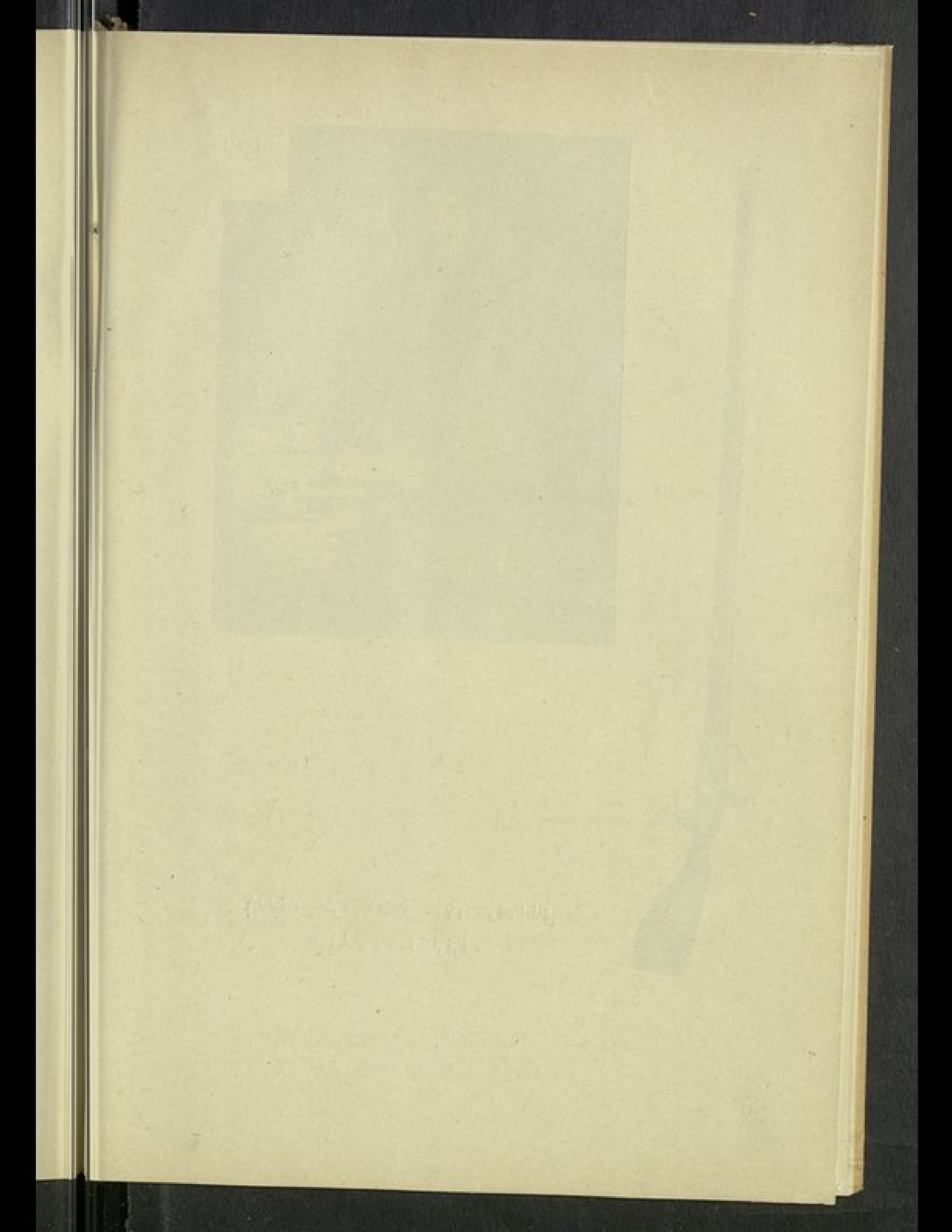
لويس الرابع عشر

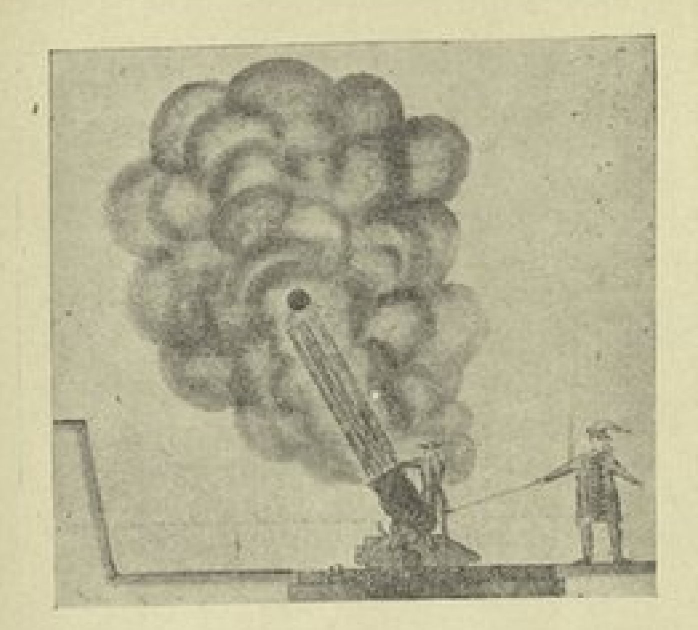


لوفوا

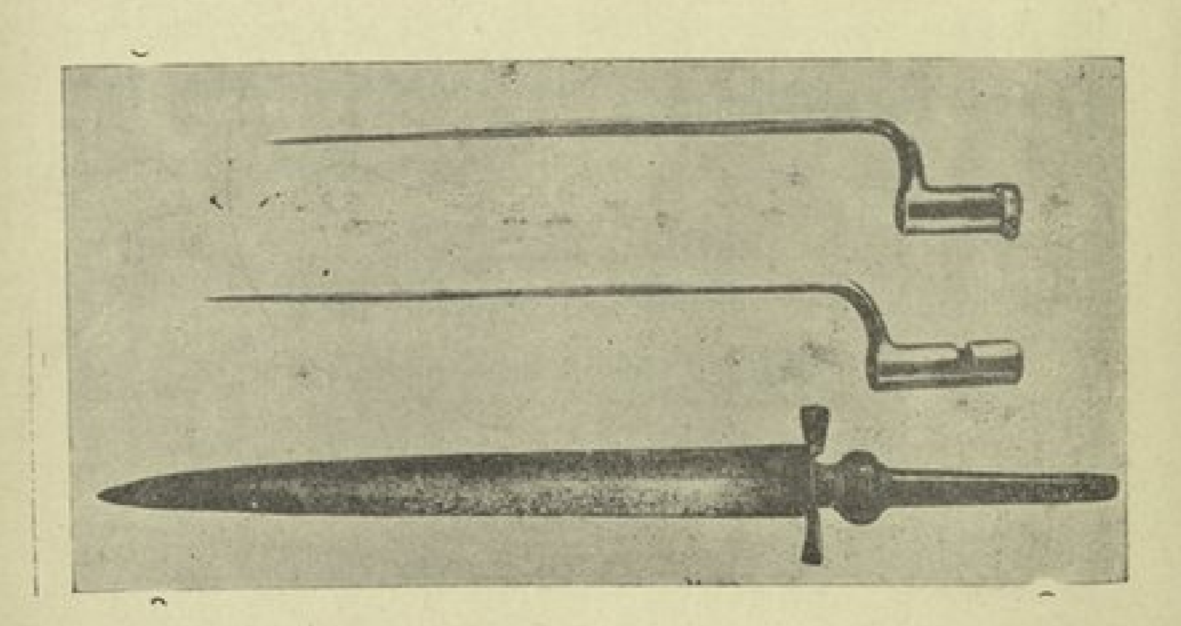


بندقية من طراز العام ١٧٠٠ ، وقد اطلق
عليها اسم « بندقية لوفوا » .

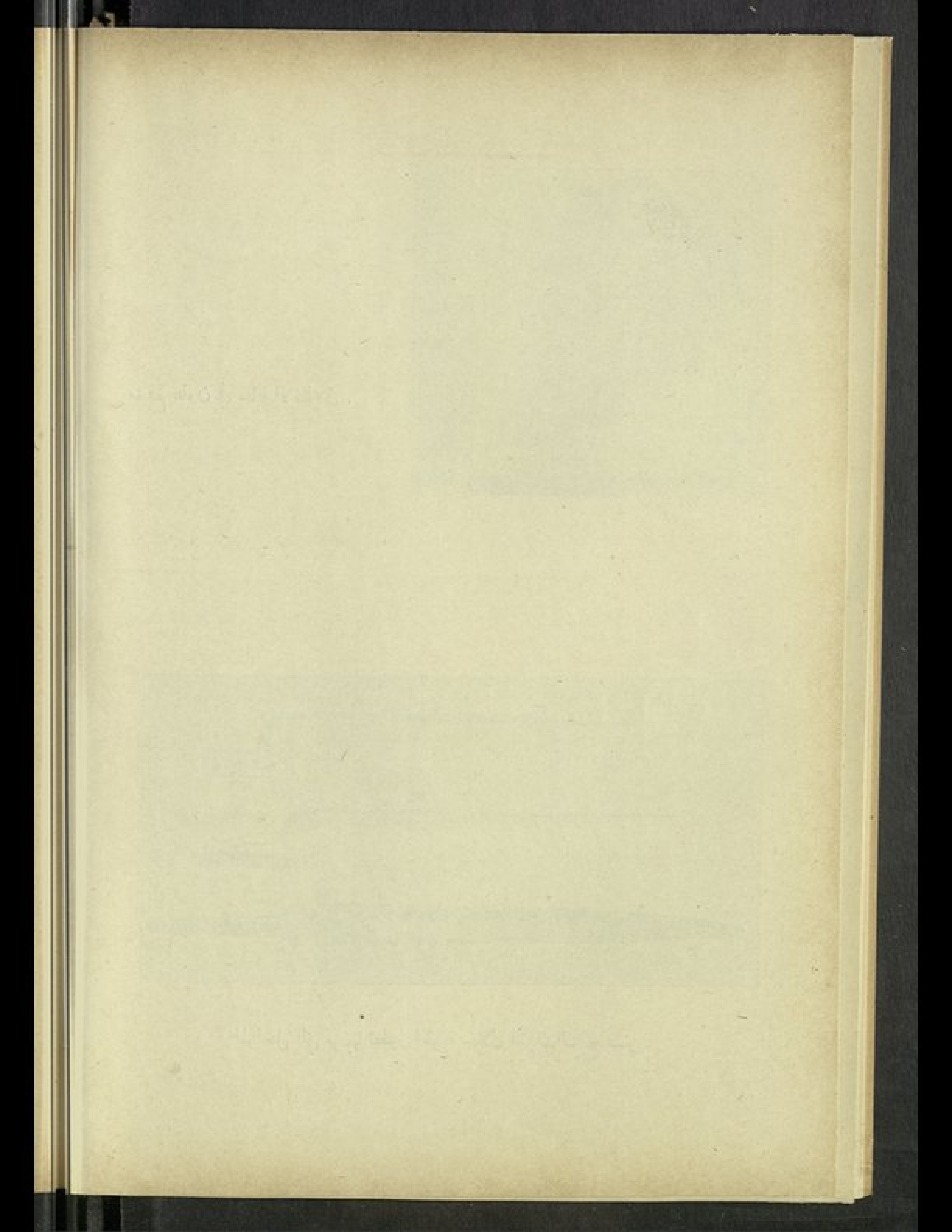




مدفع هاون في حالة الانطلاق .



المراحل التي مر بها تطور الحربة خلال القرن السابع عشر .



قائداً والف وثمانمئة ضابط . وهكذا خسر الجيش الفرنسي المعركة ولكنه حطم شوكة العدو واقعده عن مواصلة النضال ، فكانت هزيمته انتصاراً .

وانقضى عامان حاول خلالهما « فيلار » الحلفاء وطاولهم بنجاح نسبي ، ولكن الحرب استنفدت قوى فرنسا فلم يبقَ لها في « الفلاندر » العام ١٧١٢ سوى جيش قوامه سبعون الف جندي تعوزهم الخيول والمدفعية والمؤن .

ورغم هذا لم يفقد لويس الرابع عشر ايمانه بالنصر وبمقدرات فرنسا فاستقدم اليه « فيلار » في ١٦ نيسان ١٧١٢ « ليعهد اليه بقوات الدولة ومصيرها » في حفلة مؤثرة .

وفي اواخر ايار التحق المارشال بالجيش ، وكانت قوات الامير « اوجين » الجرارة تحتشد في منطقة « لاندريسي » ، وقد جعلت من « دينان » قاعدتها الرئيسية . فسبر « فيلار » غورها باغارات خاطفة ثم قرر القيام بحركة لف جريئة ضد « دينان » ، وعهد بالمهمة الى قوات مختارة لفت حول جناح العدو تحت جنح الظلام قاطعة مسافة ثماني مراحل . وقد تم لها احتلال « دينان » دون كبير عناء لان الحامية المعادية بوغتت بالهجوم . وقد اباد الفرنسيون وشتتوا اربعة وعشرين فوجاً وقطعوا خطوط تموين الامير « اوجين » .

وفي اسابيع معدودة حرر « فيلار » « لاندريسي » و « دوي » و « بوشوان » و « كينوا » ، واستعادت فرنسا حدودها الشمالية . وقد كافأ الملك المارشال المنتصر بان اطلق يده في مفاوضة الحلفاء .

الفصل السادس

الجيش في القرن الثامن عشر

١ - التنظيم العسكري

لم يبق الجيش الفرنسي بمعزل عن التيارات الفكرية التي هبت تتجاذب الشعب في مستهل القرن الثامن عشر . لهذا كان تطوره في هذه الحقبة جزءاً لا يتجزأ من تاريخ فرنسا السياسي ، وتطورها الاجتماعي والفكري .

وقد انساق الجيش مع التيارات الحديثة بتأثير عوامل شتى ، منها انعدام الاستقرار الحكومي في عهد الوصي على العرش ، ومنها تذمر الجمهور من قسوة النظم العسكرية ، وحملة المفكرين الاحرار على الحرب ودعوتهم الى تسوية الخلافات بالطرق السلمية . يضاف الى هذا وذاك عجز الخزانة عن تأمين نفقات القوى المسلحة ، لان معظم الواردات كان ينتهي الى جيوب الوزراء والندماء وحظيات المتربع على العرش .

وليس ادل على تأثر الحكام بالافكار الجديدة ، من المنهاج الذي رسمه « فنيلون » والوزير دوق « دوشيفروز » للاصلاح العسكري رغبة منهما في التخفيف عن كاهل الخزانة ، فقد اشتمل المنهاج على المبادىء التالية :

١ - يكتفى بجيش قوامه مئة وخمسون الف رجل .

٢ - لا تقف فرنسا وحدها في صف وسائر اوروبا كلها في صف ، فيحسن

بالسامة ان يتوددوا الى انكلترا ، وان يمدوا ايديهم الى هولندا ، وان يحاولوا عقد محالفات مع ايطاليا واسبانيا .

٣ ـ يكتفي بعدد محدود من المدن المحصنة والثكنات لان كثرتها ترهق الخزانة . ويستعاض عن القلاع والحصون بالاكثار من الاسلحة .

٤ ـ يخفض عدد الكراديس الى نصفه ويعنى عناية خاصة بتنظيم هذه الوحدات وتدريبها . وتزاد رواتب الجند وتدفع لهم بنظام . ويضاعف عدد المستشفيات العسكرية ويعامل الجنود المرضى على قدم المساواة ورؤساءهم الضباط .

٥ ـ لا عبرة باقدمية الضابط اذا لم يكن ذا مواهب تؤهله للترقية .

٦ ـ يصرف من الخدمة الضباط الذين تناهت بهم السن ، وليس لهم من مواهبهم ومؤهلاتهم ما يبرر بقاءهم .

٧ ـ ليس ما يمنع ترقية الضباط الحديثي العهد اذا لمعوا في ساحات القتال .

٨ ـ يناط بالجنود تشييد الثكنات والحصون ، على ان يعاونهم في مهمتهم فلاحو المنطقة التي تبنى فيها هذه الانشاآت .

٩ ـ تقفل ابواب « الانفاليد » في وجوه مشوهي الحرب والضباط المعوزين ويمنح هؤلاء تقاعداً تحدد قيمته بقانون .

هذه هي المبادىء الرئيسية التي اشتمل عليها المنهاج الاصلاحي ، ولكن انعدام الاستقرار السياسي حال دون تنفيذه برمته في عهد الوصي دوق دورليان . اما لويس الخامس عشر فقد اغفل شأنه اغفالا يكاد يكون تاماً . وجاء لويس السادس عشر فوجد نفسه امام تركة مثقلة بالديون . وجابهته منذ اللحظة الاولى مشاكل لا قبل له بحلها ، فافلت من يده الزمام . وكان

الجيش في جملة العناصر الوطنية التي تنكرت للعرش ، لتجاري التيار الجارف .

لم يحسن لويس الخامس عشر وخلفه من بعده الاستئثار بالسلطة كما فعل لويس الرابع عشر ، بل تركا لوزرائهما تصريف الامور دون ان يدعما سلطة هؤلاء بما لهما من هيبة ونفوذ .

تولى وزارة الحربية منذ ١٧١٨ حتى ١٧٨٩ ثمانية عشر وزيراً بينهم سبعة مدنيين ، لمع منهم الكونت « دارجنسون » . ولمع من الوزراء العسكريين « شوازول » و « بيل ايل » و « دوغيون » و « سيغور » و « سان جرمان » .

في عهد « دارجنسون » (١٧٤٣ – ١٧٥٧) انتصر الفرنسيون في موقعتي « فيلتري » و « كوني » وقد استبقاه لويس الخامس عشر في منصبه اربعة عشر عاماً متواصلة « لانه عرف كيف ينشىء جيشاً للملك . » ويقول المؤرخون ان اصلاحه العسكري ينحصر بتوسيع نطاق الميليشيا الاقليمية وباقامة ملاك الضباط على اساس ديموقراطي .

وذكر المؤرخ « ميشله » ان « بيل ايل » الذي ولي وزارة الحربية ١٧٥٨ حاول تقوية الجيش بدم جديد ، ولكن مجهوده ارتطم بانقاض الكوارث التي جرتها على فرنسا حرب السنوات السبع . اما خلفه دوق « دو شوازول » فقد كان سياسياً بعيد النظر وعسكرياً مجرباً . ولي في وقت معاً وزارات الخارجية والحربية والبحرية ، واستطاع رغم وفرة مشاغله ان يولي الجيش عناية كبيرة ولكن مشروعاته الاصلاحية لم تتحقق كلها ، لان حكمه زال بزوال صديقته المركيزة « بومبادور » حظية الملك .

تقلص نفوذ الندماء والمحظيات في عهد لويس السادس عشر ليفسح المجال امام تدخل الملكة « ماري انطوانيت » . الا ان هذا لم يحل دون التضحية بالوزراء المنتجين ارضاء للمحاسيب وذوي القربى . وقد لمع في هذا العهد

الوزيران « سان جرمان » و « سيغور » . فاعاد اولهما النظام الى الثكنات بتعزيزه سلطة الوحدات ، وعني الآخر بوضع قواعد جديدة لتعبئة الميليشيا دون ان يبتعد كثيراً عن المبادىء التي استوحى منها « بيل ايل » اصلاحه في هذا الباب .

الميليشيا الاقليمية . — وصف بعض المؤرخين القرن الثامن عشر بانه « عصر الميليشيا » وهو وصف ينطبق على واقع الحال انطباقاً تاماً .

انشئت الميليشيا الوطنية على اساس الخدمة الاختيارية ، فحلت تدريجاً محل الميليشيا البورجوازية ، وقضت على فوضى التعبئة المرتجلة التي كان يُلجأ اليها عندما يكون الوطن في خطر . ولم يبق من الوحدات غير النظامية القديمة سوى عناصر خاصة نيطت بها تغطية الحدود المهددة . ولكن تنظيم الميليشيا على اسس جديدة لم يكن خطوة نحو دمجها بالجيش . فقد ظل هذا منطوياً على نفسه داخل الثكنات .

وظلت الميليشيا الوطنية قوات ذات طابع موقوت ، يلجأ اليها في الحرب وتسرح في السلم ، الى ان احلها مرسوم شباط ١٧٢٦ محلها من النظام الرتبوي وجعل منها قوات احتياطية دائمة .

وقد اهمل شأن الميليشيا بعد حرب السنوات السبع . وجاء الوزير « شوازول » فاولاها جانباً من اهتمامه ، ووضع نظاماً للتعبئة يقضي بتجنيد الرجال الصالحين للخدمة طبقة بعد اخرى . ولكن الذين تولوا الوزارة بعده الغوا هذا الاساس واعتمدوا نظام القرعة .

عبئت الميليشيا الوطنية تعبئة عامة ثلاثاً واربعين مرة بين ١٧٢٦ و ١٧٨٩ ، وبلغ عدد المجندين للحملة البولونية ٨٤،١٣٢ رجلاً . واشترك في الحرب ضد النمسا ضعفا هذا العدد . وفي سنة ١٧٨٩ بلغت نسبتهم الى الجنود النظاميين

في جيش المشاة خمسة الى ثمانية .

الا ان اهمية الميليشيا ظلت محصورة بالناحية العددية . ففي السلم كانت تسرح رغم الصفة الدائمة التي منحها اياهـــا مرسوم ١٧٢٦ . ويقول المؤرخ « ميشله » ان الميليشيا الوطنية كانت شراً لا بد منه في نظر ملوك القرن الثامن عشر . وقد رفضت حكومات القرن المذكور ان تذيب هذه القوات في الجيش النظامي ، فظلت مستقلة تؤلف افواجاً لا رابطة بينها .

وفي آب من العام ١٧٧١ ألغى مرسوم ملكي اسم الميليشيا واطلق عليها اسم « القوات الاقليمية » تمهيداً لضمها الى الجيش النظامي . ثم نظمت ملاكاتها على اساس الكردوس الدائم بعد ان كانت على اساس الفوج .

وجاء الوزير « سان جرمان » فألغى هذه الكراديس « لان مسلكها في ميادين القتال لم يكن مرضياً . » (من تقرير رفعه الوزير الى الملك) . ولكن خلفه « مونباري » انشأ الى جانب كل كردوس نظامي كردوساً اقليمياً ، الا انه ابقى للقوات الاقليمية (الميليشيا) ملاكاتها الخاصة لان الجيش النظامي تبرم دائماً بالمحاولات التي بذلت في العهود السابقة لالحاق الميليشيا به .

وتلقى « مونباري » تقريراً مطولا رفعه اليه القادة ، عندما ترامى اليهم خبر اعتزام الوزير اعادة تنظيم الكراديس الاقليمية . وقد جاء في التقرير ان الجندي الاقليمي محارب شجاع ، ولكنه عديم الخبرة ، نزّاع الى الفوضى . فاذا ألحق بكردوس نظامي في الحرب يتأثر الجنود بمسلكه ويختل النظام .

القرعة . — كانت تعبئة الميليشيا تخضع لنظام القرعة . فيجتمع في ساحة عامة جميع العزاب والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً ، ليسحبوا ، كل بدوره ، ورقة من قبعة مندوب الحكومة . فمن كان نصيبه ورقـــة بيضاء يعفى من الخدمة ، ويعبأ من يسحب ورقة سوداء .

كان يعفى من القرعة ، وبالتالي من الخدمة ، الاكليروس والاشراف والمتزوجون ارباب العيال ، واصحاب المهن والحرف والمرضى والمصابون بعاهات . ويقول المؤرخون ان سواد الشعب ظل يقبل على القرعة دون تبرم ، الى ان بدأ الرؤساء يسيئون معاملة الجنود الاقليميين ، ويحملونهم تبعة الاخفاق بعد كل معركة خاسرة . فنفر الشعب من المؤسسة نفوراً حمل كثيراً من الشبان على الهرب لينجوا من القرعة . وذكر « مونتسكيو » ان ثلاثة آلاف شاب في « نانت » شوهوا اجسادهم بعاهات مختلفة ليتسنى لهم الافلات من « نظام التعبئة البغيض » .

الاصلاح العسكري . — بعد حرب السنوات السبع قام رجال الفكر والكتاب العسكريون يطالبون بتنظيم الجيش على اسس جديدة . ولكنهم شخصوا الداء ولم يصفوا للحالة العلاج اللازم . وقد وضع الوزير « لوفوا » مشروعاً اصلاحياً يقضي بنزع صلاحيات التجنيد من الضباط آمري الافواج . الا ان الموت عاجله قبل ان يضع مشروعه موضع التنفيذ . وحاول الوزير « دارجنسون » ان يجعل من الجندية خدمة عامة يؤديها المواطنون بمجرد صدور المنشور الملكي بدعوتهم الى حمل السلاح ، فاصطدمت محاولته بمعارضة الضباط ، وظل هؤلاء يتولون تعبئة افواجهم ويضعونها في خدمة الملك .

وفي عهد الوصي دوق « دورليان » اخضع التجنيد لضرب من ضروب التلزيم ، فكانت المهمة تناط بالضابط الذي يتعهد بتعبئة عدد معين من الرجال باقل كلفة مستطاعة . وظلت الحال على هذا المنوال الى العام ١٧٦٠ ، فالغى الوزير « شوازول » نظام التعبئة القديم جاعلاً من الجندي رجل الملك وقد كان حتى ذلك التاريخ رجل الضابط الذي يجنده .

قضى اصلاح « شوازول » باعفاء الضباط من مهمة التجنيد وحصر

هذا الحق بالملك او بمن يمثله . وجاء في المرسوم الملكي الذي تلي في الثكنات على آمري الكراديس والافواج ، ان الملك رأى ان يأخذ على عاتقه عملية كانت من اختصاص الضباط ليتسنى لهؤلاء ان يصرفوا اهتمامهم الى المهام الرئيسية المنوطة بهم .

ومنذ العام ١٧٦٢ صارت التعبئة خاضعة لنظام خاص . ففي كل محلة مركز للتجنيد وموظفون يعرضون على الصالحين للخدمة عقوداً صريحة اعدت سلفاً في وزارة الحربية . وبعد التعبئة يتولى المركز تدريب المجندين الجدد قبل ضمهم الى الكراديس الجديدة ، حيث يدربون تدريباً اضافياً ويجهزون على نفقة الدولة ، تمهيداً لالحاقهم باحدى الوحدات العاملة .

ومن اصلاحات « شوازول » الجريئة التدابير التي اعتمدها لتأمين الاستمرار في الجيش . ففي العهود السابقة كانت الافواج ترتجل ارتجالا كلما اقتضت الظروف الحربية تقوية الجيش ، وتسرح بالجملة بعد ان تضع الحرب اوزارها . فكان ينجم عن هذا عدم استقرار في الملاكات ، فضلاً عما تصطدم به التعبئة السريعة من عقبات .

حدد « شوازول » عدد الوحدات التي يتألف منها الجيش ، وجعل هذا العدد واحداً في الحرب والسلم ، على ان يسرح من كل فوج نسبة مئوية معينة ، حتى اذا حدث ما يستدعي التعبئة ، يصار الى سد النقص الحاصل في كل فوج دون ان تكون ثمة حاجة الى ارتجال افواج جديدة . اما ملاك الضباط فيظل هو اياه ، اي ان عددهم لا يتأثر بمراوحة عدد جنود الفوج بين النقص والزيادة .

قامت في طريق هذا الاصلاح الخطير عقبات ذات بال . فقد ابهظ كاهل الخزانة بقاء الافواج التي عبئت ابان حرب السنوات السبع . فرغب

الملك الى وزيره تسريح خمسين بالمئة من القوات ، وبهذا ضاعت الفائدة من الترتيبات الجديدة ، ولم يبق قيد التعبئة سوى افواج اسمية .

وحاول « شوازول » ان يخفض عدد الكراديس تبعاً لتناقص عدد الجنود في الافواج ، فاحتج آمرو هذه القطعات على المحاولة وكتب « دوق بروبلي » الى الوزير يقول ان المشروع يلقى معارضة شديدة في صفوف الضباط الذين يطمحون الى قيادة الكراديس عند بلوغهم السن التي تخولهم هذا الحق . فخفض عددها يثبط عزائم كثير من هؤلاء لانهم يتفانون في خدمة الملك طمعاً بالترقية .

واخذ مؤرخو العصر والنقاد العسكريون على اصلاح « شوازول » الغاءه الاقدمية كأساس لترقية الضباط الى رتبة عقيد (ليوتنان كولونيل) ، وتركه اختيار من يستحقون الترقية لتقدير الرؤساء الذين لم يكن التجرد والعدالة من صفاتهم المميزة .

وشمل اصلاح « شوازول » ملاكات ضباط الصف . كان النظام القديم يحتم على المنكب والعريف (سرجان وكابورال) الراغبين في الترقيـة ، ان يقضيا في الخدمة مدة معينة ويجددا عقد الخدمة عند انتهائه . فالغى اصلاح الوزير هذا القيد وجعل مسلك المناكب والعرفاء ، ومعرفتهم القراءة والكتابة شرطاً لترقيتهم الى رتبة ضباط صف . ووضع نظاماً لترقية العريف الى رتبة منكب يقضي بان يختار المستحقين في كل فوج اثنا عشر من المناكب الاقدم عهداً في الخدمة ، ويعرضوا الاسماء والاسباب الموجبة على آمر الفوج ، فيقترح هذا ترقيتهم على آمر الكردوس .

وعني « شوازول » بترقية منهاج التدريس في المعهد الحربي الملكي الذي انشىء في العام ١٧٥١ ، فاضاف الى الغراماطيق والحساب والجغرافيا والتاريخ

علم الهندسة وفن رسم الخرائط وفن التحصين والمبارزة بالسيف . وجعل تعلم اللغة الالمانية والرقص جبرياً . ووضع الوزير المعهد الحربي في عهدة ضباط لامعين .

وفي عهد لويس السادس عشر نعمت فرنسا بعهد سلمي طويل الامد ، فاغفل خلفاء « شوازول » اكمال الاصلاح الذي بدأه ، وصاروا ينظرون الى الجيش نظرهم الى مؤسسة اجتماعية ينبغي للرؤساء ان يجعلوا منها اداة لتقوية الروح الوطني . وقد تأثر وزراء الملك بالتيار الفكري الجارف فغضوا الطرف عن تسرب الافكار الجديدة الى الثكنات .

وحاول الوزير « سان جرمان » في العام ١٧٧٥ ان يعيد الى الجيش طابعه الاصلي فاصدر سلسلة قرارات جريئة يقضي معظمها بتنظيم وحدات المشاة على اسس جديدة .

لم يكن عدد الافواج واحداً في كل الكراديس ، فوحده « سان جرمان » بان جعل قوام الكردوس فوجين ، وألحق بقيادة الكردوس مجلس ادارة عدد اعضائه خمسة ، مهمتهم ادارة شؤون القطعة المالية والانفاق من صندوقها في وجوه التعبئة والتجهيز والتسليح . وحدد الوزير جراية الجندي الواحد فجعلها مئتي غرام لحماً في اليوم يضاف اليها الحساء و ٢٣٠ غراماً خبزاً وقليل من الفاكهة المجففة .

وانشأ « سان جرمان » رتبة معاون (ادجودان) ، وهي اعلى المراتب في ملاك ضباط الصف . وناط به تنشئة المناكب والعرفاء واوجب ترقيته الى رتبة ملازم ثان (سوليوتنان) بعد مضي مدة معينة .

ولاحظ الوزير ان قوات الحرس الملكي التي تؤلف قطعة خاصة لها امتيازاتها ، هي عالة على صندوق الدولة لانها لا تأتي عملاً نافعاً ولا تدين

بالطاعة لغير الملك . فاقترح تسريح خمسين بالمئة من رجال الحرس . فقوبل اقتراحه بمعارضة شديدة من جانب الضباط والبطانة . وكتب المارشال « دونواي » قائد الحرس الملكي الى لويس السادس عشر يناشده احباط « مؤامرة سان جرمان الذي يحاول ازالة السياج الوحيد الذي يحمي الملكية وحقوقها وامتيازاتها . »

وابطل الوزير المصلح عادة حاول سلفاؤه ابطالها ، فقامت في طريقهم عقبات عجزوا عن تخطيها ، وهي شراء بعض المناصب العسكرية باموال كان يتقاضاها الرؤساء باسم الدولة ويستأثرون بمعظمها . وقد رفع « سان جرمان » اقتراحه الى البلاط مرفقاً بفذلكة جاء فيها : « ان المناصب العسكرية ليست سلعاً تباع وتشرى ، فليس اقتل للطموح والكفاءة والامانة للواجب من بقاء هذه العادة القبيحة . »

بيد ان الغاء المناصب المشتراة كان يحتم التعويض على شاغليها بعد تسريحهم ، فاحتج الملك بان خزانة الدولة لا تستطيع حمل هذا العبء الا اذا تم التسريح تدريجاً ، وقد كان .

والغى « سان جرمان » المدرسة الحربية « التي تخرج ضباطاً يتقنون الرقص وحديث الصالونات ولا يصلحون لاكثر من هذا » ، (الكلام للوزير) واستبدل منها عشر مدارس اقليمية تخرج منها الضباط العظام « بونابرت » و « دافو » و « كارنو » و « مورتيه » و « مارمون » .

وبذل « سان جرمان » مجهوداً صادقاً في سبيل انصاف الانفار فامر بان يعاملوا برفق ، وحظر معاقبة جندي على مخالفة يرتكبها قبل محاكمته وسماع دفاعه . والغى عقوبة الحبس مستبدلا منها الضرب على الطريقة الالمانية . بيد ان مشاريعه الاصلاحية لم تلق تأييداً في اوساط الجيش ، واثارت نقمة اتباع

المدرسة القديمة من كبار الضباط .

اما خلفه « سيغور » فقد اضطلع بمهمته يعاونه مجلس حربي قوامه خمسة قادة وضابط برتبة زعيم (كولونيل) . وقد عني الوزير والمجلس بانشاء وحدتين كبيرتين هما الفرقة واللواء . وجعلت الفرقة الوحدة الكبرى ويليها اللواء فالكردوس فالفوج الخ ... ويقول الكولونيل « ريفول » في كتابه « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الفرقة الواحدة كانت تضم الوبة من المشاة العاديين والمشاة الخفاف والوبة اخرى من الخيالة . اما المدفعية فقد ظلت سلاحاً مستقلاً .

وفي العام ١٧٨٨ كان الجيش الفرنسي يضم احدى وعشرين فرقة موزعة بين مناطق الحدود والثكنات ، يضاف اليها سبع عشرة فرقة اقليمية او مرابطة ، مستقلة عنها استقلالا تاماً

٢ – الحروب

حروب لويس الخامس عشر . – قال لويس الرابع عشر لولي عهده عندما احس دنو اجله : « كنت كلفاً بالحروب فلا تنسج على منوالي . » وقد عمل لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر بهذه الوصية فلم يتخلل عهدهما سوى ثلاث حروب كبيرة في غضون عشرين سنة ، ونعمت فرنسا بالسلم طوال نصف قرن .

نشبت الحرب الاولى في عهد لويس الخامس عشر من اجل العرش البولوني . فخاض الفرنسيون غمراتها مسوقين بعاملين ، اولهما تأمين عرش لوالد ملكة فرنسا ، والاخر منع روسيا والنمسا من بسط سيطرتهما على بولونيا الضعيفة ، واقامة عرش لحليفهما « اوغست » الثالث منافس مرشح البلاط الفرنسي . بيد ان مساعدة فرنسا لبولونيا اقتصرت على ارسال لواء الى دانتزيغ بقيادة

الكونت « دي بلولو » فحاصره الاعداء وابادوه بعد قتال تجلت فيه بطولة الحملة الفرنسية باروع مظاهرها .

واستطاع الكردينال « فلوري » وزير لويس الخامس عشر ان يؤلب ضد النمسا الدول التي تخشى خطرها ، فاضطر النمسويون لمفاوضة الكردينال في العام ١٧٣٨ فوقع الفريقان على عهدة فيينا التي تركت لأوغست الثالث عرش بولونيا ، على ان ينتقل بعده الى « ماري تيريز » ابنة شارل السادس النمسوي . ومقابل هذا تنازلت النمسا عن « اللورين » ا « استانيسلاس لكزفسكي » والد ملكة فرنسا على ان تضم فرنسا هذه المقاطعة بعد وفاة « استانيسلاس » او في حال تنازله .

وفي العام ١٧٤٠ ارتقى العرش البروسي فريدريك الثاني وارتقت « ماري تيريز » العرش النمسوي . فدشن الملك البروسي عهده باجتياح مقاطعة « سيليزيا » (١٧٤١) ولكن عمله قوبل بعطف في فرنسا المعجبة بالملك الشاب ، الحاقدة على آل « هابسبورغ » . وما عتم لويس الخامس عشر والكردينال « فلوري » ان زجا بفرنسا في غمرات الحرب الى جانب بروسيا . وقد انتهزت انكلترا الفرصة فلعبت لعبتها في البحر وتمكنت دون كبير عناء من وضع يدها على جزء من « الفلاندر » بينما كانت جيوش لويس الخامس عشر تحرز انتصاراً باهراً في « براغ » . الا ان « ماري تيريز » ما عتمت ان تفاهمت وفريدريك فتنازلت له عن « سيليزيا » وتفرغت بعد انسحابه من الميدان لمصاولة الفرنسيين ، فاضطر هؤلاء للجلاء عن بوهيميا والمانيا ، مما كان له اسوأ وقع في الرأي العام . ولكن الجيش ما لبث ان انقذ سمعته بانقاذ البلجيك وبالتغلب على الانكليز في موقعة « فونتنوا » (١٧٤٥) . وفي هذه الاثناء نقض « فريدريك » الثاني الاتفاق المعقود بينه وبين « ماري تيريز » واحتل « بوهيميا » ، وكاد الحلف

الفرنسي البروسي يأتي بافضل النتائج لو لم يتفرد « فريدريك » بمصالحة النمسا وانكلترا ، فاضطرت فرنسا للتوقيع على عهدة « اكس لاشابيل » (١٧٤٨) التي جردتها من مكاسبها في الاراضي الواطية . اما « فريدريك » فقد احتفظ بفتوحاته كلها .

حرب السنوات السبع . — عقدت انكلترا و« فريدريك » الثاني الخناصر ضد فرنسا والنمسا ، ووضع الانكليز نصب اعينهم تجريد الفرنسيين من مستعمراتهم ولاسيما الهند وكندا . وقد انضمت الى الحلف الفرنسي النمسوي روسيا واسوج .

بدأت الحرب سنة ١٧٥٦ بعملية بحرية من جانب الانكليز . وما عتم جيش « فريدريك » ان اجتاح بلاد « الساكس » . فكان على فرنسا ان تواجه الضغط البروسي في البر ، وان ترسل المدد بحراً الى كندا والهند . ففي البحر بدأ الفرنسيون الحرب بداية حسنة بانتصار « ميورقه » ولكن الانكليز خسروا معركة ولم يخسروا الحرب . ولم يطل بهم الامر حتى احرزوا التفوق ، فقطعت بحريتهم المـــدد الفرنسي عن « مونكالم » في كندا وعن « لالي تولندال » في الهند . اما في البر فقد هزم الفرنسيون وحلفاؤهم ، البروسيين والانكليز في اكثر من موقعة . الا ان « فريدريك » الثاني لملم نفسه واستطاع ان ينزل باعدائه ضربة قاصمة في موقعة « روسباخ » (١٧٥٧) التي سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

وظلت الحرب سجالا بين الفريقين الى ان انتهت في العام ١٧٦٣ بصلح يكرس انتصارات بروسيا وتفوق انكلترا البحري . وقد تخلت « ماري تيريز » عن « سيليزيا » وفقدت فرنسا كندا والضفة اليسرى لنهر ميسيسبي والسنغال والهند .

عهد لويس السادس عشر . — نعمت فرنسا في عهد لويس السادس عشر

بسلم طويل الامد . واستطاع بعض الوزراء المصلحين ان يبعثوا الاسطول وان يعدوه للمهام الكبيرة . اما الجيش الذي نهكت قواه حرب السنوات السبع ، فقد اعيد تنظيمه رغم الازمات الداخلية ولاسيما المشادة بين البلاط وممثلي الشعب .

وفي العام ١٧٧٦ عرضت للاسطول مناسبة اثبت فيها وجوده وهي الحرب الاستقلالية في اميركا . فقد تخطت سفن الاميرال « سوفرين » كل العقبات التي اقامها الاسطول الانكليزي في طريقها ، ناقلة الحملة الفرنسية الى وطن « واشنطن » . فكان نجاح الثورة الاميركية نجاحاً للقضية الاستعمارية الفرنسية لان انكلترا تخلت عن « دنكرك » وردت الى فرنسا السنغال و « الانتيل » وبعض المدن الهندية .

٣ – تكتيك واستراتيجيا

زعم بعض المؤرخين العسكريين ان الفرنسيين عنوا بترقية الفن الحربي بعد هزيمة جيشهم في « روسباخ » ، فراح علماؤهم العسكريون يدرسون نظريات « فريدريك » الثاني ويبسطونها داعين الى تبنيها . ولكن هذا ليس رأي الجنرال « مكسيم ويغان » الذي يذكر في كتابه « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الفن الحربي في فرنسا بدأ يقظته الفكرية قبل حرب السنوات السبع فافتتح « مينيل ديران » في العام ١٧٤٧ قواعد جديدة لحرب الحركات في كتابه « نظام جديد للتكتيك الفرنسي » . وظهرت « تأملات » موريس « دو ساكس » قبل ان يمد « فريدريك » الثاني يده الى اعداء فرنسا بعد معاهدة « اكس لاشابيل » .

وبعد « روسباخ » عني اساتذة الاستراتيجيا والتكتيك بدراسة اساليب « فريدريك » ، ووضع « غيبرت » كتابه « محاولة في التكتيك العام » فور عودته من بروسيا . فاهتمت الاندية العسكرية بالكتاب واعتمده المجلس الحربي اساساً

للاصلاحات التي ادخلت على التكتيك الفرنسي ، كما اعتمد دراسات الشيفاليه « دوشاستداي » عن خطط الملك البروسي .

القادة الفرنسيون . – كان عهد لويس الرابع عشر غنياً بالقادة الافذاذ امثال « تورين » و « كونده » و « برويك » و « فيلار » . ولم يكن هذا شأن عهد خلفيه . فقد لمع قادة ببطولتهم واقدامهم ولكنهم كانوا محدودي الاطلاع ، قليلي الخبرة ، ضعاف الشخصية والنفوذ .

ومن هؤلاء المارشال « دو بيل ابل » والجنرال « شيفير » الذي تطوع وهو دون الثانية عشرة ، ورقي الى رتبة ملازم اول في الخامسة عشرة ، وقد تميز في موقعة « براغ » بشجاعة نادرة ، وكان يعاون الجنرال « سوبيز » برتبة عقيد (ليوتنان كولونيل) . غير ان مؤرخي العصر يردون اليه فضل الانتصار الفرنسي ويقولون ان « سوبيز » نفسه عجب لعصا المارشالية تسلم اليه هو مع ان المنتصر الحقيقي هو « شيفير » . وقد توفي القائد الشجاع عن اثنين وستين عاماً ، بعد ان لمع في معظم المواقع التي خاض غمراتها كقائد معاون او كقائد مسؤول عن سير العمليات . وانزل في القبر وهو امير جيش لان الله لم يمد في اجله كي يتسلم عصا المارشالية .

واشتهر بين قادة القرن الثامن عشر دوق « دو بروبلي » الذي ارتفعت اسهمه بعد انتصار « ماندن » ثم حمل تبعات اكثر من هزيمة . وبعد انسحابه من الخدمة الفعلية وضع مواهبه واختباراته في خدمة المجلس الحربي . وكان من انصار التجدد في حقلي الاستراتيجيا والتكتيك .

اما ابرز قائد عرفته فرنسا في عهد لويس الخامس عشر فهو « موريس دوساكس » الالماني بطل انتصار « فونتنوا » . حمل موريس السلاح في الثانية عشرة من سنيه ليخوض غمرات القتال ضد الجيوش الفرنسية في

« مالبلاكه » ، ومن ثم قاتل في الجيوش النمسوية والروسية والبروسية . وفي العام ١٧٢٠ وضع خبرته في خدمة ملك فرنسا وحرص منذ اللحظة الاولى على الاحاطة بنفسية الجندي الفرنسي ، وما لبث ان اسر جنوده بشجاعته ورحابة صدره .

وقد اجمع المؤرخون على ان لويس الخامس عشر اعطى القوس باريها عندما عين « دوساكس » قائداً عاماً ، لان الرجل تكشف قبل « فونتنوا » عن قائد موهوب يتحلى بمؤهلات الزعامة العسكرية : نشاط خارق ، فكر ثاقب ، سرعة في التصميم ودقة في التنفيذ ، لا يؤخذ بالمفاجآت ، ولا يتردد في ارتجال الخطط المناسبة ، اذا طرأ على الموقف ما لم يكن بالحسبان .

موقعة فونتنوا . — تقدم معنا ان « موريس دوساكس » هزم الانكليز في « فونتنوا » . وقد ورد عن الموقعة الوصف التالي في تاريخ الجيش الفرنسي للكولونيل « ريفول » :

في نيسان من العام ١٧٤٥ انتشر جيش « دوساكس » على الضفة اليمنى لنهر « ايسكو » مغطياً بلدة « فونتنوا » وكانت ميمنته تمتد من قرية « اوتوان » حتى فونتنوا مؤلفة نتوءاً بارزاً يستند طرفه الايسر الى غابة « باري » . وفي الحيز غير المشغول بالتحصينات حشد « دوساكس » كراديسه المنخوبة صفوفاً اربعة ، ونصب مئة مدفع امام قلب الجهاز الفرنسي وميسرته .

وفي الحادي عشر من ايار هاجم ثلاثة وخمسون الفاً من الانكليز والهولنديين والهانوفريين بقيادة « كمبرلند » الجيش الفرنسي المؤلف من اربعين الف مقاتل . انقض الهولندون والايكوسيون على الجناحين الفرنسيين فردوا على اعقابهم . اما القلب فقد مشت اليه ثلاثة جحافل انكليزية وهانوفرية ،

وقبل ان تحمل حملتها دعا قائدها لورد « تشارلس هاي » الفرنسيين الى اطلاق النار اولا ، فكان جواب القائد اوتروش : « لا يا سيدي ، اننا نتنازل لكم عن هذا الشرف . » الا ان هذا المسلك الفروسي كلف الجيش الفرنسي غالياً . فقد تراجع الخط الاول امام نيران العدو الكثيفة ، وهمّ الحلفاء باستثمار هذا النجاح المبدئي ، ولكن الملك و « موريس دوساكس » سارعا الى تعزيز القلب على حساب الجناحين اللذين نجحا في صد الهولنديين والايكوسيين ، فتكسرت الهجمات المعادية على صخرة عناد المشاة الفرنسيين ، حتى اذا دب الفتور الى همم الحلفاء كرت الخيالة بقيادة « دوساكس » نفسه مرغمة الجناحين المعاديين على ترك مراكزهما والانضمام الى القلب . فتألف منهما جميعاً جيش متكتل بطيء الحركة عاجز عن المناورة .

ولم يترك قائد الجيش الفرنسي لـ « كمبرلند » فرصة لاعادة تنظيم قواته ، بل حمل على العدو حملة موفقة يساندها الاحتياط والحرس الملكي ، فاضطربت صفوف الحلفاء ، وما عتموا ان اخلوا الساحة مخلفين الوف القتلى والاسرى والجرحى .

موقعة روسباخ . — لم يقيض لفرنسا ان يقود جيوشها « موريس دوساكس » في المعارك التي خاضت غمراتها ضد قوات فردريك الثاني . ذلك بان القائد الكبير اعتزل العمل عندما تنكّر الملك البروسي لحلفائه الفرنسيين وانضم الى المعسكر الآخر . ولا يختلف اثنان في ان فردريك الثاني واحد من عظماء القادة في التاريخ . ولم تتجلّ مواهبه في حقلي الاستراتيجيا والتكتيك فحسب ، بل تجلت في التنظيم والادارة .

لقد اختلف المؤرخون والنقاد العسكريون في تقدير قيمة الانتصار الذي احرزه جيش فردريك في « روسباخ » ضد الجيوش المتحالفة . ويقول الجنرال

ويغان في تاريخه الجيش الفرنسي ان بعض النقاد المعاصرين حمل القائد الفرنسي « سوبيز » تبعة الهزيمة ، مع ان قوات الملك البروسي المؤلفة من عشرين الف رجل دحرت جيوشاً متحالفة تضم خمسة وستين الف مقاتل منهم اربعة وعشرون الف فرنسي . ولم تكن القيادة العامة للفرنسيين ، فقد تولاها دوق « هيلد بورغوزن » وهو الماني وكان « سوبيز » مساعداً له .

لاحظ فردريك قبيل نشوب المعركة ان قوات الحلفاء تحتل مراكز حصينة ، فانكفأ بسرعة مستدرجاً اعداءه الى ارض يجهلونها جهلاً تاماً . وفجأة بدل الملك البروسي اتجاهه مستخدماً الارض في اخفاء مناورته ، ولم يشعر به الحلفاء الا وهو منقض عليهم ، ففعل عنصر المفاجأة فعله ، ففر دوق « هيلد بورغوزن» وشاع الارتباك والفوضى في صفوف الحلفاء .

الخط المائل . — رد بعض النقاد نجاح فردريك الى تفوق العتاد البروسي والى اخذ الملك باساليب تكتيكية جديدة في رأسها النيران الكثيفة تطلقها صفوف ثلاثة ، واخيراً الى الخط المائل او المنحرف . غير ان هذا لم يكن رأي نابوليون الذي رد الانتصارات البروسية في عهد فردريك الثاني الى جرأة الملك الاستراتيجية وحركاته التكتيكية الحكيمة . اما الخط المائل فهو في رأي نابوليون خدعة حربية اراد فردريك ان يضلل بها رجال التكتيك الفرنسيين .

ويخالف الجنرال ويغان نابوليون في هذا . فهو يقول ان الخط المائل مثل دوره بجلاء في موقعة « لوتن » . فقد مشى فردريك مباشرة الى الجيش النمسوي المنتشر بكامله ، ولكنه بدأ بنشر الطلائع واطلق وراءها قواته الرئيسية موجهاً اياها شطر الميمنة ثم حمل بها على ميسرة العدو ، وهكذا اضحى الجهاز البروسي كله منحرفاً او مائلاً تتقدمه الميمنة .

الخط الرقيق والخط العميق . — لم يكتف الكتاب العسكريون في فرنسا

بدرس خطط فردريك ، فقام منهم فريق يطالب بادخال تعديل اساسي على التكتيك الهجومي . وكان ان انبرى له انصار المدرسة القديمة وانقسم الجواء فئتين : فئة تقول بحشد المشاة للقتال خطاً رقيقاً واخرى تقول بحشدهم خطاً عميقاً .

كان « موريس دو ساكس » وفردريك الثاني من انصار الخط العميق . ولكن الملك البروسي اعترف في وصيته بان المعارك لا تكسب بالصفوف المتراصة انما تكسب بالنيران المتفوقة . ولم يكن « الشوفاليه دو فولار » من هذا الرأي . فقد قال بالخط العميق لانه كان يسند الى الهجوم الدور الرئيسي في القتال . ومن اقواله ان انتشار الخط الرقيق يعطي نيراناً مجدية ولا شك ، ولكن قوة المشاة لا تتجلى الا بشنها الهجوم صفوفاً كثيفة . فالخط العميق يضاعف قوة المشاة الاختراقية .

وفي عهد لويس السادس عشر قام نقاش حول مسألة اخرى هي : ايهما اصلح للمناورة والحركة ، الصف المنتشر ام الخط ذو الصفوف المتراصة ؟ فاقترح القائد بيرش ، وهو بروسي التحق بالجيش الفرنسي ، اعتماد الصف المتطاول في المناورة واعتماد الخط ذي الصفوف في القتال ، وقد اخذ مجلس الحرب الاعلى بهذا الاقتراح .

المدفعية . — شهد القرن الثامن عشر جدلا حامياً بين انصار القديم وانصار الجديد في حقل المدفعية . ففي عهد الوزير « شوازول » اخذ المارشال « غريبوفال » على عاتقه تنظيم المدفعية الفرنسية على اسس جديدة ، فجعلها اربع فئات : مدفعية الميدان ، ومدفعية الحصار ، وبطاريات الساحل ، ومدفعية القلاع . وجعل مدفعية الميدان خفيفة مرنة وذات عيارات ثلاثة : ١٢ و ٨ و ٤ .

قامت على « غريبوفال » قيامة انصار المدفعية القديمة ، وكانت حجتهم ان

الجديدة لا تقوى على مجابهة نيران العدو . ولكن شوازول لم يأخذ بهذا الاعتراض فصنعت المعامل في عهده ١٢٠٠ مدفع ميدان . وبعد اعتزاله الحكم جدد انصار القديم محاولاتهم ، وافلحوا في احلال مدفعية « فالبير » الثقيلة محل المدافع الجديدة . الا ان الوزير « سان جرمان » لم يلبث ان اقصى القديم وقد اثبتت الحوادث ان « غريبوفال » كان على حق .

الفصل السابع

جيوش الثورة

١ – نهاية الجيش الملكي .

عندما عقدت المجالس العامة اول اجتماعاتها التاريخية للمطالبة بالاصلاح ، كان التفسخ في الجيش قد استفحل امره . فالرؤساء والمرؤوسون غير راضين عن الحالة ، يطالب هؤلاء بتقصير مدة الخدمة وبالغاء العقوبات الجسدية كالجلد والضرب . اما الرؤساء فقد هب منهم النبلاء للمطالبة بملاكات ثابتة لا تتبدل بتبدل الوزراء . وقام منهم ابناء الشعب يطالبون بالغاء امتيازات النبلاء وبجعل المواهب اساساً للترقية .

وقد عنيت المجالس العامة بقضية الجيش بدافع من اعضائها العسكريين . وتصدى فريق من الكتّاب لمعالجة القضية ، فاقترح « كوندورسه » ان يترك للجنود حق التقدير فاذا وجد الجندي ان اوامر رئيسه غير جديرة بالاعتبار ، جاز له اهمالها . وطلب « ميرابو » ، الخطيب السياسي المشهور ، الغاء الجيش الدائم وجعل الرؤساء العسكريين تابعين للسلطة المدنية . وحمل « سرفان » الذي صار فيما بعد وزيراً للحربية على امتيازات النبلاء وطالب في كتابه « الجندي المواطن » بالغاء مجلس الحرب والميليشيا وضريبة الدم . فكان تيار الافكار الجديدة يمر بالثكنات فيهز من فيها ويبذر في وسطهم بذور الثورة على القديم .

الحرس الوطني . — في تموز من العام ١٧٨٩ تمرد فوجان في الحرس الفرنسي احتجاجاً على قرار ملكي . فانزل الرؤساء بالمتمردين عقوبات صارمة . ولكن هذا التدبير وسع الخرق وافضى الى تمرد الحرس كله . وانتهز خصوم الملكية الفرصة فزينوا للمتمردين سلوك سبيل الارهاب . وخدم مسلك الملك مشاريع اعدائه اذ استعان بكراديس اجنبية على دفع خطو الحرس عن باريس وفرساي . فكان لهذا التدبير اثر سيء جداً في نفوس الفرنسيين . فعمت الثورة العاصمة والولايات ، وشق معظم القوات النظامية عصا الطاعة وانضم الى الثوار .

وفي هذه الغمرة من الحوادث تألف « الحرس الوطني » ، فانضمت اليه افواج الحرس الفرنسي المتمردة والفراريون من شتى الكراديس ، وتألف منهم في باريس والولايات ستة عشر فوجاً .

وسرعان ما اضحى الحرس ، في نظر المواطنين ، جيش فرنسا الجديدة وسياج العهد الجديد . ولم تبخل عليه المجالس التي تعاقبت بين ١٧٨٩ و١٧٩٨ بما كفل له النمو والاستمرار . الا ان تطوره اجتاز مراحل دامية واعترضته عقبات كالتي اعترضت نظام الحكم الذي قام الحرس في الاصل لدعمه وحمايته .

التفكك الاجماعي . — بعد حوادث ٥ و ٦ تشرين الاول من العام ١٧٨٩ وقفت القوات الموالية للملك حائرة بين الواجب وبين شق عصا الطاعة . وكانت السياسة قد طغت على الثكنات فتألفت فيها « لجان اصلاحية » من صغار الضباط والجنود ، فنحت هذه اللجان نحو لجان الثورة في الاقتصاص من الضباط الذين رفضوا اداء القسم الجديد (يمين الولاء للدستور وللامة) . واتصل خبر هذه الفوضى بالجمعية الوطنية فلم تحرك ساكناً للقضاء عليها مما شجع على

قيام فكرة « الاتحاد » (فيديراسيون) التي كان الغرض الظاهر منها ازالة الحواجز بين العاصمة والولايات ، وتحقيق وحدة الامة . ولكن الذين روجوا لها من اليعقوبيين رموا الى اشاعة روح التمرد في الجيش من طريق اتصال الكراديس بعضها بالبعض الآخر بعد سقوط الحواجز التي تباعد بينها .

وقد اعلنت وحدة الوطن في ميدان « مارس » في الرابع عشر من آذار ١٧٩٠ بحضور وفود تمثل شتى الكراديس . فعادت الوفود الى ثكناتها بآراء جديدة ونزعات ثورية ، وراحت تحرض الجنود على رؤسائهم مدخلة في روعهم ان مجلس الامة اجاز للجندي ان يناقش آمره الحساب وان يقف منه موقف الاتهام .

وشجع اليعقوبيون انصار الثورة من الجنود والضباط على دخول اندية تروج للمبادىء الجديدة ، وراح رسلهم يعالجون في « نانسي » جيش الشرق الذي ظل موالياً للملك . فقمع قائده الجنرال « بويه » حركة غير نظامية قام بها كردوس سويسري . وعرفت الدعاية الثورية كيف تستثمر الحادث بتفننها في وصف « مذبحة نانسي » . وانتهزت الكراديس الفرصة ، فهبت تطالب بالاعتراف للجنود بحق الانتماء الى الاندية ، وكان اشهرها « نادي اصدقاء الدستور » فنزلت الجمعية الوطنية على هذا الطلب ، واضحت الاندية مذ ذاك مفزعة الضباط الذين لم يرغبوا في احضان الثورة لان مرؤوسيهم كانوا يرفعون الى زعماء الحركة الانقلابية تقارير يومية عن حركات الضباط وسكناتهم . وكان بعض هذه التقارير يطوى على تهم خطيرة لا تلبث ان تضع من نسبت اليهم موضع الشبهة .

الهجرة . — في شباط من العام ١٧٩١ قررت الجمعية الوطنية تطهير الجيش من العناصر « الرجعية » . لان بوادر الاخلاص للعهد الجديد لم تصدر الا عن

شعار الضباط ، وظل شعار قادة الفرق والالوية والكراديس : « الايمان ، القانون، الملك » .

اقترح اليعقوبيون تطهير الجيش بطرد الضباط غير الموالين . ولكن وزارة الحربية رأت ان تدبيراً كهذا قد يذهب بفريق من انصار الثورة ، نظراً لرواج سوق الوشايات ، فاصدرت في ٢٣ شباط ١٧٩١ قانوناً يقضي بترقية كل ضابط برتبة زعيم او عقيد (كولونيل وليوتنان كولونيل) يرغب في ترك الخدمة الى رتبة لواء (بريغاديه) . فترك الخدمة مئات الضباط . غير ان اليعقوبيين وجدوا التدبير غير كاف فانبروا يطالبون بطرد كل ضابط لا يقسم يمين الاخلاص للدستور ، وذهب « ميرابو » و « روبسبير » الى ابعد من هذا فاقترحا الغاء ملاكات الضباط وانشاء ملاكات جديدة . وجاء هروب الملك ضغثاً على ابالة فانهارت الملاكات بهجرة فريق كبير من القادة وكبار الضباط .

بدأت الهجرة بعد حادث سقوط « الباستيل » . فغادر فرنسا الكونت « دارتوا » والامير « كونده » وفي معيتها القادة « بروبلي » و« اوتيشان » و« بزنقال » و « لاميك » . واستفحل امر هذه الحركة في شتاء ١٧٩٠ عندما شرع الامراء المهاجرون ينشئون جيشاً موالياً للملكية . وجاء قرار الجمعية العمومية بطرد كل ضابط لا يقسم على حدة يمين الاخلاص للدستور يزيد الحركة استفحالا ، ولا سيما في جيش الشمال الذي كانت دعاية الامراء تعالج قادته بمهارة .

وقد اتسع نطاق الهجرة عقيب حادث « فارين » وما جر اليه من ذيول . ذلك بان اشتراك بعض الكراديس في المؤامرة التي افتضح امرها في « فارين » بقبض الملك واعادته الى باريس ، جعل ضباط معظم القطعات موضع الشبهة فزج مئات منهم في السجون وذهب كثير من آمري الافواج ضحايا

الاضطرابات التي حصلت في الثكنات ، فكانت هذه الحوادث حافزاً للضباط على الهروب والانضمام الى جيش الامراء .

بدأت الهجرة تقض مضاجع رجال الثورة بعد فرار جيش الجنرال « بوبه » الى بلجيكا ، لان عدوى التمرد انتشرت في معظم ثكنات الشمال والشرق واستطاع بعض الضباط ان يجتاز الحدود مصحوباً بجنوده . وازاء تفاقم الحالة بهذا الشكل قررت الجمعية التأسيسية ان تأخذ على الضباط عهداً بأن يتقيدوا بما يصدر عنها من اوامر ونواهٍ وتعليمات . فرفض الف وخمسمئة ضابط الارتباط بعهد هذا شأنه ، فسرحوا ، واتخذت السلطات تدابير شتى للحؤول دون التحاق المسرحين بجيش الامراء . فما نجح منهم في اجتياز الحدود سوى بضعة عشر ضابطاً كبيراً ومئتي ضابط برتبة رئيس وملازم (كابتين وليوتنان) .

ولجأت الجمعية التأسيسية الى تدابير متناقضة لسد النقص المتزايد في ملاك الضباط . فبدأت بالغاء التقاعد ، وأتبعت هذا التدبير بملاحقة المهاجرين قضائياً ثم الغت الالقاب التي منحها الملك فريقاً من القادة كما الغت نظام الاوسمة . ورغبة منها في استرضاء الجميع منحت الفوج السويسري الذي تمرد في ثكنة « شاتوفيون » عفواً عاماً .

ولكن « اندية اصدقاء الدستور » زادت ازمة الملاك استفحالا بتحريضها الجيش على الضباط النبلاء ، خصوصاً بعد اعدام لويس السادس عشر ، ونشوب الثورة في مقاطعة « فانده » ، وخيانة القائد « ديموريه » . فسلك القادة المضطهدون والملاحقون سبل الهجرة لينجوا بانفسهم من الهلاك . واستمرت الحال على هذا المنوال رغم بروز شبح الحرب وصراخ الزعماء « الوطن في خطر » .

على ان توالي الازمات بين ١٧٨٩ و ١٧٩٢ ، والانقسام الخطير في صفوف

الجيش ، لم يقضيا على مميزات فرنسا العسكرية ، انما قضيا على الجيش الملكي قضاء مبرماً ، فقامت جيوش الثورة على انقاضه بما يشبه الاعجوبة .

٢ – جيوش الثورة . – موقعة فالمي

المتطوعون الاول . – في كانون الاول من العام ١٧٩١ تم تأليف جيوش ثلاثة : ١ – جيش الشمال بقيادة المرشال « دوروشامبو » ، ٢ – جيش الوسط بقيادة « لافاييت » ، ٣ – جيش الرين بقيادة « لوكنير » . وقد رأت وزارة الحربية عند الشروع في انشاء جيوش الثورة ان تسد النقص في الكراديس النظامية بفصائل من « الحرس الوطني » ، ولكن الفكرة لم تلق تأييداً لدى ارباب الاختصاص . وفي الثاني من كانون الثاني ١٧٩١ استصدر وزير الحربية مرسوماً بتعبئة مئة الف « جندي مساعد » يؤخذون بالتطوع الاختياري ويُلحقون بعد تدريبهم بالكراديس النظامية . الا ان المرسوم لم يوضع موضع التنفيذ . وفي حزيران من العام نفسه قرر ممثلو الامة تعبئة « الحرس الوطني » والعدول عن التطوع اختيارياً . ودعيت الاقاليم الى تأليف افواجها على ان تظل هذه الافواج متأهبة لتلبية نداء الوطن .

وبعد فرار الملك نفذت التعبئة بموجب ثلاثة مراسيم استصدرها وزير الحربية تباعاً ، فلبى النداء في المرة الاولى ٢٦ الف متطوع ، وفي المرة الثانية لبّاه ٩٧ الفاً ، ولباه في المرة الاخيرة مئة الف متطوع . اشتهرت هذه القوات باسم « متطوعة ١٧٩١ » ، فكانت الدولة تجهزها بالاسلحة ، اما الالبسة والمؤن فكانت توفرها لها مجالس الاقاليم . وقد ترك مرسوم انشاء المتطوعة للجنود حرية انتخاب ضباطهم ، ونص على امكان وضع الافواج تحت امرة القادة في حال دعوتها الى خوض غمرات حرب نظامية .

فألف في باريس والمقاطعات الشمالية الشرقية ستون فوجاً من المتطوعة ،

ولم يزد قوام الفوج الواحد على خمسئة وخمسة وسبعين رجلا . واختار بعض الافواج ضباطه من ملاكات الميليشيا الاقليمية ، فاحسن الاختيار . ومثلت الدسائس دورها في انتخاب قادة البعض الآخر ففاز بالرئاسة رجال اتقنوا صناعة الكلام والتلاعب بعواطف الجمهور ، ولكنهم كانوا اجهل الناس بفن القيادة . فشاعت الفوضى في الثكنات الاقليمية وانصرف المتطوعة الذين حشدوا في مناطق الحدود الى السلب والنهب تشجعهم « ديموقراطية » رؤساء اعتادوا النزول الى مستوى الشعب تودداً اليه واستجلاباً لرضاه ، فدرجوا على الخطة نفسها في معاملة مرؤوسيهم .

وزاد في الطين بلة قرار اتخذته الجمعية التشريعية في ايلول ١٧٩١ ، يجيز للمتطوع ان يترك الخدمة بعد كل حملة شريطة ان يخطر رئيسه بعزمه على الانسحاب قبل شهرين ، وحظرت الجمعية في الوقت نفسه على افواج المتطوعة ان تختار رؤساءها بين ضباط القوات النظامية . فافضت هذه التسهيلات الى تشجيع الفرنسيين على الانخراط في افواج المتطوعة ، فظلت الكراديس النظامية تشكو الهزال .

تلك كانت حالة الجيش الفرنسي عند نشوب الحرب : الكراديس النظامية تشكو نقصاً كبيراً في الرجال ، وافواج المتطوعة تتكوّن وتنمو في غير نظام . ولم تكن حالة الادارة المدنية خيراً من حالة القوى المسلحة الخاضعة لها ، فقد ولي وزارة الحربية رجال لم يكن الحزم من شيمهم . وشذ الوزير « ناربون » ولكن تراخي الجمعية التشريعية افسد عليه تدابيره ، فاستقال في آذار ١٧٩٢ وحل محله « رولان » يعاونه « دومورييه » كوزير للشؤون الخارجية .

الحرب . — سعى « دومورييه » الى اقناع بروسيا بالتزام الحياد في حرب تنشب بين فرنسا والنمسا ، ولكن ضعف بلاده اغرى بها الجيران الطامعين ،

فتحالف ضدها البروسيون والنمسويون بحجة القضاء على الوباء الثوري الذي يتهدد الممالك الاوروبية :

شهر « دوموريه » الحرب في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ قبل ان يعنى باعادة الامور الى نصابها في الثكنات والمعسكرات ، مع انه لم يكن غريباً عن الجيش ، ادركته الثورة فريقاً في جيش لويس السادس عشر ، وعاملاً من عمال الملك في عواصم الممالك الاوروبية ، وقد ظل موضع ثقة ولي نعمته رغم قعوده عن مكافحة التيارات الجديدة .

عبرت الحدود اربع فرق فرنسية وفاقاً لخطة « دوموريه » الهجومية ، ولكن ميمنة الجيش ما لبثت ان رفضت التقدم وحذت حذوها الميسرة . وتمرد جنود الفرقة التي كانت تؤلف القلب وفتكوا بقائدهم الجنرال « ديون » فاجتمع ممثلو الامة لدرس الموقف والاطلاع على تقارير القادة ، الا انهم لم يتخذوا اي تدبير زجري بحق الكردوسين اللذين حملها تقرير الجنرال « بيرون » تبعة ما حدث .

وفي ايار ١٧٩٢ قررت الجمعية التشريعية زيادة عدد المتطوعة في كل من الافواج بحيث يضم الواحد منها ثمانمئة رجل (كان قوام الفوج ٥٧٥ رجلا) ، كما قررت جعل عـــدد الافواج ٢١٤ . ولكن استمرار حوادث التمرد والعصيان وشق عصا الطاعة ، وانتقال عدد من القادة اللامعين الى المعسكر الآخر بعد ان يئسوا من اصلاح الحالة ، وتردد السلطة التنفيذية في اخذ مسببي الاضطراب والفوضى بالشدة اللازمة — ولكن هذه العوامل مجتمعة زادت الحالة سوءاً . وما اطل شهر تموز حتى اضحى الوطن عرضة لخطر داهم ، فاعد ممثلو الامة في ٤ و ٥ منه مشروعاً يرمي الى حشد موارد البلاد ويقضي بتعبئة جميع الرجال الذين سبقت لهم الخدمة في الحرس الوطني . ونص المشروع

على مصادرة الاسلحة الخاصة ، وعلى تجمع الحرس الوطني في الاقضية والاقاليم تحت اشراف السلطات المحلية استعداداً لتلبية نداء الوطن . كما نص على الغاء نظام التطوع الاختياري لتحل محله المصادرة .

الوطن في خطر . – اعلنت الجمعية التشريعية الوطن في خطر في الحادي عشر من تموز ١٧٩٢ ، ودعت الى حمل السلاح . وقد جاء في النداء الذي توجهت به الى الامة ان كل منطقة تعبىء ، فضلاً عن الافواج المفروضة عليها ، وحدة اضافية من الحرس الوطني ، وتضعها في خدمة فرنسا مجهزة ومسلحة ، تستحق شكر الوطن .

نص مشروع التعبئة على تجنيد ٤٥٠ الف رجل . ودعيت الولايات الثلاث والثمانون الى تقديم خمسين الف رجل يسد بهم النقص في الجيش النظامي . ولم توفر التدابير الجديدة قوات الدرك والمحاربين القدماء ، فاخذت فرقتين من الاولى واحلت بضع كتائب من قدماء المحاربين محل القوات النظامية في حماية القلاع والحصون .

وفي ١٧ تموز قررت الجمعية التشريعية تعبئة اثنين واربعين فوجاً جديداً من المتطوعة . وفي ٢٣ منه اقرت قادة جيش الرين على مصادرتهم الرجال والاسلحة ، وخولت سائر قادة الجيوش حق اللجوء الى التدبير نفسه . ثم اخضعت للمصادرة والتعبئة الفتيان الذين اتموا السادسة عشرة من سنيهم .

وبعد هزيمة « فونتوا » واستسلام « لونغوي » (١٩ و ٢٢ آب) أضيفت احكام جديدة الى قوانين السلامة العامة والطوارىء تجيز اعدام كل مواطن يجهر بعزمه على القاء السلاح في اثناء دفاعه عن موقع محاصر . وفي ٢٦ آب صودر ثلاثون الفاً من متطوعة باريس والمناطق المجاورة لها وارسلوا الى جيش « لوكنير » لانه كان في حاجة ماسة الى المدد .

وتعاقبت التدابير تحت ضغط الحوادث والاحتمالات ، فضوعف عدد الوحدات الخاصة كالفيلق الحر والكتائب الاجنبية المؤلفة من مرتزقة بلجيكيين وجرمانيين . وانشىء واحد وعشرون فوجاً قناصاً اطلق عليها اسم « افواج المشاة الخفاف » .

واهتمت الجمعية التشريعية بتنظيم الادارات المدنية المشرفة على القوى المسلحة ، فأنشأت في آب ١٧٩٢ اللجنة العسكرية وخولت اعضاءها الثلاثة حق الاشتراك في اعمال لجنة الدفاع . وفي نيسان ١٧٩٣ اخضعت اعمال المجلس التنفيذي (الحكومة) لاشراف لجنة السلامة العامة ، وما لبث ان تفرع من هذه اللجنة ادارة خاصة سميت « مجلس ادارة العمليات العسكرية » ، واخضع لاشرافها وزير الحربية ومفوض التنظيم والحركة في جيوش البر . وقد عملت هذه الادارات بهمة واخلاص . وكان وجود « لازار كارنو » في لجنة السلامة العامة وعلى رأس « مجلس ادارة العمليات » ضمانة كافية لسير الامور على ما كان يشتهي المخلصون .

كان « كارنو » مفوضاً لدى جيش الشمال (المفوض هو ممثل مجلس الامة لدى القوى المسلحة) عندما عقدت لجنة السلامة العامة جلسة خاصة لدرس الموقف الحربي ورفع مستوى الجيش . فاقترح العضو « بربور » ضم « لازار كارنو » الى اللجنة لانه بين ممثلي الامة الرجل الوحيد الذي يصدر في الشؤون العسكرية عن معرفة واختصاص .

تسلم « كارنو » ادارة العمليات الحربية في ١٤ آب ١٧٩٣ ، وظل طيلة عامين المهيمن الفعلي على جيوش الجمهورية ، ولقب عن جدارة بـ « منظم النصر » . وكانت فكرة التعبئة العامة قد جالت في الرؤوس منذ اول آب ، فاستهل « كارنو » عهده باستصدار مرسوم بالتعبئة نصت مادته الاولى على ما يلي :

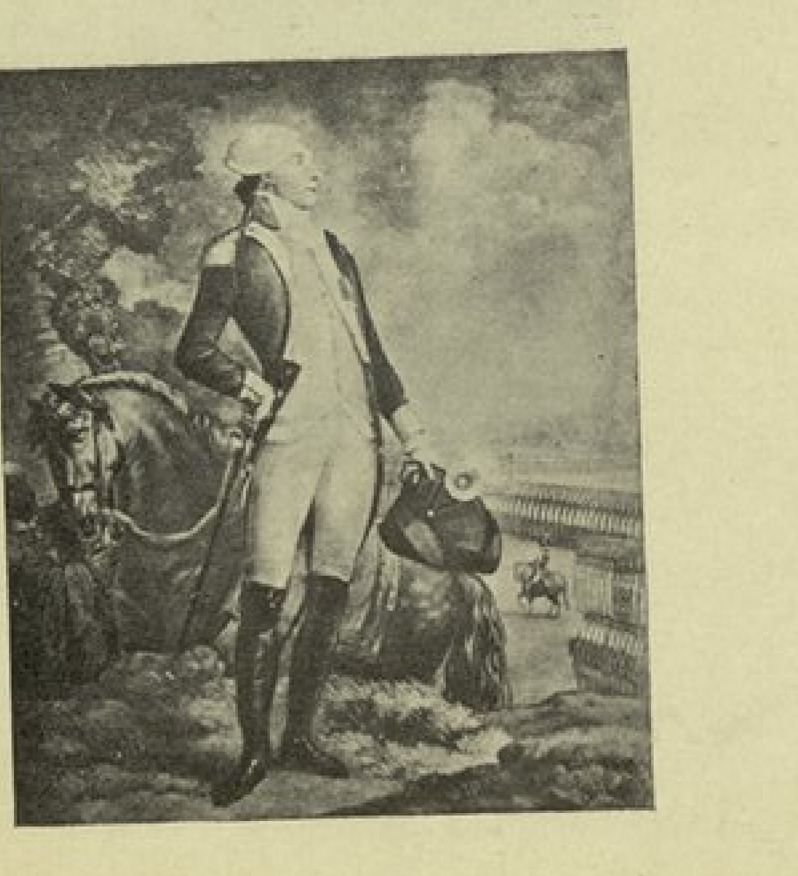
« من الآن الى ان يتم طرد العدو من اراضي الجمهورية ، يصادر جميع الفرنسيين مصادرة دائمة لمصلحة القوى المسلحة . فالشبان يخرجون للحرب ، والرجال المتزوجون يصنعون الاسلحة ويؤمنون نقلها الى الجبهة . والنساء يصنعن مخيمات والبسة ويتعاطين التمريض في المستشفيات . والشيوخ يخرجون الى الساحات العامة لينفخوا في الشبان الشجاعة والحماسة ، ويغذوا في الصدور الحقد على الملوك ويبشروا بوحدة الجمهورية . »

بدأت التعبئة العامة وانتهت في ثلاثة اشهر دون ان تثير اعتراضاً او تصطدم بعقبة جدية . بقي ان تؤمن اللحمة في جيش الجمهورية المؤلف من كراديس نظامية وفيالق حرة وكتائب اجنبية وافواج من المتطوعة والحرس الوطني . اقترح بعض ممثلي الامة منذ صيف ١٧٩٢ الحاق المتطوعة بالجيش النظامي ليذوبوا فيه ، فسفهت الاكثرية هذا الاقتراح « لانه يزج بالروح الثوري في وسط رجعي متفوق » . ولما طرحت المسألة على بساط البحث في صيف ١٧٩٣ اقترح « كارنو » و « ودلماس » العكس ، اي تذويب القوات النظامية في افواج المتطوعة . ولكن القادة عارضوا هذا الاقتراح لان تطبيقه يمزق صفوف افضل ما في الجيش من قطعات . واخيراً رؤي توحيد القوى البرية المسلحة على اساس تداخل الافواج ، فتألف اللواء الواحد من فوجين نظاميين واربعة من المتطوعة ، فيأخذ هؤلاء عن النظاميين احترام الرؤساء والتقيد بالنظام ، ويأخذ النظاميون عن المتطوعة حب الوطن والاخلاص للجمهورية .

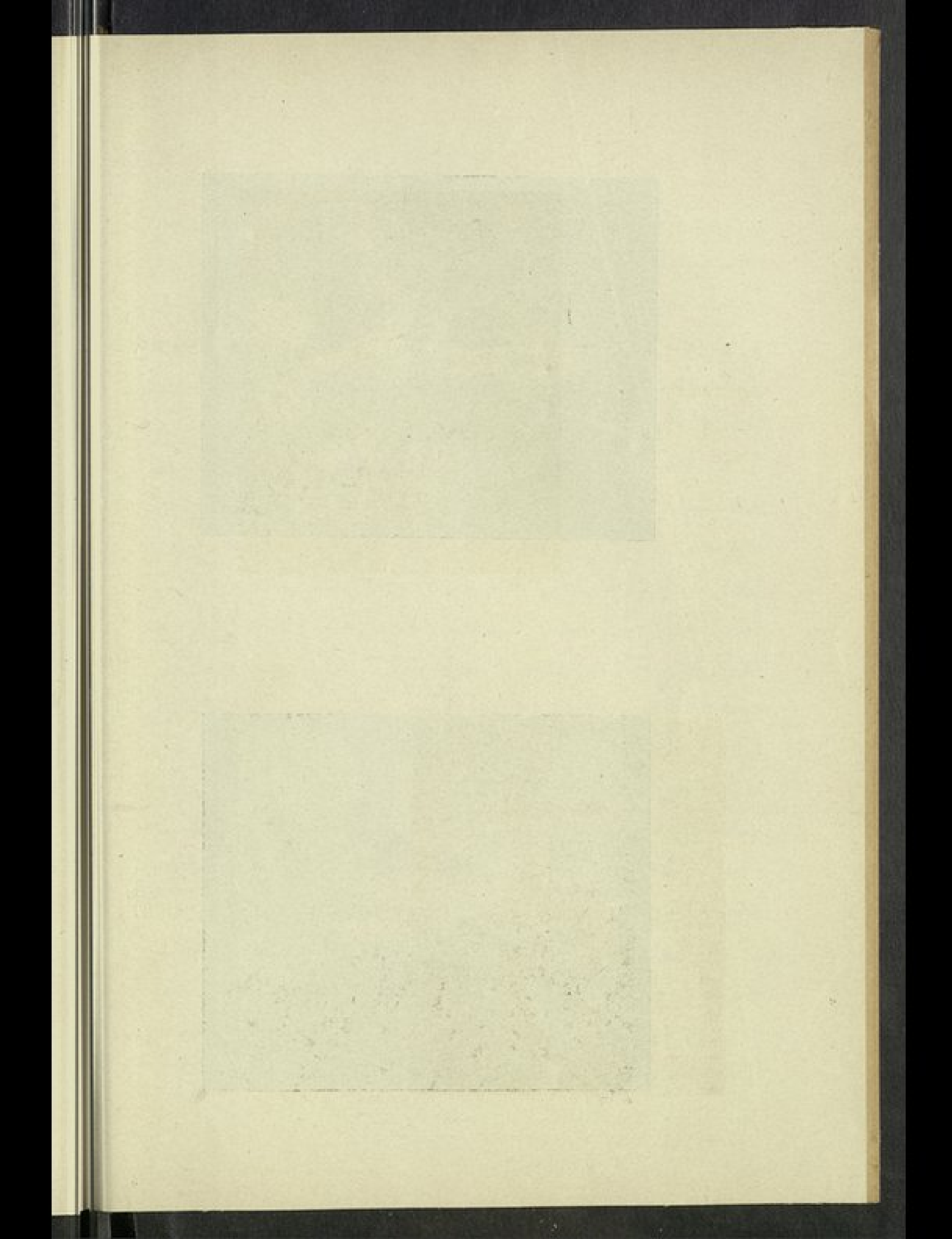
وقد قضى التنظيم الجديد بتوحيد اللباس والسلاح والشارات واساس الراتب الشهري . وما انصرم العام ١٧٩٣ حتى تألف من ٢١٣ فوجاً نظامياً ومن ٧٢٥ فوجاً من المتطوعة ، مئة وسبعة الوية او ٢١٤ نصف لواء لان « كارنو » وزملاءه اعتمدوا هذا التقسيم رغبة منهم في ايجاد وحدات لجميع الضباط الكبار .



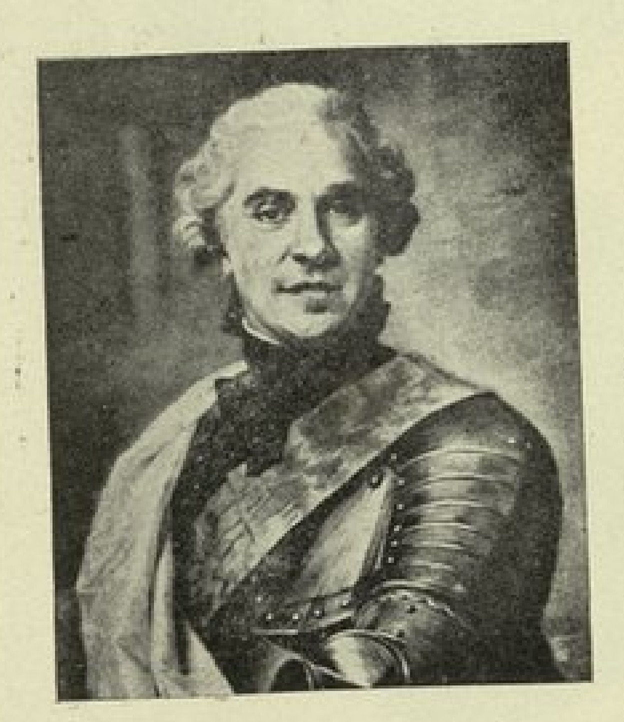
فوبان



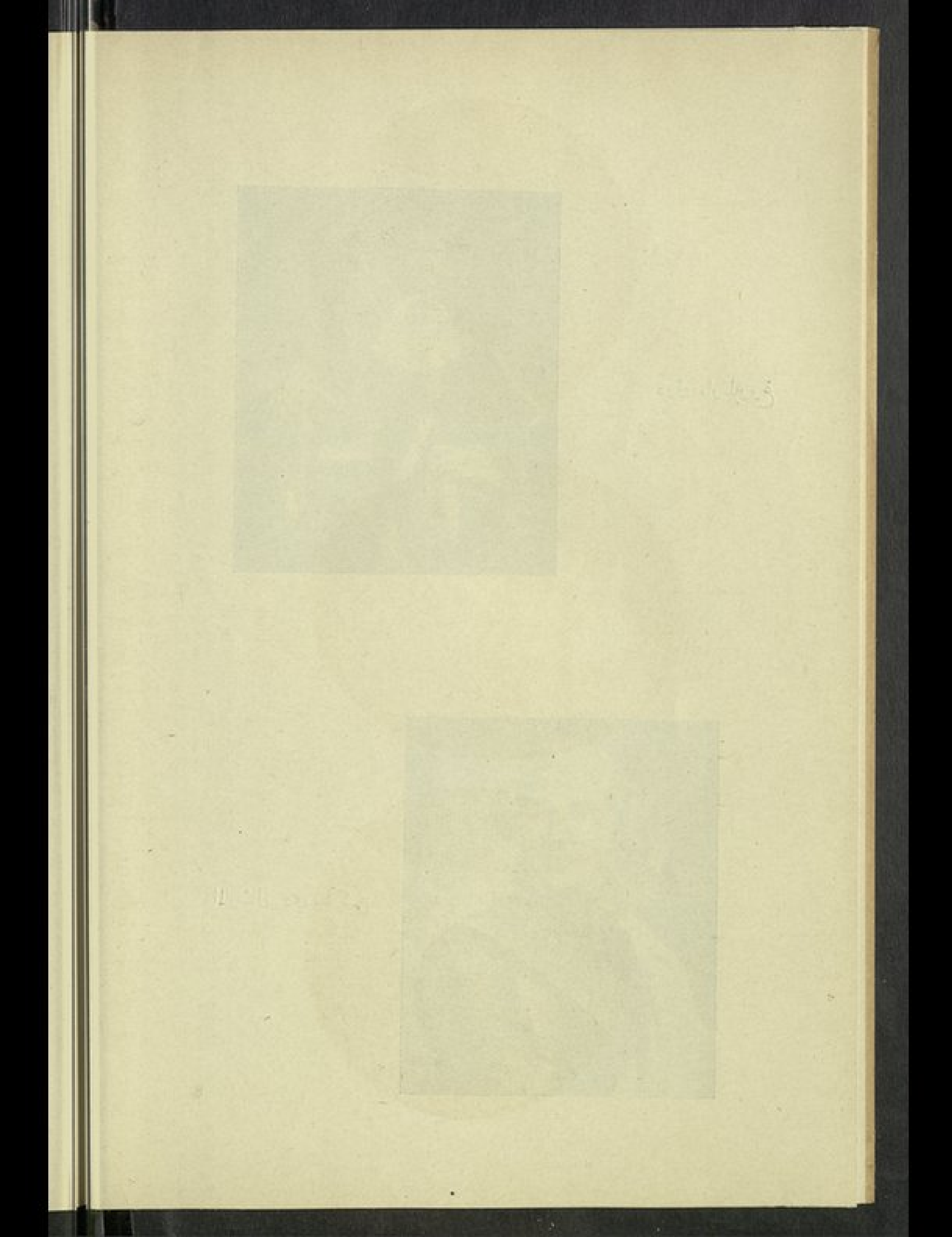
لافاييت



دوق مار لبروغ



المارشال دي ساكس

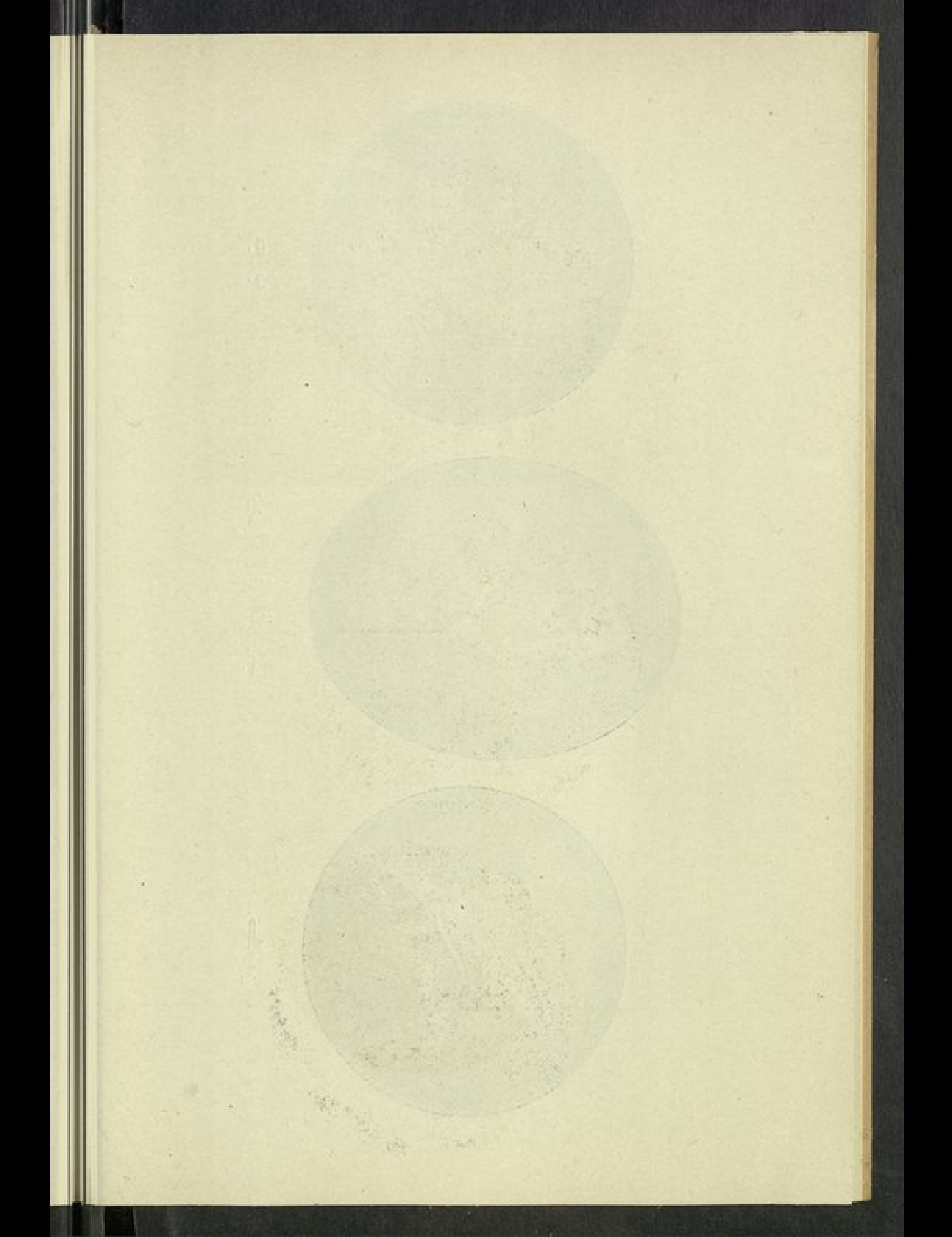




ديموريه

فردريك الثاني ملك بروسيا

كلرمن



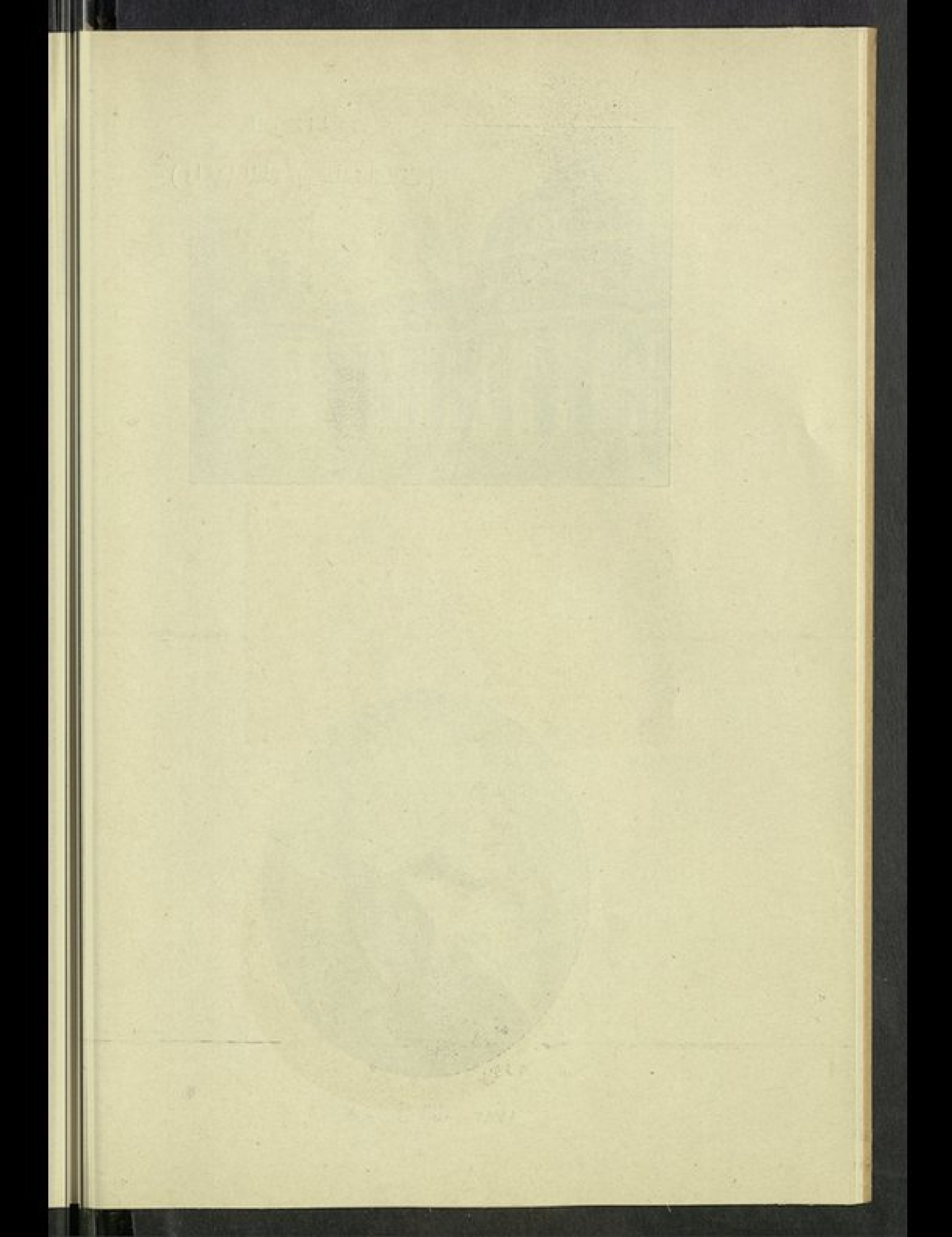
المدرسة الحربية

(واجهتها المطلة على ساحة الشرف)





كارنو في العام ١٧٩٢





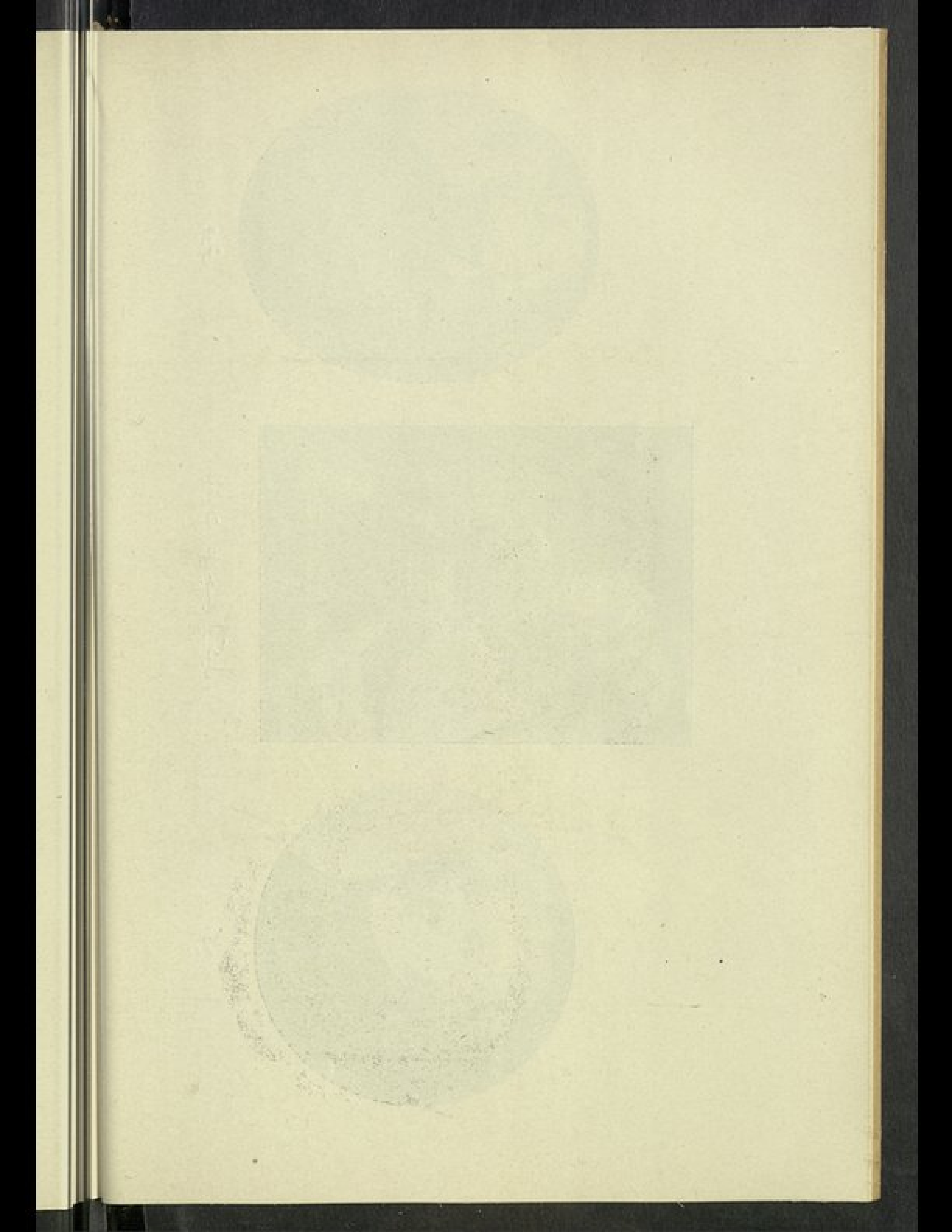
هوش



بونابرت علی جسر ارکول

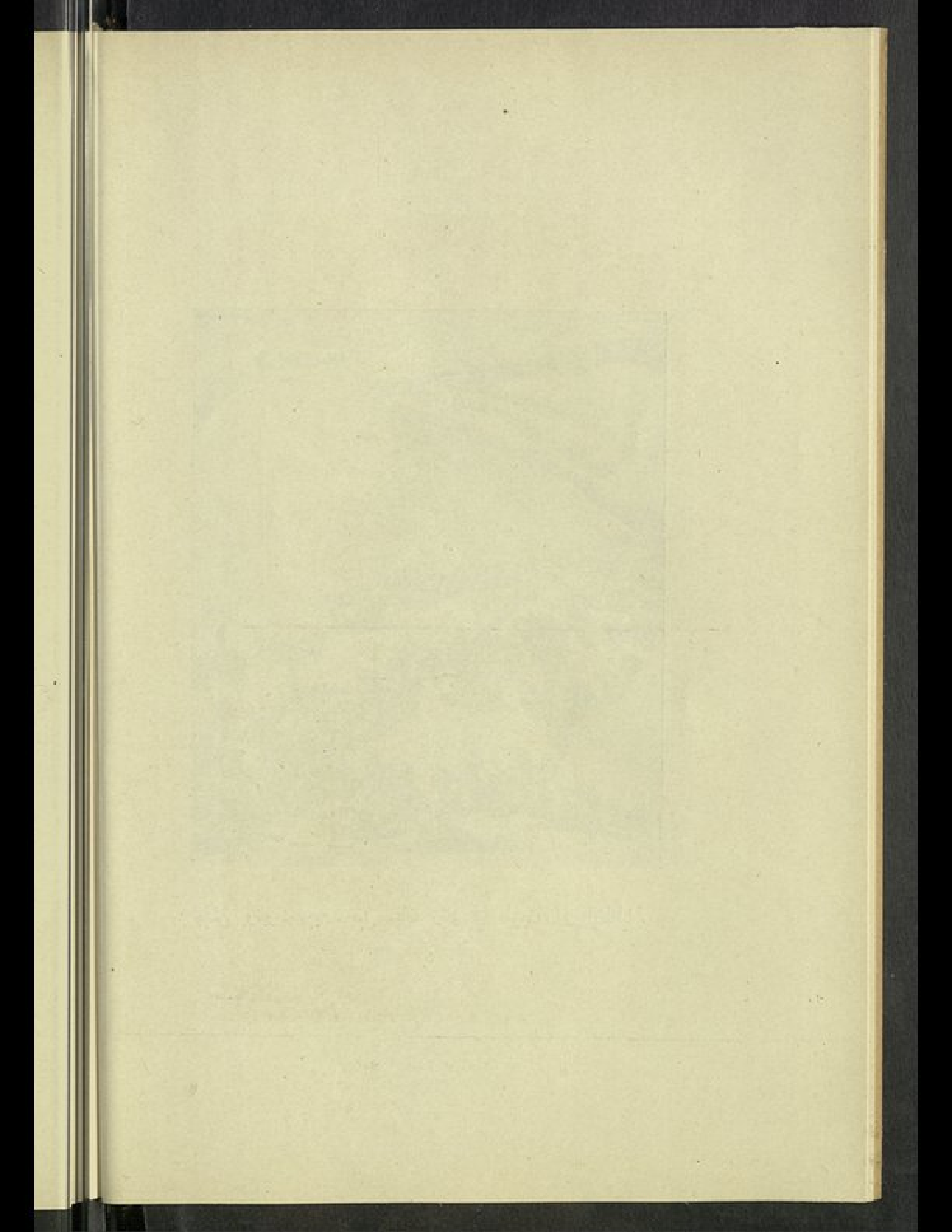


کلیبر



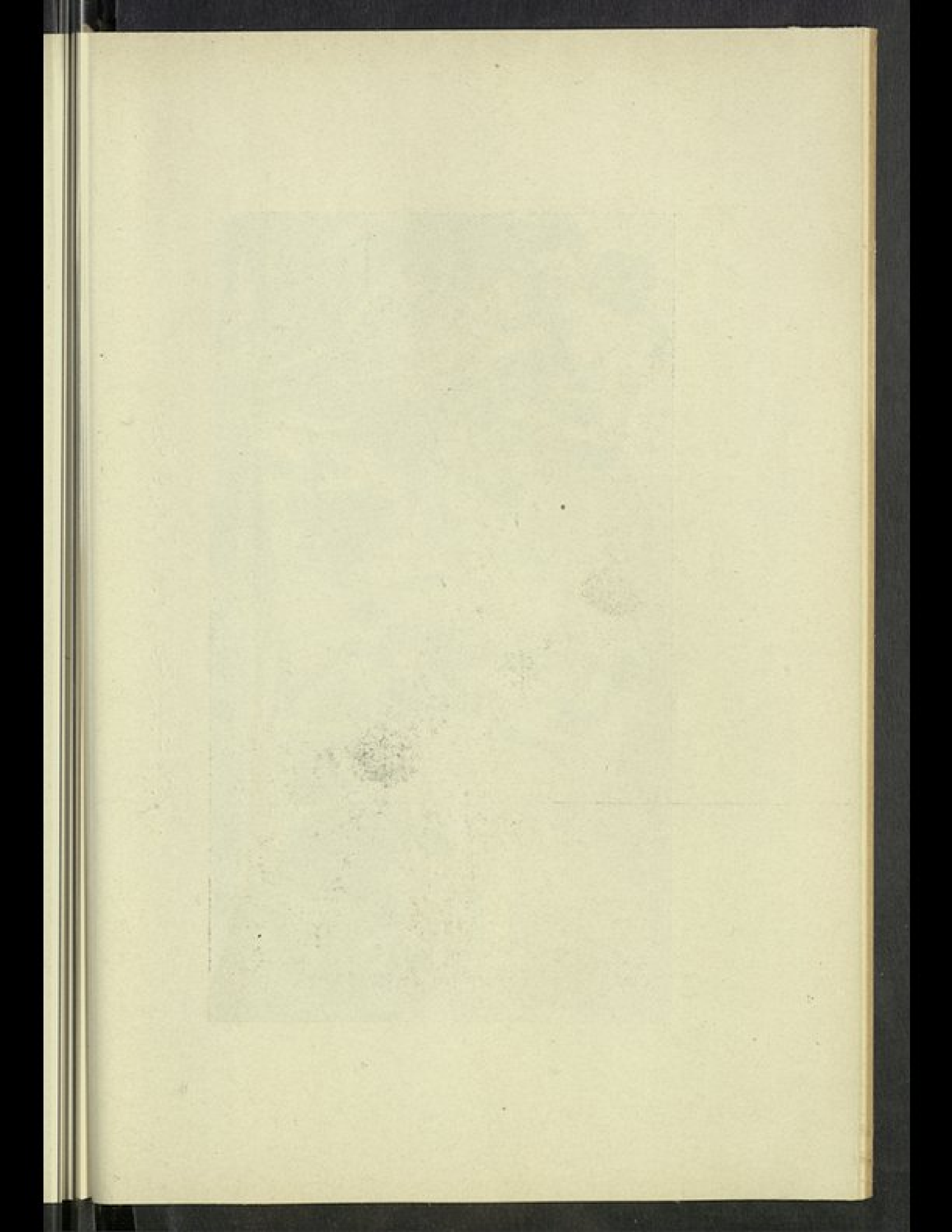


جيش بونابوت يعبر جبل سان برنار في طريقه الى ايطاليا .





نابوليون في معركة واغرام (بريشة ابيوليت بلانجه).

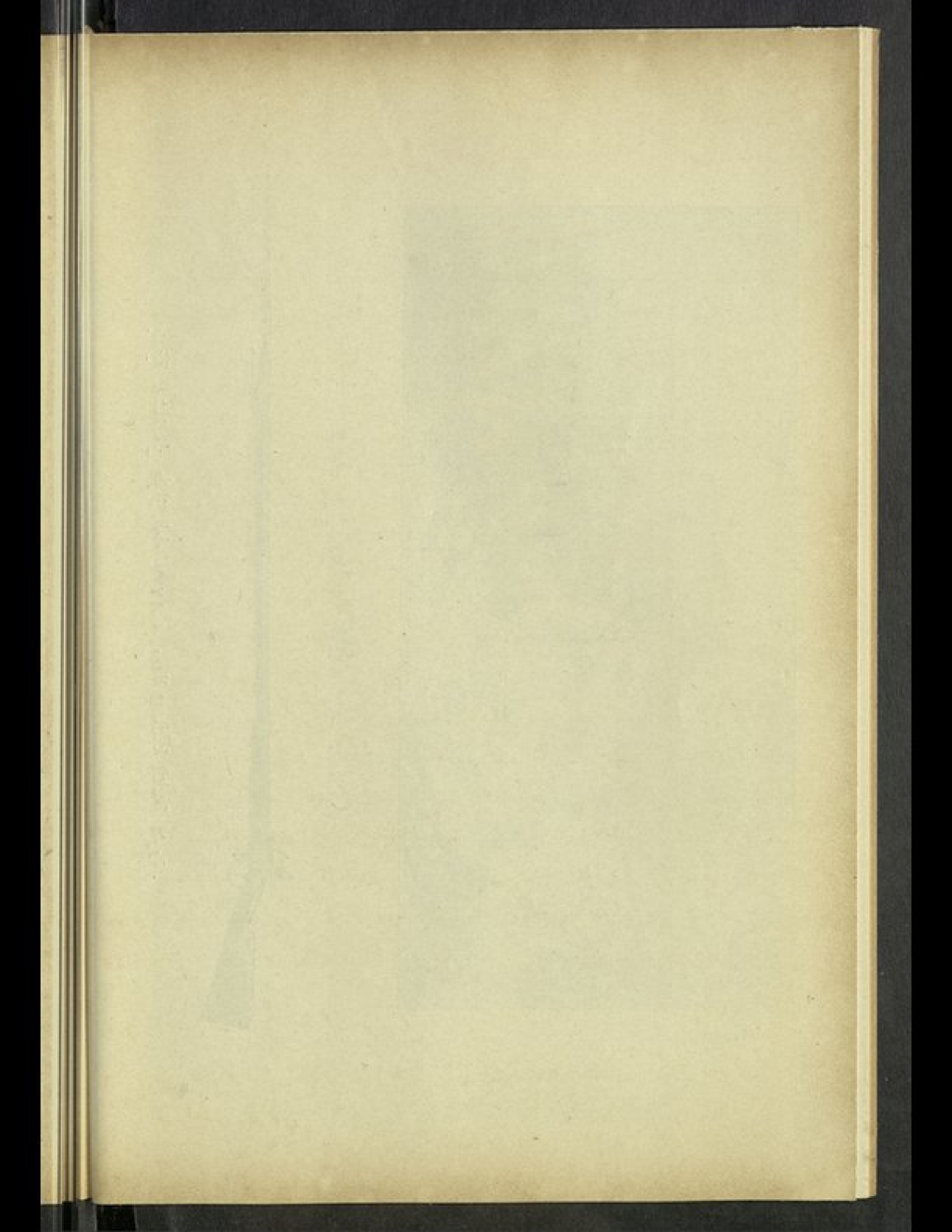




كتيبة ماري لويز (« انتبهوا ، الامبراطور ينظر الينا ! »)



بندقية للمشاة من طراز العام ١٧٧٧ ، معدلة في السنة التاسعة للثورة .



لم تكن تعبئة الرجال كل شيء ، فقد كان على الدولة ان تسلحهم وتجهزهم وتغذيهم ، وهي اشياء يحتاج تامينها الى مال كثير . فتحت الحكومة لحاجات الدفاع الوطني حساباً جارياً واطلقت يد لجنة السلامة العامة في الانفاق ، وفي اتخاذ التدابير الكفيلة بوضع كل ما هو ضروري للحرب في متناول القوى المسلحة . فعمدت اللجنة الى مصادرة الخيول والمركبات والاسلحة الفردية . ثم وضعت يدها على مصانع الاسلحة وانشأت مصانع جديدة في منطقة باريس ، وصادرت الحديد المنقول والثابت من الافراد والاديرة ، ولم تعف الكنائس فصادرت اجراسها .

واستخدمت لجان الدفاع الوطني تقدم العلم في تجهيز الجيش بوسائل الاتصال الحديثة كالتلغراف . وعهدت الى وحدة الهندسة العسكرية بتقوية الحصون والقلاع ، لان معارك الحدود ابرزت اهمية الانشاءات التي قامت تحت اشراف المارشال « فوبان » في عهد لويس الرابع عشر .

بقي تموين الجيش وتجهيزه . فمنذ ١٧٩١ دعيت السلطات المحلية في كل ولاية الى تجهيز المتطوعة الذين لا يمكنهم ان يجهزوا انفسهم . ثم انشئت معامل لنسج الاقمشة الصوفية تحت اشراف لجان الدفاع الوطني . الا ان التجربة لم تنجح فاعتمدت وزارة الدفاع طريقة التلزيم . وفي الوقت نفسه دعي المواطنون الى تقديم الالبسة هدايا الى الجنود . واجبر صانعو الاحذية على العمل مدة معينة في تأمين حاجة الجيش . ولكن فريقاً من الجنود باعوا احذيتهم من المدنيين ، فحظرت السلطات على الشارين استعمالها تحت طائلة المصادرة والحبس .

اما اعاشة الجيش فقد كان يتبع في تأمينها نظام التلزيم . ثم اخذتها الدولة على عاتقها واستمر العمل بهذا النظام ستة اشهر ، اعتمد بعدها اسلوب الشراء

المباشر ، فكانت دائرة الاعاشة في كل كردوس تشتري لوازمه من اللحوم والحبوب لمدة ثلاثة اشهر . وقضت حالة الحرب بمصادرة الحبوب والماشية لتأمين حاجة القوى المسلحة ، وانشئت لجان التموين في وزارة الدفاع ، فاخذت على عاتقها تأمين اعاشة الجيش .

واستلزمت سرعة انتقال الكراديس الى المناطق المهددة تنظيم النقل ، فأنشىء في هيئة اركان الحرب مكتب خاص لهذا الغرض ، فعمد الى مصادرة وسائط النقل المختلفة ، واخذ على عاتقه حماية القوافل ، فكان هذا التنظيم خطوة واسعة نحو القضاء على الفوضى ، وايذاناً بانقضاء عهد التدابير المرتجلة .

التجنيد . — ما عتم الامر برجال الجمهورية الاولى حتى ادركوا ان مصادرة المواطنين تدبير جريء ، ذو طابع استثنائي لا يجوز اعتماده في السلم ، فوضع الوزير « جوردان » مشرع قانون بالتجنيد وعرضه على ممثلي الامة ، فاقروه في الخامس من ايلول ١٧٩٨ .

نص القانون على تعبئة جيش السلم من طريق التطوع الاختياري ، فاذا لم يتقدم عدد كاف من المواطنين ، يصار الى تجنيد جميع الرجال الذين تراوح اعمارهم بين عشرين وخمس وعشرين سنة ، على ان يوزع الخاضعون للتجنيد على خمس طبقات تبعاً للسن ، ويبدأ بدعوة الرجال الاصغر سناً .

وقد تجنب « جوردان » الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه سلفاؤه ، فلم يؤلف من المجندين وفاقاً للقانون الجديد قطعات خاصة على هامش الجيش ، بل ضمها اليه ، وهكذا وضع الوزير اساس الجيش العصري ، وظل قانونه نافذاً حتى اواخر عهد الامبراطورية .

٣ — التكتيك والرجال

تقدم معنا ان « كارنو » مثل دوراً رئيسياً في تنظيم جيش الثورة . وقد

اجمع المؤرخون على التنويه بأثره في توجيه القادة وادارة العمليات الحربية وفاقاً لمبادىء جريئة ، لاقت معارضة شديدة في « لجنة السلامة العامة » ، ولكن الحوادث اثبتت جدواها .

كان « كارنو » يوصي القادة باعداد الخطط سراً ، وينصح لهم بتضليل العدو بحيث يظل جاهلاً حتى اللحظة الاخيرة حقيقة ما وطدوا العزم عليه ، لان المفاجأة من عناصر النجاح في الحرب .

وقد كتب الى القائد « بيشغرو » يقول : « ترغب اليك لجنة السلامة العامة ان تعد عدتك للعمل الحاسم وان تحيط تدابيرك بسياج من الكتمان . اننا ننتظر منك عملية هجومية صاعقة يرتبك امامها العدو ، فيسهل عليك الاجهاز عليه بضربات متداركة . »

وكتب الى « جوردان » : « ينبغي لك ان تلاحق العدو فلا تدع له لحظة يتنفس فيها الصعداء . لا تضيع الوقت سدى في محاصرة المراكز المحصنة بل اسع الى خوض غمار معركة حاسمة بكل ما تملك من قوى . »

ولمع من قادة العهد الملكي « ديموريه » و« كيلرمان » اللذان انقذا الوطن والجمهورية في موقعة « فالمي » (ايلول ١٧٩٢) . اما « جوبير » و « دوزيكس » فقد ادركتهما الثورة ضابطين كما ادركت كلا من « ماسينا » و « هوش » و « مارسو » صف ضابط . اما القادة الذين احرزوا رتبهم بعد ١٧٨٩ فاشهرهم « جوردان » و « كليبر » و « مورو » و « شامبيونه » .

اعتمد هؤلاء القادة تكتيكاً واحداً في القتال وهو تركيز الجهود الهجومي في قطاع معين ومواجهة العدو بقوى متفوقة . وكان التكتيك يقضي بأن يبدأ الرماة التحرش بالعدو تدعمهم المدفعية وتغطيهم ، ثم تتحرك القوات الرئيسية فتنتشر على جبهة ضيقة ذات عمق كاف وتندفع الافواج ، ضباطها على

رأسها ، والحراب مثبتة في رؤوس البنادق .

كانت الحماسة العنصر الاساسي في القتال ، لان معظم قادة الجيش الجمهوري كانت تعوزهم الخبرة والعلم ، فالقوا بشجاعتهم وسرعة خاطرهم في كفة الميزان ، ليتأثر جنودهم خطاهم ونالوا باندفاعهم ما كان جنود العدو يرجون بلوغه بمحافظتهم على النظام ، وتنفيذ تعليمات رؤساء مجربين .

الفصل الثامن

جيوش العهدين القنصلي والامبراطوري

١ – النسر يحلق

لا يمكن فصل ترجمة بونابرت عن تاريخ الجيش الفرنسي . فقد شهد نشأة جيوش الثورة وعمل منها جيوشه . كانت قبل ان تسلم اليه قيادها تقاتل من اجل الوطن وفي سبيل مثل اعلى ، فجعل منها اداة طيعة تحارب لانها تحت امرته ، وتحرز النصر تلو الآخر لانه ارادها ان تنتصر .

وفي عهده ابصر النور « الجيش الاعظم » جيش الامبراطورية ، ففتح به بونابرت الامصار وكاد يبدل خريطة العالم لو لم يختل التوازن بين الطموح والمستحيل ، فهوي العبقرية صريعة امام تفوق الخصوم .

في اذار من العام ١٧٩٦ وصل بونابرت الى « نيس » ليتولى قيادة الجيش الذي سيرته فرنسا الى ايطاليا . فوجد معاونيه في انتظاره وقد آلمهم ان يعملوا تحت امرة قائد شاب ، عديم الخبرة ، استهوته السياسة فنزل الى معتركها ولكنها لم تصرفه عن الطموح الى ارفع المراتب العسكرية .

كتب القائد « ماسينا » في مذكراته عن اجتماع « نيس » ما يلي : « كانت المقابلة قصيرة الامد ، لان بونابرت ، هذا القائد الصغير ذا النظرات النافذة ، لم يدع لنا مجالا لابداء ملاحظاتنا ، فاصغينا اليه يشرح خطته وكأن على

رؤوسنا الطير . لقد فرض علينا احترامه وشعر كل منا انه وجد سيده وزعيمه . »

وفي التاسع من نيسان تحرك الجيش الفرنسي وفاقاً للخطة المرسومة . وفي ١٢ و ١٤ منه كسب موقعي « مونتينوتي » و « ديغو » ودق اسفيناً بين النمسويين وجيش سردينيا . وفي ٢١ منه هزم هذا الجيش في « سيفا » و « موندوفي » ، فالقت سردينيا السلاح في ٢٨ نيسان . وفي غضون ثلاثة اسابيع كانت بلاد « البيمون » خارج الساحة . وفي الخامس من ايار قام بونابرت بمناورة جريئة امنت له الفوز في موقعة « لودي » فبلغ نهر « اديج » وقذف بمعظم الجيش النمسوي الى ما وراء الحدود . وبعد ان هزم القائد « ورمزر » في « لوناتو » و « كاستليوني » و « روفيريدو » انبرى لمنازلة القائد « ألفنزي » الذي هبط من التيرول على رأس جيش كبير . فكانت موقعتا « اركول » في تشرين الثاني و « ريفولي » في اوائل ١٧٩٧ فاحرز فيهما بونابرت انتصارين رائعين ، ثم مشى للقاء الارشيدوق شارل ، ولكن الامير النمسوي تفادى المعركة وتقدم بعروض للصلح .

تتبع الرأي العام الفرنسي خطى القائد الشاب باهتمام ولهفة ، فاخذت شعبيته تنمو تبعاً لتزايد نفوذه العسكري والسياسي . ولم تكن انتصارات ايطاليا سوى حلقة في سلسلة اعمال باهرة رفعت بونابرت الى مصف عظماء القادة والسياسيين .

نشأة بونابرت . — ابصر نابوليون بونابرت النور يوم ضمت فرنسا اليها جزيرته كورسيكا . ودخل في العام ١٧٨٤ المدرسة الحربية ، فتخرج منها ملازماً وهو في السادسة عشرة من سنيه ، فالتحق بكردوس المدفعية في « فالانس » . وما ان عصفت ريح الثورة ١٧٨٩ حتى اعتنق بونابرت المبادىء الجديدة ، ورقي

الى رتبة رئيس (كابتن) في المدفعية . وفي لوائل العام ١٧٩٢ انتقل الى باريس وشهد من كثب التطورات السياسية والانقلاب الاجتماعي الخطير ، ثم زار مسقط رأسه زيارة قصيرة غادر بعدها كورسيكا وقد آلى على نفسه ان يعتزل المجتمع مدة من الزمن يتاح له خلالها ان ينشىء نفسه بنفسه ، سياسياً وعسكرياً .

وقد صرف بونابرت سنة وبعض السنة في قراءة « ابوقراط » و « شيشرون » و « مونتانيه » و « مونتسكيو » فدلل بهذا على ميله الى تقديم شؤون الحكم والسياسة على العمليات العسكرية .

ومن ثم انصرف الى دراسة اشهر مواقع التاريخ ، فاكب على قراءة النقاد العسكريين في القرن الثامن عشر ، وعني عناية خاصة بدرس حملات « تورين » وفردريك الكبير . ولم يغفل فتوحات يوليوس قيصر و « هنيبعل » واسكندر المقدوني .

خرج بونابرت من عزلته ليقود فوجاً مدفعياً في قطاع البحر المتوسط ، وكان الفرنسيون يهمون بـ « طولون » محاولين انتزاعها عنوة من ايدي الانكليز . واتفق ان قتل قائد المدفعية بعد وصول بونابرت بايام ، فوقع عليه اختيار « ساليسيتي » ممثل الشعب لدى الجيش الفرنسي للحلول محل القائد الجريح ورقي للمناسبة الى رتبة عقيد (ليوتنان كولونيل) .

ادرك القائد الشاب للوهلة الاولى ان اخذ « طولون » عنوة ليس بالمهمة السهلة فنصح للقيادة العامة بان تسعى الى احتلال شبه جزيرة « ايغيليت » التي تفصل بين المرسى الصغير والمرسى الكبير ، حتى اذا تم لها ذلك نصبت بطارياتها في شبه الجزيرة مهددة بها الطريق الوحيد لانسحاب الاسطول المعادي ، فيضطر الانكليز للجلاء عن المرسيين . وقد عملت القيادة بنصيحة القائد

الشاب ، وترتب على العمل بها جلاء الانكليز عن « طولون » .

وبعد تحرير « طولون » رقي الى رتبة لواء ، والحق باركان حرب الجنرال « دومربيون » قائد الجيش الفرنسي في ايطاليا . فعهد اليه رئيسه بقيادة لواء المدفعية واعترف في تقاريره الى الرؤساء بانه مدين بانتصاراته لخطط بونابرت الجريئة .

وبعد حوادث ٩ « ترميدور » عين مديراً لمكتب الخرائط في « لجنة السلامة العامة » ، فوضع عدة مذكرات طواها على وجهة نظره في ادارة الجيش الفرنسي في ايطاليا ، فاعجب الرؤساء بآرائه وانتدبوه لقيادة الجيش المذكور كما تقدم معنا .

وقد اكتشف نابوليون من خلال الحملة الايطالية ضعف الحكومة وعجزها عن فرض ارادتها عليه ، الا انه آثر ، رغم هذا ، ان ينتظر الظروف المواتية لاستغلال نجاحه كقائد وكسياسي . ولم يفته ، عندما وافقت حكومة المديرين (دير كتوار) على ارسال حملة بقيادته الى مصر ، ان الرؤساء يريدون الخلاص منه ، وانهم تعمدوا التطويح بشهرته ونفوذه في مغامرة خاسرة . وقد رأيناه يعود من مصر اشد شكيمة منه بعد عودته ظافراً من ايطاليا .

حوادث برومير والجيش . — وجد نابوليون البلاد تتخبط في بحران من القلق والفوضى وعدم الاستقرار . وكان « سييس » يبحث عن قائد كفؤ بعد ان فجعت فرنسا بـ « هوش » المع قادتها الشباب وابعدهم نظراً ، وبعد ان خيبت املها هزيمة « جوبير » في « نوفي » . وقبل وصول نابوليون ولي « مورو » القيادة العامة ، وكان الجمهور يعده من قادة الدرجة الاولى ، ولكنه لم ينزل نفسه هذه المنزلة ، فما ان وطئت قدما الكورسيكي الارض الفرنسية حتى

وضع « مورو » استقالته تحت تصرف « سييس » وقال له ان نابوليون بونابرت هو رجل الساعة .

وقد كان ، وجاءت حوادث ١٨ « برومير » فاذا نابوليون رجل الساعة سياسياً وعسكرياً ، فرض نفسه قنصلاً اول ، وطفق يسعى الى استمالة جيش الشمال بعد ان جعلت منه انتصارات ايطاليا معبود القوات التي عملت تحت امرته . ولكن « مورو » الذي تخلى له عن مركزه مختاراً راح يعمل ضده في ثكنات الشمال ، ويغذي الميول الجمهورية في قطعات الجيش . فادرك نابوليون ان سبيله الوحيد الى غزو قلوب المجندين هو احراز انتصارات جديدة .

مارنغو . — كانت فرنسا تواقة الى الاستقرار في الداخل والى السلم في الخارج ، فنجح نابوليون في القضاء على بواعث الفوضى والتذمر . اما السلم فقد اراده الشعب الفرنسي مشرّفاً ، يقر الحدود الطبيعية التي امنتهـا الثورة (الضفة اليسرى لنهر الرين وبلجيكا) . ولكن انكلترا لم تنظر بعين الرضى الى وجود الفرنسيين في « انفرس » ، فرفضت عروض الصلح الفرنسية وحملت النمسا على رفضها ، فادرك الشعب الفرنسي ان لا مفر من الحرب ، فمشى وراء رئيسه يدعمه بكل قواه .

كان على نابوليون ان ينظم الجيش تنظيماً يجعل منه اداة صالحة لكسب الحرب ، ودعامة يستند اليها في السعي الى ربح السلم . فعين الجنرال « برتيه » ، رئيس اركان حربه في ايطاليا ومصر ، وزيراً للحربية (حل كارنو محل برتيه بعد تعيين الجنرال في ايطاليا) . وكان الجيش الفرنسي يضم ربع مليون مقاتل ، فعززه نابوليون بدعوة مئة الف فرنسي الى حمل السلاح ، وبحض المواطنين على التطوع . ثم عمد الى اختيار القادة فوضع تحت امرة « مورو » ، رغم ما كان بينهما ، جيوش الرين وسويسرا وكانت تضم ١٣٠ الف رجل يقابلها ١٥٠

الفاً من الاعداء بقيادة الجنرال « كراي » . وعهد الى « مسينا » بقيادة جيش ايطاليا (٣٦ الف مقاتل يقابلهم ١٣٠ الفاً بقيادة ميلاس) .

وقضت خطة نابوليون بان تعبر قوات « مورو » نهر الرين سراً في منطقة « كونستانس » ثم تندفع على طريق فيينا . وفي هذه الاثناء يزحف هو ، اي نابوليون ، باربعين الف مقاتل من منطقة جنيف — ديجون وينقض على مؤخرات الجنرال « ميلاش » المواجهة لقوات « مسينا » في ايطاليا .

خاضت قوات « مسينا » غمار معارك طاحنة ضد عدو متفوق . وفي اواخر نيسان انسحبت الى «رجنوى » وراحت تستعد لحرب حصار طويلة الامد . واحجم «مورو » عن عبور الرين ظناً منه ان مجازفة نابوليون ستنتهي الى كارثة . فتركه القنصل الاول وشأنه وخف لانقاذ « مسينا » ، فاجتاز بقواته مضيق « سان برنار » بين ١٥ ايار و ٢٣ منه ، ومنه هبط الى مقاطعة ميلانو وعبر نهر بو ، وما عتم ان احتل ممر « ستراديلا » قاطعاً على القائد النمسوي خط الرجعة فاضطر للقتال في « مارانغو » حيث هزمه نابوليون شر هزيمة . فكان لهذا الانتصار وللخطط الجريئة التي ادت اليه صداها في محافل اوروبا العسكرية واثرها في تقوية معنويات الفرنسيين . وما انصرم العام ١٨٠٠ حتى كانت الجيوش الفرنسية قد هزمت اعداءها في كل مكان . وفي التاسع من شباط ١٨٠١ اعترفت معاهدة « لونفيل » بالحاق بلجيكا وضفة الرين اليسرى بالدولة الفرنسية ، وبالحماية الفرنسية لجمهوريات سويسرا وباتافيا وليغوريا والالب . واقرت الاحتلال الفرنسي للبيمونت . وفي العام التالي وقعت انكلترا على عهدة اميان .

وهكذا حقق نابوليون الاستقرار في الداخل والسلم الشريف في الخارج فغزا بانتصاراته قلوب الفرنسيين . الا انه لم ينم على الثقة ، لان اشاعة كاذبة

عن معركة « مارانغو » كادت تطيح بمركزه وسمعته ، ففتح عينيه على ما يحاك حوله . وكانت يقظته في محلها ، فقد قام خصومه بسلسلة محاولات للقضاء عليه ، منها محاولة « الاوبرا » في ١٠ تشرين الاول ومحاولة « سان نيكيز » في ٢٤ كانون الاول . ولم يخدعه الصلح مع انكلترا ، فادرك ان السلم لن يعمر طويلا ، وان فرنسا لا تستطيع ان تحتفظ بثمار جهودها الا باتحاد كلمتها وبتعبئة مواردها تعبئة دائمة . وادرك ايضاً ان الجيش هو السلم التي يمكنه ان يرقى بواسطتها الى المركز الذي يطمح اليه . فوجه الى القوى المسلحة عناية خاصة ، وراح يتقرب من الضباط والجنود ليحول دون تلاعب القادة بعواطفهم . وسن انظمة جديدة جعلت منه المهيمن الوحيد على شؤون الجيش .

٢ – الجيش الاعظم

في ايار من العام ١٨٠٣ نقضت انكلترا معاهدة « اميان » ، ولكن اوروبا رتعت في ظلال السلم عامين كاملين بعد هذه البادرة الخطرة ، لان نابوليون كان مشغولا بتحقيق مطامعه الشخصية . وما ان تم له ما كان يصبو اليه (اعتلاء العرش) حتى كانت انكلترا قد انشأت حلفاً ضده . فوقف الامبراطور حائراً لا يدري اي السبل يسلك لانقاذ فرنسا وعرشه : أيضرب حلفاء انكلترا ام يهاجمها هي في عقر دارها ؟ حزم امره ، بعد امعان الفكرة ، على اعتماد الخطة الثانية وقرر غزو الجزر البريطانية بجيش كبير . وما عتم ان حشد قوات الغزو في مرافىء المانش وامّن لها السفن اللازمة لنقلها .

الا ان عبور المانش لم يكن عمليـــة سهلة ، فالاسطول الانكليزي يسرح فيه ويمرح على هواه ، ولم يكن لفرنسا سفن حربية تمكنها منازلة العدو ، فقد اغفلت الثورة شأن الاسطول وقضت موقعة « ابو قير » على ما ورثه العهد

الجديد من العهد الملكي . وجاء اخفاق مناورة الاميرال « فلنوف » في آب ١٨٠٥ برهاناً قاطعاً على عجز فرنسا البحري ، فصرف نابوليون النظر عن غزو انكلترا وحول وجهه شطر النمسا ، فساق ضدها جيش المانش الذي صار مذ ذاك « الجيش الاعظم » .

تنظيم الجيش الاعظم . — في خريف العام ١٨٠٣ حشدت فرق ثلاث في معسكرات « مونزويل » و « بولونيه » و « بروج » بقيادة « ناي » و « صولت » و « دافو » . وحشدت قطعات اخرى في معسكرات « اوترخت » و « برست » بقيادة « مارمون » و « انجيرو » . وكان المركز الرئيسي في « بولونيه » .

نظم « الجيش الاعظم » على اساس انشاء فيالق واحتياط عام للخيالة وضم الفيلق الواحد فرقتي مشاة (واحياناً ثلاث فرق او اربعاً) وفرقة من الخيالة الخفيفة ، وراوح عدد رجاله بين ١٤ و ٤٠ الفاً . اما احتياط الخيالة فقد ضم فرقتين من الفرسان المدرعين واربع فرق من الفرسان « الدراغون » ، وفرقة « دراغون » راجلة وفرقة من الخيالة الخفيفة ، واربعاً وعشرين قطعة مدفعية ، وراوح عدد رجاله بين ٢٢ و ٢٥ الفاً بقيادة « مورا » . وقد استخدم الامبراطور هذا الاحتياط في مناوراته الناجحة ضد مؤخرات العدو .

وانشأ نابوليون الحرس الامبراطوري وجعل منه وحدة مقاتلة من الطراز الاول ، تضم ثمانية آلاف رجل منهم خمسة آلاف راجل والفا فارس يعززهم اربعة وعشرون مدفعاً . ودعي للانخراط في الحرس ضباط الصف والمحاربون القدماء الذين اشتركوا في اكثر من حملة ، وسلخوا في الخدمة اكثر من خمس سنوات . واعطي النفر في هذه الوحدة العسكرية رتبة منكب ، والمنكب رتبة رئيس مناكب ، وهذا رتبة ملازم ثان .

وقد نما الحرس الامبراطوري على كر الاعوام ، فصار يضم في العام ١٨٠٩ خمسة وعشرين الف مقاتل . وفي اثناء الحملة الروسية كان الحرس يؤلف جيشاً .

الملاكات . — كان معظم الضباط في الجيش الامبراطوري بمن سبق لهم الخدمة في الجيش الملكي كانفار او كمناكب وعرفاء . وقد تولى قيادة الكرادبس زعماء (كولونيل) شبان متوسط اعمارهم ثمانية وثلاثون عاماً . وكان المقدمون آمرو الافواج (القومندان) والرؤساء (كابتين) والملازمون الاول في سن واحدة تقريباً ، يستثنى الملازمون الذين تخرجوا من مدرسة « فونتنبلو » العسكرية (نقلت المدرسة الى سان سير ١٨٠٨) فقد كان معظمهم دون الواحدة والعشرين .

القادة . — بلغ عدد القادة (جنرالية) في العهد الجمهوري مئة وسبعين ، فخفض نابوليون بونابوت ، وهو بعد قنصل اول ، عددهم الى سبعة وثلاثين . وفي العام ١٨٠٥ كان اصغر القادة سناً في الجيش الاعظم دون الثلاثين من سنيه وكان اكبرهم سناً في الرابعة والخمسين .

وكانت حكومة الثورة قد الغت عصا المارشالية فاصدر نابوليون في العام ١٨٠٤ مرسوماً باعادة هذه الرتبة وجعل عدد مارشالية الامبراطورية ثمانية عشر . وقد سلم عصـــا المارشالية الى « كيلرمان » و « بيرينيون » و « سيروروبه » و « جوردان » مكافأة لهم على خدمات سابقة ، وانعم بالرتبة نفسها على «بيسير» وبونادوت لاعتبارات سياسية وعاطفية . اما سائر المارشالية فقد استحقوا هذه الرتبة بشجاعتهم ومواهبهم . فقد كان بوتيه القائد « الذي لا يمكن ان يتم شيء بدونه » ، وكان مورا « اقدر من يتولى الاجهاز على العدو واستثمار النجاح المبدئي » ، اما « ناي » فهو « اشجع الشجعان وفارس الميدان » ، وكانت

ا.ه مسينا» «مواهب عسكرية تجعل منه قائداً فذاً» . ولا ننس «انجيرو» ولوفيفر «الممتلئين حمية واخلاصاً» و«لان» و«صولت» و«دافو» و«ماكدونالد» و«مورتيه» و«مونسي» و«برون» ، اساتذة فن المناورة في الجيش الاعظم .

كان «برتيه» اكبرهم سناً في العقد الخامس ، اما اصغرهم سناً فهو «دافو» وقد تسلم العصا من الامبراطور وهو في الثالثة والثلاثين .

الاسلحة . — كان سلاح المشاة الرئيسي في الجيش الاعظم بندقية طويلة اثبتت في مقدمها حربة ، مدى اطلاقها مئتا متر . كان الجندي يحمل في وسطه خمسين فشكة ، وكان عليه ان يفرغ محتويات الانابيب النحاسية من البارود في فوهة البندقية ، ثم يتبع بها الرصاص ، جاعلاً الفاصل بينهما خرقة من قماش او وريقة . اما الحربة فقد كانت قصيرة وسريعة العطب . لهذا قلما استخدمها المشاة في الالتحامات ، بل كانوا ينقضون على العدو بسيوف قصيرة ذات حدين .

وقد عني الامبراطور عناية خاصة بالخيالة لانه ادرك اهميتها في المناورة وحرب الحركات ، فجهز الوحدات المدرعة ، وكانت مهمتها شن حملات صاعقة على العدو ، بدروع لا يؤثر فيها الرصاص ، وبخوذ خفيفة ولكنها متينة . اما «الدراغون» المشاة فقد سلحوا ببنادق كالتي سلح بها المشاة العاديون ، وظل معظمهم راجلاً لتعذر الحصول على العدد اللازم من الجياد . اما «الدراغون» الفرسان فقد كان سلاحهم السيف الاحدب والقرابينة . وبعد الالتحامات الاولى مع الفرسان القوزاق جهزت الخيالة الخفيفة بالحراب .

واولى نابوليون المدفعية جانباً كبيراً من اهتمامه وعنايته وهو بعد فتى ايول . وعلى اثر تتويجه لامبراطوراً اعاد تنظيمها فضمت ثمانية كراديس مشاة وستة كراديس خيالة وعشرة افواج للنقل . وقد اتخذ سلاح المدفعية

بالنمو فبلغ عدد رجاله سنة ١٨١٣، اثنين وثمانين الفاً .

واعتمد « الجيش الاعظم » في المعارك التي خاض غمراتها مدافع من طراز « غريبوفال » التي مهر بمثلها الجيش الملكي ، واستخدم منها في « اوسترليتز » و « واغرام » و« درسدن » مدافع الميدان ذات المدى البعيد (٣٠٠٠ متر) . كان المدفع يطلق مرتين في الدقيقة فبلغ عدد المقذوفات التي اطلقتها المدفعية الفرنسية في موقعة « واغرام » ٩٦ الفاً ، وكانت تضرب اهدافها من مسافة ستمئة متر وتجتهد في ان تأتي اعمالها منسجمة وحركات الخيالة والمشاة .

المعنويات . — كان الامبراطور شديد الحرص على رفع معنويات جنوده ، وقد وجد في الاستعراضات الفخمة احدى الوسائل القمينة بتحقيق هذا الغرض لانها تتيح له ان يبهر عيون مرؤوسيه بمظاهر الابهة ، كما تتيح للضباط والجنود ان يعجبوا بنفوسهم وهم يسيرون وسط جماهير النظارة ببزاتهم الانيقة واسلحتهم البراقة .

في الخامس عشر من آب ١٨٠٤ تسلم « الجيش الاعظم » من يد الامبراطور صليب جوقة الشرف في احتفال عسكري مهيب . وقف الامبراطور على منصة وسط سرادق كبير زين بالاعلام والرايات التي غنمها الفرنسيون من العدو ، واصطفت الفيالق مقابل السرادق . ثم تقدم مستحقو الوسام الرفيع من المنصة ، وبعد ان اقسموا يمين الولاء سلم اليهم الامبراطور الاوسمة وكانت موضوعة في خوذة « دوغيكلان » ودرع « بايار » وزرد فرنسوا الاول . وبعد انتهاء حفلة توزيع الاوسمة مر الجيش امام نابوليون بنظام بديع .

تحرك الجيش الاعظم . — ترك « الجيش الاعظم » المعسكرات الساحلية في آب ١٨٠٥ ، وقد تمت هذه الحركة سراً وبنظام تام ، مع ان القوات

الزاحفة كانت تتألف من سبعة فيالق بقيادة المرشالية « برنادوت » و « مارمون » و « دافو » و « صولت » و « ناي » و « انجيرو » و « مورا » . وبعد مسير عشرين يوماً وصل « الجيش الاعظم » الى الرين بينما كان الحلفاء يرسمون خططهم . وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان الفيالق السبعة لم تذق طعم الراحة خلال الايام العشرين ، وان الضباط والجنود قطعوا المسافة الطويلة بين برست والرين دون ان يرتفع صوت واحد بالتذمر والشكوى . ذلك بان روح التنافس بين الكراديس كان على اشده ، وكانت الرغبة في ارضاء الامبراطور ونيل حظوة في عينيه تستحث خطى الكهول وذوي البنية النحيفة من الشبان .

يضاف الى هذا ان نابوليون كان محرضاً بارعاً وعالماً باهواء النفس من الطراز الاول . كان يعلم ان الجندي لا يحتاج الى اكثر من كلمة لطيفة وابتسامة وربتة على الكتف لينسى تعبه ، ويطوح بنفسه في مهاوي التهلكة تنفيذاً لاوامر الرؤساء ، لهذا ما كان ليضن عليهم بالعطف ، فيتفقد احوالهم وبوآكلهم ويتحدث اليهم ببساطة .

٣ – الفن الحربي

عبر « الجيش الاعظم » نهر الرين في الخامس والعشرين من ايلول ١٨٠٥ . وفي السادس من تشرين الاول سيطرت الطلائع على ممرات « ليخ » وراء مؤخرة جيش القائد « ماك » الذي كان يقاتل حول « اولم » . وبعد اربعة عشر يوماً تراجع الجيش النمسوي امام نابوليون . وقد غطى هذا الانتصار السريع هزيمة الاسطول الفرنسي في الطرف الاغر حيث سجلت انكلترا ربحها الاول في صراع طويل ، عنيف . وعقب تغلب الجيش الاعظم في « اولم » انتصاراته الرائعة في « اوسترليتز » و « يينا » و « ايلو » و « فريدلند » و « ايسلنغ » ، فبلغ نابوليون قمة المجد وبلغ فنه العسكري الذروة .

الرجل والفن . – يحسن بنا ان نقف قليلاً عند الرجل الذي دوخ اوروبا وكادت فتوحاته تغير خريطة العالم .

كان نابوليون قوي الارادة ، ذكياً ، سريع الخاطر ، نافذ البصر والبصيرة ، لا يفوته من الامور صغيرها وكبيرها . يفكر ملياً في ما هو مقدم عليه ، على ما حباه الله من مواهب وعلى ما حصّل هو من معرفة . وقد قال مرة لاحد السفراء : « اني اعمل عشرين ساعة في اليوم لاني لا ارتجل تدابيري ارتجالا ، فانا عندما انصرف الى وضع خططي اجاهد جهاد من يتسلق مرتفعاً وقد بهظ كاهله عبء ثقيل ، واحس احياناً الاوجاع التي تحسها صبية فاجأها المخاض . ولكن هذا كله يزول حالما احزم امري على عمل بعد ان اكون قد رسمت له الخطة اللازمة ، وعندها احشد قوى عقلي كافة واستخدمها في تدبر العناصر وتأمين العوامل التي تكفل نجاح خطتي . »

ولنابوليون في فن القيادة وفي الحرب ، كعلم وكفن ، آراء تبدو متناقضة للوهلة الاولى . فقد كتب في جزيرة « القديسة هيلانة » يقول : « ليس للحرب قواعد معينة ، فالاخفاق او النجاح يتوقف على عوامل شتى ، منها سجية القائد وحالة الجيش وطبيعة الارض والاحوال الجوية . » وكان قد كتب لاحدى المناسبات يقول : « الحرب فن ذو قواعد لا تتبدل ، لهذا ينبغي للقادة ان يسترشدوا بالمبادىء المقررة لان القضاء والقدر لا يكفلان نجاح العملية الحربية . » قلنا انها آراء تبدو متناقضة للوهلة الاولى ، وقد اثبت نابوليون بتصرفاته كقائد انه قبس من مطالعاته ودروسه مبادىء معينة وعمل على توضيحها وطبقها بنجاح في حملاته الاولى . الا ان هذه المبادىء فقدت قيمتها شيئاً فشيئاً تبعاً لتطور فن القتال . وتعلم الامبراطور على حسابه ان الجيش الذي ساقه لاخضاع روسيا هو غير الجيش الذي هزم العدو في « اولم » .

و« اوسترليتز » . لهذا رأيناه يكتب في جزيرة القديسة هيلانة : « انه ليس للحرب قواعد معينة . »

كانت « الاستراتيجيا » النابوليونية تقوم على السعي الى صعق العدو بتدابير جريئة تتركه في حيرة من امره ، وترغمه على القتال في احوال غير ملائمة . وللقضاء على معنويات الخصم اعتمد الامبراطور عناصر لا يمكن تحقق هذا الغرض بدونها ، وهي كتمان الاستعدادات الهجومية ، ودقة التنفيذ ، والوصول بسرعة الى خط مواصلات العدو ، للحؤول دون افلاته ولارغامه على القتال . ولبلوغ هذا الهدف كان يطوق بجيشه ساحة العمليات مهما تكن واسعة . وهو تكتيك ينطوي على مخاطر ما كان نابوليون ليغفل عنها . منها ان مواصلاته تصبح عرضة للخطر ، وهو محذور كان يتلافاه بانشاء « مراكز للعمليات » في نقاط معينة بحيث يكون كل شيء في متناول الجيش فلا يتأثر بسيطرة العدو على خطوط تموينه الاصلية . ومنها ان العدو المتجمع يستطيع ان يشن هجوماً مركزاً على نقطة ضعيفة في الجهاز الفرنسي الواسع الانتشار ، ليشق لنفسه طريقاً . وقد كان يتفادى هذا المحذور باطلاق الدوريات تستطلع له احوال الخصم وحركاته ، حتى اذا لاحت منه بادرة خطرة اسرع نابوليون الى القضاء عليها وهي بعد في مستهلها .

والمعركة عند نابوليون تتكيف تبعاً للمناورة . فاذا وقف العدو ازاء حركات الجيش الامبراطوري جامداً ، متردداً ، عمد الفرنسيون الى تطويقه كما حدث في « اولم » . وان هو نهد لمجابهة الجيش المناور دارت بينهما رحى معركة حاسمة على اساس « الجبهة المقلوبة » اي ان الفرنسيين ينازلون العدو على خط تراجعه كما حدث في « مارانغو » . وعلى الجملة ، لا يمكن ، عند درس معارك نابوليون ، تبين الحد الفاصل بين نهاية الاستراتيجيا ، وهي فن قيادة

الجيش حتى يصل الى العدو ، وبين بدء التكتيك ، وهو فن نشر الجيش واستخدامه في ساحة القتال .

كانت المعركة النابوليونية تجتاز مراحل اربعاً : فتبدأ بهجوم جبهي للتعرف الى قوى الخصم ، ثم تليها حركة التفاف الغرض منها ارغام الخصم على الانتشار لاتقاء الخطر وعلى الاستنجاد باحتياطه . وبعد هذا تضغط القوات الرئيسية على نقطة الضعف في جهاز العدو . واخيراً تبدأ المطاردة ، بعد ان يكون هجوم القوات الرئيسية قد فتح فجوة في الصفوف المعادية .

في الهجوم الجبهي كان الامبراطور يضحي بالقليل من الرجال ينطلقون من نقاط ارتكازية قوية ، وقلما اتبعهم بنجدات لان عمليتهم الهجومية غير اساسية . وكان يقوم بعملية الالتفاف الفرسان غير المدرعين . اما الهجوم الرئيسي فيتولاه الفرسان المدرعون والمشاة ، ويسبق الهجوم تمهيد من جانب المدفعية . فاذا فتح المهاجمون الفجوة المطلوبة في الجهاز المعادي حمل الجيش كله على العدو وانطلقت الخيالة في الطليعة .

وقد لخص الجنرال « ويغان » تكتيك نابوليون الهجومي بما يلي : « كان الامبراطور يستخدم في العمليات الثانوية قوات محدودة ، وفي الهجوم الرئيسي معظم القوات العاملة ، وفي الهجوم الحاسم والمطاردة الجيش العامل مضافاً اليه الاحتياط . وكان اذا ألفى نفسه امام عدو متفوق ، يجتهد في تجميد اكبر عدد ممكن من جنود الخصم بمناورات يقوم بها اصغر عدد ممكن من جنوده هو ، على ان ينقضّ بقواته الرئيسية على القوات المعادية ، حتى اذا تم له سحقها ارتد على العناصر الاولى . »

التنفيذ . — من اقوال نابوليون في الحرب انها فن بسيط اذا اقترنت خططه بالتنفيذ . وقد تجلت مواهبه في التنفيذ تجليها في التصميم .

كان يثق باخلاص معاونيه وشجاعتهم وخبرتهم . الا انه كان يقيدهم بتعليماته فلا يتيح للواحد منهم فرصة يبرز فيها مهارته وبداهته في المناورة . وككل قائد معتد بنفسه كان ينفرد بالتصميم ، ويحتفظ لنفسه بدقائق الخطط التنفيذية ، غير مستخدم الوسطاء الا في حالات استثنائية ، مبالغة منه في كتمان مشروعاته . ففي مستهل الحملة كان يوجه الى القادة البعيدين عن مقره رسائل شخصية . اما القريبون من المقر ، فقد كان يعهد الى المارشال « برتيه » بمهمة ابلاغهم اوامره . وقبل المعركة كان يجمع القادة ويشرح لهم خطته ، ثم يجتهد في التعرف الى الارض وفي اختيار النقطة التي يمكنه ان يتتبع منها تطور القتال ليبادر الى استثمار « الحدث » ، وهو هنا نجاح حركة الالتفاف . وفي اليوم التالي يطوف الميدان ليقف بنفسه على اهمية الخسائر وعلى الاغلاط المرتكبة .

كان المقر العام يشتمل على غرفة الامبراطور العسكرية ، وعلى هيئة اركان الحرب العامة . فموظفو الغرفة العسكرية هم امناء السر والمرافقون والقادة المعاونون . وقد مثل هؤلاء دوراً رئيسياً في فتوحات نابوليون واشتهر منهم القادة « جونو » و « كافاريلي » و « موتون » و « راب » و « لوريستون » و « سافاري » و « لوبران » و « دربو » و « لوجون » . اما الاركان العامة فقد كان رئيسها المارشال « برتيه » يتولى تعميم اوامر الامبراطور وتعليماته ، ويشرف على اعمال الدوائر التي كانت مهمتها لا تختلف كثيراً عن المهام المنوطة في الجيش الفرنسي الحديث بالمكاتب الاربعة ، اي ان منها دائرة مهمتها تنظيم حركات الجيش ، وثانية نيط بها تنظيم النقل والتموين ، وثالثة ادارة العمليات وفاقاً لتعليمات نابوليون ، ورابعة وقفت نشاطها على الاستخبارات وعلى تأمين النظام في الجيش . وكان هناك هيئتا اركان حرب للمدفعية والهندسة تعودان في شؤونهما الى الامبراطور من طريق المارشال « برتيه » .

٤ – حروب نابوليون

الحملات الاولى . – يقول الكولونيل « ريفول » في كتابه « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الحملة الايطالية هي رائعة نابوليون . ففيها ملك ناصية الفن وحدد للاستراتيجيا الحديثة قواعدها : اقتصاد في القوى ، واعتماد المفاجأة عنصراً اساسياً في القتال ، وتهديد مواصلات العدو بمناورات التفافية جريئة . بيد ان الجيش الذي القيت اليه مقاليده في ايطاليا لم يكن في حالة يمكن قائده معها ان يناور ويتوسع في تطبيق خططه التكتيكية .

في مصر حجب السياسي الماهر والاداري الذي لا يجارى في نابوليون رجل الحرب الحري بالاعجاب . ثم كانت معركة « مارانغو » فمهد لها بمناورة استراتيجية جريئة ، ولكنها كادت تنتهي بهزيمة لولا القائد « دوزيكس » . وقد اعترف الامبراطور في مذكراته بانه اتكل كثيراً على نجمه في حملاته الاولى وان الحظ مشى في ركابه حتى في المجازفات التي لا يقرها فن الاستراتيجيا والتكتيك .

الحملات الكلاسيكية . – زخرت معركتا « يينا » و « اوسترليتز » بالدروس والابتكارات . ولكن النقاد العسكريين عنوا بدرس المعركة الاولى لان مواهب نابوليون العسكرية تجلت فيها باجلى مظاهرها . اما « اوسترليتز » فقد ربحها دون كبير عناء لان جواسيسه كانوا يوافونه ساعة بعد اخرى باخبار العدو وحركاته ، فيبني خططه على هذه المعلومات . يضاف الى هذا ان قادة الجيوش المتحالفة كانوا اقزاماً ازاء العملاق الفرنسي ، فكان يلاعب « ماك » المتردد ، و « كوتوزوف » الشيخ المتهدم ، والامبراطور اسكندر الجسور حتى التهور ، ملاعبة الهر للفأر . ولا يلقى اي صعوبة في احباط خططهم وفي ايقاعهم في حبائله .

في « يينا » تلاقى « الجيش الاعظم » والجيش الروسي الذي جرحت كبرياءه هزيمة اوسترليتز ، فحزم امره في ايلول ١٨٠٦ واجتاح « الساكس » . وكان الجيش الفرنسي معسكراً في المانيا الجنوبية فحشده نابوليون بين « مايانس » و« وامبرغ » وفي نيته ان يزحف الى برلين ابتداء من « بامبرغ » . وكانت خطة البروسيين تقضي بالزحف من « ارفور » الى « ورزبورغ » وقطع مواصلات الفرنسيين .

عزا نابوليون الى العدو خطة معقولة ، وهي التجمع وراء نهر « الايلب » بانتظار وصول حلفائه الروس ، ولكنه لم يجزم امره على خطة معينة ريثما يحمل اليه رجاله الخبر اليقين . فعرف في ٢٩ ايلول ١٨٠٦ ان البروسيين يحتشدون حول « ارفور » فقرر حشد قواته كلها حيث كانت تحتشد ميمنته تاركاً البقعة الواقعة بين الرين و « بامبرغ » مكشوفة . وقد صرح لقادة جيشه في ٣٠ ايلول بان نجاح مناورته تترتب عليه نتائج عظيمة الشأن لان العدو سيحاول اللف حول الميسرة الفرنسية اعتقاداً منه انها تستند الى نهر الرين ، وعندها يكر الفرنسيون ويقذفون به الى ما وراء النهر .

ولكن البروسيين لم يحركوا ساكنا . فبدأ الجيش الامبراطوري زحفه شمالا بشرق على النحو التالي : تقدمت الميسرة بقيادة المارشالين « لان » و « انجيرو » مارة بـ « كوبورغ » و « سالفيلد » ، ومشى القلب بقيادة المارشالين « برنادوت » و« دافو » بدعمه احتياط الخيالة ، ماراً بكروسناخ وشليز ، واتجهت الميمنة بقيادة المارشالين « ناي » و« صولت » نحو هوف و « بلوين » .

وفي العاشر من تشرين الاول قرر نابوليون الاسراع في العمل قبل وصول الروس عبر سيليزيا ، وكان الجيش البروسي يقف متردداً امام طرق ثلاث : الطريق المؤدية الى « ويمار » فـ « درسدن » مارة بـ « يينا » و « جيرا » ، وهي تدنيه

من حلفائه الروس ، وطريق ويمار – لايبزيغ مارة بنومبرغ ومنها الى درسدن او برلين وطريق ماجدبورغ مارة بسوميردا .

حشد الامبراطور قواته الرئيسية بشكل نصف دائرة وعهد الى قوات « دافو » بالاندفاع نحو طريقين من طرق التراجع المعادية ، على ان تدعمها خيالة « مورا » وتظل متصلة بالقوات الرئيسية بواسطة قوات « برنادوت » ، فاذا التقت القوات الثانوية الجيش البروسي شغلته ريثما تصل القوات الرئيسية . اما اذا تصدى البروسيون للجيش المنتشر بشكل قوس فتكون قوات « دافو » في وضع يتيح لها المناورة واللف حول الاعداء .

ولم ينتظر نابوليون تحرك العدو ليتبين اتجاهه فزحف بقواته الرئيسية الى « ويمار » بطريق « يينا » بينما كانت قوات « دافو » تقطع طرق الشرق . وانتهى اليه في ١٣ تشرين الاول ان البروسيين يحاولون التراجع نحو ماجدبورغ ، فعجل الخطى في اندفاعه نحو « يينا » وامر « دافو » و « برنادوت » بالزحف الى « ويمار » . ولكن البروسيين غيروا خطتهم في اللحظة الاخيرة وحولوا وجوههم شطر الشرق في محاولتهم الافلات . وقضت الخطة الجديدة بان يعمل جيش الجنرال « هوهنلوخ » على تغطية القوات الرئيسية الموضوعة تحت امرة « برنسويك » ، وان يحول دون وصول الفرنسيين الى « يينا » عبر نهر « سال » . فاضطر نابوليون الى مواجهة الحالة الجديدة بتدابير ادت الى ادخال تعديل يسير على الخطة الاصلية .

كان قد حشد جيشه استعداداً لمعركة يقود فيها المارشالية « انجيرو » و « لان » و « ناي » عمليات التحرش الجبهية ، ويتولى المارشالان « دافو » و « برنادوت » ادارة حركات اللف ، ويقود المارشال «صولت» الهجوم الرئيسي. اما الحرس الامبراطوري فيؤلف الاحتياط العام . وقد قضت الخطة المعدلة بان

تقف القوات الرئيسية امام جيش «هوهنلوخ» في «يينا» وظلت مهمة « انجيرو » و« لان » و « ناي » هي اياها . ولما كان « دافو » و« برنادوت » قد ابتعدا بقواتهما لتنفيذ حركة الالف عملاً بالخطة الاصلية ، فقد نيطت المهمة نفسها على الجبهة الجديدة بفرقة الجنرال « سان هيلير » التابعة لفيلق الخيالة . وبظل الهجوم الرئيسي منوطاً بالمارشال « صولت » (قائد الخيالة) بدعمه الاحتياط والحرس الامبراطوري . اما الاحتياط العام فتؤلفه قوات « برنادوت » ان هي وصلت في الوقت المناسب .

وفي ليل ١٣ ــ ١٤ تشرين الاول كانت القوات الفرنسية تحتل مراكزها على النحو التالي : انتشرت قوات المارشال « لان » والحرس الامبراطوري على التلال القائمة الى الغرب من « يينا » ، وتجمع فيلق « انجيرو » في وادي نهر « سال » ، وانتشر فيلق « ناي » عند مدخل المدينة . وبعد منتصف الليل بقليل اجتازت المدينة احدى الفرق التابعة لفيلق «صولت » وشرعت الخيالة تتحرك نحوها . وفي هذه الاثناء كان « برنادوت » بين « نوبورغ » و « دورنبورغ » . اما « دافو » فكان في « نوبورغ » .

وقبل انبلاج الصبح انتهى الى نابوليون ان الجيش البروسي ينتشر بينه وبين «ويمار » فقرر مهاجمة العدو صباح اليوم التالي . وقبل ان تتحرك قواته ارسل اليه المارشال « دافو » من ينبهه الى احتشاد قوات معادية كبيرة بين « ويمار » و « ايكارسبورغ » على طريق « نوبورغ » . وقد تبين انها قوات برنسويك (وكانت تضم ستة وخمسين الف مقاتل) كما تبين ان خمسين الف بروسي انتشروا بين « ويمار » و « يينا » بقيادة هوهنلوخ لتغطية انسحاب برنسويك .

المعركة . — في ساعة مبكرة من صباح ١٤ تشرين الاول انقض نابوليون على ميسرة هوهنلوخ . وبعد ساعة من الزمن كانت فرقتا القائدين

« سوشه » و« غازان » التابعتان لفيلق المارشال « لان » تحتلان ثلاث قرى حصينة وتحدثان ثغرة واسعة في صفوف الفيلق البروسي الذي كان يحميها . وفي الساعة التاسعة برز « صولت » الى الميدان واتصل « انجيرو » بميسرة « لان » وكان هوهنلوخ قد غير جبهته فحشد ميسرته امام بلدة « نكويتز » والميمنة في « شنيك » اما القلب فقد تجمع حول مدينة « فيرزنهيلجن » . وفي منتصف الساعة العاشرة تقدم « ناي » يحجبه الضباب بين فيلقي « لان » و « انجيرو » وانقض بثلاثة آلاف رجل على قوات « هوهنلوخ » الرئيسية في « فيرزنهيلجن » فحملت عليه الخيالة البروسية حملة قوية كادت تزجه في مأزق لولا بطولة افواجه الاربعة التي صدت هجمات العدو واستطاعت الاحتفاظ بمراكزها حتى وصل لنجدتها فيلق المارشال « لان » . وقد تمكن المارشالان (ناي ولان) من احتلال المدينة بعد معركة حامية الوطيس . وفي هذه الاثناء كان « انجيرو » و« صولت » يدفعان بميمنة العدو وميسرته الى الوراء ، فامر « هوهنلوخ » جيشه بالتقهقر . وكان نابوليون يرقب هذه البادرة من جانب البروسيين لينقض عليهم بقواته كلها .

حاولت الخيالة البروسية عبثاً تغطية عملية الانكفاء لان خيالة « مورا » كنست كل شيء في طريقها . وما انتصفت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى انقلب التقهقر البروسي هزيمة . اما جيش « برنسويك » فقد هزمه « دافو » في موقعة « اورستيدت » وبلغت خسائر البروسيين في الموقعتين ثمانين الف رجل .

٦ – التوازن يختل

خيل للامبراطور بعد انتصاره على الروس في موقعة « تيلسيت » ان السلم في القارة اضحى رهن مشيئته وانه يستطيع ان يلزم انكلترا حدودها بالقضاء عليها اقتصادياً ، ما دام لا يقوى على مهاجمتها في عقر دارها . ولكن سياسة

الحصار اقتضت ارسال حملة فرنسية الى البورتغال فاسبانيا فـادمت « اشواك » البلدين ارجل الفرنسيين ، واثخنت الجيش الامبراطوري بالجراح . فشجعت هذه المصاعب آل « هابسبورغ » على معاداة نابوليون بعد ان اطمأنوا الى حياد روسيا التي حالفت الامبراطور بعد « تيلسيت » رغبة منها في كسب الوقت واعـداد العدة للاخذ بالثأر حالما تسنح الفرصة .

هزم نابوليون النمسويين في « واغرام » فرفع هذا الانتصار معنويات جيشه . وازداد مركز فرنسا مناعة عندما صار الامبراطور الفرنسي صهراً لفرنسوا جوزيف امبراطور النمسا ، وحلت مشكلة ولاية العهد بالمولود الذي اعطي اسم « ملك روما » .

ولكن القارة ظلت تغلي كالمرجل ، لان الدبلوماسية الانكليزية تطوعت لفتح العيون « على الخطر الفرنسي المتزايد » وربطت اوروبا الناقمة على الكورسيكي بسلسلة محالفات جعلت الحرب الطريق الوحيد المؤدي الى السلم .

وفي هذه الاثناء تزايدت الحاجات العسكرية عند الامم ، وطرأ على « الجيش الاعظم » تطور مزدوج : فزاد عدده زيادة كبيرة ولم يبق جيشاً فرنسياً صرفاً .

الجيش الاعظم في خمس سنوات . — كسب نابوليون معركة اوسترليتز بسبعين الف مقاتل . وخاض غمار معركة « واغرام » بمئة وثمانين الفاً . ذلك لانه ادرك ان جودة السلاح لا تستطيع شيئاً ازاء التفوق العددي الساحق فعمد منذ سنة ١٨٠٧ الى توسيع نطاق التعبئة فشملت الشبان الذين بلغوا التاسعة عشرة والكهول الذين لم يتجاوزوا الخامسة والاربعين . وقد اقبل الفرنسيون بادىء ذي بدء على حمل السلاح « ليكون لهم شرف المساهمة في

بناء مجد فرنسا » ، ولكن خصوم الامبراطور في الداخل وعمال اعدائه في الخارج استطاعوا ان يسموا الجو ، بتنبيههم الافكار الى ان آلاف الفرنسيين يموتون في سبيل عروش تقام لاشقاء الكورسيكي واصهاره . فخمدت جذوة الحماسة في الصدور وراح الخاضعون للتجنيد يتهربون منه بشتى الوسائل والاساليب . وقد بلغ عدد المتهربين والفراريين سنة ١٨١٠ خمسين الفاً ، وارتفع سنة ١٨١١ الى ستة وستين الفاً . وقد ذكر الامبراطور في مذكراته ان الجنود الذين اتعبتهم الحروب المتواصلة كانوا يعمدون الى طعن انفسهم ابان المعركة ليصير نقلهم الى المؤخرة اسوة بجرحى المعركة .

ازداد الجيش الامبراطوري رغم ذلك كله زيادة هائلة ،لان نابوليون عمد بعد موقعة « يينا » الى الاستعانة بالاجانب من اسرى ومرتزقة . وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان الاجانب كانوا يشكلون الثلث في الجيش الذي خاض غمار موقعة « واغرام » . اما جيش الحملة الروسية فقد كان الاجانب يشكلون فيه اكثر من النصف .

يقول الجنرال دوغول في كتابه « فرنسا وجيشها » ان العناصر الاجنبية في الجيش الاعظم كانت في جملة العوامل الرئيسية التي ادت الى تفكك عرى ذلك الجيش . واوضح الجنرال ويغان في « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الجيش الامبراطوري ضم سنة ١٨١٢ ثمانية عشر كردوساً من الجنود المرتزقة ، وعشرة كراديس كان ثلث رجالها من الاجانب الذين اعطوا لقب « مواطن في الامبراطورية » . يضاف اليها قطعات مساعدة قدمتها حكومات الممالك والامارات الخاضعة للحماية الفرنسية ، كنابولي ووسفاليا ودوقية فرصوفيا والنمسا وبروسيا وبافاريا وورتمبرغ .

وقد ادى الاكثار من الاستعانة بالمحاربين الاجانب الى افقاد الجيش

الاعظم تلك الميزة التي ضمنت له الفوز قبل ان يمسي مشرع الابواب لكل راغب في الانضمام اليه ، عنيت اللحمة التي تشد افواجه الواحد الى الآخر والانسجام الذي لا ندحة عن توفره في جيش اضطلع برسالة هي اسمى من الفتح والتوسع : حمل مبادىء الثورة الى اوروبا الرازحة تحت تقاليد القرون الوسطى . وقد رد معظم مؤرخي العصر اخفاق نابوليون في روسيا الى عوامل عدة ، في رأسها تخلف الفرق الاجنبية كلما اقتضى الامر عملاً بطولياً ، وبطؤها في التنفيذ في الحالات العادية . ولم يشذ عن هذه القاعدة الا القطعات البولونية التي ضربت اروع الامثلة في التضحية ونكران الذات .

٥ – النهاية

جيش ١٨١٣ . – في كانون الثاني ١٨١٣ لم يكن باقياً من الجيش الاعظم الذي عبر نهر « نيمن » قبل ستة اشهر ، سوى فلول ضئيلة الشأن . فمن فيلق المارشال « دافو » الذي كان يضم ٦٦٣٤٥ ضابطاً وجندياً لم يبق صالحاً للخدمة سوى ٢٢٨٠ رجلاً . وقس على هذا سائر الفيالق . وقد اعتبر نابوليون بالحوادث فقرر العمل على انهاض فرنسا المنهوكة ، ونهج خطة سلمية ازاء الدول الاوروبية كافة . ولكن انكلترا نفخت في بوق الثورة في كل مكان . وعرفت كيف تهيء الجو لحرب جديدة تجر اليها فرنسا قبل ان تجدد قواها وتشحذ همتها . واشتم الامبراطور رائحة الخطر فارتجل جيشاً جديداً في اربعة اشهر ، محملاً الامة تضحيات باهظة : دعوة طبقات ١٨١٣ – ١٨١٤ والذين لم يجندوا من طبقات السنوات السابقة ، سحب عدة افواج من جنود البحر لضمها الى الجيش البري ، ترقية مئات العرفاء الى ملازم ثان ، ملء الفراغ الذي احدثته الحملة الروسية في صفوف الضباط .

وقد تبرم الفرنسيون بهذه التضحيات واعربوا عن نقمتهم بالتهرب من

الخدمة فبلغ عدد المتخلفين في بعض الاقاليم خمسة واربعين بالمئة ، وهوجم رجال الدرك في اقاليم اخرى وقتل مئات منهم برصاص المتمردين . فكان هذا نذيراً بعجز فرنسا عن مواجهة اعدائها بروح ١٨٠٦ وايمان اوسترليتز وواغرام .

ارتجل نابوليون الجيش الجديد ارتجالا وامر بتدريب المشاة على تشكيل المربعات بسرعة ، ليتسنى لها ان تواجه حملات الخيالة المعادية ، بعد ان تعذر ارتجال هذا السلاح الذي كان العنصر الرئيسي في حروب الامبراطور السابقة . اما المدفعية فقد وجدت في جنود البحر مدفعيين مجربين . وعني نابوليون بتعزيزها عناية خاصة على امل ان تسد ثغرة في الفراغ الكبير الذي احدثه انعدام الخيالة .

وقد تم بعث الجيش الاعظم في بضعة شهور ، فضم اثني عشر فيلقاً ، منها ثلاثة فيالق بولونية وساكسونية وبافارية . وفي ١٥ نيسان ١٨١٣ غادر الامبراطور باريس في طلب العدو بعد ان عين مجلس وصاية . وبعد اسبوعين ادرك الجيوش المتحالفة في « لوتزن » وهزمها شر هزيمة ، ولكن الفوز كلفه غالياً فقتل من رجاله خلق كثير وفقد في المارشال « بيسير » قائداً نابغاً . وفي موقعة « بوتزن » لاحظ نابوليون على جنوده امارات العياء وعلى معاونيه دلائل اليأس ، وسمع فريقاً منهم يقول على اثر مصرع المارشال « دوروبك » : « يا لها حرباً جشعة ! انها ستبلعنا جميعاً ! » وما ان انصرم شهر ايار حتى كانت معنويات الجيش قد انهارت ، فتدارك الامبراطور الموقف بتوقيعه على هدنة موقوتة (هدنة بليسوتيز) وكان يرجو ان يتيح له وقف القتال التفاهم والنمسا ، وانشاء فيلق خيالة وتقوية الحرس الامبراطوري بعناصر يختارها من كراديس المشاة . وقد عارض وزير الحربية والقادة في تحميل الامة اعباء

اضافية عندما خطر لنابوليون دعوة طبقات جديدة . ولفت المارشال « ناي » مولاه الى ضرورة العناية بصحة الجنود وتوفير الغذاء لهم قبل التفكير بتعبئة جنود جدد .

وما استؤنف القتال حتى كان الجيش الامبراطوري قد عزز بثمانين الفاً من رجال الحرس وبفيلق خيالة . ولكن الحلفاء استطاعوا جر النمسا الى معسكرهم . وبدأ الفرنسيون القتال بداية حسنة فهزموا « بلوخر » ودفعوا به الى ما وراء حدود سيليزيا . وسحقوا جيش « شوارنبرغ » في درسدن حيث تميز القائدان « غوفيون سان سير » و « مورا » باعمال بطولية خارقة .

كانت هذه الانتصارات الحلقة الاخيرة في السلسلة التي كادت تنفرط في روسيا . وبعد ثلاثة ايام بدل الحظ معسكره ، فهزم الحلفاء جيش « فاندام » في كولم واسروا القائد ، ثم توالت الهزائم ، فتغلب العدو على « اودينو » في موقعة « غروس بيرين » وعلى مكدونالد في « كاتباخ » وناي في « دنويتز » . وقد لفت القائدان الامبراطور الى انهيار معنويات الجنود ونصحا له بطلب الصلح لان النظام صار معدوماً في الجيش .

وقبل موقعة لايبزيغ بيومين دعا نابوليون قادة الفيالق الى مؤتمر عسكري وعرض عليهم خطة جريئة للف حول برلين ، فانتقدوها صراحة ، وكان المارشال انجيرو في رأس المعارضين ، فقال الامبراطور : « من يسمعك الان لا يصدق انه امام انجيرو معركة كاستليوني » ، فاجاب المارشال : « اعود انجيرو كاستليوني اذا رددت الي جنود الحملة الايطالية . »

كان الجيش الامبراطوري في الساكس يضم ٥٥٠ الف رجل ثلثهم من الساكسونيين والبافاريين وابناء امارات باد وورتمبرغ وهيس . وقد خاض نابوليون غمار « معركة الامم » في لايبزيغ مفتقراً الى العدد والعتاد والثقة .

وما ان دخل القتال في طور جدي حتى انتقل الساكسونيون الى المعسكر الآخر وحذا حذوهم كراديس اجنبية اخرى . فامر الامبراطور قواته بالتقهقر الى ضفة نهر « سال » ، تحمي تقهقرها قوات الحرس الجديد بقيادة المارشال « اودينو » . ولم يسلم من الجيش الاعظم سوى مئة الف رجل ترك نصفهم سلاحه في ساحة القتال .

معركة فرنسا . ـ عمد الامبراطور الى انشاء جيش جديد فور عودته الى باريس . فدعا في تشرين الاول ١٨١٣ مئة وستين الفاً من طبقة ١٨١٥ و ١٢٠ الفاً من طبقات السنوات السابقة . وفي اول كانون الاول كان عدد الذين شملتهم التعبئة تسعمئة الف رجل . ولكن التدريب لم يشمل سوى مئتي الف مجند لم يشترك منهم في معارك الميدان سوى النصف .

وفي ٣١ كانون الاول عبر الحلفاء نهر الرين بثلاثمئة وخمسين الف مقاتل اجتاحوا فرنسا بموجتين رئيسيتين ، اندفعت احداهما في وادي « المارن » والاخرى في وادي « الاوب » و « السين » . كان على نابوليون ان يواجه المجتاحين الاقوياء بوسائله الضعيفة ، فاستنجد عبقريته المبدعة . فاوحت اليه ان يحاول وقف احدى الدفعتين الحليفتين بقوى خفيفة ترتكز على مجاري الانهر ، على ان تهاجم قواته الرئيسية الموجة الاخرى . وقد افلحت خطته خلال ثلاثة اشهر في الحؤول دون اتصال الموجتين . وفي نهاية الشهر الثالث ادرك عقم المقاومة فامر قواته بالتقهقر حتى العاصمة .

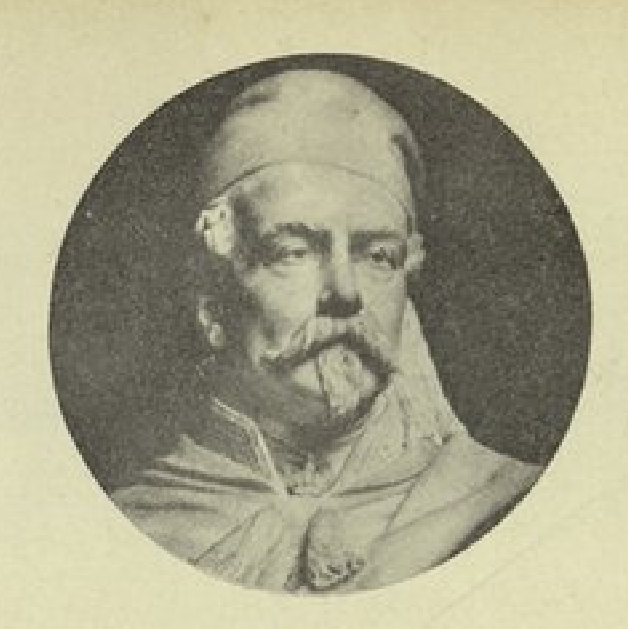
وقد اجمع مؤرخو العصر على القول ان نابوليون جمد الحلفاء ثلاثة اشهر في اودية « المارن » و« الاوب » و« السين » بقوات فرنسية بحت ، خرجت الى لقاء العدو قبل ان تستكمل تدريبها ، فضربت في الميدان اروع الامثلة في الشجاعة والتضحية والاخلاص . وهو ما افتقر اليه الرؤساء الذين ارغموا

نابوليون على اعتزال العرش . ولكنه ظل عظيماً ، بل اعظمهم جميعاً ، بعد هزيمته واعتزاله .

حكم المئة اليوم . ـ قضى نابوليون عشرة شهور في جزيرة « البا » عاد بعدها الى فرنسا ، فاستقبلته بذراعين مفتوحتين ، ولكنه لم ينخدع بالمظاهر ، وسعى الى استمالة الشعب ببعث الدستور ، وحرص في الوقت نفسه على اقناع الدول المتحالفة بنياته السلمية ، فكتب الى الملوك متودداً . فما تلقى منهم رداً على بادرته الطيبة . ولم يطل بهم الامر حتى عقدوا الخناصر مجدداً على اذلاله . فلم يشعر الا وهو مسوق ، تحت ضغط الظروف ، الى انشاء جيش جديد ، يعاونه في مهمته المارشال « دافو » وزير الحربية و « كارنو » وزير الداخلية . وقد وجد تحت السلاح ١٨٣ الف رجل يصلح ربعهم للقتال والمناورة وفقاً لقواعد الحرب الحديثة . وفي حزيران ١٨١٤ الغى اجازات الجنود المأذونين فتجمع لديه ستة وسبعون الف رجل . واستطاع بمساعدة كارنو ان يعيد تنظيم الحرس الوطني فتجمع لديه مئتا الف رجل عهد اليهم بالدفاع عن المدن المحصنة .

واستطاع الامبراطور في غضون ثلاثة اشهر ان يعبىء جيشاً من مئة واربعة وعشرين الف رجل بالاضافة الى الذين خلفهم العهد السابق تحت السلاح ، وان يمهر الجيش بثلاثمئة وخمسين مدفعاً ويعززه باربعين الف فارس . وقد اشتمل الجيش الجديد على ستة فيالق بقيادة « درويه » و « ديرلون » و « ريل » و « فاندام » و « جيرار » و « لوبو » ، يضاف اليها فيلق الحرس الامبراطوري الذي تألف من بقايا الحرس القديم وعناصر ضمت اليه حديثاً . وولي الجنرال « غروشي » قيادة هذا الفيلق .

تردد نابوليون طويلاً في الاستعانة بخبرة القادة الذين تخلوا عنه في فونتنبلو ، ولكنه قرر في اللحظة الاخيرة وضع فيالق درويه وارلون وريل تحت



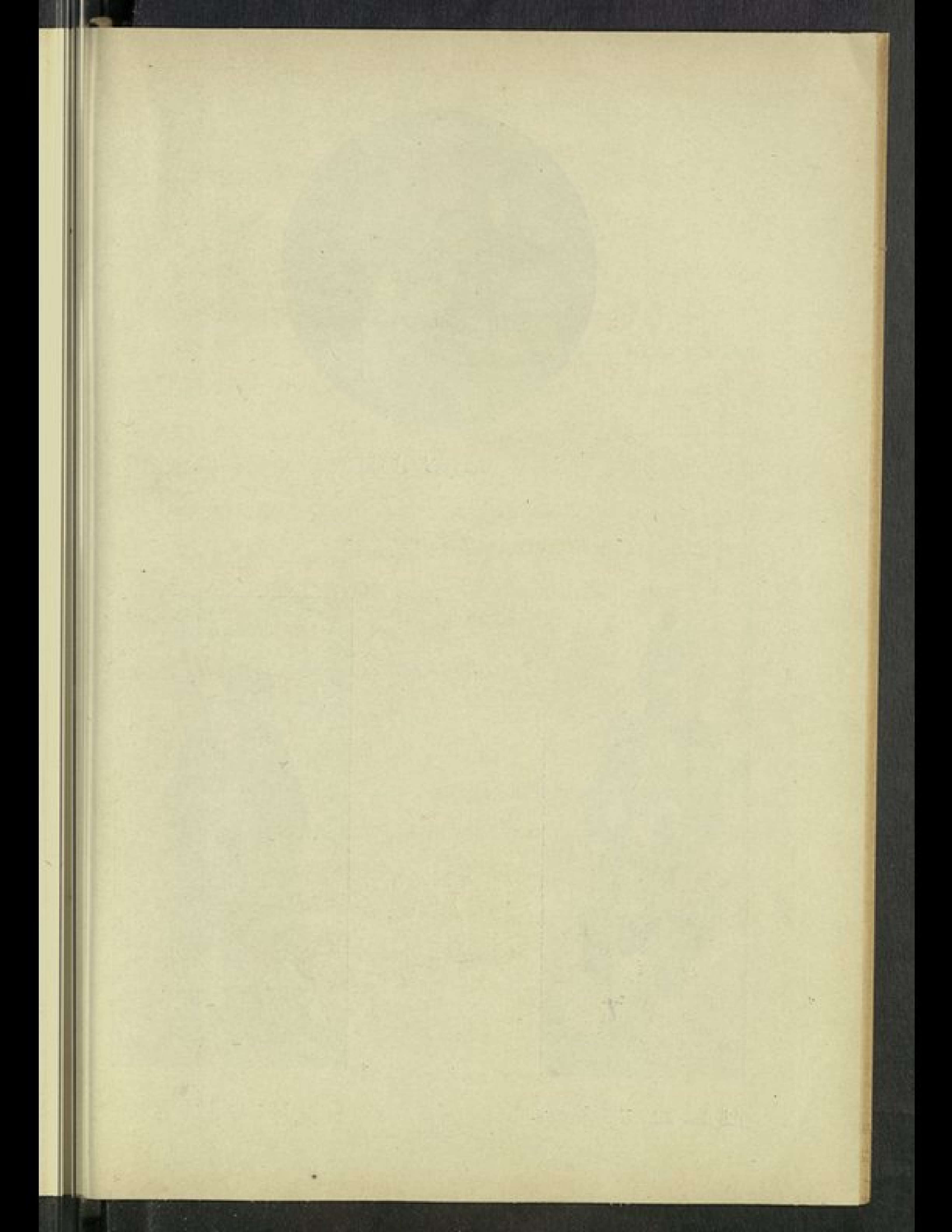
الجنرال لاموريسيار



ملازم ثان في قناصة الجزائر



جندي في فرقة مشاة خط النار





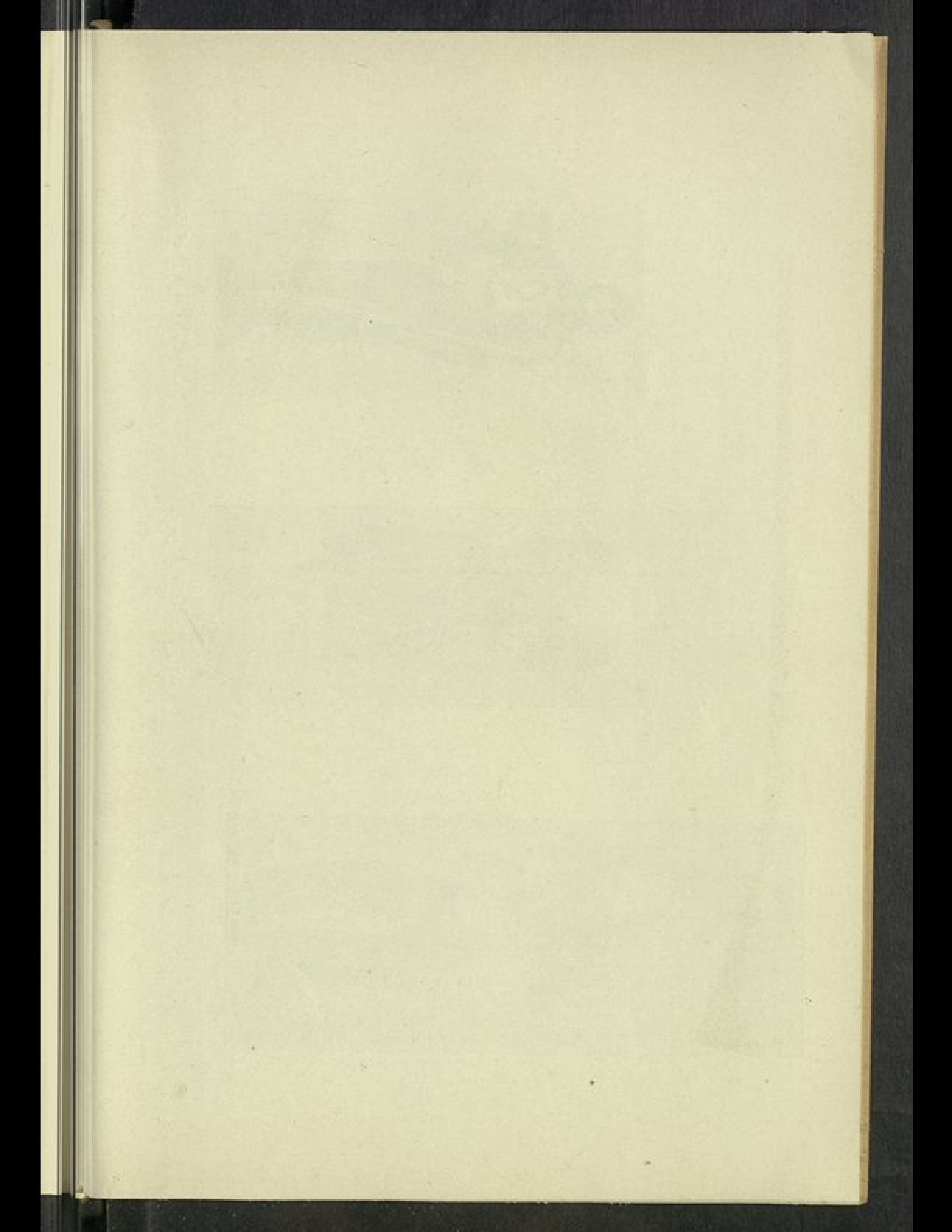
جندي في فرقة الانشاءات .

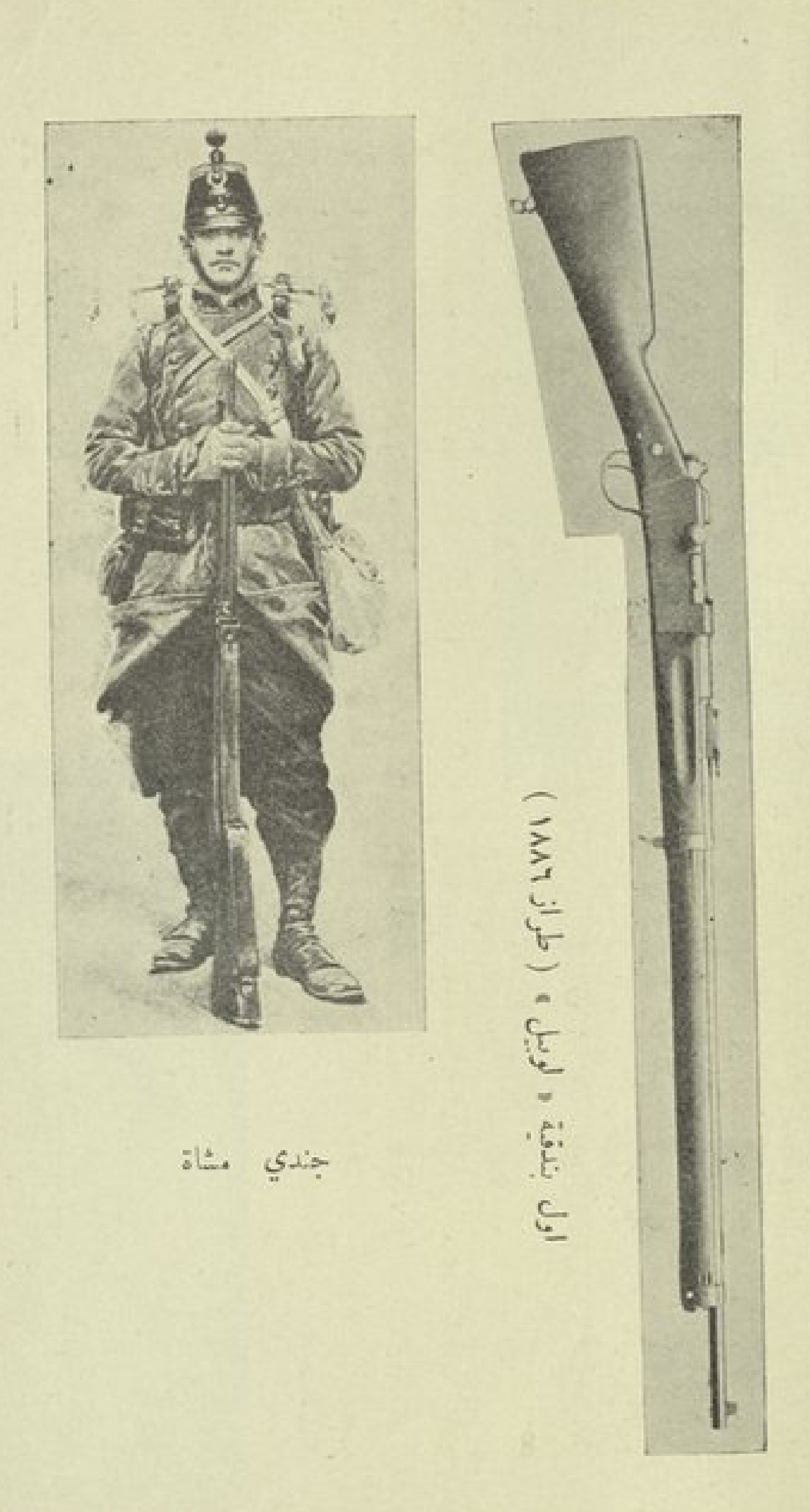


فارس في فرقة « الزواف » .



فارس في فرقة « الدراغون » .

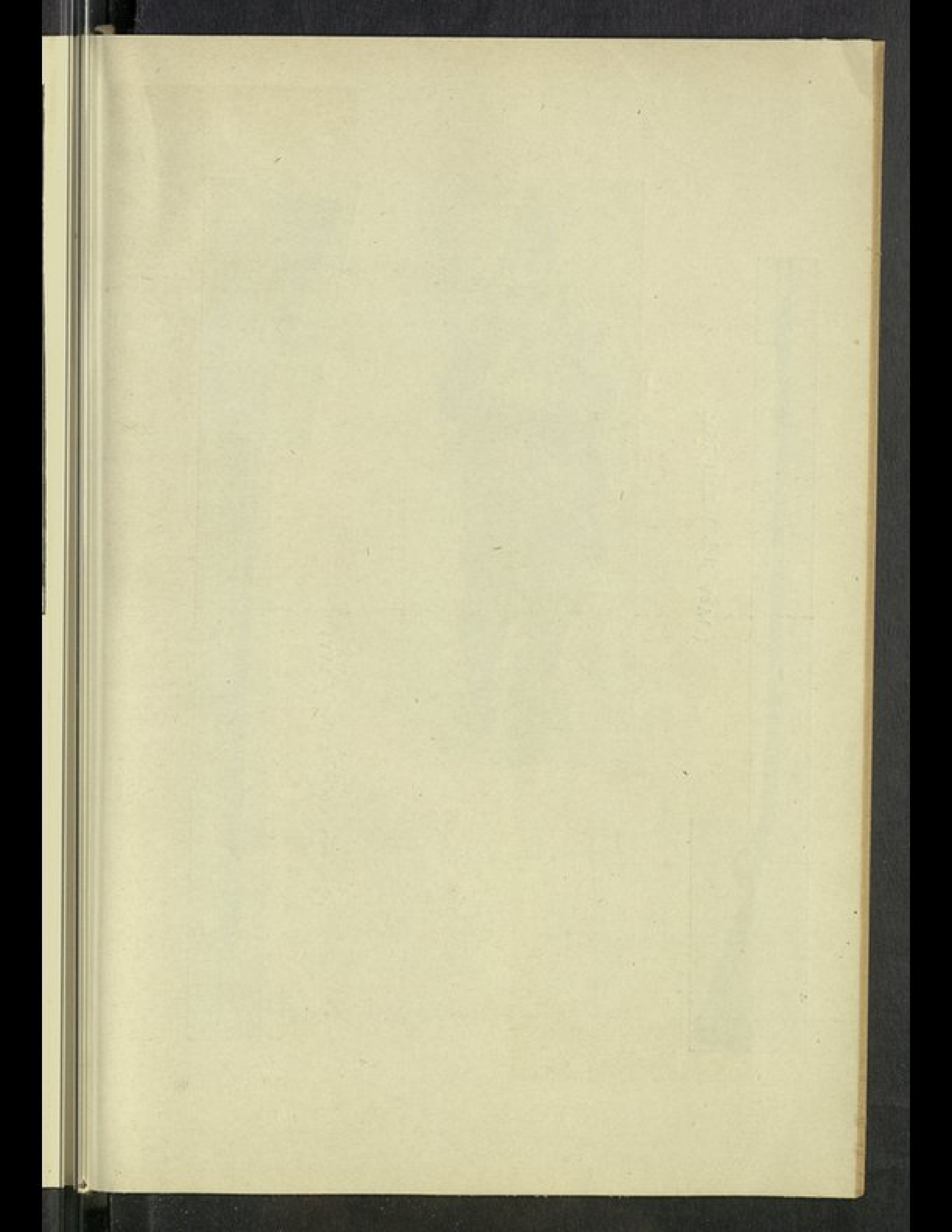




جندي مشاة

اول بندقية « لوبل » (طراز ١٨٨٦)

بندقية المشاة (طراز ١٨٥٧)

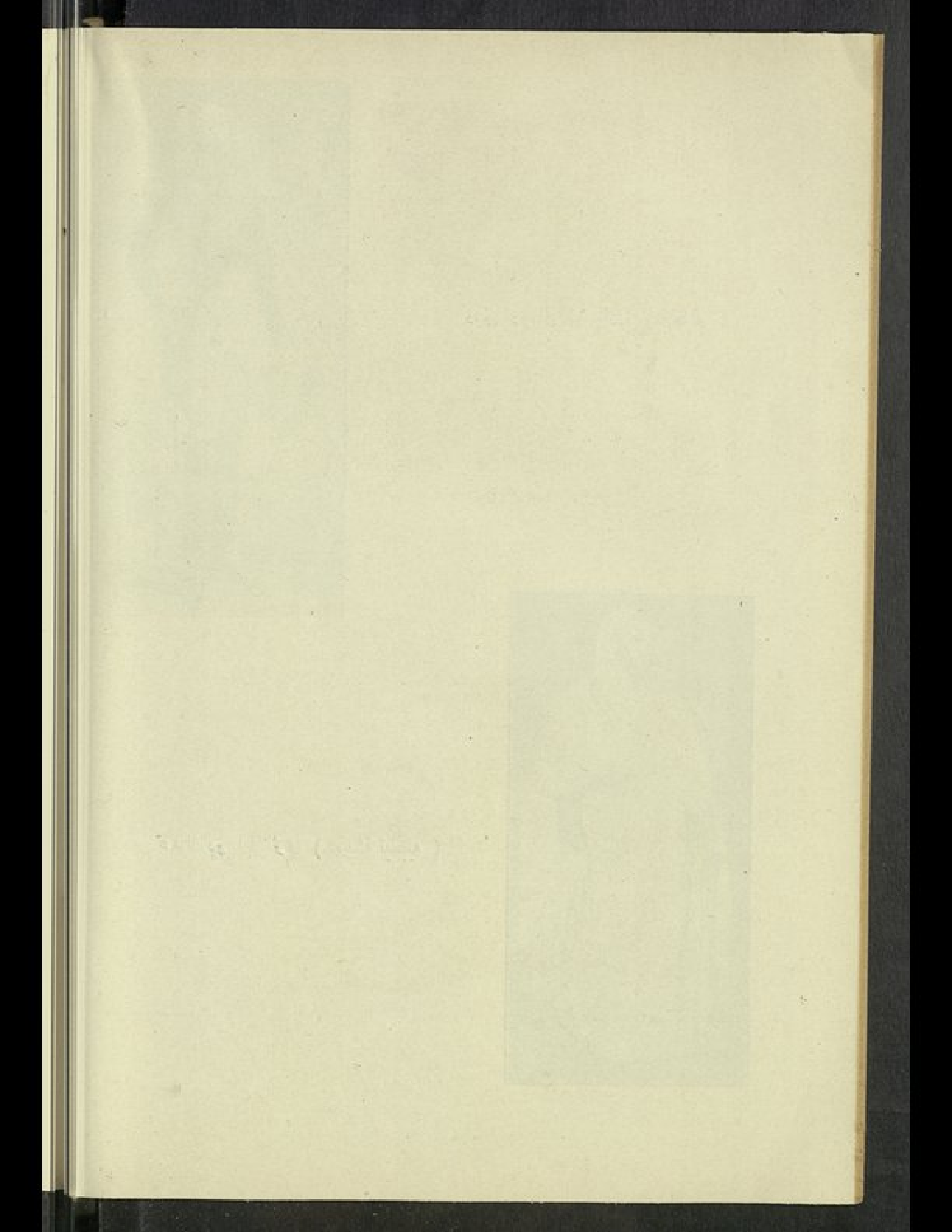




دوق دومال (بريشة ونترهالتر)



الامير عبدالقادر الجزائري (بريشة تيسييه)

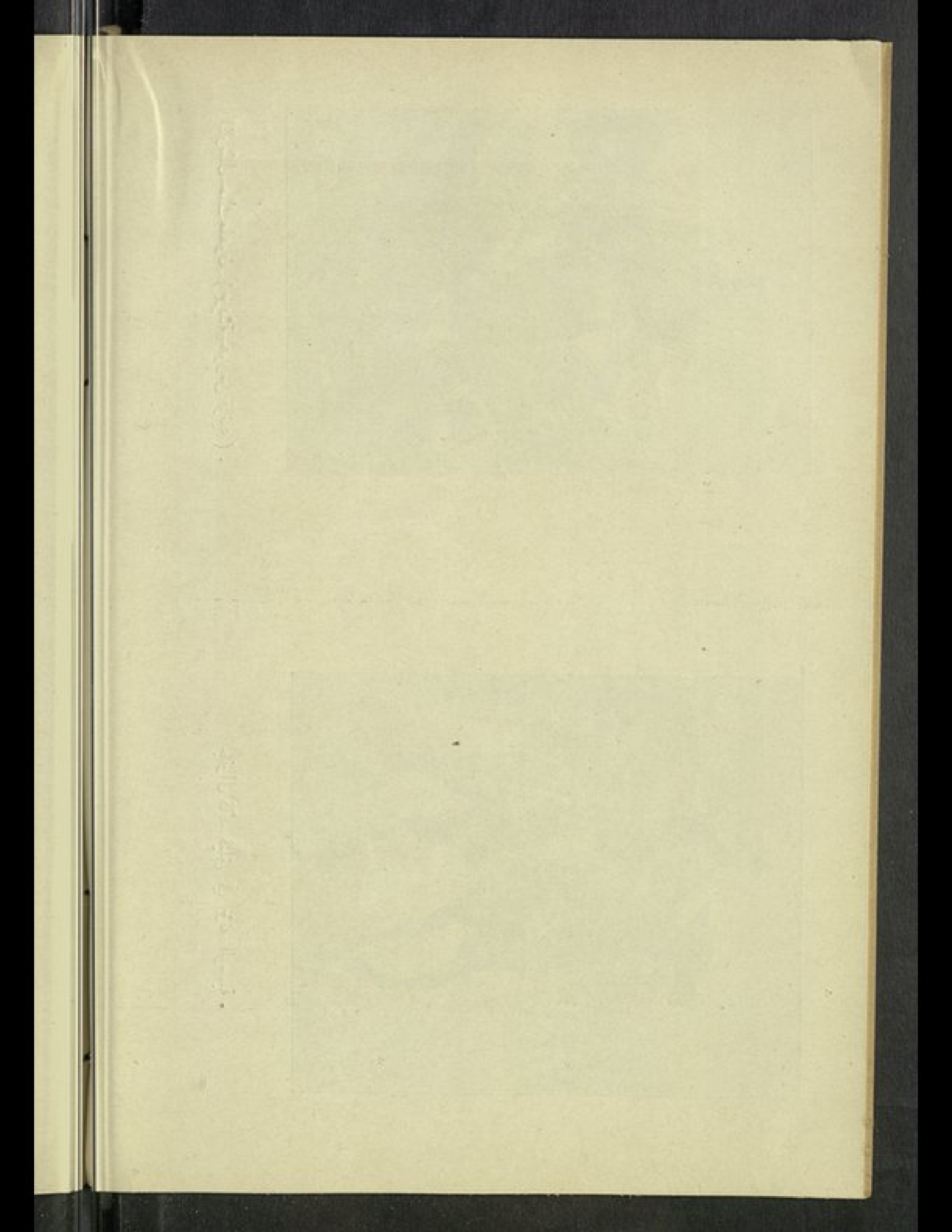






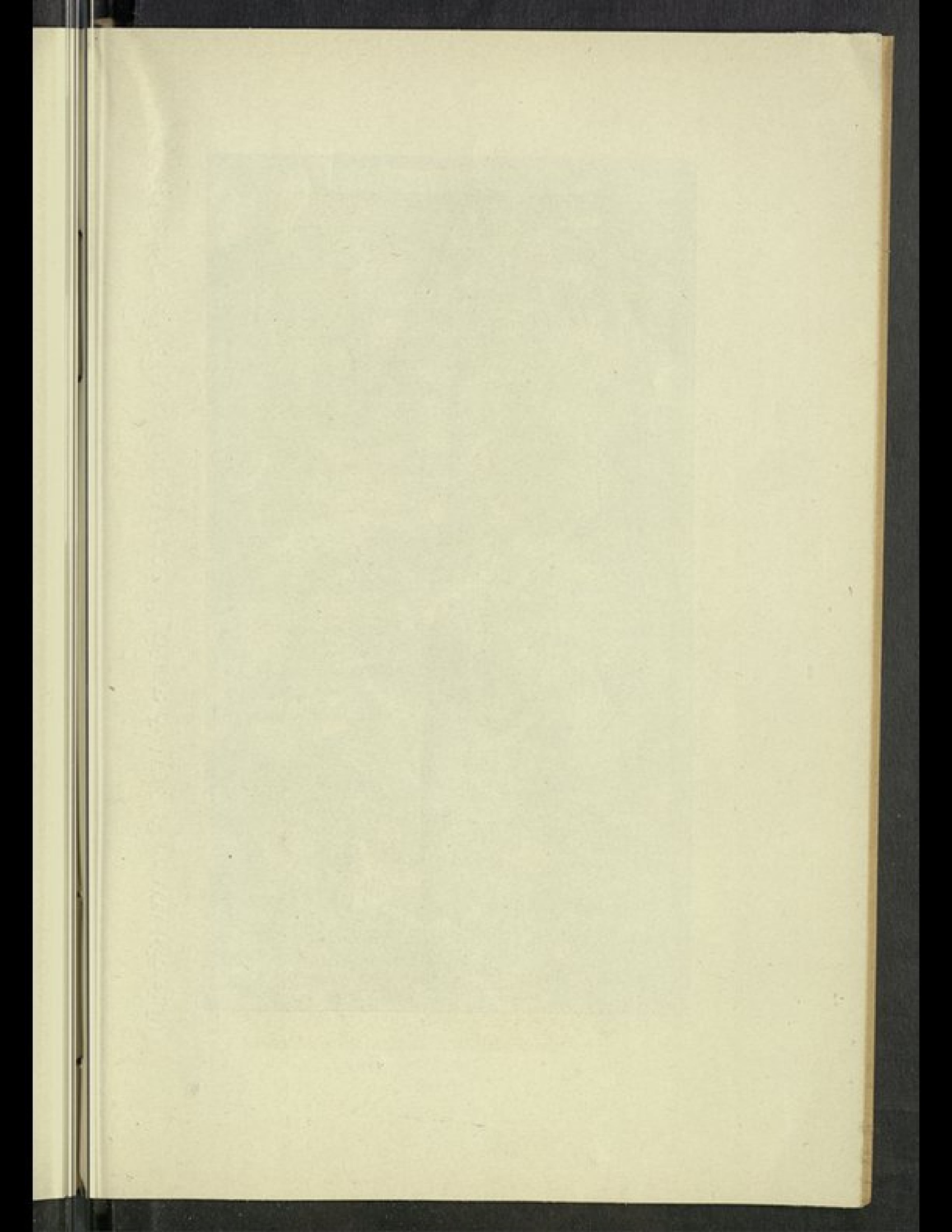
المارشال ماك ماهون (بريشة هورس فرنيه) .

جنرال قائد فيلق في بزته الرسمية .



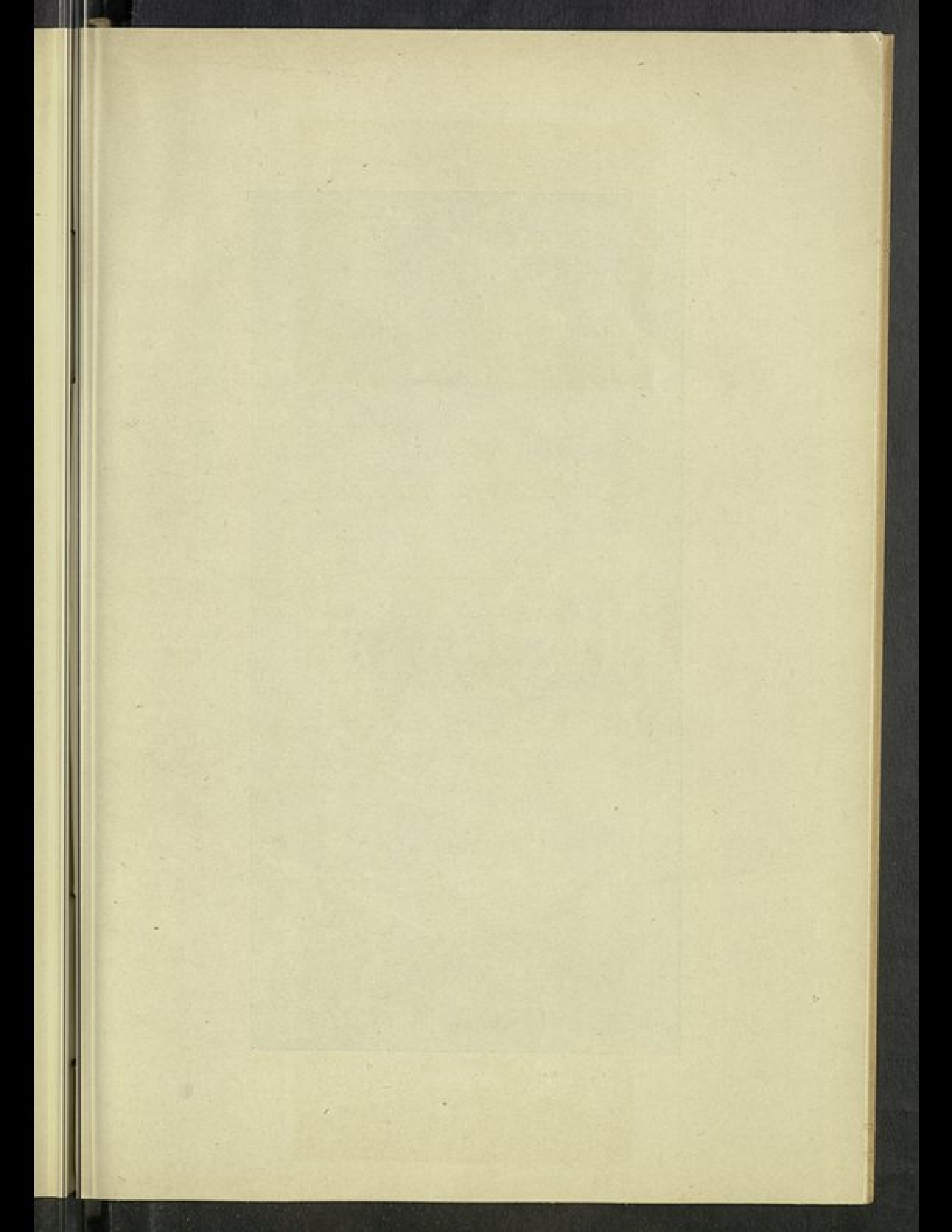


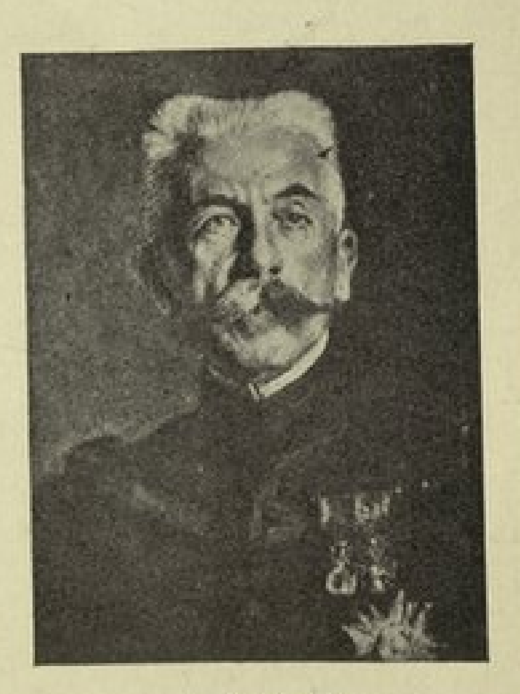
رئيس الجمهورية جول غريفي يوزع الاعلام في ميدان « لونشان » على كبار القادة يوم ١٤ تموز من العام ١٨٨٠ (بريشة ديتاي)





رئيس الجمهورية ريمون بوانكاره يشاهد مناورات العام ١٩١٣ .

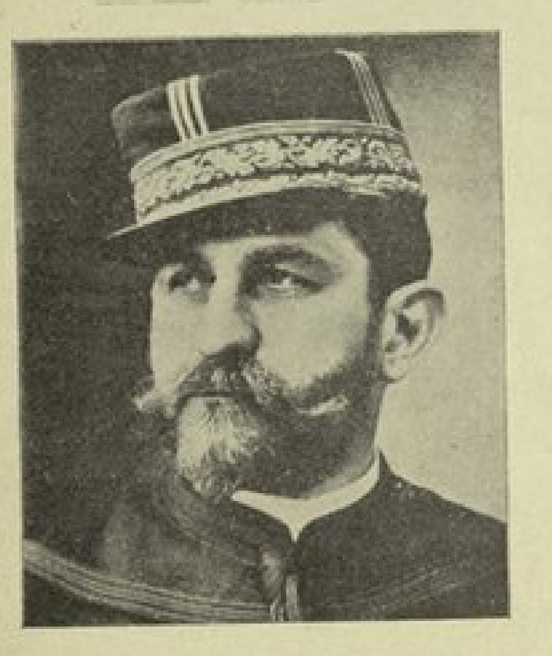




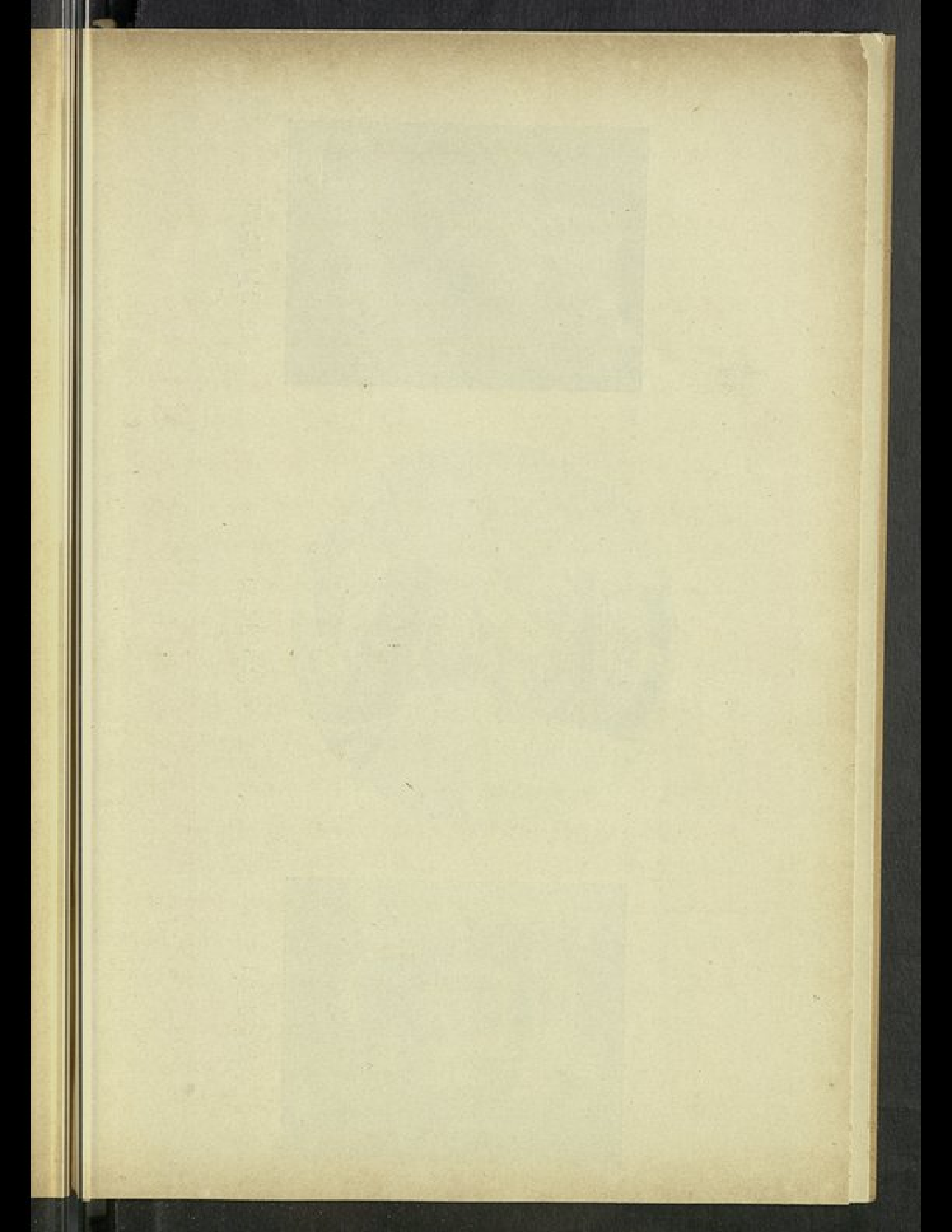
المارشال ليوتي



المارشال فوش



الجنرال بولانجه



امرة المارشال « ناي » ووضع المارشال « صولت » على رأس هيئة اركان الحرب العامة .

وضع خطة جريئة تكفل له مباغتة الحلفاء . فقد انتهى اليه ان القوات المعادية قسمت قسمين : الجيش الانكليزي بقيادة « ولنغتون » والجيش البروسي بقيادة « بلوخر » بانتظار وصول الجيش النمسوي ليؤلف القلب . وكان هذا الجيش يتقدم ببطء ، فقرر نابوليون مهاجمة الانكليز اولا . ولكنه لاحظ عند وصوله الى الجبهة ان الجيشين البروسي والانكليزي ما يزالان متباعدين ، فقرر ان ينشر جيشه بينهما . وما عتم به الامر حتى هزم « بلوخر » في « لينبي » بينما كان « ناي » يمشي الى النصر في موقعة « كاتربرا » . الا انه اضاع بتردده فرصة ثمينة . فقد عهد الى « غروشي » بمطاردة « بلوخر » وارتد هو على « ولنغتون » . ولكن « غروشي » فقد اثر البروسيين الذين قاموا بمناورة بارعة ردتهم الى ساحة القتال في اللحظة التي كان الانكليز يوشكون ان يلقوا فيها السلاح . فشدد المدد عزائمهم ومشى الجيشان المتحالفان يسحقان الجيش الامبراطوري تحت ثقل التفوق العددي . ورغم هذا صمد الفرنسيون واستبسلوا ، ولم يتبدد شملهم الا عندما خيم الظلام وقطعوا الامل من عودة « غروشي » وخيالته الى الميدان .

انهار مع نابوليون وجيشه في « واترلو » نظام سياسي اجمع المؤرخون على انه تداعى للسقوط بعد موقعة « موسكوفا » . ولكن الامبراطور استطاع دعمه بما حباه الله من مواهب الى اليوم الذي اختل فيه التوازن بين عقله وعبقريته ، فافلت من يده زمام الامر ، وخيل اليه وهو يتخبط في بحران من المشاكل ان الانتصارات العسكرية قمينة بانقاذ الموقف . فكان كمن ينشد سراباً او يحاول المستحيل .

الفصل التاسع

الجيش الفرنسي بين ١٨١٥ ـ ١٨٧٠

١ - جيش الملكية الدستورية

كان على فرنسا ان تؤدي ثمن الهزيمة ، فحرمتها عهدة فينا من المعاقل التي تغطي حدودها الشمالية الشرقية ، واخضعتها للاحتلال الاجنبي . وقد اقتضت مصلحة الملك وسلامة اوروبا ازالة الجيش الامبراطوري من الوجود . فحلت وحدات الجيش العامل ، وانشىء في كل مقاطعة من المقاطعات الفرنسية فرقة من المتطوعة تضم ثلاثة افواج ، وحصر حق الانخراط فيها بابناء المقاطعة دون سواهم . واستثني من الحصر المتطوعون في فرق المدفعية والخيالة والهندسة . اما التجنيد الاجباري فقد الغي الغاء تاماً .

كان الغرض من هذه التدابير بعثرة ابطال ملحمة مجيدة وشهودها ، وازالة اللحمة من جيش كانت الملكية توجس منه شراً ولا تطمئن الى اخلاصه لها . ولم يكتف العهد الجديد بتسريح الفرق الامبراطورية لتحل محلها الفرق الاقليمية بل الغى ملاكات الضباط ، وضن على الذين اقعدتهم السن او المرض او العاهة عن بمرتب تقاعدي كامل ، فاعطاهم نصف ما يستحقون بحجة التوفير .

ولم يوفر « آل بوربون » كبار القادة في الجيش الامبراطوري ، فاحيل ثمانية عشر قائداً الى المجلس الحربي بتهمة « الخيانة » ، وكان في رأس المتهمين « ناي »

و«غروشي» و«كلوزل» و«برتران» و«كامبرون». وفرضت رقابة دقيقة على القادة «فاندام» و«موتون» و«ماريو» و«اليكس» وغيرهم. وقد استغرق النظر في القضايا العسكرية العام ١٨١٦ بكامله، وقضى المجلس الحربي باعدام كثير من القادة اللامعين وبتجريد مئات الضباط من رتبهم.

قانون ١٨١٨. – انضمت فرنسا الى «الحلف المقدس» سنة ١٨١٨ وما لبثت ان لمست افتقارها الى جيش قوي. فعهد الملك الى المارشال «غوفيون سان سير» بمهمة تنظيم الجيش تحت اشراف لجنة عسكرية متحالفة، لان جيوش العدو لم تجل عن الاراضي الفرنسية الا في اواخر صيف ١٨١٨.

وفي ١٨ آذار من العام المذكور عرض المارشال على اللجنة المتحالفة نظاماً عسكرياً كاملاً، يتناول التجنيد وعدد الوحدات والاحتياط والملاك والترقية. ولما كان نظام التطوع الاختياري لا يفي بالمراد فقد وضع «غوفيون سان سير» نظام الدعوة الى حمل السلاح، وهو يقضي بتجنيد اربعين الف فرنسي في السنة يؤخذون بالقرعة من بين الذكور الذين اتموا العشرين من سنيهم، ليخدموا ست سنوات في المقاطعة التي ينتمون اليها.

وقد أجاز النظام الجديد حلول رجل محل آخر. وجعل قوام جيش السلم ٢٤٠ الف رجل. اما الاحتياط فيتألف من المحاربين القدماء والجنود المسرحين الذين يوضعون تحت تصرف وزارة الحربية مدة خمس سنوات.

ونظم «غوفيون سان سير» ملاك الضباط، فاخضع الترقية لشروط معينة، منها ان رتبة ملازم ثان لا تمنح الا للمتخرج من مدرسة عسكرية او لضابط صف خدم بهذه الرتبة مدة اربع سنوات. ومنها ان الضابط لا يستحق الترقية الا بعد قضائه مدة معينة في الرتبة التي يتطلع الى ارفع منها.

وانشأ المارشال دائرة الميرة (الانتندانس) وهيئة اركان حرب لا تختلف وظائفها عن الهيئة التي انشأها نابوليون . كما انشأ « مجلس الحرب الاعلى » واختار اعضاءه بين المارشالية وقادة الفيالق المشهود لهم بالكفاءة والخبرة .

تنظيم المدفعية . — طرأ على المدفعية بعد عودة الملكية تحول ما ينفك اساساً لتنظيم هذا السلاح في ايامنا هذه . ففي العهد الامبراطوري كان لسرية المدفعية الراجلة سرية نقل خاصة بها ، فدمجت لجنة التنظيم في العهد الملكي هاتين السريتين جاعلة منهما بطارية مدفعية . وتوسع الجنرال « فاله » رئيس اللجنة في عمله الانشائي ، فناط بالبطاريات الراجلة المهام التي توكل الى المدفعية في حرب الحصار وفي الدفاع عن السواحل والمدن المحصنة . وانشأ بطاريات نقالة لمعارك الميدان .

قانون ١٨٣٢ . — بدأت حكومة لويس فيليب دورليان عهدها بتطهير الجيش من العناصر الموالية لآل بوربون ، فحلت الحرس الملكي وعزلت عشرات القادة لتحل محلهم زملاء لهم ابعدتهم حكومات لويس الثامن عشر وشارل العاشر لانهم لم يتحمسوا للعهد الجديد .

وقد ولي وزارة الحربية في عهد لويس فيليب ثلاثة عشر رجلاً منهم المارشال « صولت » الذي تبنى قانون ١٨٣٢ ودافع عنه في المجلس وفي الاوساط العسكرية .

لم يدخل القانون الجديد تعديلات جوهرية على قانون ١٨١٨ ، ولكنه جعل احكامه اكثر مرونة . من ذلك ان القانون السابق نص على تجنيد اربعين الف فرنسي في السنة ، فازال قانون ١٨٣٢ هذا النص ، وترك تقدير العدد المطلوب تجنيده للسلطة التنفيذية على ان يحدد بموجب قرار تشريعي . وجعلت مدة الخدمة سبع سنوات وكانت في القانون السابق ستاً .

ولم يعن القانون الجديد بالاحتياط ، ولكنه عالج مسألة الحرس الوطني الذي حل سنة ١٨٢٧ ، لانه ظاهر النبلاء ضد العرش . وكان لويس فيليب قد استهل عهده بوضع نظام جديد للحرس . وفي آذار سنة ١٨٣١ وافق ممثلو الامة على انشاء « الحرس الوطني ليتولى حماية الملكية الدستورية والدستور ويحافظ على النظام العام ويساعد الجيش النظامي في الدفاع عن الحدود والسواحل . » وقد اعاد قانون ١٨٣٢ النظر في نظام الحرس وادخل عليه تعديلات يسيرة ، يقضي اهمها بتأليف الحرس الدائم من الطبقات التي تؤلف الاحتياط ، على ان يصار الى دعوة الشبان الذين لم تشملهم التعبئة الى تأليف الحرس المتحرك في حال اضطرار فرنسا لخوض غمار معارك دفاعية على ارضها . الا ان الحرس المتحرك ظل في ضمير الذين اوصوا بانشائه . اما الحرس الدائم الذي ارادته الملكية حامياً لها ، فقد كانت له في ثورة ١٨٤٨ اليد الطولى في القضاء عليها .

ولكن اذا كانت السياسة قد افسدت الحرس الوطني فقد ظل الجيش النظامي بعيداً عن تياراتها ومؤثراتها ، بفضل التدابير والتسويات العادلة التي تمت في عهد « غوفيون سان سير » والمارشال « صولت » بين ١٨١٨ و١٨٣٩ ، ذلك ان القوانين الاصلاحية التي وضعت ونفذت خلال هذه الفترة من الزمن ادت الى انصاف الضباط الذين غمطت حقوقهم ، وقضت على بواعث التذمر بتأمينها حقوق ذوي الرتب ، فانصرف هؤلاء الى واجباتهم غير ملتفتين الى ما يجري خارج الثكنة . وقد جنت فرنسا اطيب الثمار من ابتعاد الجيش عن السياسة خلال قرن كامل تخللته حوادث جسام وانقلابات عظيمة .

وفي اوائل العام ١٨٣٩ حدد عدد المارشالية وقادة الفيالق بقانون خاص . وبعد عامين نظم جيش السلم على اساس الكردوس كوحدة سلاح ، واشتمل

على مئة كردوس مشاة وعشرة افواج من القناصة و ٥٤ كردوس خيالة واربعة عشر كردوس مدفعية وثلاثة كراديس هندسية واربع سرايا للنقل .

الحياة العسكرية . — يقول الجنرال « ويغان » في « تاريخ الجيش الفرنسي » ان فرنسا عرفت الجيش المحترف في عهد لويس فيليب ، فقد كان نظام الثكنة يعزل الجندي عن ذويه ، كما كانت صعوبة المواصلات وطول مدة الخدمة يعزلانه عن سائر العالم .

كان الجندي يقضي في الثكنة مدة طويلة قبل ان يأذن له الرؤساء بالخروج الى المدينة او باداء مهمة ما بعيداً عن كردوسه . ويذكر المؤرخون المعاصرون ان كردوساً ثار على رؤسائه لانهم اذنوا لجندي بالخروج من الثكنة والظهور في احدى المدن ، مع علمهم ان مشيته ومظهره لا يشرفان الكردوس الذي ينتمي اليه .

كان الجنود يحيون في الثكنة حياة رهبانية ، ولم يكن ثمة تيارات سياسية تتدافعهم وتصرفهم عن مشاغلهم الاساسية . وكان يسود الثكنة جو من الثقة والاحترام المتبادلين ، لان التدابير الاصلاحية قضت على بواعث التذمر وانصفت الجميع دون ما استثناء .

وشهدت الثكنات تنافساً محموداً بين مختلف الكراديس في ميادين الخدمة والطاعة والنظام . وشجع دوق اورليان على انشاء سرية من جنود النخبة يناط بها تجربة الاسلحة الجديدة ، فكانت هذه السرية نواة لفوج القناصة الراجلة الذي اضيف اليه فيما بعد ثمانية افواج مثلت في ازمة ١٨٤٠ دوراً تجلت فيه فضائلها العسكرية .

امنت انظمة المارشالين « غوفيون سان سير » و « صولت » لفرنسا جيشاً منظماً

ومتحلياً بالفضائل العسكرية ، ولكنها لم تضع في متناول البلاد القوة التي تستطيع مواجهة ازمة اوروبية . اما القادة الذين ولوا مهام التدريب والتنشئة في الثكنات ، فقد حصروا اهتمامهم بالقشور دون اللباب ، اي انهم عنوا بهندام الجنود وبتقوية روح الرفاقة في نفوسهم ، الا انهم اهملوا تنشئتهم التنشئة العسكرية التي تجعل منهم قوة يحسب حسابها اذا ما قضت السياسة باسماع صوت فرنسا في ميدان لا تجدي فيه لغة الاقناع .

على ان مرونة الانظمة التي وضعها المارشال « صولت » سمحت بمد فرنسا في السلم بجيش قوامه ثلاثمئة الف رجل . وفي الحرب يرتفع هذا الرقم الى خمسمئة الف ، بحيث يتاح للبلاد ان تدعم سياستها الخارجية ذات الاهداف المحدودة باداة حربية لا بأس بها . وقد ادى الجيش سنة ١٨٢٣ المهمة التي وكلت اليه في اسبانيا بنجاح تام . فقد كان عليه ان يعيد الى العرش الاسباني الملك فردينان السابع الذي اقتلعته منه ثورة جامحة . واثبت كفاءته في الحملة اليونانية وفي الدفاع عن استقلال البلجيك ضد محاولة اعتدائية قامت بها هولندا . ولكنه اخفق في دعم سياسة الحكومة في مصر عندما هب لدعم مطامع محمد علي باشا متحدياً انكلترا .

٢ – جيش افريقيا

حملة الجزائر . – انبثق من حملة الجزائر ، بما بذل فيها من جهد وتضحيات وفن ، جيش فرنسي جديد ، هو الجيش الافريقي ، الذي تميز منذ نشأته بطابع خاص ، وسط مجموعة القوات الفرنسية ، وما يزال له هذا الطابع المميز في عصرنا هذا .

فكر نابوليون بفتح الجزائر سنة ١٨٠٨ ، وعهد الى الضابط « بوتان » بان يرسم خطة الهجوم لان « بوتان » هذا اقام مدة طويلة على الارض الجزائرية .

وقد افادت حكومة شارل العاشر من اختبارات الرجل ، فاستعانت في شباط ١٨٣٠ بالتصاميم التي وضعها وجهزت حملة قوامها سبعة وثلاثون الف رجل وثلاثة وثمانون مدفعاً . وفي ١٢ ايار ركبت هذه القوات البحر وعلى رأسها قائدان هما المارشال « دوبورمون » والاميرال « دوبيره » . وقبل قيام الحملة دعي القائدان الى وزارة الحربية وافهما ان نجاحها يتوقف على تفاهمهما . فاذا قام بينهما خلاف حول ادارة العمليات فالمارشال « دوبورمون » يتولى القيادة العامة ويكون الاميرال واحداً من معاونيه .

لم تطأ الحملة ارض الجزائر الا في الرابع عشر من حزيران لان الاحوال الجوية لم تكن موآتية لها . وقد تمت عملية النزول دون مشقة لانها لم تصادف مقاومة . واتخذت الحملة معسكراً لها في شبه جزيرة « سيدي فروخ » . وفي ١٩ حزيران ربح الفرنسيون معركة « ستولي » واندفعوا شطر مدينة الجزائر (الجه) فاحتلوا « حصن الامبراطور » في الرابع من تموز . وفي اليوم التالي سقطت المدينة .

وقد دفع المشاة الفرنسيون غالياً ثمن هذا الفوز ، فقتل منهم خلق كثير برصاص العدو المتحرك بسرعة ، لانهم مشوا الى لقائه صفوفاً متراصة حتى خيل الى فرسانه انهم امام مقاتلين يخرجون للنزال وقد شدوا بسلاسل بعضهم الى بعض .

ولكن سقوط الجزائر الذي حسبوه في باريس المرحلة الحاسمة في الحملة لم يكن في الواقع سوى البداية . وسرعان ما تبخرت حماسة الجنود وهم يرون الى حيرة القادة وترددهم امام معضلة التموين والمشاكل الناجمة عن الجهل بطبيعة الارض واخلاق السكان . وزاد في الطين بلة وطأة القيظ وتفشي الاوبئة فحاولت القيادة رفع الروح المعنوي باستثمار النجاح المبدئي ، فاحتلت القوات

الفرنسية مينائي عنابة ووهران ، وانصرف المارشال « دوبورمون » الى خلق نواة القوات المساعدة وتنظيم الجهاز الاداري في المناطق المحتلة ، ولكن ثورة تموز ١٨٣٠ التي اطاحت بعرش شارل العاشر واقامت على انقاضه عرش لويس فيليب ، لم تدع له مجالا لتنفيذ مشروعاته . فعينت الحكومة الجديدة الجنرال « كلوزيل » خلفاً له . وقد ولي القيادة خلال عشر سنين ، اي بين ١٨٣٠ و ١٨٤٠ ، ثمانية رجال ، فكان معظمهم يشخص الى الجزائر مطلق التصرف دون ان تكون لديه معلومات صحيحة عن البلاد واحوال سكانها .

كان « كلوزيل » قائداً زكي الفؤاد ، شجاعاً ، وكان عيبه الوحيد تسرعه . فهو يرسم الخطة استناداً الى معلومات كثيراً ما تكون غير موثوق بها ، ويضعها موضع التنفيذ قبل ان تتوفر لديه عناصر النجاح . وقد استبدل منه الرؤساء الجنرال « برتيزين » وهو من ضباط الجيش الامبراطوري المجربين ، ولكنه لم يكن ذا شخصية قوية فتهيب المصاعب التي اعترضت مهمته وما لبث ان وضع نفسه تحت تصرف الرؤساء في باريس .

اما الجنرال « سافاري » الذي خلفه فقد كان نشيطاً ومقداماً . ولكن لم يتخلل عهده القصير اي حدث عسكري ، لانه صرف جل اهتمامه الى القوات المساعدة فوسع نطاقها واعاد تنظيمها . وحل محله سنة ١٨٣٣ الجنرال «فوارول» الذي وضع نصب عينيه احتلال الجزائر كلها ، متحدياً باريس التي كانت تميل الى الاكتفاء بما حصل لئلا يثير التوسع الفرنسي قلق انكلترا . وفي عهد « فوارول » انشىء « المكتب العربي » ولكن مشاريع القائد اصطدمت باعتراض الرؤساء من جهة وبحركات الامير عبد القادر من جهة اخرى . وكان الرأي العام الفرنسي قد بدأ يتبرم بالحملة ويطالب بانهائها كيفما اتفق ، فعينت الحكومة الجنرال « ديرلون » خلفاً لـ « فوارول » ، واوعزت اليه بالاتفاق وعبد القادر . ولكن

الامير الجزائري حمل تودد الفرنسيين اليه على محمل الضعف فوسع منطقة نفوذه ودعا شيوخ القبائل الى موآزرته في حرب الجهاد. فاوجس الجنرال «ديرلون» شراً من جانب الامير وساق ضده حملة ضعيفة، فهزمها الجزائريون في «ماكتا». ووصل النبأ الى باريس مجسماً. فقام خصوم التوسع وقعدوا وطلبوا سحب القوات الفرنسية حالا، لان استمرار الحملة يضعف مركز فرنسا في اوروبا. فالفت الحكومة لجنة عليا لدرس «اسباب الاخفاق الذي مني به المحاربون الفرنسيون في الجزائر»، فقدمت اللجنة تقريراً بالاسباب، وفي رأسها ضعف الحملة والجهل باحوال البلاد، ونصحت باحتلال ساحل افريقيا الشمالي «لان الانسحاب من الجزائر يصيب هيبة فرنسا في الصميم.» وقد تبنت الحكومة وجهة نظر اللجنة وعينت الجنرال «كلوزيل» حاكماً للجزائر وقائداً للحملة لانه «لا يحجم امام الصعاب وقد وعد بان يكون اكثر تروياً في اعماله.» (من تصريح لوزير الحربية في مجلس النواب وكان بعض ممثلي الامة قد انتقد عودة كلوزيل الى الجزائر بعد ان اخفق في اداء مهمته فيها العام ١٨٣٠).

استطاع «كلوزيل» ان يحمل الحكومة على تعزيز الحملة، فتجمع لديه اثنان وثلاثون الف رجل. فاحتل «مسكرا» و«تلمسان» في غضون بضعة اسابيع ثم قرر احتلال قسنطينة، فكتب الى وزير الحربية يطلب قوات اضافية فعارض المجلس النيابي في «تحميل فرنسا اعباء جديدة.» وكانت قوات «كلوزيل» قد شرعت تهاجم قسنطينة، ولكن الهجوم لم يصادف نجاحاً، فعزل القائد «المتسرع» كما وصفته صحف ذلك العهد وعين الجنرال «دامريمون» بدلا عنه، فهاجم المدينة نفسها باربعين الف رجل واحتلها عنوة. ورأت باريس ان تقنع بالنتائج الحاصلة فاوعزت الى «دامريمون»

بان يكتفي باحتلال مدن ثلاث هي الجزائر وعنابة ووهران والاقاليم الملحقة بها . اما سائر المناطق فتترك للزعماء المحليين .

وقد سبق احتلال قسنطينة اتفاق عقده الجنرال « بوجو » قائد موقع « وهران » مع عبد القادر الذي اغضى عن احتلال الفرنسيين للمدينة مقابل اعترافهم بسلطته المطلقة على منطقة وهران وعلى القسم غير الفرنسي من اقليم الجزائر . وعرف الزعيم الجزائري كيف يخدع المارشال « فاله » حاكم المناطق الفرنسية ، فتظاهر بالاخلاد الى السكينة ، وراح يتودد سراً الى القبائل ليحملها على الانضواء تحت لوائه . واوفد رسولا الى سلطان مراكش يستعديه على الاجنبي . وفي الوقت نفسه كان الانكليز يمدونه بالاسلحة ، تنقلها سفنهم الى جزيرة «راغون» التي تنازل له عنها الجنرال « بوجو » . وكان الاتراك يشجعونه على المقاومة ويرسلون اليه ضباطاً يدربون جيشه ويرسمون له الخطط .

اخلد عبد القادر الى السكينة زهاء عامين قضاهما في الاستعداد لحرب نظامية ، ولاخرى تعرف اليوم بحرب العصابات . وقد حصن المدن والقرى الساحلية ولكنه كان يعتمد على اتقانه فن المناورة وعلى الخدع الحربية في بلد لا يعرف منه الفرنسيون سوى المناطق التي يحتلونها . وعبد القادر هو القائل : « عندما يقف المرء على الشاطىء ويرى الى الاسماك تتحرك في البحر بحرية يخيل له انه يستطيع التقاطها بسهولة ، مع ان صيدها يتطلب مجهوداً خاصاً وعناء كبيراً . ونحن العرب لسنا اسهل منالا من اسماك البحر . »

هذا هو الرجل الذي وصفه الجنرال « بوجو » بانه اذكى رجال العصر واشجعهم واوسعهم نفوذاً .

الجنرال بوجو . — اما « بوجو » فيصفه الكولونيل « ريفول » في « تاريخ

الجيش الفرنسي » بانه اعظم شخصية عسكرية في القرن التاسع عشر بعد نابوليون . خدم في الجيش الامبراطوري وانصرف الى الزراعة في عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر . وانتخب نائباً بعد ثورة تموز وتربع لويس فيليب على العرش . وفي العام ١٨٣٦ عاد الى الخدمة برتبة لواء (جنرال دوبريغاد) وعين قائداً لموقع وهران في الجزائر .

قال فيه النقادة المشهور « سانت بوف » : « للجنرال بوجو عيوب بارزة . فهو يتحدث عن نفسه بخيلاء ويحتقر منافسيه ولا يداري عواطفهم . قضى بضعة عشر عاماً في الريف بين اناس ادنى منه فاضحت اللهجة الجافة ملكة فيه . وهو ، الى هذا ، قليل العناية بهندامه ، يجهل ابسط قواعد اللياقة . ولكنه رجل عظيم رغم هذه المظاهر ، رجل متفوق مؤمن بعظمة وطنه . كان زملاؤه في مجلس الامة يتهامسون اذ يرونه مقبلاً : في فرنسا رجل واحد يؤمن بالمجد ، وهذا الرجل هو الجنرال بوجو . كانوا يقولونها في لهجة ساخرة .

كان « بوجو » على حق في ايمانه بالمجد ، وقد دلل في افريقيا على انه لم يكن رجلاً هوائياً يجري وراء الاوهام . نعم ، كان قبل تعيينه في وهران من انصار الجلاء عن الجزائر ولكنه كان يفعل هذا لاسباب سياسية . فما ان وطئت قدماه ارض افريقيا حتى رمى بالسياسة في البحر ووقف نشاطه على خدمة فرنسا .

جمع ضباط اركان حربه يوم وصوله بالذات وقال يشرح لهم تكتيكه : « انتم هنا منذ بضعة اعوام واعتقد انكم مقتنعون مثلي بان الطريقة التي اتبعت وما تزال متبعة في محاربة الجزائريين ليست بالطريقة المثمرة . لقد حاربت وحارب معظمكم في اسبانيا سنة ١٨١٢ ، ولا شك في انكم لاحظتم الشبه

العظيم بين الحربين ، ففي اسبانيا فوجئنا بحرب العصابات وفي الجزائر ينحو اعداؤنا النحو نفسه . لهذا ارى ان نكف عن تسيير تجريدات كبيرة في اثر العدو وان نتخلص من هذه المدفعية الثقيلة ومن كل ما يعوق سيرنا ويحول دون لحاقنا بالجزائريين ومباغتتهم . »

وكتب الى وزير الحربيـة يقول : « ان الكراديس والافواج والسرايا الفرنسية في افريقيا لفي حاجة الى قادة اقوياء بدنياً ومعنوياً ، وعندي ان يسحب من الحملة آمرو الكراديس والافواج والسرايا الذين لا يتوفر فيهم هذا الشرط لان بقاءهم هذا يضر بالقضية التي نخدمها . ان احتلال افريقيا ليتطلب اكثر من تضحية ، فانصاف التدابير التي تلجأ اليها الحكومة تكلف البلاد غالياً وتذهب هباء . ففي افريقيـا يجب ان نكون الفريق الاقوى والا فلنرحل قبل فوات الاوان . »

كانت مهمته محدودة . فقد ارسل الى وهران ليفاوض عبد القادر ، فلما تم الاتفاق بينهما عاد الى فرنسا حيث قضى ثلاث سنوات لم ينقطع خلالها عن الاهتمام بالقضية الجزائرية ، وكان يقول للذين انتقدوا اتفاقه والامير الجزائري « ان المعاهدات لا تلزم الامم الا اذا كانت متفقة ومصالحها . ولا شك في ان الامير الجزائري سيخلق المناسبة التي تتذرع بها لنقض الاتفاق . »

واوجد عبد القادر هـذه المناسبة سنة ١٨٣٩ فوقف « بوجو » في مجلس الامة يبسط رأيه في الحالة . فسفّه الرأي القائل بالجلاء عن الجزائر بعد ان ضحت فرنسا في خـــلال تسع سنوات بالرجال والاموال . وقال بوجوب القضاء على نفوذ عبـد القادر باي ثمن لانه العقبـة الرئيسية في طريق التفاهم الفرنسي الجزائري . وانتقل الى العمليات الحربية فقال ان الفرنسيين اذ يحاربون في اوروبا انما يسعون الى سحق الجيوش والقضاء على مصالح العدو ويجتهدون في

وضع ايديهم على هذه المصالح كالمكوس (الجمارك) والمراكز التجارية والصناعية الخ... اما في افريقيا فالشعب ليس عدواً ، لهذا لا يجوز التعرض لمصالحه وفي رأسها الزراعة .

واقترح القائد المجرب ان يعهد الى التجريدات الفرنسية في الجزائر بمهمة مساعدة السكان في استثمار الارض . « اذا وليت القيادة هناك مرة اخرى اقول لقادة التجريدات انكم تضيعون الوقت سدى في مطاردة العدو . فالقضاء عليه يصبح ممكناً متى عرفتم ان تحولوا بينه وبين المراعي ليستأثر بها السكان الموالون لنا . ان فريقاً من النواب يضج وقد سمعت بعضهم يصف هذه الطريقة بانها بربرية . فهل نسي هذا الفريق من الزملاء ان السكان الآمنين احق بها من الذين يحاربوننا وان الخطط الحربية لا يمكن ان تستوحى من المبادىء التي اشتملت عليها الكتب السماوية ؟ يجب ان نؤمن لتجريداتنا واصدقائنا اسباب المعيشة في تلك البلاد . »

وشرح « بوجو » خطته فقال ان اخضاع الجزائر كلها يتطلب جيشاً من ستين الف مقاتل موزعين على ست تجريدات تذرع البلاد طولا وعرضاً ، وتكون كل واحدة منها قادرة على مواجهة العدو مهما تكن قوته . واكد ان خطته كفيلة باخضاع المناطق الرئيسية الثلاث وهي : « الجزائر » و « وهران » و « تيتري » فينفر الاعداء الى الصحراء حيث تندر المراعي والحبوب ولكنهم لن يلبثوا ان يسعوا الى مفاوضة الفرنسيين تدفعهم الحاجة الى الماء والكلأ والغذاء فيفرض الفاتحون شروطهم . اما اذا آثروا البقاء في الصحراء فالمجال يظل فسيحاً لاقطاع السكان الموالين اخصب الاراضي واوفرها انتاجاً .

وكرر القائد على مسامع النواب ما سبق له ان صرح به في وهران في حفل من الضباط فقال ان قوات عبد القادر تتقن حرب الكمين والعصابات

وتجهد دائماً في استدراج التجريدات الفرنسية الى الممرات الضيقة والجبال وهذا ما يجعل مهمة الحملة في غاية الصعوبة لانها لم تدرب على حرب الحركات في مناطق تكثر فيها النواتىء. ونصح «بوجو» بترك المدفعية الثقيلة جانباً وبتسيير تجريدات صغيرة وخفيفة في اثر العدو .

اهتم الرأي العام الفرنسي ببيان القائد وهبت الصحف تطالب بتعيين الرجل قائداً للحملة وحاكماً للجزائر ، فنزلت الحكومة على الطلب ، ووجد «بوجو» في المارشال «صولت» الذي ولي وزارة الحربية عضداً قوياً ، دعم مطالبه كلها ولم يبخل عليه بالرجال فزاد عددهم مئة بالمئة بين ١٨٤١ و ١٨٤٦ .

شرع «بوجو» منذ وصوله يهاجم مدن الامير عبد القادر فاحتل «مسكرا» ودمر «تاغدامت» عاصمة الامير العسكرية كما دمر «بوغار» و«تازا» و«صيدا» ثم احتل «ميديا» و«ميليانا» . فلم يبق لعبد القادر من الموانىء سوى «تينيس» . وانفق الفرنسيون سنتين (١٨٤٢ و ١٨٤٣) في اخضاع القوات النظامية ومعاقل القبائل فاحتلوا «تلمسان» ودمروا «غوجلا» وتوغلوا في منطقتي «داهرا» و«اوران سينيس» ، فانهارت معاقل عبد القادر الرئيسية الواحد تلو الآخر ، وسلمت قبائل «سمالا» . وعقب هذا انتزاع اقليم الجزائر كله من الامير ، وتحطيم قواته النظامية قرب «مسكرا» (تشرين الثاني ١٨٤٣) فلجأ الى مراكش واستعدى سلطان «فاس» على الفرنسيين ، فهزم «بوجو» جيش السلطان في موقعة «ايسلي» (١٤ آب ١٨٤٤) وانتزع منه اعترافاً بان عبد القادر ثائر خطر وتعهد باعتقاله اذا وقع بين ايدي القوات المراكشية .

ما ان انتهى خبر الاتفاق الى عبد القادر حتى غادر مخبأه فجأة وانقض على المراكز الفرنسية في خط «ماغرينيا نيمور» ، واباد تجريدة كاملة في «سيدي ابوهيم» (٢٣ ايلول ١٨٤٥) فاستؤنف القتال على طول حدود وهران ،

وحاول الامير ان ينفخ في بوق الثورة ، ولكن « التجريدات الفرنسية المتحركة ذات المدى البعيد » ، كما سماها مؤرخو العصر ، سدت دونه المنافذ وحالت بينه وبين الاتصال بالسكان . وفي غضون سنة واحدة اخضعت القبائل الثائرة .

ولم ينتظر « بوجو » ختام الحملة كي يشرع في تنظيم الجزائر ، ولكن الحكومة والبرلمان لم يتحمسا لمشروعه ، فاعتزل منصبه قبل ان يسلم عبد القادر نفسه . وقد تم تسليم الامير في الثالث والعشرين من كانون الاول ١٨٤٧ فزالت العقبة الرئيسية في طريق التعاون الفرنسي الجزائري ، على حد قول « بوجو » نفسه ، ولم يبق الا اخضاع مناطق الواحات وبعض المناطق الجبلية الوعرة ، فاستغرقت عملية اخضاعها عشر سنين اخرى .

الرؤساء والمرؤوسون . — اخرجت حملة الجزائر ضباطاً لامعين مثل معظمهم في حروب الامبراطورية الثانية دوراً رئيسياً . وقد لمع هؤلاء الضباط في المعارك كما لمعوا في الادارة وتنظيم القطعات المحلية . نفخ فيهم الجنرال « بوجو » (المارشال بوجو فيما بعد) من روحه وانصفهم بعد اعتزال منصبه فكان اذا ذكرت الجزائر يبرز ما تي الضباط « ماكماهون » ، والدوق « دومال » و « كانروبير » و « سان ارنو » و « موريس » و « نييل » و « بيدو » و « لامورسيير » الذي سلم اليه الامير عبد القادر .

وتميز جنود الحملة الفرنسيون بالشجاعة والصبر على المكاره ، وقد اعترف عبد القادر نفسه بان الجندي الفرنسي لا يجارى في المواقف الصعبة . وبعد تسليمه قال للكولونيل « لامورسيير » انه فخور بان يرى مواطنيه يقاتلون في الصفوف الفرنسية . وتميز من بين هؤلاء ، الجنود الذين عرفوا مذ ذاك باسم « الزواف » وجنود الفرقة الاجنبية التي انشئت في صيف ١٨٣١ .

الزواف . — اطلق الجنرال « بورمون » اسم « الزواف » على الجنود المرتزقة الذين جعل منهم نواة القوات المساعدة في صيف ١٨٣٠ . وينتمي الزواف الى قبائل « زواوا » المشهورة بشدة البأس . وفي تشرين الاول من العام نفسه استصدرت الحكومة الفرنسية مرسوماً بانشاء فوج الزواف الاول وعهد بقيادته الى « لامورسيير » الذي اقترح بعد موقعة « مسكرا » انشاء افواج اضافية : « لان الزواف محاربون اشداء ، لم الق صعوبة في الهاب حماستهم لانهم خلقوا للكفاح . » وقد انشىء الفوج الثاني في اواخر العام ١٨٣٥ ، وكان « لامورسيير » قد رقي الى رتبة كولونيل فعين قائداً لكردوس الزواف الاول. وبعد موقعة قسنطينة انشىء الفوج الثالث كما انشئت سريتان من « القناصة الجزائرية » فكانتا نواة « كردوس القناصة الافريقية » الذي اجتذب المتطوعة بالمئات في غضون ثماني سنوات ، فما انصرم العام ١٨٣٩ حتى كان الجيش الافريقي يضم اربعة كراديس مستقلة ، منها كردوسان ضما سرايا « القناصة الصباحية » التي كان رجالها يتجهزون على نفقتهم الخاصة .

الفرقة الاجنبية . — انشئت « الفرقة الاجنبية » في التاسع من آذار ١٨٣١ ، وجعل الانضمام اليها اختيارياً لمدة تراوح بين ثلاث وخمس سنوات للراغبين في التطوع من الرجال الذين بلغوا الثامنة عشرة ولم يتخطوا الاربعين . وفي اول نيسان من العام ١٨٣٢ كانت الفرقة تتألف من اربعة افواج قوامها ٢٧٠٠ رجل معظمهم من المان رينانيا ومن البولونيين والايطاليين والفرنسيين . وقد ارسلت الفرقة في العام ١٨٣٥ الى اسبانيا لتعمل في صفوف اعداء « دون كارلوس » فقاتلت على الارض الاسبانية باسم « الفرقة الفرنسية المساعدة » وسقط نصف رجالها في ميدان الشرف .

وبعد اخفاق الهجوم الفرنسي الاول على قسنطينة قررت الحكومة

الفرنسية انشاء فرقة اجنبيـة جديـدة ، فوصل الفوج الاول منها الى الجزائر في نيسان ١٨٣٧ بقيادة المقدم بيـدو . وبعـد انتهـاء الحرب الاسبانية انشئت ثلاثة افواج حديثة ضم احدها بقايا الفرقة الاصلية .

٣ – جيش الامبراطورية الثانية

خلفت الملكية للامبراطورية الثانيـــة جيشاً منظماً ، مكتمل التدريب ومؤسسات عسكرية سليمة ومرنة ، لكن يعوزها الاحتياط المتعلم . وقد قبلت الامبراطورية التركة على علاتها ولم تبذل أي جهد في سبيل تمتينها وتحسينها .

اجمع المؤرخون على ان حرب القرم (١٨٥٤) كانت حلقـة في سلسلة امجاد جيش الملكية الدستورية . وبالاضافة الى حملة القرم اثبت هـذا الجيش اهليته في ميادين شتى ، في المشرق وايطاليا والصين والمكسيك والجزائر . ولكن كارثـة ١٨٧٠ فتحت العيون على حقيقة كان البروسيون السابقين الى ادراكها والاخذ بهـا . فقد تعلم الفرنسيون على حسابهم ان التكتيك والعلم والتنظيم يتغلب في النهاية على الشجاعة والارتجال .

حملة القرم . ــ اكد لويس نابوليون يوم نودي به امبراطوراً « ان الامبراطورية هي السلم » ، وكان مخلصاً في قوله هذا . ولكن الحوادث جرت فرنسا في عهده الى اكثر من نزاع بالرغم من مساعيه السلميـة . وعندما هدد الروس القسطنطينية بذل ممثلوه الدبلوماسيون مجهوداً جباراً في سبيل ابعاد شبح الحرب . ولما اعياهم السعي مد نابوليون يده الى انكلترا ، واتفق واياها على صون اراضي الامبراطورية العثمانية .

عبأ الانكليز خمسة وعشرين الف رجل ووضعوهم تحت امرة لورد « راغلان » معاون لورد « ولنغتون » في « واترلو » . وتولى قيادة الحملة الفرنسية المارشال « دو سان ارنو » بطل الانقلاب الذي اوصل لويس نابوليون

الى الحكم ووزير الحربية في الحكومة الفرنسية . وقد تألفت الحملة من اربع فرق بقيادة « كانروبير » و « بوسكه » و « فوري » والامير نابوليون ابن عم الامبراطور ، ومن لواء خيالة واحد . اما التدابير التي اتخذت لتسفير الحملة فقد ارتجلت ارتجالا ولم يشعر المسؤولون بتقصيرهم في هذا الباب الا عندما لمسوا عواقب تسرعهم .

التقت الحملتان الفرنسية والانكليزية في « غاليبولي » (بحر مرمرة) وكانت معنوياتها ممتازة والتفاهم تاماً بين « الزواف » و « الايكوسيين » . وفي الثلاثين من ايار ١٨٥٤ اجتاز الجيش الروسي نهر الدانوب وضرب الحصار حول مدينة « سيلستر ا » . فاقترح عمر باشا قائد الجيش العثماني على المارشال « دوسان ارنو » رفع الحصار عن المدينة . فعارض اركان حرب المارشال في القيام بالهجوم قبل وصول المؤن والعتاد . (شحنت من الموانىء الفرنسية والانكليزية بعد قيام الحملتين منها باربعة اسابيع) .

اخذ « سان ارنو » بوجهة نظر اركان حربه ، وكان هو بحاجة الى الراحة لانه كان ضعيف القلب والرئتين ، ولكنه عاد بعد ثلاثة اسابيع فقرر نجدة العثمانيين . وتحركت القوات المتحالفة باتجاه « فارنا » ، وقبل بلوغها اياها رفع الروس الحصار عن « سيلستر ا » لانهم أنسوا من النمسا ميلا للانضمام الى الحلفاء . وقبل ان يختار « سان ارنو » وجهة قواته انبرت الصحف الانكليزية تطالب باحتلال القرم وبتدمير قلعة « سيباستبول » الحصينة . فانساق الرأي العام الفرنسي مع التيار ، وتلقى قائد الحملة امراً بمهاجمة القرم . فقرر احتلال « فارنا » اولا ، ولكن الهواء الاصفر فتك بجنوده فتكاً ذريعاً ، فعدل عن مهاجمة المدينة بعد ان ترك في مستنقعات « دوبروجه » اربعة آلاف جثة .

وفي السابع من ايلول اقتربت ثلاث عمارات متحالفة من « سيباستبول »

ولكن القائد الروسي « مانشيكوف » كان قد سد مداخل الميناء ببضع سفن اغرقها ، فنزل ٦٤ الف فرنسي وتركي وانكليزي في بلدة « اولدفورث » الواقعة على عشرة اميال من « سيباستبول » ، ولم ينتظر « مانشيكوف » اندفاع الغزاة نحو المدينة الحصينة ، فمشى الى لقائهم على رأس اربعين الف مقاتل ، فتواجه الجيشان ليل ١٩ ايلول ١٨٥٤ بين « اوباتوريا » و « سيباستبول » وبدأ القتال صباح اليوم التالي .

غلطة استراتيجية . — احتشد الجيش الروسي على الهضبات المشرفة على مروج نهر « ايلما » ، فقرر الحلفاء ان تهاجم فرقة الجنرال « بوسكه » ميسرة العدو ، على ان تهاجم القلب فرقتا الجنرال « كانروبير » والامير نابوليون تعاونهما القوات الانكليزية . فانطلق الزواف يعبرون نهر « ايلما » وما عتم الامر ان انتشر المشاة الفرنسيون وسط المروج والغياض في وجه نيران المدفعية الروسية . وارتكب « مانشيكوف » غلطة استراتيجية بتردده في استخدام قواته الرئيسية منذ اللحظة الاولى ، فساعد تردده الانكليز والاتراك على اللحاق بالفرنسيين بعد ان ارغموا الجيش الروسي على الانكفاء . وفي هذه الاثناء كانت فرقتا نابوليون و « كانروبير » تهاجمان قلب الجيش المعادي . وبعد ساعتين من الزمن خفقت الراية الفرنسية على اول مرتفع كان الروس يحتلونه ، فامر « مانشيكوف » قواته بالتراجع ولم يتسن للحلفاء مطاردة المتراجعين لان عنصر الخيالة كان ضعيفاً جداً في الحملة .

ولم يفت القائد الروسي ان الحلفاء سيعمدون الى مهاجمة « سيباستبول » قبل ان تحتل قواته مراكزها الدفاعية ، فعمد الى اقامة المتاريس وحفر الخنادق بينما كان قواد الحملة المتحالفة يتشاورون ، فارتأى فريق مهاجمة المدينة الحصينة من الشمال واصر فريق على الزحف اليها من الجنوب ، فتبنى « سان أرنو »

رأي هذا الفريق وزحفت قواته من ضفاف نهر « ايلما » مجتازة مناطق موحلة . وفي ٢٦ ايلول اصيب المارشال بالهواء الاصفر فسلم القيادة الى الجنرال « كانروبير » ، وبعد ايام قليلة توفي على ظهر الباخرة « برتوليت » .

حصار سيباستبول . ـ كان « كانروبير » قائداً شجاعاً ، صريحاً ، شديد الحدب على مرؤوسيه . ولكنه يتهرب من التبعات ويتردد في اتخاذ القرارات الحاسمة . وعلى الجملة لم يكن الرئيس الذي يتطلبه الموقف .

لم يعمد الحلفاء الى مهاجمة « سيباستبول » فور وصولهم الى ضواحيها ، بل قضوا اياماً في حفر الخنادق على ثلاثة كيلومترات الى الجنوب منها ، ثم شرعت مدفعيتهم تضربها فردت المدافع الروسية بالمثل ، واستمر تبادل النيران اياماً ثلاثة ادرك بعدها الحلفاء ان الحصار سيكون طويل الامد .

اما الحامية الروسية فقد كانت ترجو الخلاص على يد الجنرال « مانشيكوف » الذي عسكر بجيشه شمالي « سيباستبول » بانتظار وصول المدد . فانجده القيصر باربع فرق . وفي ٢٥ تشرين الاول ١٨٥٤ انقض مئة الف روسي على القوات الانكليزية والتركية في « بالاكلافا » ، واستطاع « القوزاق » تبديد شمل الاتراك ولكنهم اصطدموا بالانكليز ، فتدخلت مدفعية « مانشيكوف » وكادت الدائرة تدور على الفرقة الاسكوتلندية التي جابهت « القوزاق » لو لم تنزل الى الساحة « قناصة افريقيا » وتنقذ الموقف .

وفي الخامس من تشرين الثاني هاجم جيش « مانشيكوف » المواقع الانكليزية في « انكرمان » ، فصدته المدفعية ، ولكنه اعاد الكرة مستخدماً الفرسان « القوزاق » على نطاق واسع . فخف الزواف الى نجدة الانكليز فاضطر الروس الى التقهقر بعد ملحمة هائلة ، وقد شوهدوا يدخلون « سيباستبول » بعد ان قتل منهم عشرة آلاف رجل . اما نتائج المعركة فكانت صفراً من الوجهة

الاستراتيجية .

وجد قواد الحملة المتحالفة انفسهم امام معضلة جديدة بعد معركة « انكرمان » العظيمة . لقد ابحرت الحملة من اوروبا بالالبسة الصيفية ولم تجهز بالبسة الشتاء لان الخبراء العسكريين في لندن وباريس توقعوا احتلال القرم بما فيها « سيباستبول » في بضعة اسابيع .

بدأ فصل الشتاء في اواخر تشرين الثـاني وبدأت معه مصاعب التموين والسكنى والمداواة . وكان اثر الحرمـان في القوات الانكليزية اكثر بروزاً منه في القوات الفرنسية التي اعتادت شظف العيش في حملة الجزائر . امـا الامراض فقد تفشت منها الملاريا والزحار (الدوسنتاريا) . وكان الامير نابوليون ابن عم الامبراطور اول المصابين بالزحار فاستأذن ابن عمه بالعودة الى فرنسا فأذن له .

اما جبهة القتال فقد سادها هدوء كاد يكون تاماً لولا القنابل القليلة التي كان الفريقان يتبادلانها من وقت الى آخر . وقد تلقى الفرنسيون في اوائل كانون الثاني نجده مؤلفة من ثلاث فرق بقيادة الجنرال « بليسيه » ووصل معها الجنرال « نييل » ممثلا الامبراطور في الجبهة .

تحسن الطقس في القرم حوالى اول آذار سنة ١٨٥٥ ، فاستؤنفت الاعمال الحربية وعهد « كانروبير » الى الجنرال « بوسكه » بادارة العمليات الموجهة ضد حصن « مالاكوف » . وكان الروس قد اتموا تحصين مدينتهم وموقع « الاكمة الخضراء » المعرض مباشرة لنيران مدفعية الحلفاء .

وفي صباح التاسع من نيسان بدأت خمسمئة مـدفع تصب نيرانها على « سيباستبول » ، فرد الروس التحية باحسن منها ، واستمر هذا الصراع مدة عشرة ايام وادى الى تحطيم جهاز الدفـاع الروسـي . ولكن قيادة الحملة المتحالفة

احجمت عن دخول المدينة ، ولو انها فعلت لما استطاعت حاميتها ان تبدي مقاومة جدية .

وقد اسفر هذا الصراع العقيم عن سقوط ستة آلاف روسي والفي بريطاني وفرنسي . وكان بين القتلى الفرنسيين الجنرال « بيزو » فحل محله الجنرال « نييل » ولكن سرعان ما اصطدمت آراؤه المعربة عن وجهة نظر الامبراطور ولي نعمته ، بآراء « كانروبير » الذي كان دائم التذمر من « تدخل نابوليون الثالث في ما لا يعنيه » . وحوالى منتصف ايار استقال « كانروبير » فحل محله الجنرال « بليسيه » الذي كانت له صفات القائد الحقيقي .

كان لبليسيه خطة بسيطة وواضحة فوضع تنفيذها نصب عينيه ضارباً عرض الافق بآراء « نييل » وباصرار نابوليون الثالث على فتح جبهة ثانية في داخل بلاد القرم . كانت خطته تقضي بالعدول عن اخذ سيباستبول بهجوم عام يبدأ وينتهي في يوم او يومين ، الى محاولة اخذها بالقضاء على حصونها الواحد تلو الاخر . وكان الجنرال « كانروبير » قد قام بمحاولة ضد شبه جزيرة « الكرج » للحؤول دون تموين « سيباستبول » فلم تصادف محاولته نجاحاً ، فقرر « بليسيه » اعادة الكرة وكان التوفيق حليفه . ولكن هذا النجاح لم يرض نابوليون فارسل يأمر « بليسيه » بعدم التعرض لسيباستبول قبل احتلال داخلية القرم . فرفض القائد اطاعة اوامر الامبراطور واصر على مهاجمة الحصون الروسية وفاقاً للخطة التي رسمها .

بدأت المدافع تضرب المدينة في صباح السادس من حزيران فالحقت القنابل اضراراً بالغة بـ« الاكمة الخضراء » و « الحصون البيضاء » . ومساء السابع منه بدأ الحلفاء مهاجمة المواقع الحصينة ، فاحتلوا اثنين منها في بضع

وعشرين دقيقة . واندفعوا مع حماستهم فهاجموا حصن « مالاكوف » فردتهم مدفعيته مكابدين خسائر جسيمة . ومالبث الروس ان استردوا « الاكمة الخضراء » ولكن الجنرال « بوسكه » انتزعها منهم بفضل قواته الاحتياطية .

على اثر هذا النجاح النسبي ارسل الامبراطور يهنىء « بليسيه » ويأمره مجدداً باحتلال داخلية القرم اولا ثم عزل « سيباستبول » قبل مهاجمتها . فاجاب القائد انه لن يتردد في الاستقالة اذا واصل نابوليون التدخل في ما لا يعنيه . ولم ينتظر الجواب بل امر باستئناف الهجوم . فمشى الانكليز في ١٨ حزيران نحو حصن « ريدان » والفرنسيون نحو حصن « مالاكوف » ، ولكن المحاولتين اخفقتا بالرغم من الشجاعة التي ابداها المهاجمون . وقد اضطر الفريقان الى اعلان يوم هدنة كامل انصرفوا خلاله الى دفن قتلاهم .

اغضب هذا الاخفاق نابوليون الثالث والرأي العام في فرنسا وانكلترا فاصدر الامبراطور امراً بعزل « بليسيه » ، ولكن الوزيرين « بايان » و « فليري » حالا دون نشر الامر في الجريدة الرسمية . فظل « بليسيه » على رأس الحملة بالرغم من اختلافه والانكليز .

وفي اواخر حزيران ظهر وباء الهواء الاصفر مرة اخرى فتوفي لورد « راغلان » في ٢٨ حزيران فحل محله الجنرال « سمبسون » . ورأت القيادة الفرنسية ان العمل من شأنه ان يقوي معنويات الجنود فامرت بحفر خنادق جديدة . اما الحالة في « سيباستبول » فلم تكن أفضل منها في صفوف الحلفاء ، فقد ضعفت روح المقاومة من جراء الخسائر الكبيرة التي منيت بها الحامية ومن جراء انتشار الامراض وندرة المواد الغذائية . وحل الجنرال « غورتشاكوف » محل الجنرال « مانشيكوف » في قيادة « جيش الخلاص » الذي

كان يحتشد شمال « سيباستبول » ، فهاجم مراكز الحلفاء في « تشرنايا » ولكنه رد على اعقابه مكابداً خسائر فادحة .

اثرت هذه الصدمة في اعصاب « غورتشاكوف » فكتب الى « بطرسبرج » يقول ان الاستمرار في الدفاع عن « سيباستبول » عمل جنوني . وشعر « بليسيه » ان الروس اصبحوا اضعف من ان يواصلوا المقاومة فحدد اليوم الثامن من ايلول موعداً للقيام بهجوم عام يصفي حساب المدينة قبل حلول فصل الامطار .

مهدت المدفعية للهجوم الكبير بصبها القنابل على المواقع المحصنة فاندلعت حرائق هائلة وحدثت انفجارات في مخازن البارود . وحوالى الظهر زحفت فصائل « الزواف » بقيادة الجنرال « ماكماهون » على انغام الابواق . ووسط الهتاف بحياة الامبراطور تسلقوا اسوار حصن « مالاكوف » . وبعد معركة عنيفة خرست البطاريات الروسية وخفقت الراية المثلثة الالوان على الحصن . وفي هذه الاثناء كان الانكليز يحاولون الاستيلاء على حصن « ريدان » فحصدتهم الرشاشات حصداً ، وكر الروس على فرقة الجنرال « ديلاك » التي تمكنت من احتلال احد الحصون الصغيرة فأخرجوها منه . وجرت هذه المعارك الى ملاحم هائلة جرح فيها القواد : « كورتو » ، و « بروشو » ، و « بوسكه » ، و « بورباكي » ، اما « بليسيه » فكان يراقب الالتحامات من « الاكمة الخضراء » وهو مالك زمام اعصابه . وكان « مكماهون » في حصن « مالاكوف » يجابه كرات الروس اليائسة فبعث اليه القائد الانكليزي « سمبسون » يسأله : « علام عولت ؟ » فأجاب « مكماهون » : « انا هنا وسأبقى . »

واخيراً ايقن « غورتشاكوف » انه خسر المعركة فأمر قواته بالتراجع معتزماً الجلاء عن « سيباستبول » تحت جنح الظلام .

وقبل ان يغادر الروس مدينتهم دمروا كل ما يمكن ان ينتفع به الحلفاء

ونسفوا مستودعات الذخيرة وقذفوا بمدافعهم الى البحر ، ثم اضرموا النار في المنازل ووقفوا هم شمال المدينة والحلفاء شرقها يتأملون « سيباستبول » الجمرة الكبيرة التي احمر من وهجها وجه السماء .

اسباب الانحطاط . — لم تفتح المصاعب والمشاق التي عانتها الحملة الفرنسية في القرم ، اعين الرؤساء في باريس على النواقص التي لا ندحة عن سدها في جيش ، ارادوا ان يجعلوا منه اداة فتح وتخويف ، وان يدعموا به سياسة خارجية راحت تتحدى النمسا بتأييد الوحدة الايطالية ، وتثير قلق بروسيا وانكلترا بهذا التأييد . لقد كشفت حرب القرم عن نقص في التنظيم وتقصير فاضح في الاعداد والتجهيز ، وعن قصر نظر بدت عواقبه عندما دهم الشتاء الجنود وليس لديهم ألبسة شتوية .

وقد هزم الفرنسيون الجيش النمسوي في « ماجنتان » و « سولفرينو » في صيف ١٨٥٩ ، ولكن التعبئة البروسية ارغمت الامبراطور على عقد هدنة لئلا تفاجأ فرنسا بهجوم من الشرق وهي بعد متورطة في المسألة الايطالية .

وبدلا من ان يعمد نابوليون الى تنظيم الجيش على اسس جديدة ، ترك كل شيء على حاله مكتفياً بتعزيز حاميات الحدود . وقد حمله المؤرخون المعاصرون تبعة الكارثة التي نزلت بفرنسا سنة ١٨٧٠ ، لانه لم يدع للوزراء المصلحين مجالا للعمل منذ ان ارتقى العرش . كان يأخذ بآراء المستشارين المتزلفين لانها تتفق دائماً ونظرياته ، ويطرح نصائح الوزراء والقادة المجردين . وقد سلم مقدرات الجيش الى رجال اهلهم لهذه المهمة الدقيقة اخلاصهم لشخصه وتفانيهم في خدمته .

ولم يكن لفرنسا في عهد نابوليون الثالث هيئة اركان حرب عامة . اما مدرسة اركان الحرب فكان يدخلها الملازمون الثانون ويخرجون منها بعد عامين

ضباط اركان حرب ، فينصرفون الى العمل وراء المكاتب بعيدين عن الجيش، لا يعرفون شيئاً عن عيوبه وحاجاته وامانيه . وعندما فكر الامبراطور في الغاء نظام البدل الذي ورثته الامبراطورية الثانية عن لويس فيليب ، صاح الضابط « فوريان » ، وكان عضواً في اركان الحرب : « ألا يزال نظام البدل قائماً ؟ حقاً انها للطخة عار في جبين هذا الجيل ! »

يقول الجنرل « ده غول » في كتابه « فرنسا وجيشها » ان نظام البدل الذي ظل معمولا به رغم الغائه رسمياً ليحل محله نظام تشجيع التطوع ، حمل الى الجيش في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر عناصر عديمة القيمة ، وقد قضى النظام الجديد بان يقدم الذين لا يرغبون في الخدمة مبلغاً من المال الى صندوق الجيش لينفق في دفع رواتب المتطوعة ، اي ان البدل اعطي اسماً آخر دون ان تجني المؤسسات العسكرية فائدة ما من هذا الاصلاح الاسمي .

السلاح . — في العام ١٨٢٩ انتقد الخبير العسكري الفرنسي «موران» خمول اركان الحرب العامة وقال في حضرة الملك : « هزمنا اوروبا لبضعة عشر عاماً مضت لان جيشنا كان اكثر مرونة من جيوش الاعداء ، تمكن قسمته بسهولة اذا ما دعت الحاجة الى المجازفة خارج ميدان القتال الرئيسي . وقد اخذ خصومنا عنا درساً مفيداً في هذا الباب ، اما نحن فنوشك ان نجهل ما لقناه سوانا . » وبعد ثلاثين عاماً جاء الانذار من الخارج . فقد كتب قائد بلجيكي في العام ١٨٥٩ يعجب لجمود فرنسا « في الوقت الذي تخطو فيه الامم المحيطة بها خطى جبارة الى امام . »

وفي الواقع كان التقدم بطيئاً جداً في حقلي التسلح والتكتيك . جهز جيش المشاة بعد حرب القرم ببندقية مخططة Rayé تلقم من فوهتها . وقد جربت في موقعة « ماجنتا » فاعطت التجربة نتائج مشجعة . ولكن

التحسين الذي ادخل على سلاح المشاة لم يرافقه اي مجهود في سبيل جعل حركاتهم اكثر مرونة وانطلاقاً .

وجهز الجيش في العام ١٨٥٨ بمدافع مخططة تبصق مقذوفاتها الى مدى ثلاثة الاف متر وتلقم من فوهاتها . اما الصاروخ فلم يخضع انفجاره لاي ضابط . بينما كان البروسيون يجهزون جيشهم بمدافع بعيدة المدى ، تلقم من قاعدتها وينفجر صاروخها في الوقت المحدد لانفجاره .

وقد اغفل نابوليون الثالث شأن المدفعية مع ان عمه نابوليون الاول دوّن في مذكراته « ان المدفعية هي سيدة مصائر الشعوب والجيوش » . وعندما لفته الجنرال « بليسيه » الى ما قد يترتب على هذا الاغفال من عواقب في وقت تكثر بروسيا من « افواه النار » (اي المدافع) هز الامبراطور كتفيه وقال : « هزمنا الروس بمدفعية هزيلة وسحقنا النمسويين دون ان نكون في حاجة الى هذا السلاح الكثير التكاليف . »

ورفض نابوليون الثالث تعديل قانون التعبئة والحشد الذي وضعه « غوفيون سان سير » تحت اشراف الحلفاء في غضون ١٨١٨ ، كما رفض بعث الوحدات الكبيرة الدائمة كالفيلق والفرقة واللواء ، وقد ارتجلت هذه الوحدات ارتجالا كما ارتجلت هيئات اركان حربها ونظام تموينها في حملتي القرم وايطاليا . الم يكتب « سان ارنو » الى مولاه من « غاليبولي » : « تصوروا جيشاً يمشي الى لقاء العدو وحدات غير منظمة . بل تصوروا جيشاً يجتاز الفراسخ بالمئات ليقاتل على ارض معادية وليس لديه من مقومات الحياة سوى مؤنة اسابيع معدودة . ان الحرب يا مولاي تحتاج الى اكثر من بندقية ومدفع وسيف . ان جنودكم لفي حاجة الى الخبز والاغذية والى القدور ملأى حساء ! »

وفي هذه الاثناء كان « مولتكه » يمد المانيا بجيش عظيم ويضع مقدرات

هذا الجيش بين ايدي قادة تتلمذوا على « غلوزويتز » وآمنوا بجدوى الهجوم المباغت بوسائل متفوقة . وقد امن نظام التعبئة لبروسيا النزاعة الى السيطرة جيشاً عاملا قوامه نصف مليون رجل ، يعززهم اربعمئة وخمسون الفاً من جنود الاحتياط .

اصلاح متأخر . — ولي المارشال « نييل » وزارة الحربية في العام ١٨٦٧ فاقنع الامبراطور بوجوب اصلاح نظام التعبئة ، والغى البدل ليحل محله نظام دعوة الطبقات ، على ان يكون المعبأون فئتين : فئة تخدم خمس سنوات واخرى خمسة اشهر ، ويتم الاختيار بالقرعة . اما الرجال الذين لا تشملهم التعبئة فيتألف منهم « حرس وطني متحرك » تناط به في الحرب مهمة تعزيز الجيش العامل .

كان اصلاح « نييل » خطوة لا بأس بها نحو الخدمة الجبرية ونحو استخدام كل موارد الامة في الرجال . ولكن المشروع ظل حبراً على ورق لان صاحبه اقيل قبل ان يضعه موضع التنفيذ . وقد احجم الامبراطور عن العمل به لانه يحمل الامة الفرنسية اعباء باهظة ، في وقت كان الرأي العام شديد التبرم بسياسة البلاط ، غير راض عن نتائج حملة المكسيك التي كلفت البلاد غالياً على غير طائل .

الكارثة . — اعتمدت هيئة اركان الحرب الالمانية في القضاء على المقاومة الفرنسية خطة وضعها « غلوزويتز » وتبناها « بسمرك » و « مولتكه » . وهي تقضي باحراز نصر حاسم في موقعة او اكثر ثم بالاستيلاء على باريس ومطاردة الجيش الفرنسي الى ما وراء نهر « اللوار » . وقد تمت التعبئة الالمانية بدقة ونظام تامين . اما الوحدات الفرنسية العاملة فقد حشدت بعجلة في مناطق الحدود على ان يلحق بها الاحتياط والعتاد الاضافي .

قضت الخطة الاستراتيجية الالمانية بنشر عدة جيوش لكل واحد منها دور معين في العملية الهجومية المدروسة . ونشر الفرنسيون فيالقهم على جبهة طولها مئتان واربعون كيلومتراً ولم يؤلفوا منها مجموعتي جيوش ، اولاهما في « الالزاس » بقيادة « ماكماهون » والاخرى في « اللورين » بقيادة « بازين » الا تحت ضغط الحوادث وفي زحمتها . وقد اثبتت الاشتباكات الاولى في « سبيكيرين » و « فورت » تفوق القيادة الالمانية في التصميم والتنفيذ وفي معالجة المواقف الطارئة . على ان خسارة الفرنسيين معركة الحدود لم تسدّ دونهم سبل المناورة ، وهذا ما املى على « مولتكه » القائد الالماني التابه الحذر والحيطة في استثمار النجاح المبدئي . وبسم الحظ للقيادة الفرنسية في « روزنفيل » حيث انقض الالمان صباح ١٧ آب ١٨٧٠ على جيش فرنسي لا يعرفون عنه شيئاً ، وكادت الدائرة تدور على المهاجمين لولا تردد المارشال « بازين » وسرعة خاطر الامير « فردريك شارل » والجنرال « الفنسلبن » قائدي الجيش المهاجم . وفي مساء ذلك اليوم كتب « بازين » الى الامبراطور مؤكداً خروجه منتصراً من موقعة « روزنفيل » لان العدو اخفق في قطع مواصلاته مع مدينة « متز » . وفي الوقت نفسه كان القائدان الالمانيان يعدان نفسيهما منتصرين لانهما قطعا طريق « فردون » ليرغما خصومهما على الانسحاب الى « متز » .

وفي صبيحة ١٨ آب تراجع الفرنسيون في « سان بريفا » فطاردهم الالمان وظلوا يجدّون في اثرهم حتى دخل هؤلاء « متز » فضربت القوات الالمانية حولها نطاقاً وما زالت بها حتى سلمت في السابع والعشرين من تشرين الاول . وبعد اسبوعين على معركة « سان بريفا » القت قوات « ماكماهون » السلاح في « سيدان » . وزالت قوات فرنسا النظامية من الوجود بعد مضي ثلاثة اشهر على

نشوب الحرب .

كان جيش « ماكماهون » يتألف من ثلاثة فيالق وفرقة مشاة سحبت من « تولوز » ومن ثلاثة الوية تنتمي الى « الحرس المتحرك » . وقد ضم هذا الجيش ١٢٤ الف رجل منهم عشرة آلاف خيال . كان على القيادة بعد انسحاب « بازين » الى « متز » ان تعتمد مناورة من ثلاث كان القيام بها ممكناً . فاما ان تحاول وقف العدو مرتكزة على مرتفعات « الارغون » لتغطية الطرق المؤدية الى باريس ، واما ان تنكفىء الى العاصمة وتكرس الجهود للدفاع عنها ، واما ان تندفع نحو « متز » لمساعدة « بازين » المحصور في داخلها .

لاقت الفكرةُ الاخيرة استحساناً في وزارةِ الحربية ، ووافق عليها مجلس الوصاية ومستشارو الامبراطورة « اوجيني » ، ولكن تنفيذها يحتاج الى جيش ملتهب حماسة والى قائد مقدام ، نافذ البصيرة ، سريع الخاطر ، فولاذي الاعصاب . وهي شروط لم تتوفر في « ماكماهون » ولا في جيشه .

قرر المارشال في ٢١ آب الانسحاب من مواقعه في « شالون » والاعتصام في « ريمس » . وفي ٢٢ منه اتجه الجيش نحو « باريس » بالرغم من تعليمات الرؤساء القاضية بالاتجاه نحو « متز » . ولكنه بدل اتجاهه غروب اليوم نفسه لان « بازين » ابرق يقول انه سيحاول بلوغ الطريق المؤدي الى « سانت منهود » ومنها الى « شالون » . اما اذا كانت الطريق محمية فانه سيتابع سيره الى « سيدان » ومنها الى « ميزيير » و « شالون » . وما ان اخذ « ماكماهون » علماً بهذه البرقية حتى قرر الاسراع الى ملاقاة زميله سالكاً الطريق التي تمر شمال « الارغون » .

وفي ٢٣ آب ولى الجيش الفرنسي « باريس » ظهره وبلغ نهر « سيب » ولكنه

لم يجد في هذه المنطقة المؤن التي كان في حاجة اليها ، فاتجه شمالا ليتمون بواسطة الخط الحديدي الذي يربط « ريمس » بـ « ميزيير » . وفي ٢٥ آب استأنف الزحف شرقاً فبلغ نهر « الاين » بين مدينتي « ريتل » و « فوزيه » .

وفي اليوم نفسه عرف « مولتكه » ان الفرنسيين يتجهون شمالا بشرق وانهم ينوون الاتصال بجيش المارشال « بازين » . وعلى الاثر ادخل القائد الالماني تعديلا على جبهته يتلاءم والوضع الجديد . وفي ٢٦ آب اتجه الجيش الفرنسي نحو « مونميدي » فاصطدمت ميمنته في قرية « بوزانسي » بوحدات من الخيالة الالمانية . وبدلا من ان تتخطى هذا الحاجز قبعت في مراكزها واسرع « ماكماهون » فحشد قواته الرئيسية في وجه الخيالة المعادية . وفي صباح ٢٧ آب عرف القائد الفرنسي ان تدابيره لم تكن في محلها فأمر قواته بان تنسحب الى « ميزيير » صارفاً النظر عن بلوغ « مونميدي » . ولكن الجيش لم يبت ليلته في « ميزيير » فقد تلقى « ماكماهون » امراً من « باريس » بوجوب السعي الى الاتصال بـ « بازين » مهما كلف الامر ، فلم يسعه الا الاذعان . وفي ليل ٢٨ آب نشر قواته على النحو الآتي :

عسكر الفيلق الخامس في بلدة « بلفال » والفيلق السابع في « بو-أو-بوا » والفيلق الاول في بلدة « لوشين » والفيلق الثاني عشر في « بوزاس » .

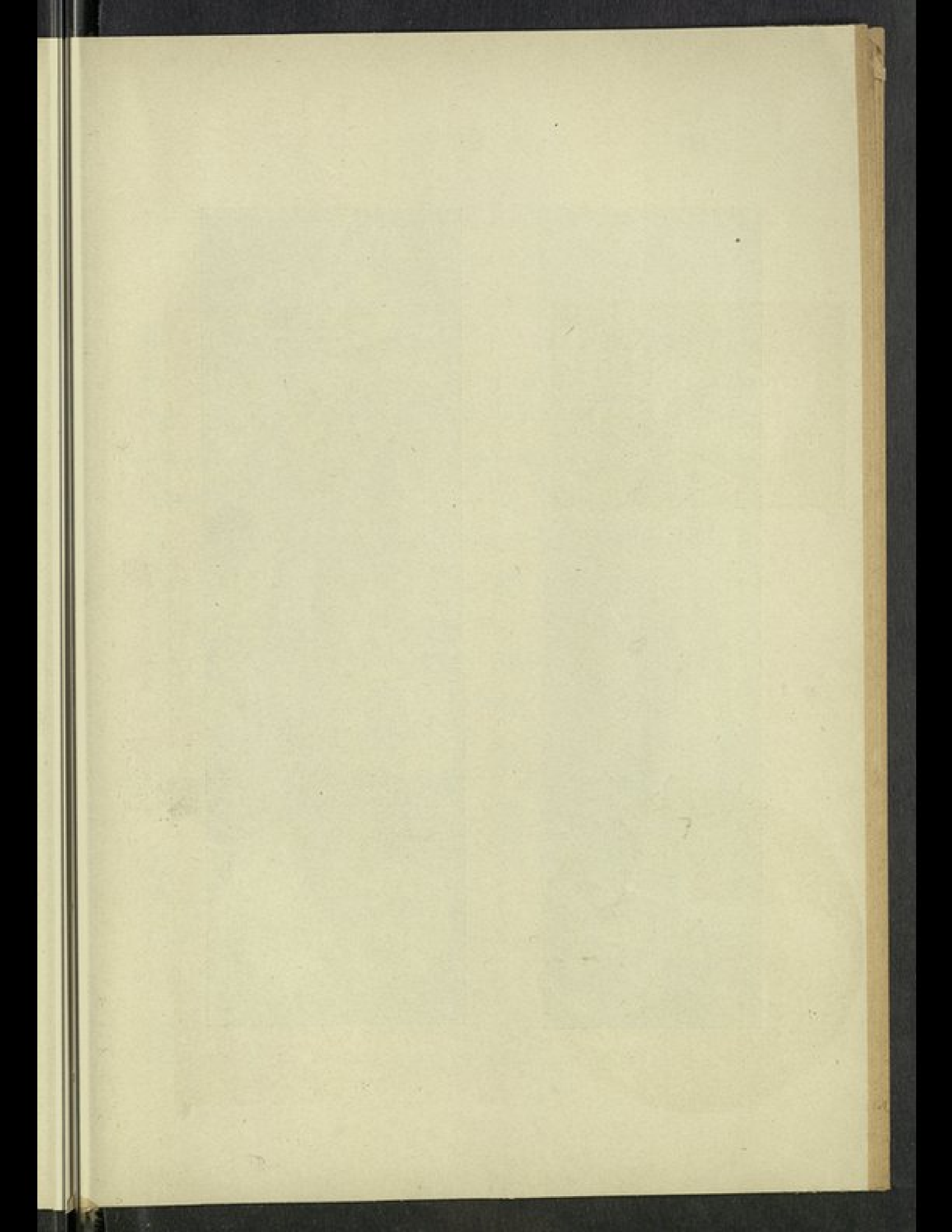
وفي اليوم التالي حاول « ماكماهون » عبور نهر « الموز » مستخدماً في هذه العملية جسر « ستيناي » فوجد الجيش الالماني الرابع قد سبقه الى احتلال الجسر . وجرب « مولتكه » استدراج خصمه الى القتال على الضفة اليسرى للنهر ، ولكن القائد الفرنسي تفادى المعركة وشرع جيشه يعبر « الموز » الى الضفة اليمنى . فعبره الفيلق الاول دون حادث ماراً فوق جسر « ريميلي » وعبره الفيلق السابع عند « فيلير » و « ريميلي » و « سيدان » ، تطارده الخيالة



سرب من طيارات « فارمن » من طراز العام ١٩١٢ .



جنود من سكان الامبراطورية الفرنسية (من الشمال الى اليمين : مراكشي ، جزائري من اصل فرنسي ، هندي صيني ، سنغالي) .





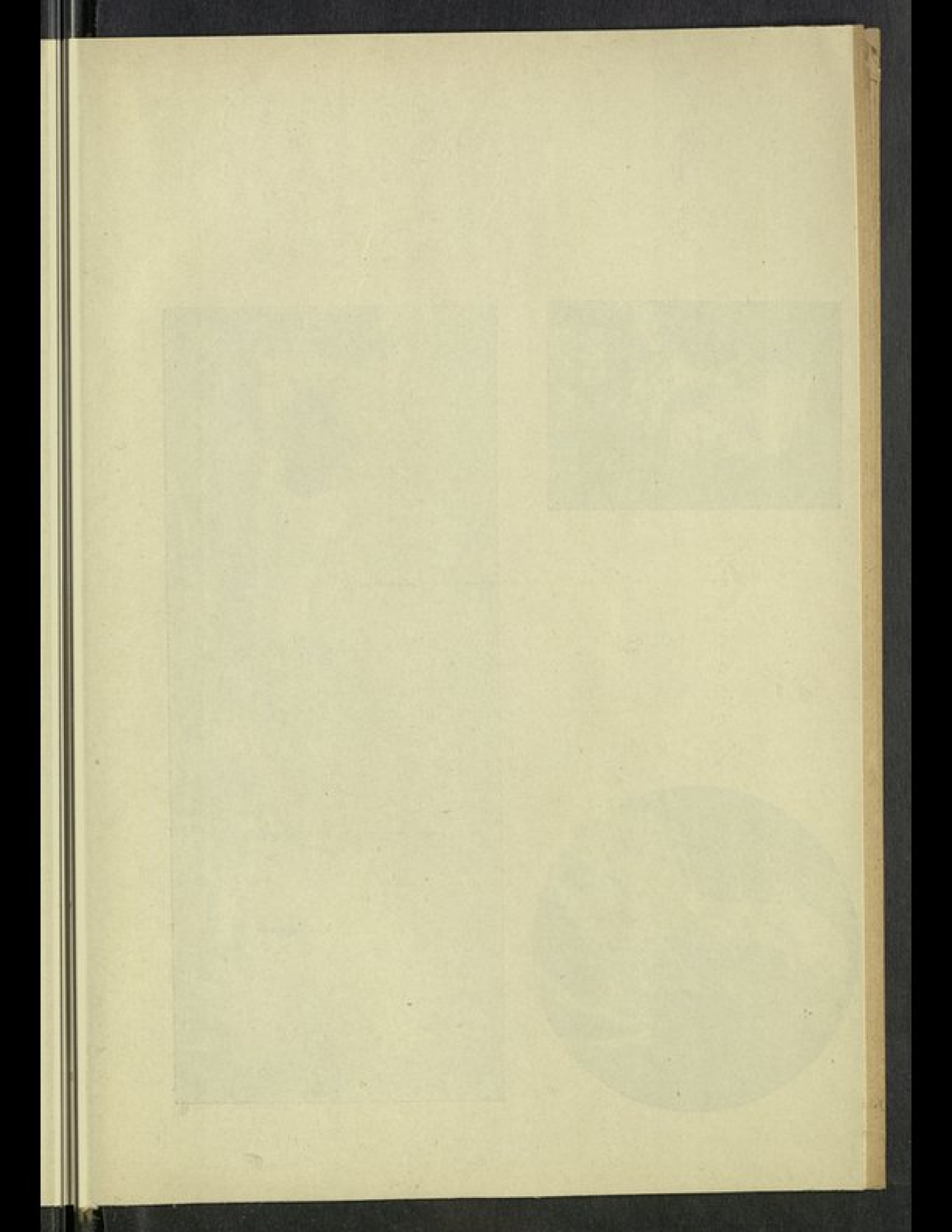
فرنسيس غارنيه



الاميرال ريغودي جنوبي



استيلاء الاميرال ريغو دي جنوبي على مدينة « سيغون » عاصمة الهند الصينية في اليوم السادس عشر من شباط ١٨٥٩ (بريشة موريل ماسيو) .





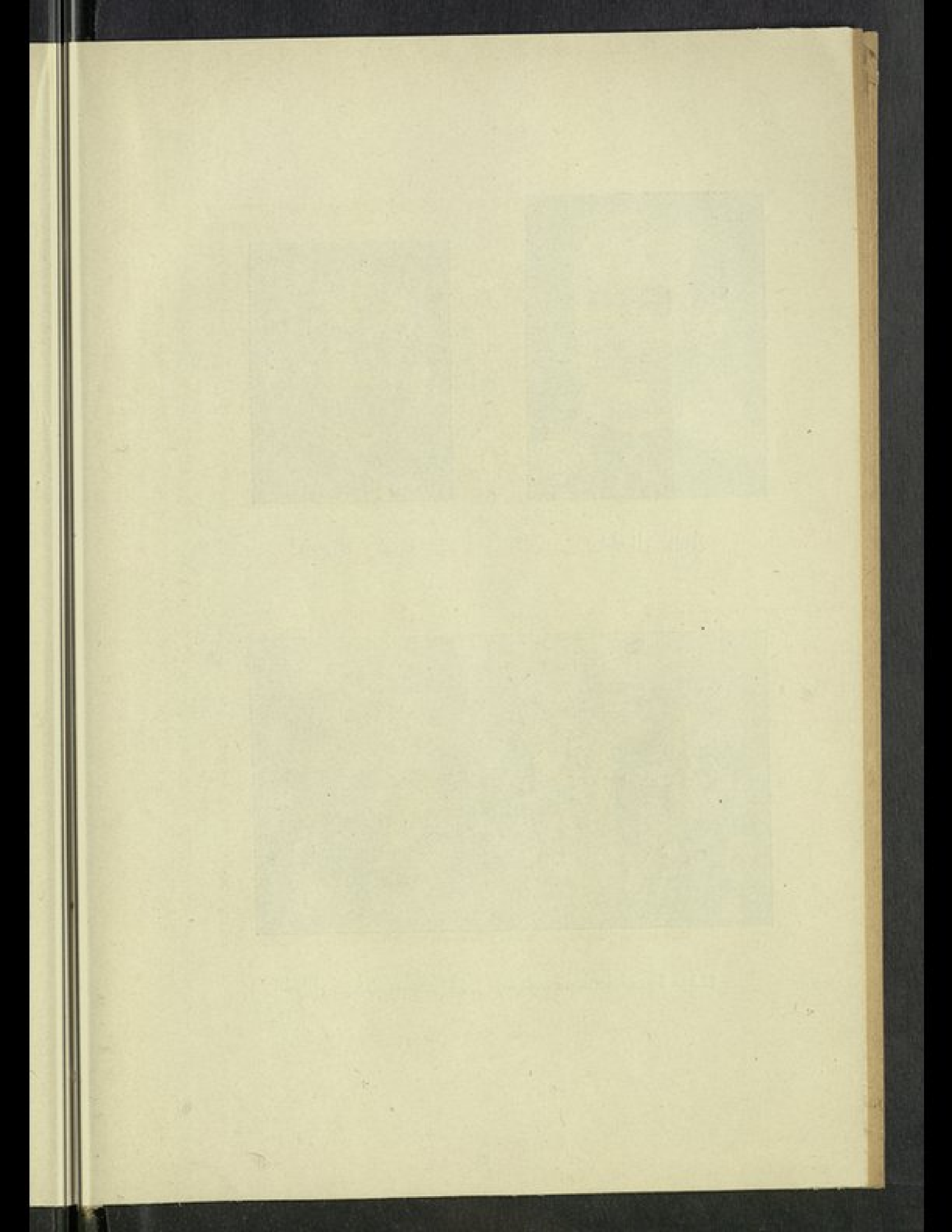
الجنرال غالياني



الاميرال كوربه



الجنرال دوشين يدخل الى « تاناناريف » عاصمة جزيرة مدغشقر .

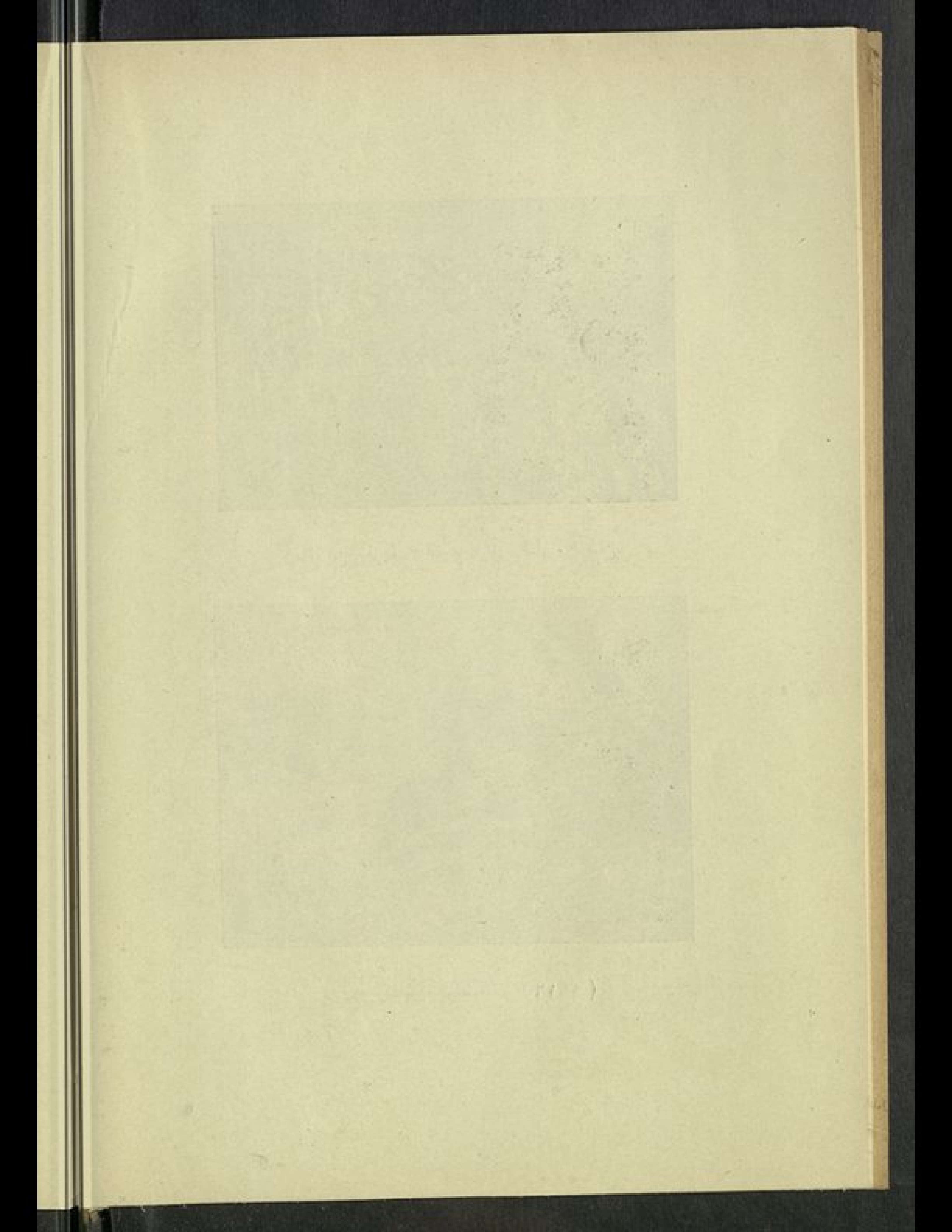


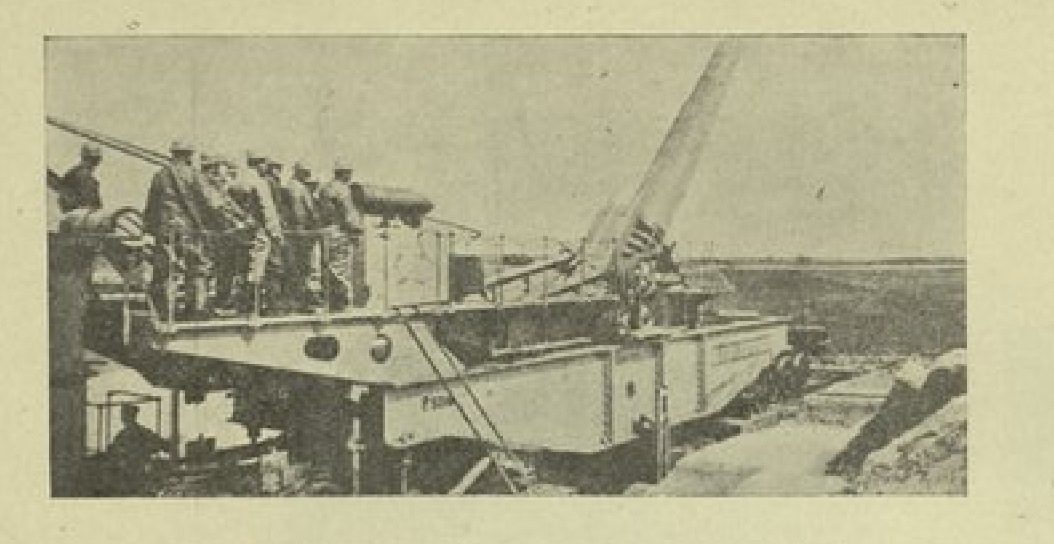


رماة من فرقة « القوم » في قفار مراكش

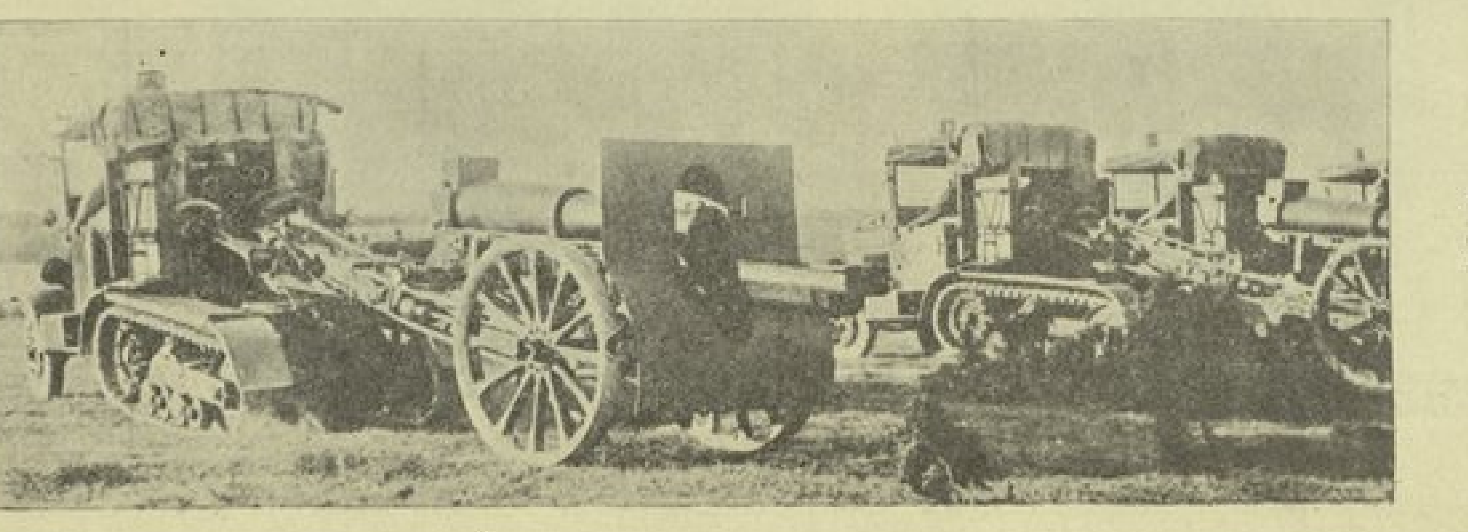


مدفع رشاش هوتشكنس (١٩١٦)

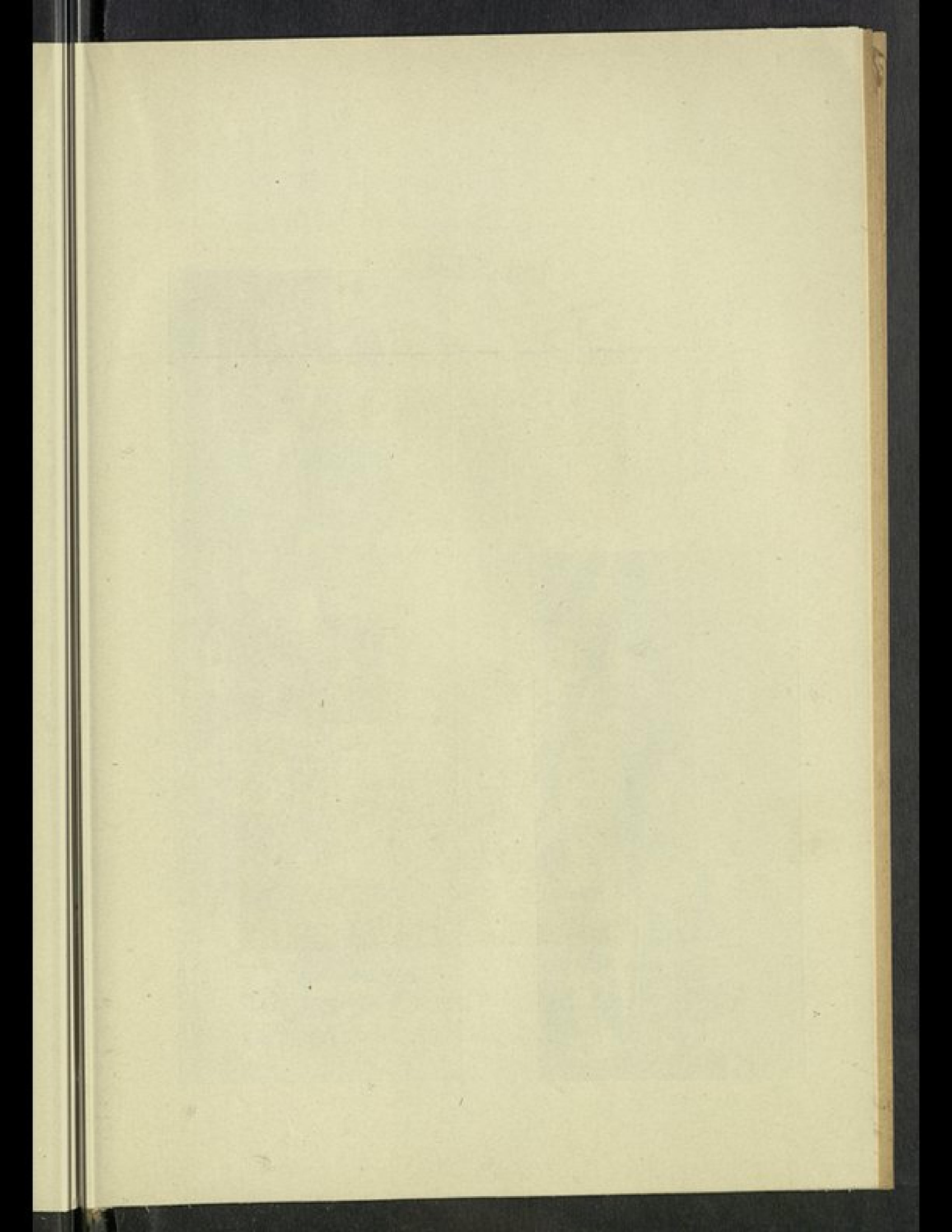


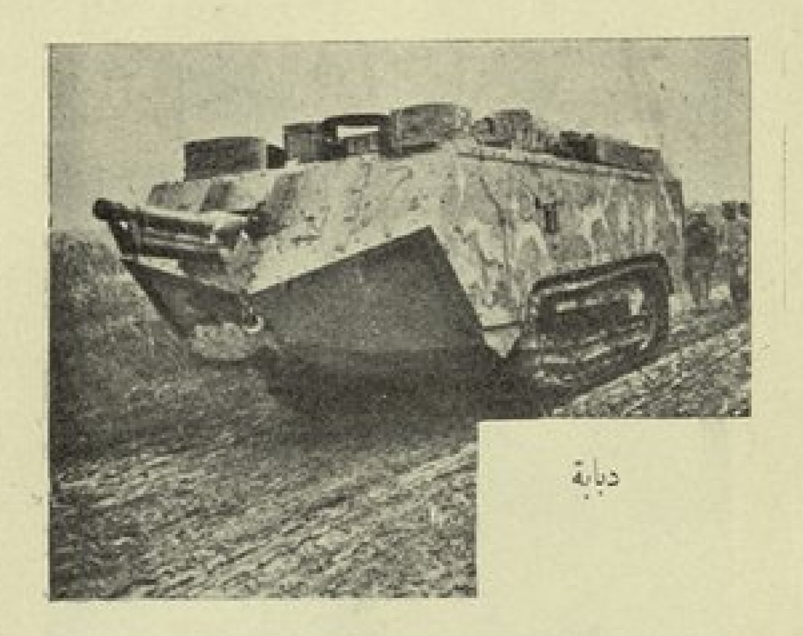


مدفع من عيار ٤٠٠
وهو طراز جديد من المدفعية الثقيلة



مدافع جديدة من
عيار ٢١٠ تقطرها
سيارات خاصة .

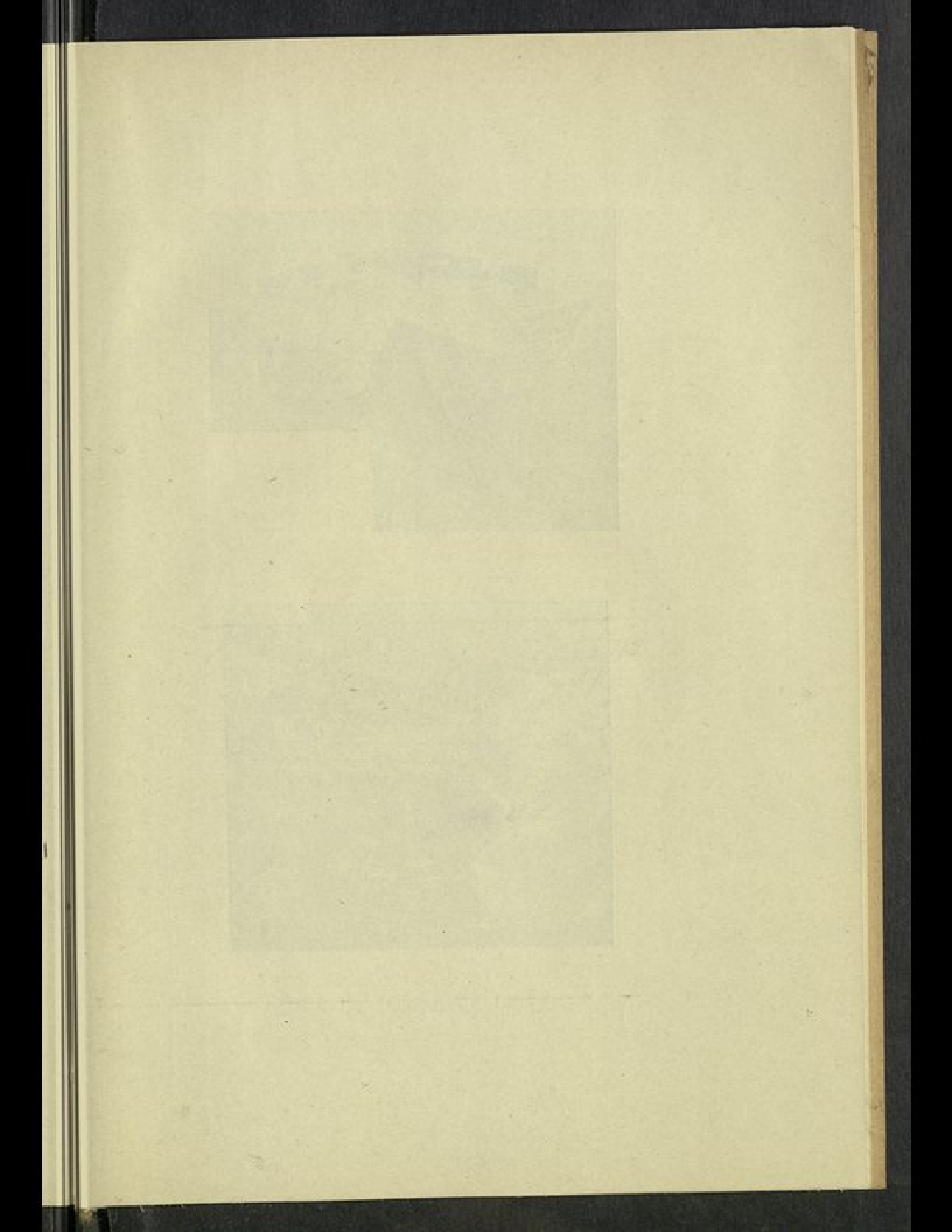




دبابة

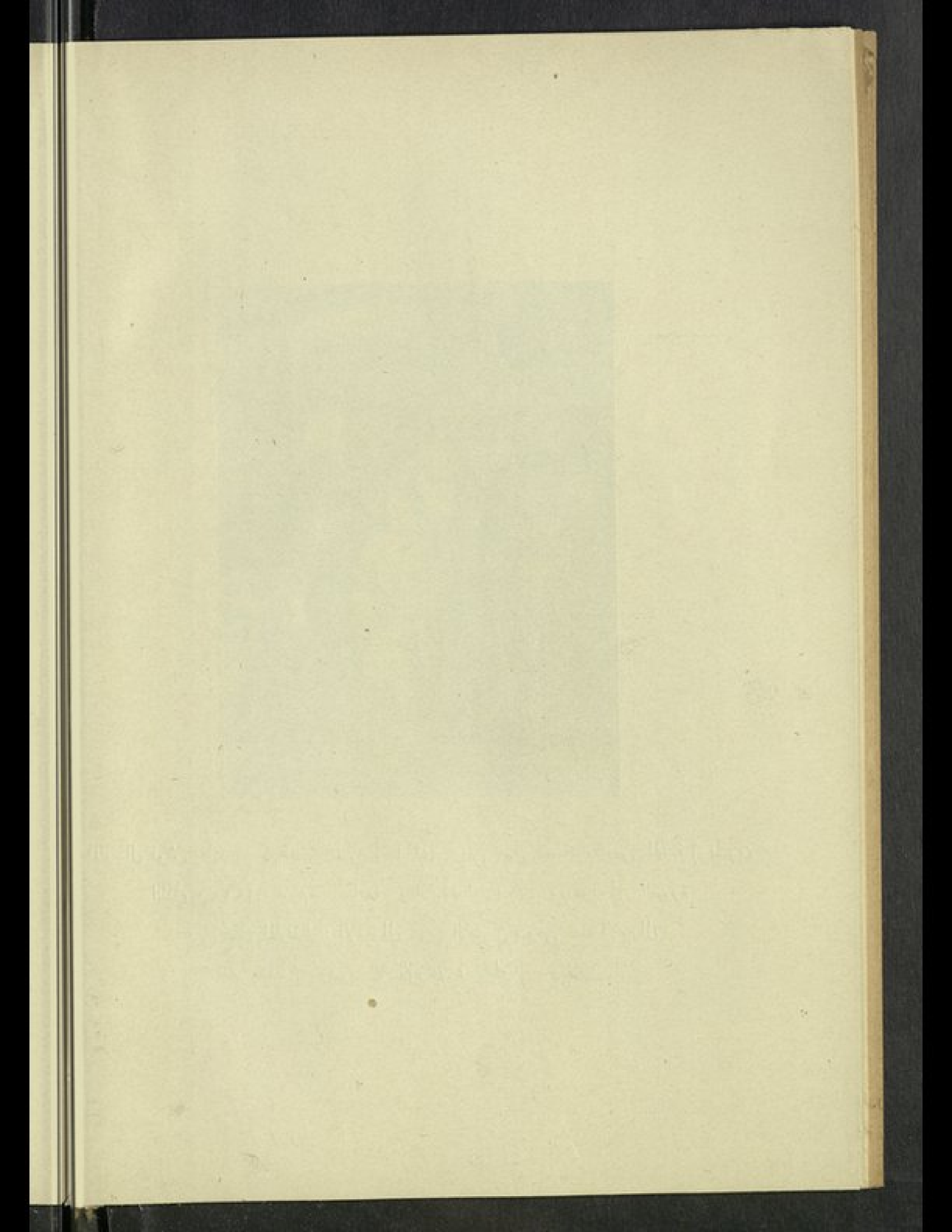


آلة لرمي الرمانات من الخندق



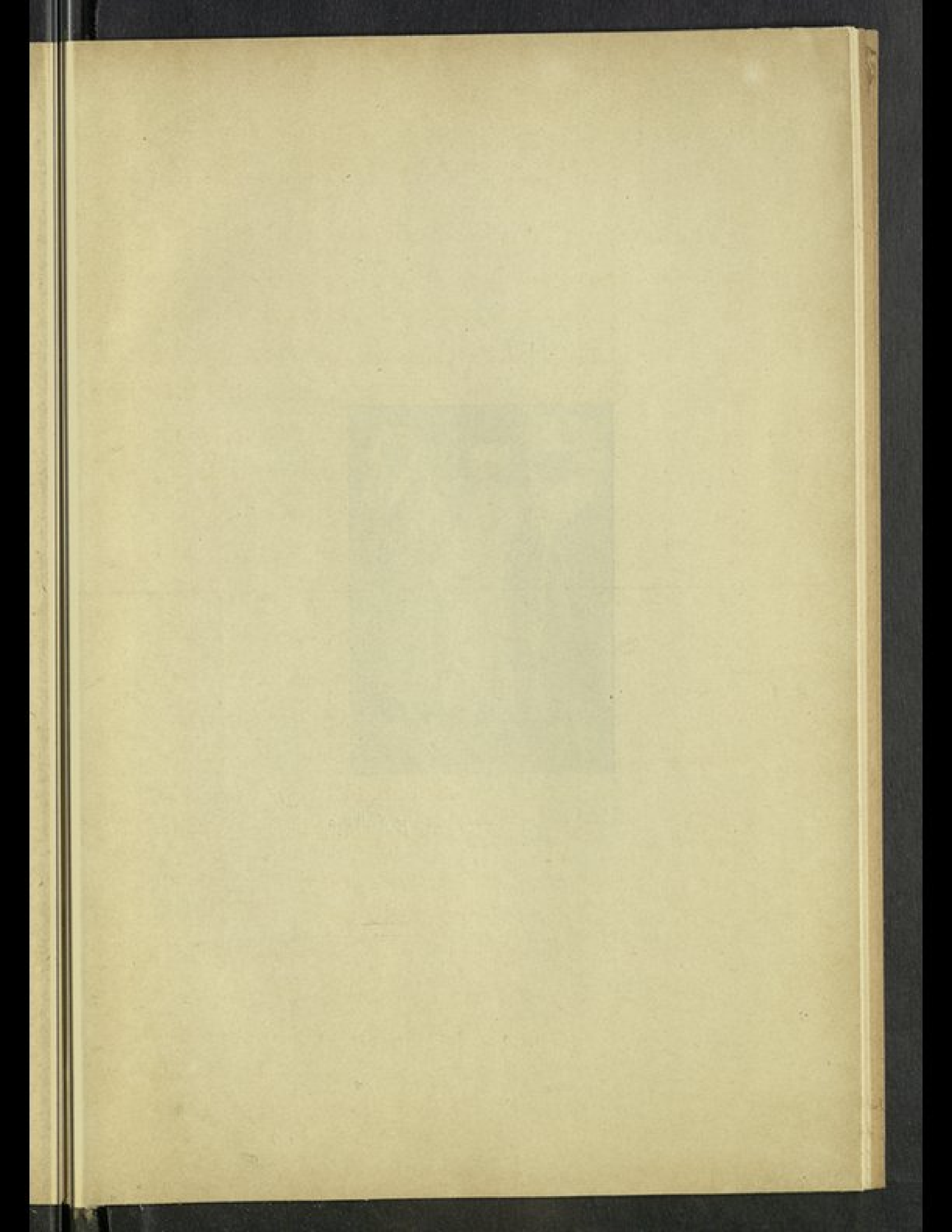


المارشال فوش يغادر مركبة قطار النصر عائداً الى باريس يحمل للحكومة نص الهدنة (تشرين الثاني ١٩١٨ الساعة السابعة والدقيقة ٤٥) . ويبدو في الصورة عن شمال المارشال : الاميرال هوب الاميركي ، وعن يمينه الاميرال السر تيلسن ويمس الانكليزي ، فالجنرال ويغان .





عبد الكريم زعيم الريف الشهير بعد استسلامه



الالمانية . ولاقى الفيلق الخامس مشقة كبيرة في الانتقال الى الضفة الاخرى عبر جسر « موزون » . وتخلى في الطريق عن نصف مدافعه . وهكذا نجح « ماكماهون » في وضع النهر حاجزاً بينه وبين العدو ، فنصح له ضباط اركان حربه بالسير نحو « ميزيير » والاتجاه منها شمالا بغرب ليتسنى له تفادي التطويق . ولكنه لم يفعل بل حشد جيشه على المسطح المثلث الزوايا الذي يشرف على « سيدان » واغفل احتلال مرتفعات « سان مانج » و « فالبزيت » التي تتيح له عند الاقتضاء القيام بحركة انكفاء ناجحة .

ورأى « مولتكه » ان يبدأ باحتلال قريتي « كارينيان » و « دوزي » ليقطع على الفرنسيين الطرق المؤدية الى الشرق . وقد قام بهذه المهمة الجيش الرابع. وفي الوقت نفسه كان الجيش الثالث يلقي جسوراً على نهر « الموزل » (دمر الفرنسيون الجسور بعد عبورهم النهر) ويعبره عند « ريميلي » و « دونشيري » الواقعتين جنوب « سيدان » .

وفي اول ايلول هاجم البافاريون والساكسونيون بلدتي « بازيل » و « لامونسيل » ، فجرح « ماكماهون » امام هذه البلدة وسلم القيادة الى الجنرال « دوكرو » ، وكان من المتحمسين لفكرة الانسحاب الى « ميزيير » فما ان آلت اليه مقاليد الجيش حتى اصدر تعليماته بالانسحاب . وقبل ان توضع خطته موضع التنفيذ وصل من باريس الجنرال « ومبفن » وابرز مرسوماً بتعيينه قائداً عاماً . وكان اول تدابيره الغاء اوامر « دوكرو » والاصرار على مواجهة العدو .

وفي صباح الثاني من ايلول شرع « مولتكه » ينفذ التطويق . فاحتل البافاريون « بازيل » والساكسونيون « لامونسيل » و « ديني » ، وابعد الى الشمال كانت مدفعية الحرس البروسي تطلق على الفيلق الفرنسي الاول نيرانها الكثيفة .

وكان الفيلقان الالمانيان الخامس والحادي عشر يهاجمان من مرتفعات « سان مانج » المواقع الفرنسية في « ابزلي » و « فلوان » . وما لبثت مدفعية سائر الفيالق الالمانية ان فتحت افواهها لتمنع الخيالة الفرنسية من شن حملات تفسد خطة التطوق . وعند الظهر جلا الفيلق الفرنسي السابع عن « ابزلي » واطل العدو على « فلوان » فحملت عليه الخيالة محاولة صده ، ولكن جهودها تكسرت على صخرة عناده . وافلت الزمام من يد القيادة فراحت الوحدات الفرنسية تلجأ الى « سيدان » بعد ان اعياها اختراق النطاق الالماني . وادرك نابوليون الثالث ان المقاومة في « سيدان » لن تجدي فتيلا فامر قواته بالقاء السلاح .

الفصل العاشر

جيش الجمهورية الثالثة

١ – كيف ارتجل الدفاع الوطني

بعد ثورة الرابع من ايلول ١٨٧٠ لم تجد « حكومة الدفاع الوطني » من القوات النظامية سوى خمسة كراديس من المشاة وستة من الخيالة وعشر بطاريات . وكانت حكومة الامبراطورية قد ارتجلت في زحمة الحوادث ثلاثة وخمسين كردوساً من المشاة والحقتها بالحرس الوطني « المتحرك » ، وفتحت باب التطوع الاختياري لقبول الذين لم تشملهم التعبئة ، ودعت طبقتي ١٨٧٠ و ١٨٦٩ فبلغ عدد المجندين من الطبقتين ٢٤٠ الف رجل . وشرعت وزارة الحربية منذ ٢٥ تموز ١٨٧٠ تنشىء الاستحكامات حول باريس وناطت الدفاع عن العاصمة بالحرس الوطني تعززه حامية المدينة وكانت تتألف من اربعين الف رجل . وفي الوقت نفسه شجعت وزارة الداخلية تأليف العصابات ووزعت الاسلحة عليها بسخاء .

وخطت الحكومة خطوة لابأس بها نحو التعبئة العامة فاستصدرت مرسوماً بدعوة جميع المحاربين القدماء القادرين على حمل السلاح وجعلت الانخراط في « الحرس الوطني المتحرك » واجباً وطنياً يتحتم على من هم دون الثلاثين القيام به تحت طائلة العقوبات الشديدة . اما من هم فوق الثلاثين فقد دعوا الى التطوع

في الحرس ، وفرض على الذين تخلفوا ، التنازل عن اسلحتهم للدفاع الوطني .

ولكن الانتفاضة التي هزت الامبراطورية الثانية في ايامها الاخيرة ظلت مقصورة على انصار العهد ولم تهز الشعب الا بعد زوال الامبراطورية « المسؤولة عن الكارثة » . (من خطبة لغامبتا في ٤ ايلول ١٨٧٠) . وما ان حصل انقلاب ٤ ايلول حتى اتسم مجهود الدفاع الوطني بطابع شعبي ، وهبت فرنسا من اقصاها الى اقصاها تطالب بتعبئة القوى والموارد ووضعها في كفة الميزان .

الدفاع عن باريس . — تألفت الحكومة الجديدة (حكومة الدفاع الوطني) من عناصر باريسية بحت ، فكان طبيعياً ان يقرر الوزراء البقاء في العاصمة المهددة ليشرفوا على الدفاع عنها . واذاعوا في السادس من ايلول بياناً جاء فيه : « قررت الحكومة البقاء في باريس لتشرف بنفسها على العمليات الدفاعية . ولا غرو ، ففي باريس تتجمع آمال الوطن وامانيه . لقد اولانا سكان المدينة ثقتهم الغالية ووضعوا مقدرات العاصمة بين يدي القائد المخلص « تروشو » الذي اخذ على عاتقه تنظيم الدفاع . »

عين « تروشو » قائداً عاماً لحامية باريس في التاسع عشر من آب ١٨٧٠ . وجاءت حكومة الدفاع الوطني فاختير القائد رئيساً لها واحتفظ بالقيادة العامة « لانه أمن للعاصمة كميات لا بأس بها من الاطعمة والذخائر » . على ان « تروشو » الذي اشرف على تحصين باريس لم يدخل على الحصون القائمة التحسينات التي يتطلبها تقدم السلاح الهجومي . فالمعسكرات الحصينة التي انشئت في عهد « فوبان » ظلت على حالها . وسار العمل ببطء في حفر الخنادق وانشاء الحصون المستقلة خارج الاسوار . وعند وصول الالمان لم يكن ثمة حصن واحد مكتمل البناء .

يقول المؤرخ « ف . كانونج » في كتابه « الحرب الفرنسية الالمانية » : « ان « تروشو » لم يكن رجل الساعة . كان الموقف خطيراً لا يعالجه سوى رجل متفوق ولم يكن الجنرال « تروشو » هذا الرجل . »

انصرف القائد رئيس الحكومة الى السياسة فوقف عليها نشاطه مهملاً ما عداها . وقد خلت تدابيره ابان الحصار من الحزم اللازم فكان الدفاع فوضى ، ولم يطل الامر بالحامية حتى دب الوهن الى عزيمتها . وينصف بعض المؤرخين ، ومنهم الكولونيل « ريفول » ، القوات النظامية فيقول انها قاتلت بحماسة حتى اللحظة الاخيرة . كانت هذه القوات تتألف من اربعة عشر الف بحار وثمانين الفاً من الجيش العامل وخمسة آلاف خيال وثلاثين بطارية عززت فيما بعد بتسعين بطارية ميدان .

اما الوحدات التي ارتجلت ارتجالاً فقد كانت تضم نصف مليون رجل منهم مئة الف ينتمون الى الحرس الوطني المتحرك جاء بهم « تروشو » من الاقاليم ، وقد انصرف هؤلاء في اثناء الحصار الى السكر والعربدة والسلب والنهب . وروى الجنرال « دوكرو » في مذكراته (وكان من قادة الحامية الباريسية ابان الحصار) ان « تروشو » عهد الى ١٥ الفاً من رجال الحرس بالدفاع عن حصن « مون فاليريان » فرفضوا لان الحصن كان عرضة لنيران المدفعية الالمانية .

وضمت الوحدات المرتجلة ٣٥٠ الف رجل من المحاربين القدماء والمتطوعة فكان مسلك معظمهم غير مشرف بشهادة الجنرال « دوكرو » . اما الفيالق الحرة فقد تميز منها : « كشافة السين » و « فصائل الهندسة المساعدة » . وجنح بعض القطعات الحرة الى العمل على هواه غير ملتفت الى اوامر الرؤساء ونواهيهم .

ولئن يكن الارتجال قد اعطى نتائج مخيبة للامال من هذه الناحية ، فقد جاءت نتائجه مرضية في حقل الاعتدة .

كان في متناول الحامية منذ اللحظة الاولى نصف مليون بندقية و ١٢٢ مليون رصاصة . ولم تعوز الحامية المدافع والمقذوفات . اما المؤن فقد امنتها حكومة الامبراطورية بفضل التدابير التي اتخذها وزير التجارة بالاشتراك والمجلس البلدي . ولم تنقطع الصلة بين باريس والخارج بفضل المناطيد التي استخدمت للمرة الاولى في مطلع شهر تشرين الاول . وقد غادر منها العاصمة في اثناء الحصار خمسة وستون منطاداً ناقلة ١٦٤ مسافراً ومليونين ونصف مليون رسالة ، ولم يسقط منها بايدي الاعداء سوى ثلاثة مناطيد .

على ان ما سبب اخفاق الدفاع عن باريس لم يكن عاملا مادياً بحتاً . فقد واجهت المدينة الحصار بثقة وايمان بمقدرتها على الصمود . ولكن هذا الايمان وتلك الثقة لم يعمرا طويلا لان الحكومة لم تعرف كيف تبقي على معنويات السكان سليمة فانهارت وانهارت معها المقاومة .

الحرب خارج العاصمة . — قلنا ان حكومة الدفاع الوطني أبت براح باريس ولكنها سرعان ما ادركت خطأها . فالعاصمة من الوجهة العسكرية ذات اهمية ثانوية ، وبقاء « تروشو » وزملائه فيها يعني تخليهم عن المناطق المهددة بالاجتياح وايثارهم السياسة على ادارة الحرب .

وفي السادس عشر من ايلول ١٨٧٠ غادرت باريس الى « تور » بعثة حكومية عهد اليها بتنسيق الجهود الدفاعية في المناطق . فألفت البعثة الجو متلبداً بالغيوم . فالناس غير راضين عن اغفال الحكومة الدفاع عن البلاد . والقوات النظامية متبرمة بضؤولة العتاد الذي ترك لها لان الحكومة عززت الدفاع عن باريس على حساب سائر المدن الفرنسية .

وفي التاسع من تشرين الاول نقل منطاد الوزير « غامبتا » من العاصمة الى مدينة « تور » بمهمة فوق العادة ، فتسلم فور وصوله مقدرات وزارتي الحربية والداخلية وبسط منهاجه في نداء وطني دعا فيه المواطنين الى الاتحاد وتكريس الجهود للحرب . ووضع « غامبتا » نصب عينيه تجهيز الحاميات بالاسلحة وتنظيم الصناعة الحربية ، ولكنه لم يجد العدد الكافي من الموظفين وارباب الاختصاص فقد استأثرت باريس بتسعين بالمئة من رجال الادارة والقادة العسكريين . وعلى الرغم من ذلك عبأت وزارة الحربية وجهزت في غضون اربعة اشهر ستمئة الف جندي بين فارس وراجل . وتمكن فرع المدفعية خلال المدة نفسها من مهر الجيش بالف واربعمئة قطعة من مختلف العيارات .

وعالج « غامبتا » مشكلة الملاكات بثلاثة حلول :

١ ــ مضاعفة عدد الجنود في السرية الواحدة لان عدد الرؤساء (كابتن) لم يكن كافياً ، ٢ ــ وقف العمل بقوانين الترقية ليتسنى للحكومة ان تضع المقدمين (قومندان) على رأس الكراديس ، والزعماء (ليوتنان كولونيل) على رأس الالوية ، وآمري الالوية على رأس الفرق والفيالق ، ٣ ــ تنظيم الجيش المباعد ، وقد قضى هذا التنظيم بان يتولى كل فوج من المتطوعة انتخاب قائده .

واهتم « غامبتا » بتوحيد القيادة في المناطق ووفق الى قائد لامع هو الجنرال « شانزي » فاستطاعت الجيوش الفرنسية المرتجلة ان تقاوم العدو اربعة اشهر وبضعة عشر يوماً . واعترف « مولتكه » في مذكراته بان اركان الحرب الالمانية دللت على قصر نظر عندما اسقطت من حسابها حيوية الشعب الفرنسي ووطنيته : « خيل الينا ان الحرب انتهت بعد « سيدان » و « متز »

ولكن القوات الفرنسية غير النظامية ارغمتنا على القتال خمسة اشهر واحبطت الكثير من خططنا . »

ويعتقد الكولونيل « ريفول » ان جيش الامبراطورية الثالثة المرتجل كان ، رغم عيوبه الكثيرة ، قادراً على احراز النصر لو قيض له قادة اكفاء ومواصلات منظمة واسلحة موازية للاسلحة الالمانية . يضاف الى هذا جهل اركان الحرب وتقاعس المؤخرة عن سد حاجات الجيش وانعدام اللحمة بين القطعات المختلفة .

٢ – السلم المسلح

حرصت الحكومات التي تعاقبت في فرنسا بين ١٨٧٢ و ١٩١٣ ، على تنمية الجيش العامل على الرغم من تناقص عدد المواليد . كان عدد القوات العاملة سنة ١٨٧٥ ، ٤٤٠ الف رجل فبلغ سنة ١٨٨٢ نصف مليون . وقفز سنة ١٨٨٩ الى ستمئة الف بفضل القانون الذي جعل مدة الخدمة ثلاث سنوات. وحافظ على هذا المستوى حتى سنة ١٩٠١ فبدأ يتناقص . وهبط في اواخر سنة ١٩٠٤ الى نصف مليون ، لان الحكومة خفضت سنوات الخدمة فجعلتها اثنتين بدلا من ثلاث . ومنذ العام ١٩١٠ اخذ قادة الرأي يتجهون نحو الخدمة الطويلة الامد بعد ان سمعوا بجلاء قرقعة السلاح عبر الرين . وفي العام ١٩١٣ اخضعت الطبقات لخدمة مدتها ثلاث سنوات ، فارتفع عدد الجيش العامل الى ٨١٩ الف رجل ، يعززه في الحرب ثمان وعشرون طبقة من قوات الاحتياط .

ولم تقصر حكومات الجمهورية الثالثة اهتمامها بالجيش العامل على زيادة عدد المجندين ، بل حرصت على رفع مستوى الجندي الفرنسي ، اي انها عنيت بالكمية والنوع في وقت معاً .

اكتشفت حكومة ١٨٧٢ اهمية النوع على ضوء الحرب السبعينية . وقد جاء قانون ١٨٧٢ نتيجة فوز انصار الجيش المحترف او جيش النخبة الذين طالبوا في المجلس الوطني بتقديم الجودة او النوع على العدد . غير ان القانون المذكور ابقى على نظام « الامة المسلحة » لان النواب العسكريين اصروا على المساواة في التكاليف العسكرية .

وقد وفق القانون بين النزعتين بأن فرض الخدمة الجبرية على الفرنسيين الذكور والغى البدل والاستثناء فارضى بهذا انصار العدد او نظام « الامة المسلحة » . اما انصار الجودة او الجيش المحترف فقد ارضاهم بأن اخضع للخدمة الطويلة الامد (خمس سنوات) عدداً معيناً من المعبأين . اما الباقون فيتطوعون لمدة ستة اشهر ويتألف منهم الاحتياط العام .

بدا هذا التدبير موفقاً للوهلة الاولى . ولكن العيوب التي خفيت على مجلس ١٨٧٢ اتضحت للمجلس الذي تلاه . فقد لاحظ ممثلو الامة ان المساواة في التكاليف العسكرية لا وجود لها الا بالاسم مادام جنود الكردوس الواحد يخدمون آجالا متفاوتة ، وان جيشاً يكون نصف قطعاته متعلماً ومدرباً اكمل تدريب والنصف الآخر ملماً بفن القتال الماماً سطحياً لا يمكن ان تشد بعضه الى البعض الآخر رفاقة السلاح واللحمة التي لا ندحة عنها في جيش نظامي .

وقد اقترح فريق من النواب في العام ١٨٧٦ جعل مدة الخدمة ثلاث سنوات والغاء التطوع والاستثناء ، واقترح فريق آخر جعل المدة سنتين للمشاة وخمساً للخيالة ، وانهالت الاقتراحات بين ١٨٧٧ و ١٨٨١ دون ان يعتمد المجلس واحداً منها . وفي العام ١٨٨٥ وافق النواب على قانون السنوات الثلاث ولكن الشيوخ ردوه . فطرح على بساط البحث مجدداً بعد اربع

سنوات (١٨٨٩) وكانت حجة انصار المشروع انه يؤمن المساواة في التكاليف العسكرية، فاقرته اكثرية المجلسين «لانه يتيح تنشئة الامة عسكرياً». (من خطاب النائب فريسينه في المجلس).

بيد ان الاحتفاظ بالمجندين مدة ثلاث سنوات عبء ينوء به كاهل الخزينة، فعادت الدولة الى نظام الاستثناء فاعفت رب العيلة التي لا معيل لها سواه واكبر الايتام سناً ووحيد الارمل. وجعلت مدة الخدمة سنة واحدة لاصحاب المهن الحرة الذين لا يجوز انفكاكهم عن عملهم مدة طويلة كالاطباء مثلاً.

ولم يطل الامر بالرأي العام حتى هب يطالب بتقصير مدة الخدمة، وتبنى كثير من النواب والشيوخ هذه الفكرة لان قانون ١٨٨٩ اضر بالبلاد اقتصادياً وعسكرياً. ففي الحقل الاقتصادي ابعد الفلاحين والصناع عن ميادين نشاطهم مدة طويلة، فلما انتهت خدمتهم لم يعد كثير منهم الى ارضه ومصنعه، فتأثر الجهاز الاقتصادي بهذا الاعراض الى حد كبير. وادى اعفاء اصحاب المهن الحرة من ثلثي المدة الى اقبال الشبان عليها، فاقفرت البيوت التجارية والمعامل.

وفي الحقل العسكري ادت كثرة الاستثناءات الى انعدام التضامن بين الخاضعين لقانون الثلاث السنوات وبين المجندين لسنة واحدة فكان هؤلاء في نظر اولئك فئة مدللة على حسابهم، فطبيعي والحالة هذه ان تسوء العلاقات بين الفئتين. يضاف الى هذا ان الجيش ضم جنوداً درب فريق منهم في ثلاث سنوات التدريب الكافي وجاءت تنشئة فريق آخر غير مستوفية الشروط.

ظل قانون الثلاث السنوات معمولاً به حتى ربيع ١٩٠٥ فخفضت المدة سنة واحدة والغي الاستثناء (قانون ٢١ آذار ١٩٠٥). وامن القانون الجديد المساواة في التكاليف العسكرية واضحى مدرسة الامة، وانتفى محذور اقفار الريف والمصانع والمتاجر، فزادت المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية

ما يقرب من الضعفين .

فرض قانون ١٩٠٥ الخدمة لمدة سنتين ، جاعلاً قوام الجيش الدائم ربع مليون رجل . اما الاحتياط فقد جعلت مدة خدمته سنة واحدة . وهكذا فازت نظرية الامة المسلحة كما فازت نظرية الجيش المحترف او جيش النخبة . على ان اغراق المانيا في الحشد والتسلح حمل الفرنسيين على السعي الى زيادة قوات السلم دون ان تؤدي هذه الزيادة الى المساس بالمبادىء التي يقوم عليها القانون الجديد . وبعد اخذ ورد طويلين وافق ممثلو الامة في آب ١٩١٣ على العودة الى خدمة الثلاث السنوات . اما الاستثناء فقد ظل لاغياً .

تنظيم الملاكات . ــ تعاظم دور الضباط وضباط الصف على الاخص في الجيوش الحديثة تبعاً لاتساع نطاق المعارك وتشتت القطعات في القتال . فقد صار على ضابط الصف ان يقود الحضيرة العاملة تحت امرتـــه بمعزل عن سائر قطعات الجيش .

ولم يكن النظام المتبع في المانيا ممكناً تطبيقه في فرنسا . كان ضباط الصف في الجيش البروسي يؤلفون فيلقاً محترفاً ، تخرج افراده من مدارس خاصة تعهدت تنشئتهم عسكرياً منذ نعومة اظفارهم . وكان الالتحاق بهذه المدارس وقفاً على ابناء اسر معينة ، فلم يكن معقولا والحالة هذه ان تهضم فرنسا الديموقراطية هذا النوع من الايثار .

وافق ممثلو الامة بين ١٨٧٢ و ١٨٧٨ على سلسلة قوانين ترمي الى زيادة عدد ضباط الصف : مكافأة نقدية لمن يجدد تطوعه ، مرتب مضاعف ، مرتب تقاعدي ، الترقية الى رتبة معاون الخ . . ولكن ضبـــاط الصف الذين جددوا عقودهم لم يرب عددهم على ثمانية آلاف من اصل خمسة وثلاثين الفاً . حدث هـذا في الوقت الذي كان معمولا بقانون خدمـة

السنوات الخمس . فلما طرح قانون السنوات الثلاث خشي كثير من النواب والشيوخ ان يستمر تناقص عدد ضباط الصف رغم تقصير امد الخدمة ، فاوصوا بالاكثار من المغريات . ولكن الميزات التي كفلتها قوانين ١٨٨٩ و١٨٩٣ و ١٨٩٧ للذين يجددون عقود التطوع لم تأت بالنتيجة المنشودة ، فظل ضباط الصف دون العدد المطلوب .

وفي العام ١٩٠٥ كان عددهم في جيش السلم ٢٢ الفاً من اصل ٤١ الفاً ، فجاء قانون الخدمة القصيرة الامد (سنتان) فحل المشكلة الى حد ما لان خدمة اربع سنوات متوالية ليست بالعبء الثقيل يتهرب منه مواطن تكفل له القوانين ميزات لا بأس بها .

وبعد العودة الى قانون الثلاث السنوات (١٩١٣) لم يطرأ تبدل على نسبة المتطوعين لان حمى الوطنية الهبت الصدور . وعند نشوب الحرب سنة ١٩١٤ كان لفرنسا اربعون الف صف ضابط مقابل مئة وعشرة آلاف في الجيش الالماني .

الضباط . — بعد الحرب السبعينية عملت حكومة الجمهورية على تشجيع الانتساب الى المدارس العسكرية بايثار الضباط المتخرجين منها على زملائهم الذين رقوا في الحرب مكافأة لهم على اعمال معينة . وفي العام ١٨٨٢ انشئت ثلاث مدارس جديدة في « سان ميكسان » و « سومور » و « فرساي » الى جانب « سان سير » و « بوليتكنيك » .

وفي اقل من عشر سنين تخرج من المدارس العسكرية ثلاثون الف ضابط . غير ان الاقبال على الرتب العسكرية من طريق المدارس اخذ يخف شيئاً فشيئاً لان القوانين التي صدرت في اواخر القرن التاسع عشر قيدت الترقية من رتبة الى اخرى بقيود ثقيلة ، منها ان الملازم الاول يظل في رتبته اثنتي عشرة سنة ،

والرئيس يسلخ ست عشرة سنة في السعي الى رتبة مقدم . يضاف الى هذا العامل ان معظم الذين انتسبوا الى المدارس العسكرية ليتخرجوا منها ضباطاً محترفين يخدمون وطنهم في ميادين القتال ، وينشدون المغامرة ولو بين اشداق الموت ، وجدوا انفسهم في السلم مسوقين الى اداء مهام تتبرم بها ضمائرهم كابعاد الرهابين وقمع الاضطرابات الخ . . . وزادهم زهداً في السلك قانون ١٣ آذار ١٨٧٥ المكمل بقانوني ١٩٠٣ و ١٩٠٩ ، الذي نظم ملاكات ضباط الاحتياط ، وحتم دعوة هؤلاء الى ممارسة القيادة في الحرب ، ففقد ضباط السلك بهذا ميزة التفرد بالقيادة . وفي اقل من عشرين سنة تناقص عدد المنتسبين الى « سان سير » من ٣٤٠٠ الى ٨٠٠ ، واضطرت الحكومة سنة ١٩٢٢ لترقية خمسمئة معاون (ادجودان) الى رتبة ملازم ثان لتسد النقص الناجم عن الزهد في المدارس العسكرية .

التنظيم الاقليمي والقيادة . — عنيت حكومات الجمهورية الثالثة بالتنظيم الاقليمي عنايتها بالملاكات . فقررت منذ ١٨٧٣ جعل فرنسا ثماني عشرة منطقة عسكرية في كل منها يعسكر فيلق كامل العدة ، له قيادته الخاصة ودوائره واركان حربه . وقد انشىء في مطلع القرن العشرين منطقة اضافية في الجزائر وفيلقان لتغطية الحدود في « اللورين » و « الفوج » . اما حاكميتا باريس وليون العسكريتان فقد ظلتا خارج هذا التنظيم الاقليمي .

اقر ممثلو الامة التنظيم الاقليمي في ٢٤ تموز ١٨٧٣ . وفازت في اثناء المناقشات ، النظرية القائلة بابقاء الفيلق في منطقة معينة بالذات على النظرية القائلة باجراء حركة تبادل بين الفيالق مرة كل سنتين . ولكن الدوائر العسكرية تقدمت بحل يوفق بين النظريتين ، فاقترحت توزيع الجندين الجدد على المناطق كافة ، اما جنود الاحتياط فيظلون لاصقين بالفيلق المعسكر في

المنطقة التي ينتمون اليها .

وفي العام ١٨٧٨ تخلت وزارة الحربية عن هذا النظام المختلط « لانه يبعد جنود الاحتياط عن الرؤساء الذين تولوا تنشئتهم » . (الكولونيل ريفول : تاريخ الجيش الفرنسي) .

وفازت في الندوة النظرية القائلة بوضع المنطقة العسكرية والفيلق تحت امرة قائد واحد على النظرية التي ارتأت جعل قيادة الفيلق مستقلة عن قيادة المنطقة العسكرية . واستثني من التوحيد الادارات الخاصة المنوط بها الاهتمام بحاجات الدفاع الوطني ، فكان رؤساؤها يعودون في شؤونهم الى وزارة الحربية مباشرة ، ولكنهم اخضعوا مسلكياً لرقابة قيادة الفيلق .

كان قائد الفيلق يلقب بـ « القائد العام » ولكن وظيفته كانت موقوتة ومثلها صفته . فاذا ترك القيادة جاز للرؤساء ان يعهدوا اليه بقيادة فرقة ، وهي دون الفيلق . الا ان قانون ١٨٩٥ الغى هذا الجواز وابقى لقادة الفيالق رتبهم بعد تركهم الوظيفة ليحل سواهم محلهم .

ولم تفكر حكومات الجمهورية ، قبل نشوب الحرب العالمية ١٩١٤ — ١٩١٨ ، بانشاء رتبة قائد جيش . لهذا ظلت قيادة الفيلق ارفع رتبة عسكرية في جيش السلم . ولكن رؤي منذ ١٨٨٧ ضرورة انشاء قيادة عليا تشرف على تنسيق الجهود الرامية الى اعداد العدة للحرب . وكان يعاون وزير الحربية في مهمته اركان حرب خاصة اطلق عليها اسم « اركان حرب الوزارة » فاضحت منذ العام ١٨٨٨ « هيئة اركان حرب الجيش » وجعل رئيسها مسؤولاً مباشرة تجاه الوزير . وفي بحر العام نفسه بعث مجلس الحرب الاعلى وهو المجلس الذي انشئ ١٨٧٢ ، ولكنه لم يأتِ عملاً نافعاً ، وانقطع عن العمل منذ ١٨٧٤ . فبعثه الوزير « فريسينه » سنة ١٨٨٨ وحتم على الاعضاء

عقد اجتماعات دورية برئاسة وزير الحربية ، او برئاسة نائبه الذي يعين لمدة سنة بين اعضاء المجلس ، ويكون في الوقت نفسه قائد المجموعة الرئيسية من مجموعات القوى المعبأة اي القائد الاعلى للجيوش الفرنسية .

اما سائر اعضاء المجلس ، فقد انتدب معظمهم لقيادة العمليات في حالة نشوب حرب ، ونيط بكل واحد منهم قيادة جيش بكامله . اما في السلم فتعهد اليهم وزارة الحربية بمهام تكتيكية وباخرى استراتيجية ، وبالاشراف على مناورات الخريف . وفي العام ١٨٩٩ الحق بكل قائد جيش هيئة اركان حرب خاصة .

بقي ان يقوم حد فاصل بين صلاحيات اركان حرب الجيش ، وهي الجهاز الاعدادي ، وبين المجلس الاعلى وهو جهاز القيادة . وقد حاول قانون ١٩١١ ان يحدد هذه الصلاحيات . فطغى ما كان منها عائداً الى نائب رئيس المجلس الاعلى على صلاحيات رئيس اركان حرب الجيش . وفي كانون الثاني ١٩١٢ اصبح « جوفر » نائباً لرئيس المجلس الاعلى ورئيساً لهيئة اركان الحرب العامة والغيت رئاسة اركان حرب الجيش .

وما لبث هذا التنظيم ان آتى ثماره ، لان قانون ١٩١٢ اطلق يد رئيس هيئة الاركان العامة في تطهير الملاكات ، وتعيين الضباط الاكفاء في المناصب الرئيسية دون ان يكون للوزير حق التدخل . وقد انشىء لتخريج رؤساء الاركان « معهد الدراسات العسكرية العليا » فمهر البلاد بمجموعة طيبة من القادة اللامعين ، عاونوا « جوفر » في حمل العبء ابان الحرب العظمى الاولى .

تنظيم الوسائل . — تحتاج القيادة في استخدام القوى التي وضعت تحت امرتها الى دوائر تكون صلة الوصل بينها وبين القوى المذكورة ، وهيئة اركان الحرب هي اكثر هذه الدوائر التصاقاً بالقيادة .

كان لنابوليون بونابرت دوائر اركان حرب حشد فيها ضباطاً لم ينشأوا تنشئة خاصة . وبعد عودة الملكية انشأ « غوفيون سان سير » وحدة خاصة اطلق عليها اسم « وحدة اركان الحرب » ولكنه جعل الالتحاق بها مقصوراً على فريق من الضباط دون الآخر . وابقى ضباط الاركان بعيدين عن الجيش.

ظهرت عيوب هذا التنظيم في الحروب التي خاضت فرنسا غمار معاركها خلال القرن التاسع عشر ، وكان ابرزها جهل ضباط اركان الحرب حاجات الجيش وعجزهم عن ممارسة القيادة الفعلية ، لانهم حشوا ادمغتهم بالنظريات . وفي العام ١٨٧٧ فتحت « المدرسة العسكرية العليا » ابوابها لقبول الضباط الراغبين في الالتحاق بدوائر اركان الحرب ، بقطع النظر عن الاسلحة التي ينتمون اليها . وحتم قانون ١٨٨٠ على كل ضابط من هؤلاء ممارسة القيادة مدة معينة خلال انتسابه الى المدرسة العسكرية العليا ليتمرس بهذا الفن ويتعرف الى حاجات الجيش .

بعد ان تم للقيادة تنظيم نفسها ، انصرفت الى اكمال ما بدأته اولى حكومات الجمهورية الثالثة في حقل تنظيم دوائر الارتباط ووسائط النقل . فقد اكتشفت « حكومة الدفاع الوطني » بعد هزيمة ١٨٧١ ان بقاء البرق والسكك الحديدية مصالح مدنية بحتاً لا يؤمن حاجات الدفاع في الحرب ، وشرعت منذ ١٨٧٢ تسمها بطابع عسكري دون ان تلحقها بالجيش . ونص قانون ١٨٧٥ على جعل نسبة الموظفين العسكريين في البرق والسكك الحديدية اربعين بالمئة بين مجموع الموظفين ، على ان توضع هذه المصالح في الحرب تحت اشراف السلطات العسكرية .

وبين ١٨٩٠ و ١٩١٢ انشئت في الجيش كراديس خاصة الحقت بفرق الهندسة ودربت على العمل في ورش السكك الحديدية وفي انشاء مراكز

٣ – حرب الخنادق

معارك ١٩١٥ . – قضت الخطة الاستراتيجية الحليفة ، بعد الاخفاق الذي منيت به المحاولات الفرنسية في مناطق الحدود ، بارغام العدو على القتال في الشرق دون ان يؤدي هذا التدبير الى تحميل روسيا فوق ما تستطيع . وقد كان تدخل الروس في الوقت المناسب عاملاً حاسماً في انقاذ باريس وفي ما احرزه الحلفاء من نجاح في موقعة نهر « المارن » . وعملاً بالخطة الاستراتيجية الآنفة الذكر ، انتقل الجيش الفرنسي الى الهجوم حالما شرع الالمان ينقلون فيالقهم من الغرب الى الشرق لتواجه الزحف الروسي . وقد كان الغرض من الهجوم الفرنسي تجميد اكبر عدد ممكن من الفرق المعادية لئلا يبهظ العبء كاهل الحليفة الشرقية (روسيا) .

شن الفرنسيون هجماتهم الاولى في اواخر ١٩١٤ واوائل ١٩١٥ . وكان مسرح العمليات الرئيسي سهول « شامبانيا » وحوض نهر « الاين » . ولكن ضعف الوسائل الهجومية جعل تضحيات الفرنسيين عقيمة . وفي شباط وآذار لجأ الفريقان المتحاربان الى الخنادق وحلت الهجمات الموضعية محل الهجمات الواسعة .

وفي ٢٢ نيسان ١٩١٥ استعمل الالمان الغازات السامة للمرة الاولى على جبهة نهر « الايزر » ففوجئ الحلفاء بهذا السلاح الذي احدث نقصاً عظيماً في صفوفهم . وفي ايار استأنف الفرنسيون النشاط الهجومي في قطاع « فيمي » واشرف الجنرال « بيتان » على هذه العملية ، فتراجع العدو امام حملة الفرسان المراكشيين ولكنه استطاع سد الثغرة قبل ان يوسعها المهاجمون . وقام جيش « بيتان » في اواخر الصيف بمحاولة مماثلة في سهول « شامبانيا » واستطاع ان ينزع من العدو نقاطاً ارتكازية مهمة ولكنه لم ينجح في اختراق الجبهة الالمانية .

وقد تخلل ١٩١٥ عمليات ذات طابع استراتيجي خارج اوروبا الغربية ، منها عملية بحرية ضد المضايق التركية ونزول حملة فرنسية بريطانية على الساحل الغربي لشبه جزيرة « غاليبولي » . وكان الغرض من هذه الحملة تخفيف الضغط عن الروس باجتذاب بضع فرق المانية الى البلقان . ووضع دخول بلغاريا الحرب الجيش الصربي بين نارين ، وجعل اليونان في مركز دقيق . وكانت الحملة الحليفة قد جلت عن « غاليبولي » فوجهت الى اليونان ، حيث اتخذت من « سالونيك » معسكراً حصيناً وقاعدة للعمليات في شبه الجزيرة البلقانية .

التكتيك والاعتدة . — ادرك « جوفر » على ضوء مواقع ١٩١٥ اسباب اخفاق محاولاته الهجومية . ادرك ان اختراق الجبهة المعادية لا يمكن ان يكون نتيجة هجوم مرتجل ، فالمشاة لا يستطيعون احتلال ارض لم تضربها المدفعية بغية القضاء على اسلحة العدو وعلى الحواجز التي اقامها لعرقلة زحف المهاجمين.

وادرك القائد الفرنسي في الوقت نفسه ان الموجات الهجومية المتعاقبة لا تأتي بنتيجة اذا كان المدافع مالكاً رباطة جأشه وهو قابع في خندق او معتصم في حصن . اما اذا مهد لهذا النوع من الهجوم بما يكفل اشاعة الفوضى والذعر في صفوف العدو ، كالضرب المدفعي الكثيف ، فان مهمة المشاة تسهل نسبياً .

ولم يغفل « جوفر » الناحية المادية فكرر مناشداته بالاكثار من المدافع والقنابل والرمانات (Grenades) والمدافع الرشاشة . وقد تجمع لديه في اول كانون الثاني ١٩١٦ ثلاثة آلاف ومئتا مدفع تراوح عياراتها بين ٩٠ و ٢٧٠، وارتفع عدد المدافع الرشاشة من خمسة آلاف الى احد عشر الفاً .

معارك ١٩١٦ . — قرر الحلفاء سنة ١٩١٦ شن هجمات واسعة النطاق على مجمل الجبهة ، على ان يكون الغرض منها افساد استعدادات العدو وارغامه على استخدام الاحتياط . وقد تخلل الاشهر الاولى من السنة المذكورة معارك ضارية

وطويلة الامد اهمها معركة « فردون » التي اجمع النقاد العسكريون الالمان على انها كانت نقطة التحول في الحرب.

في ٢١ شباط تحرك المشاة الالمان من خنادقهم شمال « فردون » يدعمهم الف مدفع . وبعد ثلاثة ايام من الصراع العنيف شق العـــدو طريقه مهدداً المراكز الفرنسية الحيوية . فبادر « جوفر » الى اتخاذ التدابير القمينة بانقاذ الموقف وعهد الى القائدين « بيتـان » و « كاستلنو » بمهمة الدفـاع عن « فردون » ووقف العدو على الضفة اليمنى لنهر « الموز » .

وقد استمرت معركة « فردون » بضعة اشهر استنفد خلالها ما كان للجيش الفرنسي من احتياط في الرجال والعتاد ، وكلفت في الوقت نفسه الجيش الالماني خسائر باهظة . ويقول الكولونيل « ريفول » في صدد «فردون» ان وطنية الفرنسيين تجلت باروع مظاهرها خلال المعركة . فقد ساهم في احباط المحاولات الالمانية جنود خط النار وحـاميات القـلاع وسرايا النقـل وفرق الهندسة . كما ساهم في المهمة نفسها ، العمال الذين تطوعوا لبناء الحصون الاضافية وترميم الحصون المتهدمة وحفر الخنادق .

استطاع العدو ان ينتقل الى ضفة « الموز » اليسرى ولكن محاولاته ضد حصن « مورهوم » اصطدمت بمقاومة عنيدة واستطـاعت حاميته الثبـات حتى شهر ايار . وسقط حصن « فو » في السابع من حزيران . وقبـل انصرام الشهر المذكور سقط حصنا « دومون » و « فلوري » ولكن الالمان صـــدوا امام حصن « سوفيـل » ، حيث بـذلوا آخر مجهود هجومي كبير . ثم اضطرهم نفاد الاحتياط للوقوف . وفي هذه الاثناء حل الجنرال « نيفل » محل « بيتان » في « فردون » وقررت القيادة العامة اعتماد خطة هجومية في قطاع نهر « السوم » على ان تلزم قوات « نيفل » موقف الدفاع الهجومي

على نهر « الموز » بانتظار الظروف المؤاتية للهجوم .

بدأ هجوم « السوم » في اوائل تموز وساهمت فيه القوات البريطانية وتولى « فوش » الاشراف على سير العمليات وتنظيم التعاون بين الفرنسيين والبريطانيين . وكان شديد الحرص على ازالة العقبات والحواجز القائمة في طريق المشاة قبل قيام هؤلاء بمحاولاتهم الاختراقية . وقد تولت المدفعية العمليات التمهيدية يعاونها الطيران كعنصر استطلاعي ثمين . ونجح الهجوم نجاحاً نسبياً ولكن التخريبات التي سببها القصف المدفعي حالت دون توغل المشاة توغلاً عميقاً في الجهاز المعادي ، لان الاخاديد التي حفرتها القذائف عاقت عمليات النقل وحركات المدفعية الثقيلة ذات العجلات ، وجاءت رداءة الاحوال الجوية في الخريف تزيد في مصاعب النقل والتموين .

وافادت جبهة « فردون » من هجوم « السوم » لان الضغط الحليف هنا ارغم العدو على استخدام فرقه الاحتياطية في مواجهة الخطر الجديد وكانت هذه الفرق معدة في الاصل للحلول محل العناصر المتعبة في جبهة « فردون » . وفي ٢٤ تشرين الاول انتقل الفرنسيون الى الهجوم واستردوا حصن « دومون » وبعد اسبوع طردوا العدو من حصن « فو » . ولم تنصرم سنة ١٩١٦ حتى كان الالمان قد خسروا معركة « فردون » نهائياً . وقد شجعت هذه النتيجة المارشال « جوفر » على اعداد العدة لهجوم عام يبدأ في اوائل ١٩١٧ ولكن السياسة قضت بابعاده عن القيادة الفعلية وبتعيين الجنرال « نيفل » قائداً عاماً لجيوش القطاعات الشمالية الشرقية . اما « جوفر » فقد سمي قائداً عاماً للجيوش الفرنسية ومستشاراً فنياً لوزارة الحربية ورئيساً لمجلس الدفاع ، فلم تخدعه هذه الالقاب وما لبث ان انسحب .

قرر « نيفل » شن هجوم عام دون ان يعنى باعداد العدة اللازمة له .

فقد خيل اليه، وهو يرى الى انهيار الجهاز الالماني في « فردون »، ان الوقت حان لتسديد الضربة القاصمة الى العدو . بدأ الهجوم في الاسبوع الاول من نيسان بداية حسنة واستطاع البريطانيون احتلال نقاط استراتيجية هامة . وفي الاسبوع التالي تقدم الفرنسيون بعمق سبعة كيلومترات واخذوا ستة عشر الف اسير ومئة وعشرين مدفعاً . الا ان المجهود الحليف قصر عن بلوغ الاهداف التي حددتها القيادة لان الجهاز الالماني كان عميقاً ومرناً بحيث لا يؤدي اختراقه في نقطة الى انهياره وزوال قيمته كخط دفاعي .

ومن العوامل التي سببت اخفاق هجوم « نيفل » اغفال القائد شأن الطقس في مرحلة من الحرب اضحى فيها الطيران العنصر الرئيسي في الاستطلاع . فقد بدأ الهجوم في احوال جوية رديئة حالت دون قيام الطائرات بمهمتها فكانت المدفعية تقذف بقنابلها دون ما تمييز ، فذهب معظم مجهودها هباء .

وفي الخامس عشر من ايار ١٩١٧ حل « بيتان » محل « نيفل » وسمي « فوش » رئيساً لاركان الحرب العامة . فاعتمد اولهما خطة الهجمات ذات الاهداف المحددة على ان تمهد لها المدفعية وتدعمها الى النهاية . ووضع نصب عينيه الاقتصاد بالقوى ريثما يتم حشد الوسائل التي تتيح للحلفاء شن هجوم حاسم .

وكانت تنتظر « بيتان » مهمة جد دقيقة ، وهي القضاء على الفوضى والتمرد اللذين شاعا في بعض القطعات على اثر اخفاق هجوم « نيفل » . وقد لجأ القائد الجديد بادىء ذي بدء الى التدابير الزاجرة ، ثم اجتهد في تحري اسباب التذمر وعمل على ازالتها .

واهتم « بيتان » بالدبابات ، هذا السلاح الجديد الذي اعطى نتائج مشجعة

في موقعة « السوم » ، فطلب من وزارة الحربية الاكثار من استصناع الدبابات الخفيفة وايده « فوش » في هـذا . وعنيت الحكومة بتحريض من القيادة بالاكثار من المدافع البعيدة المدى ومن قذائفها التي ارتفع عدد المصنوع منها في اليوم من ١٤ الفاً الى ٢٥٠ الفاً . ويقول الكولونيل « ريفول » في « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الفرقة كانت مجهزة عند نشوب الحرب بتسع بطاريات عيار ٧٥ ، فعززت بعد معركة « فردون » بثلاث بطاريات عيار ١٥٥ . وانشىء في العام ١٩١٧ احتياط المدفعية وكان مؤلفاً من اثني عشر كردوسا من المدفعية الثقيلة تسير على الخطوط الحديدية او تجرها المركبات ومن ٢١ كردوساً عادياً تجرها المركبات و ٣٠ كردوساً تجرها الجياد و ١٥ كردوساً من مدفعية الخنادق وثماني عشرة بطارية بحرية و ٣٧ كردوساً من المدفعية عيار ٧٥.

وقد اتاح توفر المدفعية للقيادة ان تتوسع في استعمالها . فحشدت في « الفلاندر » ٢٤٠ قطعة ميدان و ٣٧٣ مدفعاً ثقيلاً على جبهة لا تزيد على اربعة كيلومترات . وفي موقعة « ماليزون » حشدت على جبهة عرضها عشرة كيلومترات ٦٢٤ مدفع ميدان و ٩٨٦ مدفعاً ثقيلاً . واهتمت السلطات في الوقت نفسه بتحسين طرق الاطلاق مستعينة بالفن الطوبوغرافي وبالطيران كعنصر استطلاعي ممتاز .

وطرأ تحسن ملموس على سلاح المشاة خلال ١٩١٧ . كان الكردوس مجهزاً بستة مدافع رشاشة عند نشوب الحرب ، فاصبح لديه منها الضعفان في العام ١٩١٦ واربعة اضعاف في العام الذي تلاه . وظهرت في الوقت نفسه البندقية الرشاشة . وهي سلاح خفيف يمكن الجندي نقله كما ينقل البندقية وتطلق في الدقيقة ٨٠ ـ ١٠٠ طلقة . وقد احدث ظهور هذا السلاح انقلاباً في السرية التي جهزت بثماني بنادق رشاشة . واتاحت قوة النيران (عشرة

اضعاف البندقية العادية) تخفيض عدد جنود السرية الواحدة من ٢٥٠ رجلاً الى ١٧٥ .

وظهر في اواخر ١٩١٧ المدفع عيار ٣٧ فكمل به سلاح الفوج واستخدم في اخراس الرشاشات المموهة .

وذكر الكاتب الفرنسي « هنري بيدو » في مذكراته عن الحرب العظمى ان الفوج في الجيش الفرنسي كان سنة ١٩١٤ يضم الف مقاتل مجهزين بالبنادق ذات الحراب وبالرمانات اليدوية . وكان الفوج يتألف من اربع سرايا . وفي اواخر ١٩١٧ ضم الفوج ٧٠٠ رجل يؤلفون سرية رشاشات وثلاث سرايا من الرماة بالبندقية . اما الكردوس فقد الحق به وحدات من سلاح الاشارات وجهز بمدفعية خفيفة .

وجاءت الدبابة تدعم عمل المدفعية . ويقول الجنرال « ويغان » ان الجيش الفرنسي مدين باختراع هذا السلاح العظيم للجنرال « ايتيان » الذي عرض على « جوفر » اول تصاميمه في اواخر ١٩١٥ . فاعجب المارشال بالاختراع واوعز الى مصانع « شنيدر » و « سان شاتون » بصنع ثمانئة دبابة . وقبل ان يتم صنعها انزل الانكليز اولى دباباتهم الى الساحة في معركة « السوم » فاحرزت نجاحاً لا بأس به . وعند نشوب معركة « الاين » سنة ١٩١٧ ظهرت الدبابات الفرنسية وكان عددها ١٦٠ ، فابلت بلاء حسناً ، ولكن الجنرال « ايتيان » لاحظ انها بطيئة وغير مرنة وسريعة العطب ، فوضع تصميم الدبابة الخفيفة من طراز « رينو » التي مثلت في معارك ١٩١٨ دوراً رئيسياً .

الطيران . — كان دور الطيران سنة ١٩١٤ مقصوراً على عمليات الاستطلاع وارشاد المدفعية الى الاهداف . وكان كل فيلق مجهزاً بسرب

من الطائرات وبمنطاد واحد . وفي العام ١٩١٥ ظهر اول فوج من القاذفات وساهم في العمليات الهجومية مكملاً عمل المدفعية . ثم ظهرت طائرات الطراد فنيط بها حماية القاذفات الحليفة ومقاتلة الطائرات المعادية .

وما انتصف العام ١٩١٥ حتى كان سلاح الطيران في الجيش الفرنسي يضم ١٤٤٦ طائرة ، وشجع نجاحه في مواكبة المشاة ودعم نشاط المدفعية وفي الاغارة على الاهداف المعادية في المؤخرة ، شجع القيادة على انشاء قيادة جوية نيط بها الاشراف على انتاج هذا السلاح . وقد بدأت فرنسا معارك ١٩١٨ بـ ٢٧٥٠ طائرة منها ١٤٠٠ للاستطلاع ، و ٤٢٠ قاذفة ، و ٩٣٠ مقاتلة .

وعنيت السلطات العسكرية الفرنسية بوحدات الهندسة ووحدات النقل ، معتبرة بالمصاعب التي واجهت المدافعين عن « فردون » . وقد اتاحت هذه التحسينات للفرنسيين وحلفائهم ان يواجهوا حوادث ١٩١٨ بقلوب عامرة بالايمان بالرغم من انهيار الجيش الروسي ومن اخفاق معظم الخطط الحليفة في النمسا والبلقان . وجاء دخول اميركا الحرب ، يعوض خسارة الحليفة الشرقية ، وامن تسلم كلمنصو زمام فرنسا الاستقرار الحكومي المنشود .

٣ - معركة فرنسا

في آذار ١٩١٨ كان للالمان في فرنسا مئة واثنتان وتسعون فرقة بما فيها فرق الاحتياط وطبقة ١٩١٩ . وكان للحلفاء تسع وتسعون فرقة فرنسية وست وخمسون بريطانية واثنتا عشرة فرقة بلجيكية وفرقتان بورتغاليتان وست فرق اميركية قيد التدريب . ولم تكن فرنسا قد استخدمت احتياطها الاستراتيجي لان طبيعة العمليات خلال السنوات السابقة لم تلجئها الى التوسع في استخدام مواردها في الرجال والاعتدة .

وادركت القيادة الالمانية ان التفوق العددي الذي تملكه لذو طابع موقوت ، لان الولايات المتحدة نشطت لتعبئة الطبقات وتدريبها ولان فرنسا لم تعبىء طبقة ١٩١٩ ، فقررت الافادة من هذا التفوق بشن هجوم بين نهري « اسكارب » و « الموز » الغرض منه اختراق الجبهة الحليفة بدق اسفين بين البريطانيين والفرنسيين ، ثم احتلال موانىء « المانش » وارغام الحلفاء على قبول الصلح الذي تفرضه برلين .

ولم تفت الحلفاء نيات الالمان فقرروا تلقي الدفعة المعادية ثم شن هجوم تعقبه عمليات اختراقية واسعة النطاق .

قيادة فوش . — في ٢١ آذار ١٩١٨ اندفعت ستون فرقة المانية نحو مراكز الجيشين الانكليزيين الثالث والخامس ، فصمد اولهما وانكفأ الآخر كاشفاً الميسرة الفرنسية . وكاد العدو ينجح في دق اسفين كبير بين الجيشين المتحالفين لو لم يتدخل « فوش » في الوقت المناسب ويتخذ سلسلة تدابير جريئة ادت الى قلب الموقف رأساً على عقب .

القيت مقاليد الجيوش المتحالفة الى « فوش » مساء السادس والعشرين من آذار . وكان الموقف جد دقيق ، يتطلب بداهة جريئة واعصاباً فولاذية . فوضع القائد العام نصب عينيه منع العدو من الفصل بين الانكليز والفرنسيين على ان يرافق الصمود كرات عنيفة ريثما يحين الوقت المناسب للانتقال الى الهجوم .

استطاع الفرنسيون والانكليز وقف الدفعة الالمانية بين نهري « السوم » و « الواز » . ولئن يكن الهجوم المعادي قد قصر عن بلوغ هدفه الاساسي فقد احرز نتائج استراتيجية لا بأس بها ، اذ بلغت طلائعه نقاطاً لا تبعد عن « اميان » سوى اربعة عشر كيلومتراً وعن « ابفيل » خمسين كيلومتراً ،

وكانت هاتان المدينتان عقدتي الاتصال بين الجيشين المتحالفين .

وفي التاسع من نيسان قام الالمان بمحاولة جديدة باتجاه موانىء ساحل « الفلاندر » واستطاعوا فتح فجوة في الصفوف البورتغالية والبريطانية . فسارع الاحتياط الفرنسي الى سد الفجوة وانفق في هذا السبيل مجهوداً جباراً وكابد خسائر باهظة ، ولكن النقص الذي سببته معارك الفلاندر خلال شهر نيسان في صفوف الفرنسيين وحلفائهم ، سدته الولايات المتحدة الاميركية ، فوصل الى فرنسا نصف مليون جندي اميركي خلال شهري نوار وحزيران .

وفي اواخر ايار شن الالمان هجوماً كبيراً باتجاه نهر « المارن » فاحتلوا مدينة « ريمس » واندفعوا غرباً شطر باريس فبلغوا ضفة المارن الشرقية بين « دورمان » و « شاتوتييري » وقطعوا الخط الحديدي المؤدي الى « نانسي » فباتت باريس على سبعين كيلومتراً من طلائعهم . ولكن « فوش » ظل سيد اعصابه امام هذه المفاجأة فاوعز الى قوات القائدين « فايول » و « مانجان » المرابطة امام العاصمة بان تشن على العدو هجوماً مضاداً فافلح الهجوم في وقف الدفعة الالمانية الخطرة .

انتهى الى « فوش » في اوائل تموز ان القيادة الالمانية تنوي مهاجمة المراكز الفرنسية بين « شاتوتييري » و « الارغون » . فقرر ان تلزم قواته موقفاً دفاعياً في هذا القطاع ، على ان تنتقل الى الهجوم المضاد ضد الناتىء الالماني غرب الجبهة . وقضت الخطة الدفاعية بنقل القوات الرئيسية الى اماكن لا تطالها نيران العدو ، اما الخط الامامي فتنتشر فيه عناصر الطليعة لتعمل على عرقلة الزحف الالماني . وعهد « فوش » الى الجنرال « غورو » بمهمة تنظيم الدفاع عن المراكز الرئيسية وتنسيق عمل المدفعية التي دعيت لتمثيل الدور الرئيسي في احباط المحاولة المعادية . اما الهجوم المضاد فقد عهد

به الى اربع وعشرين فرقة بقيادة الجنرال « مانجان » يعاونه الجنرال « ديغوث » .

بدأ الهجوم الالماني صباح ١٥ تموز ١٩١٨ واستطاعت طلائع «لودندورف» ان تعبر « المارن » ، ولكنها اخفقت في التوغل ما وراء الضفة الغربية لان مدفعية « غورو » انبرت لها من مكامنها وفتحت عليها نيراناً كثيفة . فعدل القائد الالماني عن تهديد باريس من هذه الجهة وانتقل الى « الفلاندر » لينظم هجوماً جديداً . فسبقته الى العمل فرق « مانجان » و « ديغوث » وفتحت في الصفوف المعادية فجوة عرضها خمسون كيلومتراً بعمق عشرة كيلومترات وغنمت الوف الاسرى وعتاداً وافراً .

فقد « لودندورف » زمام المبادرة في معركة « الفلاندر » وعجز مذ ذاك عن استردادها ، لان « فوش » عرف ان يحتفظ بها لنفسه وان يستمر في موقفه الهجومي الى النهاية بالرغم من العقبات الطبيعية والمصطنعة التي قامت في طريق جيوشه . ذلك لان الوسائل التي وضعتها فرنسا وسائر الامم المتحالفة في متناول القائد العام شجعته على المضي في خطته غير هياب ، فهو يملك من الدبابات والمدافع والطائرات اضعاف ما يملكه « لودندورف » ووضعت الولايات المتحدة تحت امرته سبعاً وعشرين فرقة تواقة الى القتال . اما العدو فقد استنفد احتياطه ونال التعب من جنوده .

وهكذا استطاعت الجيوش المتحالفة بين ١٨ تموز والسابع من تشرين الثاني ان تتخطى الحواجز القائمة في طريقها وان تزج بالجيوش الالمانية في مأزق لا تحسد عليه ، وترغمها في النهاية على القاء السلاح .

وقد اجمع النقاد العسكريون على رد النصر الذي احرزه الحلفاء بعد اربع سنوات من النضال العنيف الى العوامل التالية :

١ – يقظة القائد «جوفر» بعد ان قام الالمان بعمليتهم الاختراقية الناجحة على الحدود ونجاحه في ابقاء اللحمة تشد الصفوف الفرنسية والحليفة بعضها الى البعض الآخر فاحبط بهذا خطة القيادة الالمانية الرامية الى شطر الحلفاء شطرين .

٢ – تنبه الحلفاء في الوقت المناسب الى اهمية توسيع نطاق العمليات لارغام العدو على توزيع قواه ، فكانت حملة البلقان وانضمام ايطاليا الى الحلف الثلاثي . وقد سبق هذا اسراع روسيا بتعبئة قواتها ومهاجمة بروسيا الشرقية بما الجأ العدو الى تخفيف الضغط عن الغرب لمواجهة الخطر المطل من الشرق .

٣ – تنبه الحلفاء الى اهمية التفوق في الرجال والعتاد . وقد تفادوا الاشتباك والعدو في معارك حاسمة عندما كان التفوق له ، فما ان تجمع لديهم العدد الكافي من الفرق والاسلحة الآلية الجديدة حتى تركوا التحفظ والحذر جانباً .

٤ – مثلت شخصية « فوش » دوراً رئيسياً في الهجوم الحاسم . كان هذا القائد من القائلين بالدفاع مرافقاً بالكرات الموضعية عندما تكون كفة العدو راجحة على ان يعتمد الحلفاء خطة الهجوم المضاد حيث ترجح كفتهم ، وقد قال بالهجوم والهجوم الى النهاية حالما توفر لديه العدد الكافي من الدبابات والطائرات والمدافع .

وقد صرح المارشال « لودندورف » بعد الهدنة بان الحرب لم يربحها المارشال « فوش » انما ربحتها الدبابة لان الالمان فوجئوا بهذا السلاح الذي يدرج على سلاسل متحدياً الاسلاك الشائكة والمدفعية .

الفصل الثاني عشر

العود الى السلم المسلح

١ – دروس الحرب العظمى

ادرك الفرنسيون على ضوء معارك السنوات الاربع اهمية العتاد الحربي ولاسيما الاسلحة الآلية كالطائرة والدبابة، ولم تفتهم اهمية الاحتياط الاستراتيجي كعنصر اساسي في نزاع طويل الامد كثير التكاليف. وكان ابرز النتائج التي اسفر عنها تطور الاسلحة وتعاظم شأنها انخفاض نسبة المحاربين خمسة وعشرين بالمئة لان انتاج الدبابات والمدافع والطائرات اقتضى التوسع في تعبئة الايدي العاملة وارباب الاختصاص. وقد اخذ معظم هؤلاء من الجبهة حيث اتاحت كثافة النيران للقيادة ان تخفض عدد الجنود في كل سرية تخفيضاً محسوساً.

وتعلم الفرنسيون، على حسابهم، ان الدفاع عن بلادهم يجب ان يبدأ على الحدود لان توغل المجتاح يحرم فرنسا من مناطق غنية بالزراعة والصناعة. وهذا ما املى على المسؤولين بعد هدنة ١٩١٨ مشروعات دفاعية الغرض منها تأمين غطاء متين يتألف من جهاز متماسك وتعتصم فيه قوات مختارة.

قانون التعبئة لسنة ١٩٢٣. – خرجت فرنسا من الحرب منهوكة القوى مثقلة بالديون. فكان طبيعياً ان يعنى المسؤولون بتخفيف الاعباء العسكرية

والمالية ، يشجعهم زوال الخطر الالماني ووجود قوات فرنسية في رينانيا كرمز لانهيار العسكرية البروسية .

وقبل ان تصدر عن بعض الدول المنتصرة الدعوة الى نزع السلاح ، اعلنت حكومة باريس في العام ١٩٢٣ انها قررت خفض الانتاج الحربي الى الحد الادنى . وعرضت على البرلمان قانون الخدمة العسكرية لمدة ثمانية عشر شهراً وقانوناً آخر يجعل مدة الخدمة الشخصية ثمانية وعشرين عاماً منها عام ونصف عام في الاحتياط الاول وثمانية اعوام في الاحتياط الثاني . واعتبر القانون الجنود في الاستيداع رجالاً تابعين للجيش العامل وقد انفكوا عنه موقتاً ليقضوا اجازاتهم بين ذويهم واجازوا لوزير الحربية ان يدعو منهم من يرى لزوماً لدعوته .

وبموجب قانون تعبئة ١٩٢٣ جعل قوام الجيش ٦٧٥ الف رجل منهم ٤٣٣ الفاً من الفرنسيين و ١٢ الفاً من الاجانب و ١١٣ الفاً من ابناء شمال افريقيا و ١١٥ الفاً من المستعمرات . وقد وزعت هذه القوات على النحو الآتي : ٦٥ الفاً في رينانيا و ٢٩٣ الفاً في فرنسا و ٢٤ الفاً في الجزائر وتونس و ١٨ الفاً في مراكش و ١٧ الفاً في بلدان الشرق و ١٤ الفاً في المستعمرات .

قانون ١٩٢٧ . ـ تناول قانون ١٩٢٣ بالتعديل نظام التعبئة دون سواه ، فجاء قانون ١٩٢٧ فنظم الجيش تنظيماً عاماً ، جاعلاً اياه ثلاثة اقسام : القوات المرابطة في فرنسا وهي نواة الجيش العامل ، وقوات ما وراء البحار وهي مكلفة حماية الممتلكات الفرنسية البعيدة ، والقوات المتحركة وقد اعدت للتدخل في الخارج اذا ما حدث ما يستدعي تدخلها .

وفي العام ١٩٢٨ وضع قانون خاص بملاك ضباط الصف المسلكيين ،

فاتاح لصف الضابط العادي ان يبلغ مستوى زميله المسلكي ويتمتع بامتيازاته وذلك اذا اثبت كفاءته وجدارته خلال خدمة تراوح بين اربع سنوات وست. وخفض القانون مدة الخدمة فجعلها سنة واحدة. وكان القانون السابق يخضع للخدمة من بلغوا العشرين من سنيهم فجعل القانون الجديد سن الخدمة الواحدة والعشرين والغى الاستثناءات الغاء تاماً.

وحدد القانون عدد الفرق بالجيش المرابط في فرنسا بعشرين فرقة مشاة وخمس فرق خيالة وثلاث فرق جوية. وجعل عدد الفرق في القوات المتحركة اربعاً يضاف اليها حضائر قوامها جنود فرنسيون وصينيون. واهتم القانون برفع مستوى ضباط الاحتياط، فاخضعهم لتنشئة وتدريب خاصين.

غطاء الحدود. — جالت فكرة تحصين الحدود الفرنسية المقابلة للحدود الالمانية في رؤوس الفرنسيين والنزاع بعد في عامه الاول. وما ان وضعت الحرب اوزارها حتى انبرى الخبراء لدرس هذه الفكرة وتقدم فريق منهم بمقترحات وتصاميم الى وزارة الحربية فاحالتها الى اللجان المختصة. ولكن مجلس الدفاع الاعلى لم يعرها ما تستحقه من التفات.

وفي العام ١٩٢٨ استطاع الجنرال ماجينو وزير الحربية انتزاع موافقة البرلمان على انشاء جهاز دفاعي متماسك يقي فرنسا شر المفاجآت. وفي خمس سنوات تم انشاء الخط الذي حمل اسم الوزير الذي تبنى فكرة بنائه وكلف الخزينة الفرنسية اموالا طائلة.

وقد نص مشروع الجنرال ماجينو على تغطية الحدود من سويسرا حتى البحر، ولكن الذين تعاقبوا في وزارة الحربية وفي مجلس الدفاع بعد سنة ١٩٢٨ ارتأوا الاكتفاء بتغطية المناطق الفرنسية المحاذية للحدود الالمانية مباشرة وتركوا المناطق الواقعة على محاذاة الحدود البلجيكية مكشوفة اعتماداً منهم

على خط « قناة البير » في البلجيك وعلى طبيعة الارض في منطقة « سيدان » .

سباق . — ولم يكتف الفرنسيون بتحصين حدودهم ، فقد عنوا منذ العام ١٩٣٢ بانشاء فيلق مصفح ، واخذت وزارة الطيران تعنى بتنمية السلاح الجوي . وقام بين الضباط الشبان امثال « شارل ديغول » و « لارك » من يدعو الى انشاء جيش محترف يدرب تدريباً خاصاً على الحرب الميكانيكية ويكون مجهزاً بوسائل آلية تجعله قادراً على مصاولة العدو في ميدان حرب الحركات . ولكن القادة الذين كانت لهم الكلمة النافذة في الجيش ووزارة الحربية سفهوا هذه الفكرة وقالوا ان الجيش المحترف يحمل الامة الفرنسية عبئاً باهظاً ، وقد كفاها ما تحملته في الحرب وفي انشاء خط ماجينو الحصين .

وبعد وصول الهر هتلر وحزبه الوطني الاشتراكي الى الحكم في المانيا تجدد في فرنسا الجدال حول الاسلحة الميكانيكية والجيش المحترف لان المانيا الجديدة وجهت الى الدبابات والطائرات عناية خاصة بعد نقضها معاهدة « فرساي » . وكانت حجة المطالبين بالاكثار من الدبابات والطائرات وبتحسين نوعها ان خط ماجينو لا يكون عنصر طمأنينة بحد ذاته ما لم تدعمه قوات متحركة . ولكن المسؤولين في هيئة اركان الحرب رفضوا اعطاء الاسلحة الميكانيكية « اهمية لا تستحقها » واستشهدوا بآراء للمارشالين « بيتان » و « فرانشه ديسبره » للتدليل على ضؤولة الدور الذي يمكن الطائرة والدبابة ان تمثلاه في حرب عالمية ثانية تكون فيها فرنسا في حرز حريز بفضل خط « ماجينو » .

وظل هذا الوهم مسيطراً على العقول بالرغم من كون خط « ماجينو » غير كامل ، وما اظهرته الاختبارات ابان الحرب الاهلية الاسبانية . على ان

اغراق المانيا في التسلح وتفننها في صنع الطائرات والدبابات والمدافع حملا الفرنسيين على ايلاء الاسلحة الميكانيكية بعض العناية . ولكن انتاج الطائرات والدبابات ظل بطيئاً لاسباب عدة ، اهمها جنوح العمال الى الاضراب الفينة بعد الفينة تحقيقاً لمطالبهم ، وتردد البرلمان الفرنسي في الموافقة على اعتمادات الدفاع الوطني « لئلا تثير ضخامتها مخاوف الجيران » .

وفاجأت الحوادث فرنسا وهي غير مستعدة لمواجهتها . فمن احتلال الالمان رينانيا ونقضهم احكام معاهدة « فرساي » الى قضائهم على استقلال النمسا وتدخلهم علناً في الحرب الاسبانية . وقد تجلت قوتهم العسكرية الآخذة بالنمو في هذه الحوادث جميعاً . وحاولت فرنسا ان تجاريهم في هذا المضمار قبل فوات الاوان . ولكن ارتباك ماليتها وتعاقب الاضرابات في المصانع ، وانقسام سياسييها شيعاً واحزاباً متضاربة النزعات والاهواء ، وتفسخ الجيش الفرنسي الذي تسللت السياسة اليه من طريق قادته انفسهم ، هذه العوامل كلها اتاحت لالمانيا ان تحتفظ بقصب السبق ، وشجعتها في العام ١٩٣٨ على فرض مشيئتها في « مونيخ » .

وفي « مونيخ » ولت فرنسا حليفتها روسيا ظهرها ، فارتكبت بعملها هذا غلطة استراتيجية استغلها الالمـــان استغلالاً بارعاً ، فعملوا بعد احتلالهم تشكوسلوفاكيا على التقرب من الاتحاد السوفياتي ، ليتسنى لهم ان يضربوا ضربتهم في الغرب وهم مطمئنون الى نيات جارتهم الشرقية . وهذا ما حاول غليوم الثاني تحقيقه سنة ١٩١٤ ، ولكن التوفيق لم يحالفه .

٢ - كارثة ١٩٤٠

كانت كارثة ١٩٤٠ نتيجة طبيعية للعوامل التي اسلفنا ذكرها . فقد خاضت فرنسا غمرات حرب لم تكن مستعدة لها . وشجعها اعتمادها المبالغ

فيه على غطاء الحدود، على القيام باخطر مغامرة في تاريخها، دون ان تكون واثقة من مقدرة حلفائها على مساعدتها .

وقد ذهب الخبراء العسكريون مذاهب شتى في الحكم على مسلك الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية . فمنهم من اعطى عنه صورة تظهره بمظهر الجيش المتفسخ المفكك الاوصال، وزعم انه رفض القتال لان الدعاية ادخلت في روعه انه مسوق الى الحرب للدفاع عن مصالح الرأسماليين . ومنهم من اطرى بطولة الجيش واندفاعه وحمّل القادة والرؤساء تبعة الهزيمة لانهم ما احسنوا اعداد البلاد للحرب ولا عرفوا ان يتجنبوا النزاع .

معارك الـ ٤٥ يوماً . — نشبت الحرب العالمية الثانية في اول ايلول ١٩٣٩ فحشدت فرنسا قواتها على الحدود في غضون النصف الثاني من الشهر المذكور، وارسلت بريطانيا حملة الى القارة بقيادة الجنرال « غورت » فاحتلت مراكزها عند ميسرة الفرنسيين .

تواجه الجيشان الفرنسيّ والالماني طيلة سبعة اشهر لم يتخللها سوى مناوشات بسيطة . وكان الاول يحتل مواقعه على طول الحدود الشمالية من البحر حتى الحدود السويسرية ، وكان الجناح الايمن ، من « لونغيون » حتى « بال » ، يعتمد على خط التحصينات المعروف عند العامة بخط « ماجينو » .

وفي العاشر من ايار سنة ١٩٤٠ كانت القوات الفرنسية المنتشرة على طول الحدود تتألف من ثلاثة جيوش : من البحر حتى « لونغفي » كان يرابط الجيش الاول بقيادة الجنرال « بيوت » ، ومن « لونغفي » على طول ضفاف الرين حتى منطقة « سيلستا » كان يرابط الجيش الثاني بقيادة الجنرال « بريتيلا » ، وابتداء من منطقة « سيلستا » حتى حدود سويسرا كان يرابط الجيش الثالث بقيادة الجنرال « بيسون » .

كان الجنرال جيرو يقود الجيش السابع المتفرع من الجيش الاول الكبير . وكان يؤلف الجناح الاقصى للجيش المذكور ويرابط على طول الساحل ، استعداداً للاندفاع نحو البلجيك اذا ما قررت القيادة العامة ذلك .

والى يمين الجيش السابع كان يرابط الجيش البريطاني بقيادة الجنرال « غورت » ملتفاً حول المدن التالية : « ليل » ، « روبه » ، « تور كوان » . وكان هذا الجيش يتألف من ثماني فرق . والى يمين الجيش البريطاني كان يرابط جيش الجنرال « بلانشار » المؤلف من ثلاث فرق افريقية ممتازة وفرقتين ميكانيكيتين خفيفتين وفرقة مشاة من الاحتياط الاول . وكان هذا الجيش يعتمد على منطقة « اوبوج » التي تشطر وادي نهر « سامبر » شطرين .

وبين نهري « سامبر » و « الموز » احتل الجيش التاسع بقيادة الجنرال « كوراب» منبسط « روكروا » وانتشر على ضفة نهر « الموز » حتى جنوب « ميزيير » . وكان هذا الجيش يتألف من فرقتي خيالة وكتيبة من الصباحين انتشرت شرق نهر « الموز » .

ووراء الجيش التاسع وجيش الجنرال «بلانشار » ، احتشدت القوات الاحتياطية التي احتفظت بها اركان الحرب العامة اذا ما دعت الحاجة للتدخل في البلجيك . وكانت هذه القوات تتألف من ثلاث فرق سيارة وفرقتين عاملتين تدعمها جميعاً ثلاث فرق مصفحة .

وكان الجيش الثاني بقيادة الجنرال « هونتزيجر » يؤلف الجناح الايمن من الجيش الاول الكبير ، وكالجيوش التي تقدم ذكرها ظل هو ايضاً خارج خط التحصينات ولكن جناحه الايمن كان يستند الى حصون « لونغيون » . وكان مركز الجيش الثاني يتيح له ان يؤلف نقطة الارتكاز اذا ما قررت اركان الحرب الاندفاع نحو البلجيك .

وكانت الكتلة الثانية بقيادة الجنرال «بريتيلا» تتألف من ثلاثة جيوش فرعية هي التالية :

١ ـ الجيش الثالث بقيادة الجنرال «لونده» تمتد خطوطه من «لونغيون» حتى «سارلوي» ، والى يساره امام «اللوكسمبورغ» فرقة من الخيالة اعدت للاندفاع نحو الامارة الصغيرة اذا ما حاول الالمان مهاجمتها . ووراء الخيالة كانت ترابط فرقة مشاة وست فرق من الاحتياط الاول .

٢ ـ الجيش الرابع بقيادة الجنرال «ريكان» وكانت خطوطه تمتد من «سارلوي» .

كانت طليعة هذا الجيش مؤلفة من فرقتين من الجيش العامل تعززهما فرقتان احتياطيتان ، اما خطوطه فكانت تمتد من تجاه «سارلوي» حتى مرتفعات «سارغمين» اي انه كان يرابط في خط «ماجينو» .

٣ ـ الجيش الخامس بقيادة الجنرال «بوريت» . كان هذا الجيش يغطي الزاوية الشمالية الشرقية من فرنسا ، اي انه كان ضمن خط «ماجينو» ايضاً كالجيش الرابع . لذلك لم يكن معززاً بقوى مصفحة كبرى ولا بفرق الخيالة . وكان يتألف ، عدا الفرق التي كانت داخل الحصون ، من فرقتين عاملتين تعززها فرقتان احتياطيتان على حدود تلال «بالاتينا» ومن فرقة احتياطية مرابطة امام غابة «هيغنو» . ووراء هذه القوى جميعا كان يمتد خط دفاعي آخر حشدت فيه ثلاث فرق احتياطية .

اما الكتلة الثالثة بقيادة الجنرال «بيسون» ، فكانت مؤلفة كما يلي : الجيش الثامن بقيادة الجنرال «غارشيري» ، وكان يؤلف الجناح الايمن الاقصى للجيش الفرنسي كله ، وكان عليه ان يحول دون تسلل الالمان من ثغرة «بلفور» . لذلك امتدت خطوطه من شمال «سيلستا» حتى «مونبيليه» ،

وكان يعززه فرقة من الصباحيين ترابط عن يمينه .

وكان الجيش الثامن يتألف من قوى مرابطة في الحصون ، ومن ثلاث فرق عاملة ، واربع فرق من الاحتياط الثاني .

وكان يرابط وراء جيوش « الالزاس » و « اللورين » جيشان احتياطيان كبيران ، احدهما اعد للاندفاع نحو « سويسرا » اذا ما هاجمها العدو ، ويتألف من ثلاث فرق احتياطية ، والآخر مؤلف من ثلاث فرق عاملة احتفظ بها الجنرال « غاملان » لجبهة « الااب » التي كانت جيوشها بقيادة الجنرال « اورلي » .

خطة القيادة . — في العاشر من ايار ، بينما كان الالمان يجتاحون «هولندا» و« بلجيكا » و « اللوكسمبورغ » كانت جيوش شمال فرنسا ، من البحر حتى نهر « الموز » ، تندفع الى الامام بالشكل التالي :

عهد الى الجيش السابع المرابط على طول الساحل ، بان يتقدم حتى غرب « انفرس » في « بلجيكا » . وقد تقدم هذا الجيش واحتل المراكز التي عينت له ، اي انه اصبح على حدود « هولندا » التي تغلف مصب نهر « الايسكو » . وكان على الجيش السابع — في حال امتداد التدخل الفرنسي في « هولندا » — ان يحتل ضفة النهر .

ولم تعهد القيادة الفرنسية الى الجيش البريطاني بمهمة معينة ، لانه كان خاضعاً لامرة الجنرال « غاملان » بالاسم فقط ، لذلك تولى الجنرال « غورت » وضع خطة العمل لجيشه ، فقرر ان يحمي الجيش البريطاني رقبة جسر « غاند » حيث يلتقي نهرا « الايسكو » و « ليس » على ان يشد في الوقت نفسه ازر حامية « انفرس » .

اما البلجيكيون فقد طلبوا ان يترك لهم الدفاع عن « لوفان » . وهذا

التحديد يعني ان خط « لوفان » – « فافر » كان الحد الاقصى المفروض لزحف الجيش البريطاني .

وكان على الجيش الاول ان يحتشد في جبهة تمتد من « فافر » وتنتهي بعد « نامور » ، ويحول دون تسلل العدو من ثغرة « غمبلو » . اما الجيش التاسع فقد صدر اليه الامر بالتمركز على نهر « الموز » من « نامور » حتى « جيفه » .

وعهد الى فرق الخيالة بان تنفصل عن الجيشين الاول والتاسع وتندفع نحو الخطوط البلجيكية على الحدود حيث يكون الجيش البلجيكي منصرفاً الى عرقلة تقدم العدو ومنعه من اجتياح الحدود بسرعة .

وفي الوقت نفسه يطلق الجيش الثاني خيالته الى الامام في منطقة « الاردين » البلجيكية حتى منطقة « ارلون باستوني » على ان تكون بلدة « سان هوبير » نقطة الاتصال بين الجيشين الثاني والتاسع .

وهكذا يتبين لنا ان جيوش الحلفاء لم تدخل بلجيكا للقيام بعمل هجومي ، بل كانت خطة القيادة ترمي الى تمركز الجيوش في جبهة دفاعية تمتد من « انفرس » الى « لوفان » الى « فافر » الى « نامور » ، والى لم شعث الجيش البلجيكي في حال تراجعه .

قوى الطرفين . – في العاشر من ايار كان الجيش الفرنسي يتألف من مئة وخمسين فرقة مشاة (الفرقة ١٥ – ٢٠ الفاً) يتألف من مجموعها خمسة وثلاثون فيلقاً .

وكانت القيادة العامة قد حشدت اربعة اخماس هذا الجيش في الجبهة الشمالية الشرقية على حدود المانيا وبلجيكا . ففي هذه الجبهة حشدت القيادة ٩١ فرقة وضعت تحت امرة الجنرال « جورج » الذي كان رئيساً

لاركان الحرب ومعاوناً للقائد العام الجنرال غاملان .

اما استبقاء سائر الفرق خارج الجبهة الشمالية الشرقية فقد كان الغرض منه استخدامها في الجبهة الجنوبية الشرقية اذا ما تدخل الايطاليون في النزاع لمصلحة الالمان .

وفضلاً عن الفرق الفرنسية الواحدة والتسعين التي كانت محتشدة في الجبهة الشمالية الشرقية ، كان هناك ايضاً عشر فرق بريطانية وفرقة بولونية واحدة ، اي انه كان تحت امرة الجنرال « جورج » مئة فرقة وفرقتان ، منها ثلاث عشرة فرقة اعدت للدفاع داخل خط « ماجينو » في « موبوج » و « الاردين » وفرق الخيالة المختلفة .

وعلى هذا لم يكن جيش الميدان الفرنسي يتألف من اكثر من سبع وستين فرقة مشاة منها ٣١ فرقة من الجيش العامل ، وعشرون فرقة من الاحتياط الاول ، وست عشرة فرقة من الاحتياط الثاني .

وكان لدى الفرنسيين فرق خيالة تضاف اليها خمس كتائب خيالة منها ثلاث كتائب صباحية .

اما الوحدات الميكانيكية الكبرى فكانت تتألف من ثلاث فرق خفيفة وثلاث مصفحة ، وامتازت هذه الاخيرة بالمتانة والقوة ، وقد قسمت الى كتيبتين من الدبابات احداهما ثقيلة ومعروفة باسم الدبابة « ب » والاخرى خفيفة من طراز « هوكيس » ، يضاف اليها شرذمة من القناصة الذين يحاربون ممتطين سيارات مصفحة ، وفرقة مشاة ، وفرقة مدفعية ضد الدبابات ، وعناصر هندسية مختلفة .

وقد تبين بعد الملحمة الكبرى ان كل فرقة مصفحة فرنسية كانت معززة بـ ١٥ دبابة ، والالمانية بخمسمئة . وتبين ايضاً ان الدبابات التي وضعت تحت

تصرف الفرق العاملة كانت حديثة الطراز . اما الدبابات التي وضعت تحت تصرف الجيوش الاحتياطية فقد كان معظمها قديم العهد يعود نصفه الى الحرب الماضية والنصف الآخر الى السنوات الاولى التي عقبت الهدنة .

ويجدر الاعتراف بان الالمان احسنوا استعمال دباباتهم الكثيرة لانهم تمرنوا على استعمالها مدة غير قصيرة . اما الفرنسيون فقد اخرج معظم دباباتهم الحديثة من المصانع في نيسان ، ولم يتسن للجنود والضباط ان يتمرنوا على استعمالها التمرين الكافي .

وكان من الطبيعي تجاه هذه الحالة ان يتفوق سلاح الدبابات الالماني تفوقاً ساحقاً ، فقد كان للفرنسيين دبابة مقابل عشر دبابات يملكها اعداؤهم .

اكتشفت القيادة الالمانية خطة عسكرية جديدة بفضل الدبابات ، وكان لهذه الخطة اثر كبير في توجيه مجرى الحرب . فالمبادىء العسكرية كانت تقول انه لا يجوز للجيش المهاجم ان يغامر بنفسه فيدفع جناحيه الى امام ليتوغلا في خطوط العدو اذ يتعرض الجناحان لخطر الهجوم من جهتين .

على هذا الاساس كانت تجري الهجمات الحربية منذ عدة قرون ، فلا تدفع القيادة بالجناحين الا اذا كان الصدر قوياً يتحرك ايضاً مع الجناحين . بيد ان القيادة الالمانية اكتشفت قبل الحرب ان الخطر الذي يتعرض له الجناحان اذا توغلا في خطوط العدو ليس اكبر من الخطر الذي تتعرض له خطوط العدو نفسها بسبب ذلك التوغل .

لهذا قررت القيادة الالمانية استعمال خطة دفع الجناحين الى الامام بدلا من كبح تقدمهما . وبدلا من ان يكون للجيش جناحان فقط يتوغلان في خطوط العدو ، جعلت له عشرات الاجنحة او الخطوط ، على ان يجري التوغل في كل مكان ممكن .

ثم ناطت القيادة تطبيق هذه الخطة بالدبابات، فعهدت الى اسراب منها بمهمة التوغل بدلا من المشاة . وفعلاً رأينا الدبابات الالمانية في معارك الجبهة الغربية تهاجم خطوط العدو في كل مكان، فاذا استطاعت ان تخترقها وتتوغل فيها ، تتابع تقدمها دون الاهتمام بالمؤخرة او بالخطر الذي يهددها من الجانبين ، فلا تمر بضع ساعات على توغلها حتى تبلغ مؤخرة العدو وتنشر فيها الفوضى . ويمكن القارىء ان يتصور الاثر الذي احدثته هذه الخطة ، عندما يدرك ان مئات « الاجنحة » كانت تتوغل في الصفوف المجابهة فتخترقها وتعيث فساداً في المؤخرة ، فتحول دون تأمين الاتصال بين المؤخرة والمقدمة ، ثم تهاجم العدو من الخلف بينما يهاجمه المشاة من الامام والطيران من فوق ، فيقع بين ثلاث نيران .

اما الخطة العامة التي اعتمدتها القيادة الالمانية في اجتياح الاراضي الفرنسية فهي صورة طبق الاصل عن خطة « فون شليفن » المعدلة . وقد اعطت المصفحات والطائرات المعركة طابعاً متحركاً منذ اللحظة الاولى وسهلت للعناصر الاختراقية مهمتها الى حد كبير . وهي مهمة نيطت في الحرب العظمى الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) بالمدفعية الضخمة . اما حرب الحركات فقد تولاها في ذلك العهد فرق الخيالة . وفي الحرب العظمى الثانية اسند الالمان هذا الدور الى الدبابات تدعمها الطائرات ، لان اختبارات المعارك الاخيرة في الحرب العظمى السابقة علمتهم ان الدبابة هي سلاح الهجوم الرئيسي . وهو ما اكتشفه الفرنسيون قبل سواهم ولكنهم اغفلوا العناية بهذا السلاح العظيم اتكالاً منهم على خط ماجينو من جهة وعلى مبدإ السلامة الاجماعية من جهة اخرى ، هذا المبدأ الذي اخلصوا هم له حتى « مونيخ » بينما كان سواهم يعمل سراً على نسف المواثيق التي تستند اليه ، اي الى المبدإ ، لان بعضها

لا يتفق ومصالحه في القارة .

قلنا ان الدبابات والطائرات التي واجه بها الفرنسيون الهجوم الالماني في العاشر من ايار والايام التالية ، كانت اضعف من ان تقوى على صد العدو ، فقد كان للالمان التفوق الساحق نوعاً وكمية وتكتيكاً . والغريب ان الفرق الفرنسية التي عهدت اليها القيادة العامة في ١١ و ١٢ ايار بان توقف دفعة العدو الخطرة كانت مجهزة بمئة وثمانين دبابة ، وبستين مدفعاً مضاداً . مع ان الطيران الاستطلاعي اخطر المقر العام بان العدو يهاجم في ذلك القطاع بثمانمئة دبابة تدعمها الف طائرة . وقد جربت القيادة ، امام عجزها عن مجاراة الالمان في استخدام الدبابات بكثرة ، جربت وقف الزحف المعادي بحملات تشنها الخيالة ، فكان نصيب التجربة الاخفاق التام .

ومقابل الوف الطائرات الالمانية التي اخذت الفضاء منذ اللحظة الاولى للهجوم لم يستطع الحلفاء ان يطلقوا اكثر من الف وتسعمئة طائرة . فلا عجب والحالة هذه ان رأينا الجيش الالماني يصفي حساب الجيش المتحالف في بضعة اسابيع ، بعد تسلله من ثغرة سيدان ولفه حول خط ماجينو ، هذا الخط الذي لم يفد فرنسا شيئاً لانه ظل ناقصاً . ولم يكن عبور الالمان انهر « الموز » و « السوم » و « الأين » وتفكيكهم عرى الجبهة المتحالفة في « الفلاندر » نتيجة اخطاء ارتكبتها القيادة . انما كانا نتيجة طبيعية لتفوق الوسائل الالمانية ذلك التفوق العظيم . نعم اخذ بعض النقاد على الجنرال « غاملان » اخراجه الفرق الفرنسية من مراكزها الحصينة على الحدود ليدفع بها الى داخل البلجيك وهولندا ، ولكن عمل « غاملان » لا يشكل الغلطة الاستراتيجية التي يترتب عليها انهيار جبهة وهزيمة جيش . فقد خسرت فرنسا ، في تاريخها ، اكثر من معركة حدود ، ولكنها كانت دائماً تكبح

جماح العدو على ارضها . فهزيمة ١٩٤٠ ليست هزيمة عسكرية بالمعنى الصحيح لان الجيش الفرنسي ظل سليماً حتى اللحظة الاخيرة ، وقد كانت له مواقف بطولية على « السوم » شهد بها الالمان انفسهم واعترفوا بان افتقار خصومهم الى العتاد الحديث عجل بالكارثة .

لقد كان لفرنسا في الحرب العالمية الثانية جيشها ، وكان لهذا الجيش قادته ، اما اسباب الهزيمة فيجوز ان نتحراها على ضوء معركة الـ ٤٥ يوماً دون ان نتسرع بالحكم على الجيش الفرنسي كمؤسسة وطنية لها تاريخها المجيد . فاسباب الهزيمة الظاهرة هي عجز الجيش عن الصمود في وجه اعظم آلة حربية في تاريخ الحروب الحديث . اما الاسباب الحقيقية فكامنة في عوامل ذات صلة وثيقة بنظام الحكم الفرنسي ، وبالانظمة العسكرية التي لم يدخل عليها ، بعد هدنة ١٩١٨ ، سوى تعديلات سطحية . وهي عوامل لم يلق عليها بعد نور كاف كي يجوز للمؤرخ ان يقف عندها ويتبسط بشرحها .

٣ – جيش فرنسا المحاربة

غُلبت فرنسا ، كدولة عسكرية ، على امرها . الا ان روحها كأمة حية لم تغلب . وكما حدث بعد كارثة ١٨٧٠ هب قادة وزعماء يستنهضون الهمم ويدعون الى مواصلة الكفاح في الوطن الام وفي الامبراطورية « لان فرنسا خسرت معركة ولكنها لم تخسر الحرب » على حد قول الجنرال شارل ده غول . ولئن يكن الزعماء الفرنسيون قد انقسموا احراراً لم يسلموا بالهزيمة النهائية ، وتعاونيين خرجوا من معركة الـ ٤٥ يوماً مقتنعين بان بلادهم خسرت الحرب ، فقد ظل الشعب الفرنسي في صميم المعركة ، لان الهدنة التي كرست هزيمة فرنسا لم تقنعه بان الحرب انتهت بالنسبة اليه . فابى الا مواصلة الكفاح في السر والعلانية . وما ان ارتفع صوت الجنرال

ده غول بالدعوة الى حمل السلاح في الوطن الام والامبراطورية حتى لبى مواطنوه النداء . وتألفت في افريقيا الاستوائية نواة جيش فرنسا الحرة بقيادة ضباط يشاطرون زعيم هذه الحركة التحريرية رأيه في الحرب الميكانيكية ، وقد لمع من هؤلاء القادة الشباب : « لوكلير » و « كونيغ » و « دولارمينا » في مواقع الصحارى الافريقية ومعارك تونس . وفي الوقت نفسه كانت عناصر المقاومة في الوطن الام تتجمع وتقاوم الاحتلال وسياسة التعاون بوسائلها المحدودة .

نما جيش فرنسا المحاربة تبعاً لنمو الحركة التحريرية ، وحرص الجنرال ده غول منذ اللحظة الاولى على تجهيز قواته بالدبابات والطائرات لانه اول من اكتشف اهمية هذين السلاحين ودعا الى تعزيزهما منذ ١٩٣٣ . وبعد نزول الحلفاء في شمال افريقيا سنة ١٩٤٢ خف القائد الفرنسي اليها من لندن حيث عني بتنظيم الجيش الفرنسي والجيش الافريقي على اسس جديدة وامن الاتصال بين الجزائر ومراكز المقاومة الداخلية في فرنسا ، وراح يغذي هذه المقاومة وينشطها . فلما دقت ساعة الخلاص ، ونزل الحلفاء في مقاطعة نورمندي الفرنسية في حزيران ١٩٤٤ ، وجدوا في قوات المقاومة هذه عضداً قوياً ومساعداً ثميناً .

وبعد تحرير فرنسا دغم « ده غول » قوات المقاومة في الجيش النظامي وسمح لها بان تحتفظ بشاراتها وراياتها وضباطها حتى نهاية الحرب في اوروبا وريثما تضع الجمهورية الرابعة اسس التنظيم العسكري الجديد .

هذه لمحة وجيزة عن جيش فرنسا المحاربة ، هذا الجيش الذي غسل عار الهزيمة وانقذ شرف فرنسا فاستعادت مكانتها كدولة عظمى واستأنفت السير قدماً في طريق المجد .

الفصل الرابع عشر

جيش المستعمرات

في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ – ١٩١٨ وضعت المستعمرات والمحميات الفرنسية تحت امرة القيادة العامة نحواً من سبعمئة الف مقاتل ، وقد مثلت هذه الممتلكات دورها في الحركة التحريرية التي تزعمها الجنرال ده غول .

ولم تكن مساهمة الممتلكات في المجهود الحربي الفرنسي نتيجة تدبير مرتجل انما كانت ثمرة تنظيم موفق يرقى الى مطلع القرن العشرين.

في السابع من تموز ١٩١٠ انشأت الحكومة الفرنسية جيشاً جديداً سمته « جيش المستعمرات » والحقته بوزارة الحربية ، الا انها وضعت له نظاماً خاصاً وجعلت ميزانيته مستقلة عن موازنة الدولة . وقد جعل قوام هذا الجيش ستة وعشرين كردوساً (آلاي) منها تسعة عشر كردوس مشاة وسبعة كراديس مدفعية . وضم قوات فرنسية واخرى عبئت في الممتلكات باستثناء افريقيا الشمالية .

١ – القوات السنغالية

تضم القوات السنغالية مقاتلين عبئوا في افريقيا الغربية وافريقيا الاستوائية ، وتضم الاولى خمس مستعمرات هي « السنغال » و « نيجريا » و « غينيا » و « الشاطىء العاجي » و « داهومي » . والسنغال هي اقدم مستعمرة فرنسية هبطها التجار

الفرنسيون في القرن الرابع عشر . وقد انشىء اول فوج من الرماة السنغاليين في العام ١٨٥٧ . ولكن استعمار البلاد لم يكن سهلاً فقد كلف الفرنسيين عناء كبيراً ولم يطمئنوا الى متانة الوضع الجديد الا قبل نشوب الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات ، وبعد ان اخضعوا افريقيا الغربية كلها لحكومة مركزها دكار عاصمة « السنغال » .

افريقيا الاستوائية . – وضعت افريقيا الاستوائية تحت سلطة حاكم عام في العام ١٩٠٨ وهي تضم « غابون » و « الكونغو الاوسط » و « اوبانغي شاري » و « تشاد » . وبعد الحرب وضعت بلاد « كامرون » تحت الانتداب .

وكان نواة الامبراطورية الفرنسية في هذه البقاع قسم من منطقة مصب نهر « غابون » استولى عليه الفرنسيون سنة ١٨٣٩ واتخذوا منه قاعدة لتوسعهم مستخدمين بادىء ذي بدء القوات « السنغالية » ، ثم الفوا سنة ١٨٨٣ حملة خاصة عززتها كتائب من ابناء البلدان التي اخضعت قبل سواها .

اهمية القوات السوداء . – كان جيش المستعمرات عند نشوب الحرب العالمية الاولى يضم سبعة وثلاثين فوجاً ، وعشر بطاريات ، وثلاث سرايا خيالة ، وكتيبتي هندسة . وفي العام ١٩١٧ ارتفع عدد الافواج السوداء الى واحد واربعين ، وفي العام التالي الى تسعين .

وفي الحرب العالمية الثانية كان عدد الفرق السوداء في فرنسا وافريقيا الشمالية اثنتي عشرة .

٢ – قوات الهند الصينية

استولى الفرنسيون على الهند الصينية في عهد الامبراطورية الثانية وساهم في احتلالها قوات جزائرية . وقد بدأ التوسع الفرنسي في تلك البلاد

الاسيوية سنة ١٨٥٨ باحتلال اراضي « كوشنشين » و « كامبودج » . وبعد عشر سنين على الاحتلال انشئت الميليشيا المحلية والحقت بجيش المستعمرات .

وبسطت فرنسا حمايتها على « انام » و « تونكان » سنة ١٨٨٥ بعد نضال طويل شاق .

وفي الحرب العالمية الاولى وضعت الهند الصينية ٤٣ الف مقاتل تحت امرة القيادة الفرنسية العامة ، واستخدم من ابنائها في اعمال المؤخرة خمسون الف رجل ، فكان هؤلاء واولئك مثال الاخلاص والامانة . وهذا ما اهاب بوزارة الحربية الفرنسية خلال السنوات التي سبقت النزاع العالمي الثاني ان تشجع حركة التطوع في تلك البلاد ، حتى اذا دعت الحاجة الى اعلان التعبئة العامة توفر لديها قطعات مدربة ، تمرست على اساليب الحرب الحديثة .

٣ – قوات المستعمرات الصغيرة

مدغشقر . – اهتم الفرنسيون بمدغشقر في عهد الكردينال « ريشيليو » الذي انشأ في جنوب الجزيرة قاعدة صغيرة « فوردوفين » . وفي الثلث الاول من القرن التاسع عشر ارسلت حملة فرنسية الى الجزيرة لان ملكتها باعت مواطناً فرنسياً في سوق النخاسة ، فاحتلت مدينة « تاماتاف » . وفي عهد لويس فيليب احتل الفرنسيون جزر « مايوت » و « نوسي – به » ، وسيطروا على ساحل مدغشقر الغربي . ولكن ملكة الجزيرة نفخت في بوق الثورة بتحريض من الاوروبيين الذين ساءهم تمركز الفرنسيين في تلك البقاع ، فقمعت حملة الاميرال « ميوت » الثورة واعلنت الجزيرة محمية فرنسية . الا ان الاحوال لم تستقر الا في مطلع القرن الحالي .

تطوع في الحرب العالمية الماضية اربعون الفاً من ابناء مدغشقر في جيش المستعمرات . فكانوا محاربين اشداء ولمع معظمهم في معارك « فردون » و « السوم » و « المارن » . وفي الحرب العالمية الثانية بلغ عدد المجندين من « المالغاش » (الاسم الذي يعرف به ابناء مدغشقر) ستين الفاً وقد ساهموا في الحركة التحريرية التي تزعمها الجنرال شارل ده غول .

مجندو الممتلكات الصغيرة . ـ جندت الممتلكات الفرنسية في المحيط الهادي، خلال الحرب العالمية الاولى فوجاً من الرماة ينتمي معظمهم الى قبائل « كاناك » . وجند الصومال الفرنسي (افريقيا الشرقية) فوجاً ساهم في معارك « فردون » و « الاين » و « ماليزون » . وقدمت جزر « الرينيون » و « غوادلوب » و « المارتينيك » ستين الف مقاتل ، سقط منهم في ساحات القتال اكثر من الثلث .

قوات افريقيا الشمالية . ـ تقدم معنا في سياق الكلام عن الحملة الفرنسية في الجزائر ، ان قادة هذه الحملة فتحوا باب التطوع لقبول ابناء البلاد وانشأوا وحدات من « الزواف » .

وبعد ان ثبت الفرنسيون اقدامهم في تونس انشأوا سنة ١٨٨٤ كردوساً من الرماة التونسيين ، فكان نواة للفيلق التونسي الذي ابلى بلاء حسناً في الحملات التأديبية التي كانت الهند الصينية ومراكش مسرحاً لها .

وفي الحرب العالمية الاولى وضعت الجزائر تحت امرة القيادة العامة ١٧٦ الف مقاتل ووضعت تونس خمسين الفاً ، وقد اشترك هؤلاء واولئك في معارك الحدود وكانت لهم مواقف رائعة .

اما مراكش فقد حالت الثورات التي نشبت فيها دون مساهمتها في مجهود افريقيا الشمالية العسكري على نطاق واسع . وقد ساهمت افواج « القوم »

في الحملات التأديبية التي بدأت سنة ١٩٠٦ وانتهت سنة ١٩١٣ تحت اشراف « ليوتي » . وما ان نشبت الحرب العالمية الاولى حتى تألف اول كردوس من الرماة المراكشيين ، وانشىء الكردوس الثاني سنة ١٩١٧ ، وفي العام التالي ظهر في الميدان اول لواء من الخيالة الصباحيين .

المراجع

المصادر العربية :

ابن خلدون	كتاب العبر	طبعة مصر
ابو الفداء	تاريخ ابي الفداء	طبعة مصر
ابن بطوطة	رحلته	
ابن جبير	رحلته	
محمد كرد علي	خطط الشام	
الياس ابو شبكة	تاريخ نابوليون	صادر ، بيروت

المصادر الفرنسية :

Pierre Dauzet GLORIA, *histoire illustrée de la guerre* 1914-1918, *Hachette, 2e éd. Paris.*

Général J. Colin LES GRANDES BATAILLES DE L'HISTOIRE, *de l'Antiquité à* 1913, *Flammarion, Paris* 1919.

Joseph Reinach FRANCIA, *histoire illustrée de la France, Hachette, Paris* 1920.

Colonel J. Revol HISTOIRE DE L'ARMEE FRANÇAISE, *Larousse, Paris* 1929.

F. Funck-Brentano L'ANCIEN REGIME, *Fayard, Paris* 1926.

Jacques Bainville	HISTOIRE DE FRANCE, (2 *V.*) *Plon, Paris* 1933.
Général J. Colin	LES TRANSFORMATIONS DE LA GUERRE. *Flammarion, Paris* 1937.
Général Weygand	HISTOIRE DE L'ARMEE FRANÇAISE. *Flammarion, Paris* 1938.
Charles de Gaulle	LA FRANCE ET SON ARMEE, *Plon, Paris* 1938.
Louis Lévy	VERITES SUR LA FRANCE. *Edition Pingouin, Londres* 1941.
Charles de Gaulle	VERS L'ARMEE DE METIER, *Les Lettres Françaises, Beyrouth* 1942.
André Maurois	MEMOIRES (2 *V.*) *Editions de la Maison de France, New-York* 1942.
Pertinax	LES FOSSOYEURS. *Editions de la Maison de France, New-York* 1943.
Pierre Cot	LE PROCES DE LA REPUBLIQUE. *Editions de la Maison de France, New-York* 1944.

فضلًا عن عشرات المقالات والمباحث المنشورة في مجلات عربية وفرنسية خلال السنوات ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ ، نذكر منها « الحرب الجديدة المصورة » و « الشرق العسكري » الصادرتين في بيروت ، و « الجيش المصري » الصادرة في القاهرة ، و **La France Libre** الصادرة في لندن .

فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع الاتحاد ، بيروت ، في ٥ نيسان ١٩٤٥ .

